

C.2

ابو النصر ع

الحضارة الاموية في دمشق

956.91

R16H

C.1

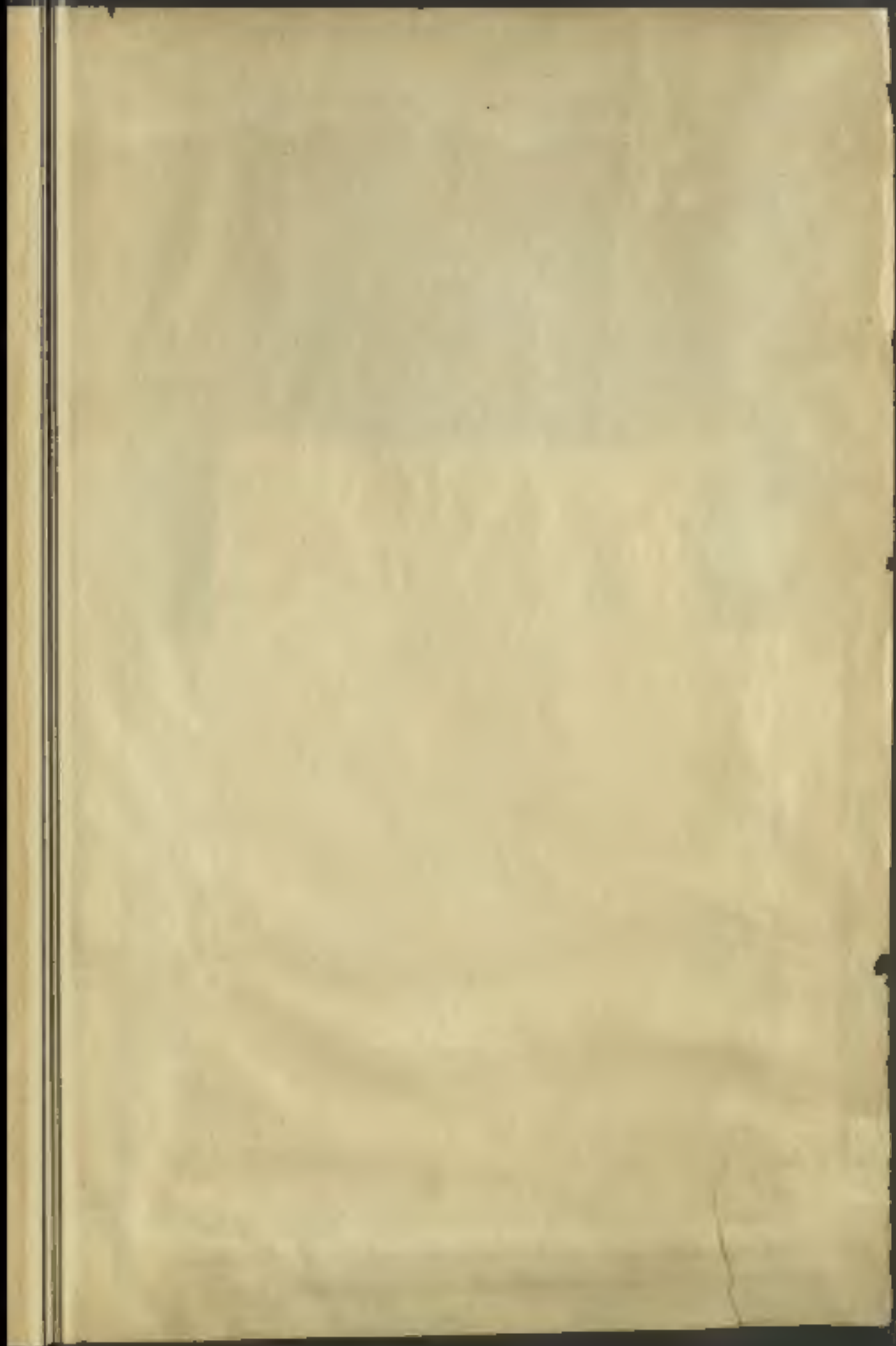
SAFET LIB
1 FEB 1965

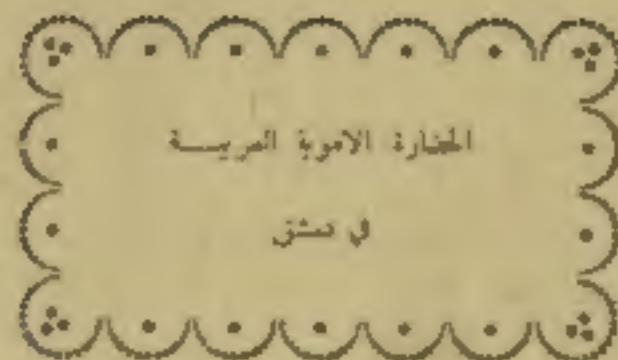
J. Lib

29 JAN 1965

24 Mar 65

1 FEB 1965





الخطابة الاموية العربية

في دمشق

١٤٠٠



حقوق الطبع محفوظة

اهداء الكتاب

الى صاحب القمامة السيد شكري الفونلي

رئيس الجمهورية السورية

يا صاحب القمامة

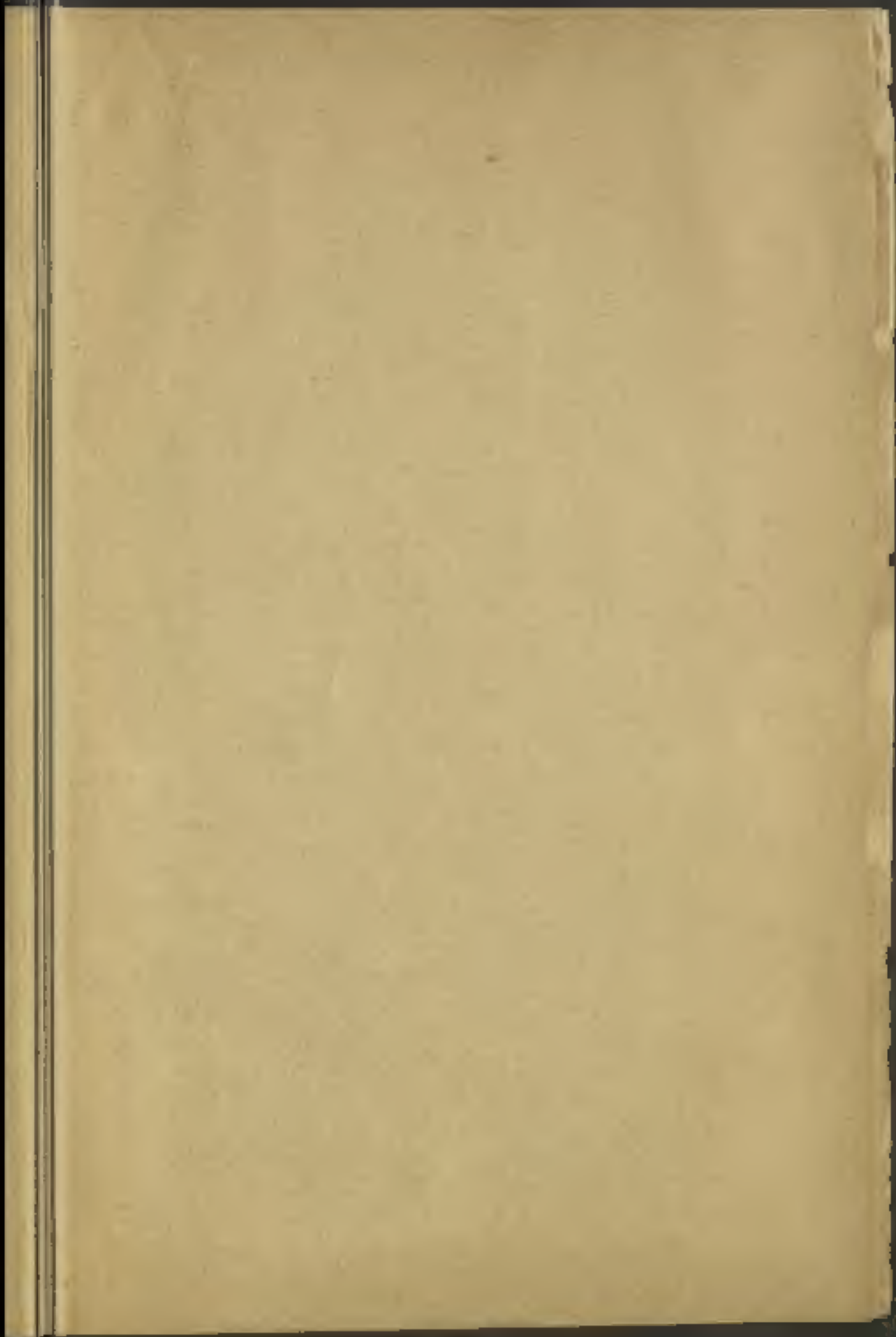
ليس احق منك ، يا صاحب القمامة في تقبل هذا الكتاب الذي يصف الحضارة في دمشق ، بلدك ومازل الغر النيامين من اهلك وفومك وعشيرتك ، وعاصمة الجمهورية السورية العربية اليوم ، وعاصمة الخلفاء معاوية والوليد وهشام لأجيال خلت ، هؤلاء الملوك الذين سبوك على عرشها ، ففتحوا الفتوح ، وحسنوا الخلود ، وبشوا برايتهم تطل على سواحل المحيط الاطلسيكي ، كما لو حراسها تحفة الاتصارات فوق فلاح الهد ، ومجاهل الصين ... وكانوا الى ذلك في عهدهم ملء السمع ملء البحر ، وكانت امهم اقوى امة في العالم ، وكانت دمشق عاصمة الارض ومن عليها ...

حتى اذا انتهت من اثر الملوك والخلفاء في الحضارة والصمران والاحسان عمدت الى آثار المقام والفقهاء والادباء والشعراء والمؤلفين والفنانين ، الذين اشاروا هذه الحضارة ، واقاموا هذه الدنيا الزاهرة بالعلوم والمعارف المبرورة في عهدهم ، والتي حاول كثير من المؤلفين التهور من تطل دمشق فيها ، والاضحاف من عمق دمشق وسورية في خلفها وزرعها والعناية بها ، فان وقتت الى اعادة هذا الحق الى اصحابه ، اكون قد وفيت دينا علي كدولف عربي لمؤلا الخلفاء والملوك والسلا والادباء والشعراء ، واكون قد فتت بالواجب نحوك كترجم عربي تنشق في روحه عميقة سورية العربية . وعميقة هذا الشباب المتميز من اهلها ، الذي يعمل جاهداً ليأخذ مكانه في صدر الوجود ...

وكل املي ان تقبل من هذا الكتاب التواضع الذي سيصبح عظيماً بالانساب اليك ، كبيراً عند رعايتك عنه وقبولك له ..

بيروت في ٢٥ / ٧ / ١٩٤٨

عمر ابو النصر



مقدمة الكتاب

لعل هذا الكتاب الأول من نوعه في العربية ، فما اعلم ان مؤلفاً مشرقى هذا البحث واجراه على النمو المثلث الذي اجرته ، ولا كتاباً عرض له على هذا الشكل الواسع الحدود الميدان ، ذلك انه ليس من السهولة بالقدر الذي يظن بعضهم ، ولا هو من الموضوعات التي يستطاع انصاعها للقواعد المألوفة في دراسة التاريخ ، تاريخ الحضارة الاموية من الموضوعات الشائكة ، ومن البحوث التي لم يطرأها مؤلف سابق ، اضف مصانيرها ونسب اوليائها ، واختلاط لغاتها وامتزاجها بعضها ببعض ، بحيث كان من السيل على المؤرخ ان يدرس الحضارة العربية جملة واحدة ، خصوصاً وان هذه الحضارة لما كانت قد انتشرت في العصر الاموي ، فقد اهتمت وانكأها في العصر العباسي ، فقص البحث والحالة هذه بحمل تاريخ الحضارة بين النفس ، ظاهر الظن ، محدود الاطراف ...

ولكني خلصت من هذا كله الى ضرورة انصاف هذه الدولة التي ضمت الفتوح ، فوسعت ما بين الشرق والغرب ، ووسعت رغبة الخلافة ، وكانت عربية خالصة ، وانصرفت من انه ما قبل في سياستها وادارتها ، فانه يصح انصافها ، والاشادة بمحسن اعمالها وآثارها ، فكان ان تفررت القضي في التأليف لمصانيرها ، كما فعلت لاعوام مبدت في التأليف تاريخ بعض رجالها ، فكان من اثر ذلك هذا الكتاب الجديد الذي يمد سيرة دمشق يوم كانت منازل الكوكب ومواطن الخلفاء ، ودورة الفلك ، واعظم عواصر العالم القديم حضارة وثقافة وادارة وسنة امصار ، وكثرة جيوش ، ويوم كانت تجمع على شواطئ انهارها الصغيرة الشجر والادب والفن ، وعادة الفكر والعلم والحرب والادارة ، ويوم كانت تمشق الدنيا ، وكانت الدنيا دمشق ...

ولست ان هذا يقع ضللاً فيما اكتب وانشر ، ولا قصد يا كتيبه قديماً وبما ساعدته من جديد جزاء ولا شكوراً ، وانما لما كتب جاشت في صدره خواطر لم ير من اظهارها بدا ، وخطرت له آراء لم يجد من اذاعتها متصرفاً ، ولزاد غايه متى هو

يسمى اليها ويميل جاهداً على انفرادها ...

ولقد يكون بين الادياء من يفتد الاخلاق عليه امره ، ويكون بينهم من يتاح له
التفقد في ذلك فلا يطره الفوز ، ولا يضمنه الاخفاق ، وانما يملك بين ذلك
سبيل وسطاً .. مثبثاً لذاته ومنته في فته وآثاره ، اكثر مما يلتصق ذلك في رأي
الناس واعجابهم به ، ونهايتهم في الشاء عليه ...

ولي مرجوي ان يجد كتاباً هذا عند جبهة القراء من شباب العرب الثمن الذي
يتخطه ، واذا استطاع ان يؤدي رسالته ، وان يثير في شبابنا حب الاصرار
والاحسان ، وان يدفعهم الى كثير من العمل وقليل من القول ، فيضون قدماً
لبناء دنيا العرب الجديدة على غرار مساهل احداثهم ، واخر آباءهم ، يوم كانت
تضاهي تحت اقداسهم مدن واغاليق ، ويوم كانوا امراء الفرائج ، وسادة الادارة ،
وملوك العمران والحضارة ، اكون قد وصلت الى الغاية التي اريدتها ، والرسالة التي
احاول تحقيقها ...

بيروت ٢٥ / ٧ / ١٩٤٨

المؤلف

العرب والحضارات الاولى

اسول الحضارة العربية

• من الحقائق التاريخية ان لغة الامة عنوان سمو مداراتها، كما انها عودج لم تمت اليه في درجات الجودة والرفي ، وبسببها على امة متأخرة في المدارك غير متقدمة في الحضارة ان يكون له لغة راقية ، ولسان بليغ ، وادب وشعر وعنون ناصجة .

حيث ان هذه الحقيقة التاريخية المستشرق كايثافي^(١) لما تناول في كتابه الضخم عن تاريخ الاسلام ، تاريخ العرب في الجاهلية ، وذا هو المصمم شعب عربي ضعيف ، ومجتمع فاسد فنى ، لا يتناسب مع اللغة الراقية التي ينعم بها ، ولا اللسان البليغ الذي ينطق به ، ولا هذه الآداب والحكم ومختلف الفنون التي تجري على لسان في شعره ، ووجد ايضاً انه ليست هناك ملازمة ولا قياس يجمعان بين ما هي عليه اللغة العربية من غنى وقدم وجدة وقوة ، وبين هذه الحالة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الضعيفة التي كان يجدها العرب عند وضع المخطوطات ونزول القرآن ، خصوصاً وان قوة اللغة هي عنوان قوة المجتمع في شتى نواحيه ، وليس هناك امة في العلم تشع بلمعة قوية غوراً وارتجافاً ، دون ان يسبق ذلك حضارة سابقة وغو عام يسعدان على غو اللغة وتقدمها .

(١) Leon Caetani, Annali dell' Islam — Milan (1906 — 8 vol.)

واذن فاللغة العربية التي صدرت عنها التعليقات ، ونزل فيها القرآن الكريم ليست من نتاج المجتمع العربي الضعيف في العصر الجاهلي وعند ظهور الاسلام ، وانما هي نتاج مجتمع عربي قوي جبار ، غني في مادته ، غني في ادبياته ، لا يقل غناء وقوة وتفكيراً وعبقريّة عن المجتمعات الراقية في القرن الثامن عشر مثلاً ، ولولا ذلك لما تمكن هذا المجتمع من اغراق هذه اللغة التي تلابس في ثوب لغة هذه المجتمعات الأوروبية في العصر الحاضر .

وكما ان امراءات مصر وقبورهم ، وبهاء مدن الرومان واليونان وما فيها من الآثار الفنية والهندسية الراقية ، يؤيدان ان مركز السامي اندي كان لهذه الامة في سابقات الأيام في مدين العلم والفنون والحضارة ، فكذلك اللغة وما فيها من ثروة ادبية وفنية وجدة ، يؤيدان ذلك على ما وصلت اليه الامة التي تسكنهم من عمران وعبقريّة وحضارة .

المدن والآثار

وما اخذ المستشرق كايه في تصدهد في عصور التاريخ العربي ، وجد من المستندات المتوفرة والخفايا العلمية الروايات واشكالاً ، ذكر تفصيلها في كتابه وهي تؤيد ان الجزيرة العربية منذ بعد عشرة آلاف سنة لم تكن صحراء مجربة ولا بلدة قاحلة وشكها كانت ذات انهار وبحيرات وغابات وبساتين ومدن وفري تجميع بالانس ، وتنعيم بطرق تجارية حسنة وحقول رائعة خصبة ، وايد هذه الخفايا المستشرق فيلي في رحلته الاخيرة الى الوبيح الحالي من جزيرة العرب ، لما عثر فيه على مدن وسواحل لبحيرات عظيمة جافة ، وآثار لطرق ممبدة مائفة ، وبقايا حيوانات بالية ، وعظام حيوانات وغيرها مما لا يعيش الا في الماء او على السواحل

وتحت ظلال اشجار باسقة وغابات وبساتين وارفة ، قد طرحتها الرمال
ودفنتها بين طياتها منذ آلاف السنين .

ومن المؤكد ان غناء اللغة العربية حين نزول القرآن وتآليف
المعلقات لا يمكن ان يولد من غير التجمع العربي في ذلك الحين ، وقد
نحسب صناعاً اذا اردنا هذه الثروة في اللغة الى تلك الثروة في المدنية التي
تؤكد لنا المستندات التاريخية والعلمية وجودها في جزيرة العرب قبل
نيف وعشرة آلاف سنة ، خصوصاً وان هذه طبقت الارض ، يؤكد من
الجهة الثانية ان الكرة الارضية قد مرت بـاربعة ادوار جديدة آخرها
انتهى دورها قبل عشرة آلاف سنة ، كما ان هذا العلم نفسه يقول : ان
الجليد كان يغطي اكثر اقسام اوروبا الشمالية والوسطى ، ومن كان
يذوب منه كان ينحدر سرباً وانحدراً نحو آب الصعري والمهلل
الخصيب ، ومنه الى جزيرة العرب ، وكان الجو في ذلك العهد شديد البرد
في كافة اوروبا ، ولكنه بارد معتدل في الجزيرة العربية ، قليل الحرارة في
مناطق خط الاستواء ، بحيث ان البحر في الجزيرة كان يساق جو جنوبي
اوروبا والبلقان في الوقت الحاضر ، وكانت الجزيرة الى هذا تبحر بالانهار
والينابيع المتدفقة وكثرة الامطار بطبيعة الحال ، وللفلكيين في هذا
تعليلات لا يحول الى سردها هنا ، واذا كان هذا حقاً فمن المفروض انه
عندما انتهى الدور الجليدي الرابع وجفت انهار وبحيرات الجزيرة العربية
صارت الامواج العربية تصعد شتلاً لا نحو اغلال الخصيب فخاصاً من
الجفاف وارتداداً للكلاء والمراعي ، فكانت تدريجياً دول اغلال الخصيب
وشمال افريقيا الحامية من آشورية وكلدانية وفينيقية وقرعونية وشرود
العصور الطويلة المحرقت لغات هذه الامواج عن لغتها الاصلية ،
فكانت لغات هذه الامواج والديارات الحديثة التي هي عربية في الاصل .

أما اللغة العربية نفسها فظلت سليمة في جنوبي الجزيرة العربية حيث كانت لغة اليمن والحجاز وسائر القبائل العربية في قلب الجزيرة وصارت تتداولها السن الثعراء والفصحاء والأدباء ونعم ضياع نروية البلاد على أثر الجفاف وزوال المدن العريقة والقرى الغنية... وإذا كان هذا رأي المؤرخين المعاصرين في الحضارة العربية القديمة، فإن كتاباً يبحث الحضارة الإسلامية حتى أواخر العهد الأموي لا يكون كاملاً إلا إذا عرض للحضارة العربية قبل الإسلام.

بلاد العرب وطبيعة الأرض

وتبلغ بلاد العرب، أو الجزيرة العربية، ربع أوروبا وثلاث الولايات المتحدة الأميركية، وهي مجموع المؤرخين موطن الأمم السامية، ومنها هاجرت الجماعات التي أنشأت الحضارات في آشور وبابل وحبشية، وفلسطين وغيرها.

وإذا كان ذلك أرض في العالم تضم سكانها حياة معينة محدودة، فهذه الأرض هي الجزيرة العربية، ولذلك رأينا أن أكثر سكان كانوا يعيشون على الجري على حياة بدوية، لأن الأرض التي تصلح للزراعة قليلة جداً، ولأن المطر الذي ينزل من السماء، أنه ينزل على أماكن معينة، بحيث يكون الكلاء مرة من مرة هناك، ويكون دائماً وابتداءً لوفاة فصحراً جداً...

الحياة في الجزيرة

أما حياة البدوي في الجزيرة، فكانت تتكيف وفقاً لهذه الحياة الصحراوية القسوة التي يجدها، مع ما يتبعها من التواضع مع القبائل

الآخري على ضروريات الحياة ، ومع ما يستدعي ذلك من عراك وعناء
للمحصول على مقومات هذه الحياة .

وكان سكان الواحات الخصبة في الجزيرة ، يهجرون على حياة تختلف
قليلاً عن الحياة التي يجيها البدوي ، لأن المروض في هذه الواحات ان
تقيم في هذه الأرض الخصبة ، وان تزرع وتزعمها ، وانكسبهم مع ذلك
كانوا يتفقون مع البدوي في طريقة عيشه وتفكيره ، وكانوا ما في ذلك
شك ولا ريب متأثرين بالحياة البدوية التي حوهم ، متأثرين الى حد بعيد
بالتفكير البدوي نفسه ، في الشعر وغير الشعر من الفنون الأدبية التي
كانت تجد ارضاً خصبة في هذه الصحراء المثلثة الجزيرة .

وفي هذه الأرض الواسعة كانت الحياة تسير سيرتها متحركة أبداً ،
مختلفة دائماً ، وانكسب تظل مطبوعة بضرب البداوة والصحراء ، ودا
هلكت قبيلة ، او هاجرت فيلة الى مكان آخر ، انت غيرها فحلت
محلها ، وراحت تجد حياتها وتعيش على غرارها .

والناربع الى ذلك يدلك على انه كانت هناك عوامل مكرية تتمحور
في هذه الجزيرة ، بينما لم يكن مثل هذه العوامل ضاراً في غيرها من
الصحاري كصحراء البربر في افريقيا وهي تدوق الصحراء العربية تحلاً
وجذباً .

وطبيعة الجزيرة العربية تختلف اختلاف بامدها وقربها من البحر
والمخاضها وارتفاعها عنه ، فحياتها ليست كسهيها واواسطها تختلف عن
اطرافها ، فليست الجزيرة تساقاً واحداً بخصب واعتدائها ، وفيها واحات
فيها نخيل واعشاب وبقر وحبيب ، وفي جنوبها (اليمن) بلاد عالية
ومنخفضة ، حارة في بعضها باردة في البعض الآخر ، وفيها المياه وان
قل الجاري منها ، نكثراً معتدلاً في مكان ، ونقل في غيره ، فيقل الحطب

في الحجاز قبلاً ، وبكثري في الطائف ، واليمن اعمر الاقاليم العربية
والذاك دعيت (بالعربية السعيدة) فقامت فيها مدينة فديفة ، وقامت فيها
دول عظيمة حصنها وإمراعها ، ولما فيه من اخلاصات بما لا يوجد في
غيرها ، كالطيب والورد ، والشكندر ، والعصب واللبن والعقيق
والخشب والمعرق من الخرج وغير ذلك .

كما ان مروغانها كانت من العظمة والمطية بقدر عظيم جداً ،
وفي جبل بلاد العرب التي تكاد لا تنقطع سلسلة من تمامها في ارض
الشم على الطائف وصنها وما وراها من الاعتدال ولطف الهواء ما
يسنحرب وجوده ، والطائف تعلو ١٦٠٠ متر عن سطح البحر ، و (الها)
وهي في اليمن ٢٢٧٥ ، وصنف ٢٣٤٢٠ وكونيات ٣٠٠١ وفي اليمن
والحجاز معادن كثيرة كالحديد والفضة والذهب ومثل هذا يقال عن
منا وحصر موت والبحرين واليهامة والاحساء ، وما ظهور البترول
مؤخراً في جزيرة العرب دليل جديد على ما نعم به هذه الارض من
خيرات وثروات ...

العرب قديماً وحديثاً

وليس ادبنا من المعلومات ما يجري بحري النفا في الصلات التي
تربط العرب الذين نسمع بهم في فجر التاريخ ، والعهد القديم ، مع عرب
اليوم ، ولكن الواقع انهم يشبهونهم وبلاسيقهم كثيراً ، والحياة التي
كان يحياها العربي في ماضيات الالام ما تفرح بحري على نفس الوجه عند
عرب اليوم وعرب الامس القريب ، واول ما نسمع عن العرب في فجر
التاريخ نزوحهم الى مـسـاحـوهم من المواضع المنخفضة ، فتقدموا نحو

الورد بنات كاسم ، والمصب شبر البلاد .

العراق ، وبغزووا الى فلسطين ، ففشلوا في بعض الحالات ، ونجحوا في بعض الحالات الاخرى ، وذلك قبل المسيح ، وفي التوراة القليل من اخبار العرب ، فقد تقدموا نحو فلسطين كما يظهر ، وتمكنوا من الاستيلاء على بعض المزارع والاراضي الحدية الواقعة على اطرافها ، ثم اريدوا عنها في عهد الفضة وعهد داور . .

ولما العرب الذين كانوا يقيمون في الجزيرة فان حيلتهم الزراعية ، ووعظهم في الاتصال بالعلم حوهم ، كما يفرضان عليهم ، والآن العرب البدو ، وعقد المعاهدات معهم لتأمين سلامة المواصلات وحماية القوافل ، وكان العرب دائماً يحفظون على هذه العهود تعقد فيها بينهم ، ويحرمون ما ابرعوا وما عقدوا .

اسم العرب

وبذهب بعض المؤرخين فيما يسمون ، الى ان اسم (العرب) نفسه يعني الصحراء ^١ واول ما وقع على هذا الاسم في التاريخ القديم في الآثار الاشورية ، واما في التوراة فيصعب التأكيد من هذا الاسم قبل عهد (ارميا) ، ويظهر من الآثار الفارسية خصوصاً في عهد الملك داريوس ان اسم (بلاد العرب) كانت يطلق على العراق وسورية وصحراء سيناء ، وتقع على اسم العرب عند اليونان في كتابات (اسيلوس) ، واما هيرودس المؤرخ اليوناني فانه يذكر العرب كشعب له قوة وخطره ، فيذكر مثلاً العرب الذين يسكنون المنطقة الواقعة بين فلسطين ومصر ، وكيف انهم يسيطرون على طرق التجارة بين القطرين ، وهو طريق كان له خطره عند الفرس وغير الفرس ، ويذكر اسم العرب في مؤلفات المؤرخين في عهده وبعد عهده ، كما يحيا ^٢ يوليوس كيه : اصل من تربع اسم الذي طنته شركة دائرة المعارف البريطانية .

وكسنوفان ، وهذا الأخير يطلق اسم العرب على صحراء العراق .
ومن هذا التاريخ - الذي يتعدى ما قبل المسيح - بدأ اسم
العرب يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجزيرة وسكانها ، واخذ يعني اللفظ
والقومية معاً .

الخصارات السامية

واكثر المؤرخين اليوم على ان الخصارات السامية ترجع في اصولها
واهايا الى الجزيرة العربية نفسها ، وانما اقامت على اكناف العرب
البدو الذين هاجروا من الجزيرة الى الموطن الخصبة في العراق
وفلسطين وسورية ، ومن المؤكد اليوم ان الفتيق اليهودية والارامية
يحملان في مفرداتها ما يدل على ان اليهود والاراميين هم من اصل
بدوي سامي ، ويمكننا ان تصور اليوم كيف احدثت الموجات العربية
على وجه التقريب ، اذا اخذنا بعين الاعتبار حالة البدو وقهرهم وجذب
الجزيرة وبخاصة ، وانتقمهم من مكان الى آخر طلباً للكلاء والماء ، حتى
اذا وصل بهم المطاف الى اطراف الجزيرة - فلسطين ، العراق ،
سورية - وابصروا فيها ان الخاري ، والزراعة الشجرة ، وما ينعم به
سكانها من حياة راحة وعيش هنيء ، اغواهم الفزع فكنسحوا الارض
امامهم ، واستولوا عليها بالقوة ، وطرردوا سكانها منها او نزلوا بالقرب
منهم ، ثم يتتابع قدوم العرب مع الزيم ، حتى يصبحوا وهم الاكثرية
الساخنة في المكان الذي نزلوه اول مرة جماعات قليلة مستضيفة .

اساميون

وفي منتصف الالف الرابعة قبل المسيح (٣٥٠٠) كان البابليون

الأكاديين كما كانوا يسمون قبلاً نسبة إلى عاصمتهم (أكاد) (Akkado) والآشوريين ، والكلدان يسمون بـ «سكوت» من بين النهرين الدجلة والفرات ، وفي سنة ٢٥٠٠ ق.م كان الآموريون والكنعانيون والفينيقيون يسكنون سوريا وسواحلها ، وفي سنة ١٥٠٠ ق.م سكن الآراميون سورية ، وتوزع اليهود فلسطين ، عند خروجهم من مصر وقد أثبتت الحفريات الأخيرة ، ودراسة اللغات الخاصة بكل من هذه الشعوب أنهم بذاتون كثيراً ، وبخاصة بعضهم ببعض لغة أفريقيا ، بحيث نستطيع القول ان السابليين ، والآشوريين ، والآموريين ، والآراميين ، والفينيقيين ، واليهود ، والعرب ، والحيت ، قبل تعرفهم واختلافهم كانوا يسكنون مكاناً واحداً كشعب واحد .

ويجمع المؤرخون اليوم على ان هذه الشعوب كلها من اصل سامي ، وبكادون يجمعون على ان مهد السامية جزيرة العرب ، وان كان هناك من يذهب الى ان مهد السامية هو افريقيا ، ومنوا نزول الساميين الى جزيرة العرب ، ويقول آخرون ان بلاد ما بين النهرين هي مهد السامية ، ولكن كثيراً من الصعوبات تعترض هذه المراجع ، والأرجح بهيئت اليوم على ان مهد السامية جزيرة العرب . في ذلك شك ولا ريب .

الموجات السامية

ولقد اشرنا قبلاً إلى الاسباب التي دعت سكان الجزيرة العربية على مهاجرتها الى غيرها ، واول هذه الموجات السامية قد اندفعت نحو

١ - تاريخ العرب - جيب جيب - الطبعة الثالثة ١٩٥٣ - لندن (وهو غير الكتاب الصغير الذي نشر باعربية في بيروت والذي كتب بالاميركيت بصورة خاصة) .

مصر كما يظهر سنة ٣٥٠٠ ق م ، حيث الحصب والماء والكلاء ، وسكنت
الطوائف السامية الجديدة مع السكان الحاليين سكان مصر الاولين ، ومن
هذا التزاوج بين الشعبين خرج الشعب المصري المعروف في التاريخ .
وفي الوقت نفسه على الأرجح خرجت موجة سامية أخرى من
الجزيرة ، ومشت الى ما بين النهرين ، حيث كان يسكن السومريون ،
ومن المؤكد ان الساميين من سكان الجزيرة العربية دخلوا ارض ما
بين النهرين وهم يجهلون كل شيء ، ولكنهم تعلموا من السومريين الكثير
، كانوا يجهلون ، تعلموا كيف يزرعون ، ويقومون المنازل ، وكيف
يكتبون ، ويعيشون عبثة القبائل انقيصة .

ومن التزاوج بين العنصرين خرج العنصر البابلي ، الذي يعود اليه
مخر الحضارات الاولى مع المصريين .

وفي منتصف الالف الثالثة قبل المسيح ، خرجت موجة سامية الى
سورية ، وهم الاموريون ، ومنهم الكنعانيون والفينيقيون ، والفينيقيون
اول من اخترع حروف الفباء في العالم .

وبين سنة ١٥٠٠ - ١٢٠٠ قبل المسيح يظهر اليهود في جنوبي
سورية (فلسطين) ، والاراميون في شمالي سورية .

وحول سنة ٥٠٠ ق م يظهر النبطيون في مباد ، وكانت عاصمتهم
(بترا) وقد بلغوا مرتبة حسنة من الحضارة والعمران .

وفي القرن السابع المسيحي اصدت جزيرة العرب موجة سامية جديدة
زعامة محمد بن عبد الله نبي العرب وزعيم الوحدة السياسية والمدنية ...
وهذه الموجة الاخيرة من الساميين كانت ابعد الموجات اثرأ واعظمها
خلفاً في تاريخ العالم .

الخصارة العربية

ذلك ان العرب الذين خرجوا برعاية محمد بن عبد الله والصاره من بعده من الصحراء ، لم يمشوا امبراطورية لا مثيل لها في تاريخ العالم فحسب ، وانما انشأوا ثقافة وحضارة وفناً لا تزال اوروبا الحديثة مدبرة لها حتى اليوم ، وذلك بحفظه من آثار الحضارات السابقة ، وما زادت في هذه الحضارات من حيلة وخطب وجدة ، ولولا الحضارة العربية لاندثرت جميع الحضارات السابقة ، ولكان العالم الحديث ، غير ما هو عليه اليوم . وكذلك لا تزال اللغة العربية لغة الملايين العديدة من البشر ، كما انها لا تزال لغة ثلاثمائة مليون مسلم بما تعرفه عليهم من فرائد القرآن بالعربية .

واذا كانت اللغة العربية ، ليست اليوم في الصف الاول من اللغات الحية ، فقد كانت في القرون الوسطى لغة الحضارة والثقافة العالية ، وبين القرن التاسع والقرن الثاني عشر ، كانت العربية اسقط لغات العالم في التأليف ، واوسع اللغات الحية انتشاراً ، هذا وضع اكثر المؤلفات التاريخية والفلسفية والرياضية والطبية والجغرافية ، وغيرها ، ومنهم توجهت الى اللغات الحية الاخرى ، وهي لا تزال حتى اليوم بعد اللاتينية تستعمل حرومها اعمالية اكثر من سواها وغيرها في لغات العالم .

والعربي السامي اتي ذلك بخلاف غيره من الشعوب الاخرى من امرع الناس الى التكيف وفنافة تحبسه ويسته الجديدين ، كما انه اسرع الناس الى تلقف المعارف والعلوم والحضارات واسمعتها على الوجه الاكمل والاحسن ، فقد اظهرت فريش القبيبة العربية اول الفلوح

العربية الإسلامية ، ثم تنعم بمعين لا ينضب من الخلفاء والقواد والامراء
واحكام ، وقد ظهر قبل الاسلام هوداني في بابل ، وانشا للناس في
عهده ، نظاماً اجتماعياً ما يزال حتى عصرة الخضر مدار اعجاب
العالم ، وكذلك ظهر موسى النبي ، ودعا في صحراء سيناء قومه الى دين
جديد ، كما ظهرت زينب في تدمر ، وهي الفاتمة الباغية ، والاميرة
الناحية ، واما فيليب العربي فقد اصبح امبراطوراً لرومة ، ولا يزال
آثاره (قرأ) واندس (قتل) الساميين والمستشرقين اعجاباً واجلالاً ،
مما يدل على ان العربي دودع في البناء والاعمار ، والقيادة وانشاء
الخصومات والتفادات ومختلف الفنون الرائعة البديعة .

جزيرة العرب

والجزيرة العربية اقلام في الجنوب الغربي من آسيا ، تحده شمالاً
بادية الشام ، وشرقاً الخليج العربي وبحر عمان ، وجنوباً المحيط الهندي ،
وغرباً البحر الاحمر ، وهي والحالة هذه شبه جزيرة يحيط بها الماء من
ثلاث جهات .

وتنقسم بلاد العرب وفقاً لطبيعتها الى خمسة اقسام :

١ - تهامة ، وهي الارض الواقعة بحدافة ساحل البحر الاحمر
الشرقي ، وسميت بهذا الاسم لشدة حرها وركود ريحها ، وسميت
كذلك الغور لانخفاض ارضها .

٢ - والحجاز : وتقع شرقي بلاد اليمن اي شرقي تهامة ، وتمتد الى
فلسطين ، وسميت حجازاً لانها تعجز بين تهامة ونجد ، وتحتوي على
المدنيتين المقدستين مكة والمدينة .

٣ - ونجد : وتمتد بين اليمن جنوباً وبادية الشام شمالاً والعروض

واطراف العراق ، وسميت نجداً لارتفاع ارضها .

٤ - واليمن : وتند من نجد الى المحيط الهندي ، وتحيط بها حضرموت والشحر وعمان في الشرق .

٥ - والعروص ، وتشمل الهامة والبحرين ، وسميت عروصاً لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق .

وفي الجزيرة العربية مواطن خصبة ، خصوصاً في اليمن ، وفي حضرموت وموطن البخور ، وفي الاحساء الواقعة على الخليج الفارسي ، واما الساحل العربي فارضه وعره تشتهر باللال والكتبان والكتان قنار براعها ، وكانت في سالفات الأيام احسن حالاً مما هي عليه اليوم .

واما ارض بلاد العرب الوعص المرتفعة - وهي نجد - وما يتخللها من الجبال المرتفعة من هناك ، ووديان الطيبة وسهولها التي يروى فيها احسن الحبوب العربية ، والهامة الواقعة الى الجنوب الشرقي فقد كانتا تسدان حاجة العرب من القمح - كما كانت في القرنين السادس والسابع لانقلان عن ارض اورور اليوم خصباً وانتاجاً .

وببلاد العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ، وفيها الصحاري الرملية المترامية الاطراف ، ويتخلل هذه الجبال الوديان التي هيأها السهول ، والاراضي القريبة منها خصبة القوية صالحة لاقامة الناس الذين يعتمدون على ما تنبت ارضهم ، وما يجذونه فيها من ماء يشربون منه ويسومون انعامهم .

واما ما بعد عن هذه الوديان فقفر غير صالح للسكنى ، واعظم راد في بلاد العرب وادي الدهناء ، وهو كثير الخير اذا اخضب ... ولكن الماء في الجزيرة لا يسد حاجتها ، واكثره يفيض في الارض ، فلا يمكن الانتفاع به الا بالوسائل القديمة الحديثة ، اللهم الا

في بلاد اليمن التي استضع أهلها أن يحولوا بحاري الوديان ، فبنوا - دأ
محكماتاً بحجر الماء ، حلقه في أرض صلبة لئلا تتقاع به عند الحاجة .

وببلاد العرب وإن كانت صحراء ، إلا أنها تختلف عن غيرها من
الصحاري في طبيعة سطحها ، فهي مختلفة الأجزاء ، بعضها مغطى بالسكان
الرومية ، والبعض الآخر بالأحجار ، وبعضها منخفض ، والبعض الآخر
مرتفع ، مما جعل الكتاب القدماء أن تقسم بلاد العرب إلى ثلاثة
أقسام ، الأرض العربية الواقعة جنوبي غربي ردة الشام وعاصمتها بئرا ،
والأرض الغربية الصحراوية ، وريدة الشام ، وقد أطلق هذا الاسم
بعض الكتاب على شبه جزيرة العرب لعدم توجه عام . وأجزاء العربية
السعيدة ، وهي : - بلاد اليمن التي تسمى الأرض الخضراء حيث قامت
حضارة سبأ وحمر وغيرهما من دول الجنوب .

الصحراء

وفي الجزيرة حران صحراوية ، الأول في شامي هضبة نجد واسمه
(النفود) ، ويمتد من شامي هضبة نجد حتى جنوب فلسطين ، وهو
عبارة عن كثبان رملية يتعدها وديان عميقة لا يصل إليها الماء ، ومن
المتكّن اختراق النفود من الشرق إلى الغرب في نحو أربعين ساعة مع
صعوبة وعناء .

والصحراء الأخرى تقع في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب ،
وتقع شمال حضرموت وهي : الدهناء ، أو الصحراء الحمراء ، وهي أشق
بكثير واجدب من صحراء الشمال ، وما عدا ذلك فإن في بلاد العرب
أرضاً زراعية وواحة يمكن السكن فيها ، وقد اكتبت طبيعة هذه
الأرض الشافة أهلها النشاط والحيطة ، خصوصاً البدو منهم الذين لا

يعتمدون كثيراً على الزراعة ، وأما جنس اعتمادهم على انعامهم ، يأكلون
لحومها ويشربون لبنها ويكتسبون اوبردهم ، وهب التي تحملهم وتحمل
امتعتهم احي حيث يتنقلون من مكان الى آخر طلباً للكلأ والماء ...

هذه الجزيرة العربية ، تزلزال الساميون من العرب اول عهدنا في
التاريخ ، فلما كثروا عددهم تغربوا عنها الى سواها من المدن القريبة
المتحضرة القائمة على اطرافها ، كآشور وبابل وسوريا ويوحنا ارضها ،
ويذهبون معها ، ويأخذون فيها قوتهم في ارضهم ، ويشتون فيها
مشية الملك في بستانه ، ويطلبون هذه الامم الجديدة بطابعهم السامي
ويظل هذا حاكم اجلاً وعموداً حتى يحضر الجاهلية قبل الاسلام ، واذا
العرب فيه مثلهم قبلاً ، واذا هم لا يزالون ، تغلب عليهم البداوة ،
ويعيش كثرتهم عيش القبائل الرحلى ، فلا يتصلون بالارض اتصال
المزارع الملاح ، ولا يتكثرون في البلد مكنون المقيم العامل ، بل نواهم
يتربصون مواسم القيت فيمشون اليها رجلاً ونساء وشباباً وغلماناً
وايلاً ، وهذه حياة علي ما فيها من جهل ومشقة فن ان تسمح بقيام
البلدان المتحضرة ، وقل ان تمكن اصحاب من تأسيس حضارة وثقافة
مستفيضة منية .

وبعض ربك الجزيرة ، فلا يكاد يهبط غصب او فلاح الا غراباً ، ثم
ما شأن الفلاح في ارض ليس فيها من الخير ما يمكن لسكانها في الحياة ،
وما شأنه في بلاد كلها قبائل وعشائر قلوبهم اسديهم ومنازهم وواعلمهم ،
فان هو حاول ان يحوس ارضهم ففردا عنه ، واستقروا في مكان آخر
من الجزيرة صحيق .

ثم يكرون عليه ، فما يوحون به كراً وغراً حتى يفدق معهم صبراً
فيصرف عنهم ، وقد اخناه النصب ، وراح به طول الشقة وعطه الجوع ،

واوحنه الشمس ، فلا تعجب بعد ذلك ان لا يقنعهم الجزيرة الروم
والفرس بانه سلطانهم ، ويوم كانوا ملء السمع ملء البصر ، وقد
دوخوا في عهدهم بلاداً بعد منها ، وجماعات اكثر من العرب عدداً
وعصبة ، وامضى صلاحاً .

وهي بعد بلاد قحط ما ينتج نظر احد الاستيلاء عليها ، وقبائل
وعشائر بدوية تعتمد في فوائدهم الاقتصادي على التجارة وبعض الثمرات
والماشية وما تنتج به الماشية من البان وغيرها ، وهي يعرفها الجغرافيا في
الديلم بين آسيا وامريقيا طريق التجارة بين الامة المحيطة بها من أقصى
البحر المتوسط . ثم لما كانت الثمرات والبان الماشية لا تكاد تجد من
جوع الناس ، فقد كان من واجب البدوي ان يضرب الارض طلباً
للرزق وان يفتنه في المدن العربية القائمة في الجزيرة ، والتي كانت وفيرة
الحضارة بأسقف العمران ، وكان يزور إما حديقاً لقوافلها من غزو امثاله
فها ، او صاحب راحل تنقل الشجر من مدينتها الى مدينتها ، او
تاجراً ينقل للشم وغير الشم ، شبة الجزيرة على ان يعترض عنها بما هو
في أشد الحاجة اليه من ماكل ومشرب وملبس .

وكذلك كانوا يعيشون على ما تنتجه لهم ماشيتهم من لحوم والبان ،
اما اصوافهم فكانوا يلبسونها ويتخذونها مماكين لهم ، وكانوا يعتمدون
في تغذية هذه الماشية على الطبيعة يخرجون في مواسم المطر الى منابت
الكلاء لتروى ، حتى اذا انتهى الموسم كروا راجعين الى منازلهم
ينتظرون الموسم التالي حينما يحول الحول ويتنزل الغيث وقد لا يكفيهم
هذا الغذاء فيعتمدون الى الخشب وغير الصب من حيوان البادية يزدردون
لحمه ، وقد كان شياً كما يقولون .

ثم انهم اذا احتاجوا الى اكثر مما تنتجه ماشيتهم ورأوا ان لا

مندوحة لهم عن طلب الغذاء او يهلكون جوعاً ، عمدوا الى ما شئتهم
 - كما قدمنا - يستبدلونها بالنسج والملابس وغيرها ، هذا الى ما يكسبونه
 في الغزو من ماشية ومناخ ومال ، وهذا مركب صعب ، لاث القبيحة
 المسلوكة تعود لتتربص الفرص للاخذ بشأرها ، فاذا كان لها ما تريد عمدت
 الى الخضم ، فاستردت ما شئتها منه ، واجتاحت ما شئته ، ومثل هذه
 الحالات كانت اكثر ما تكون وفوقاً في الجاهلية وقبل الاسلام .

وهذه الحياة القاسية الجديدة التي اخذ بشكائها العرب ، بعد ان
 تبدلت الارض غير الاوضاع في بلادهم ، لم يكن بطولها ان تنشي حضارة
 ثابتة الاركان باقية الاثر ، لان الحضارة ثمرة من ثمرات الاجتماع في
 الحاضر ، وهي قبض جديد متواصل من عمل الانسانية عن حاجتها المادية
 والمعنوية .

ولعل امع فصول التاريخ العربي قبل الاسلام هذا المراك الذي
 كان يدور بين العربي وبين الطبيعة وبين الحياة ، طبيعة قاسية ، قليلة
 الماء ، شديدة الحر ، كثيرة الرمال بعيدة الغور ، حياة لا ترحم الضعيف
 ولا تستكين للفقير وابن السبيل ، حكمة لا تنجود على ابائها بشي ،
 وتعطب منهم كل شي . ، وبينما كان غير العربي يشي بين الاموار والجنان
 والوان الثرف والحطب والامراع ، كان على العربي ان يركب
 الصحراء من اقصاها الى اقصاها لينبلع الاقل من المشرب والاقل من
 الغذاء ، ثم ان حياته كانت نهياً مقسماً للقوي ايان اراد ، ولذلك عودته
 هذه الحياة القاسية ، ان يكون غنياً في خياله وحياته المعنوية ، وانت
 فيما ترجع اليه من اشعار العرب قبل الاسلام لا نجد الا حديث الشاعر
 عن نفسه ، وحره وغزواته وكرمه واجاده ونسبه ، واما غير ذلك من
 من الروان الفلسفة ونظم الحياة فقد نجد عند الرومان وغير الرومان

من الامم الغابرة ، واما عند العرب في جاهليتهم فانك لا تجد شيئاً من هذا ، ولن تجدها الا عند افراد ارتبطت مصيرهم بتضارير بعض الامم المتحضرة فنعرفوا عندها على بعض الوان حياتها وما فيها من جمال وجدة وعمق .

ثم ان هذه الجماعات البدوية كانت تؤلف في عهد الجاهلية وبمساهمة الجاهلية قبائل تتراوح بعضها الرأسة والزعامة والخصية ، وقد انقسمت هذه القبائل بدورها الى جماعات خلقت لنفسها انساباً ، وسواء اصحت هذه الانساب ام لم تصح ، فان مما لا شك فيه ان العرب كانوا يتناجزون لاجلها ، حتى اصبحوا ولكن قبيلة منهم عصبية خاصة لها ...
والثابت اليوم انه ما جاء الاسلام كان العرب يرجعون بانسابهم الى اصول ثلاثة :

مضر ، وربيعة واليمن وقد اخذ شعراء هذه القبائل وكل بفضل نفسه واجداد قبيلته ، يستعملون هذه الظاهرة السياسية والحزبية فتراها قوة الاثر بليغة الشأن في عهد بني امية والعباسيين والاندلسيين .
وافقد كان امراد القبيلة يتظاهمون اشدها كان النضام ، ينصرون انعام ظالماً او مظلوماً ، يسعى بذمتهم ادنهم وهم يد على من سواهم .
هذه حالة العربي مع اهله وابنه واخيه وابن عمه وافراد قبيلته فذا تشعبت بطون القبيلة الواحدة تنافس افراد كل بطن في الشرف والثروة ووقفوا لبعضهم بعضاً بالمرصد ، وقد ينفخ العداء اشده وتراق الدماء بسبب هذه المنافسة . والبدوي شجاع كريم وشجاعته تتجلى في تاريخه الماضي وفي كثرة من نازهم وقتلهم من الناس ، واما كرمه فتجلى في نحر الجزور للضيف واعانة الناس الفقير وان يعطي اكثر مما يأخذ ، وان يمشى الوفي ويعف عند المنكر .

ولقد دعاهم الكرم ان يأكلوا كثيراً ويشربوا كثيراً وببلادهم
بجدية قليلة الانتاج فكان حقاً عليهم ان يتصلوا بأهل الشام والعراق
واليمن وهم أهل حضارة ورواية ورخاء يستعينون بهم على جذب ارضهم
وقسوة افليسهم .

أما المرأة البدوية فكانت تشرك الرجل في كل شؤون الحياة
تخضب وتجلب الماء ، وتخبب الماشية ، وتذبح السكين والملبس ، ولما
كانت ضعيفة وكانت اذا سافرت قليلة خصبة التأت العور بفيلسها ،
سقط مذهبها والمحطت منزلتها ، وكانت بعض القبائل تصكره النساء فاذا
بشروا احدهم بالانتى ، فخل وجهه مسوداً وهو كظيم ، وبعضهم كانت
بدونها وهي حية .

تلك كانت حياة العرب قبل الاسلام عرة وشقاء وخافة ومحافظة
على النسب والجار ، وانت لن تجد في شعر الجاهلية معنى اسنى من هذه
الحياة وبدل النفس والنفس في حيلها ، واستعداد من معاني عليها ، كما
انك لن تجد عند الجاهليين من دوافع الطيبة غير الغزل والسبب
الرفيق ، الى ان صار هذا يفكر معه الامراتي في محبوت على انها اصل
يتخيله ومملة تنير ما امامه .

ولقد استقامت لعرب حضارة سائفة ، فشا امرها في اليمن وغير
اليمن ، وحدتها عنها هيرودتس المؤرخ اليوناني بشيء كثير من الدهشة
والاعجاب ، وامكن هؤلاء القوم الذين كانوا نجاراً ينفقون متاجر
المجاورين وغير المجاورين من الامم الى افطار العالم حتى الهند ، والذين
كانوا حماة للتجارة من غزو المعتدين ، ان يلجأوا بطرف من حضارات
الجماعات التي كانت تقوم حوضهم فيما بين النهرين وفينيقيا ومصر والشام
وغيرها من الامصار التي استقامت فيها حضارة سائفة بعيدة المدى في

العمران رائعة المظاهر في حافات الأزمان .

وما لا جدال فيه ان الأرض في الجزيرة العربية اليوم غير هـا في ماضيات الأيام . وانها في الماضي كانت اكثـر خصباً ثم تناولتها التوازل الجغرافية بكثير من الجفاف حتى أصبحت جرداء فحقة ، والعمارات انما تقوم في الأرض الخصبة وعلى الماء وضفاف الأنهر والبحار ، فلا يعجب القارىء بعد ذلك اذا تبدلت الأرض غير الأرض ، واذا تدنت الحضارة وانهار العمران فان هذه كلها من لوازم المواطن الخصبة والمياه الوفيرة .

اما اثر الحضارة في الأدب العربي من نظير وتغير قبل الاسلام ، فمن الثابت اليوم ان العرب كانوا ينعمون بحياة شعرية أدبية رائعة ، وليس ادل على ذلك من شعر الشعراء الذين ما يزال حتى اليوم تردد شعرهم وتحفظ قصيدهم ، ويتغنى بمدائحهم ووصفهم . والشعر العربي في هذا العصر الجاهلي ينعم بصفة خاصة لا مثيل لها وهي هذا الصدق والاخلاص في تصوير الواقع الحياة تصويراً اقل ما يقال فيه انه ما يزال حتى اليوم اساساً لدراسة التاريخ العربي في الجاهلية . . .

الشمال والجنوب

والجزيرة العربية انى ذلك تقسم الى قسمين ، جنوبي وشمالي ، فالشمالي اكثر بدو ، يسكن الحجاز وتجد ، وبشكل لغة القرأت الفصحى ، والجنوبي سكان اليمن وحضرموت والسواحل ، واصغرهم حضر وهم اول من تحضر في الجزيرة ، وانشأوا حضارة لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم ، ومبب ذلك قربهم من البحر ، وخصب بلادهم ، ووقوعها في نقطة الوصل بين الشرق والغرب .

واما عرب الشمال فلم يظهروا ظهوراً بارزاً في التاريخ الا بظهور الاسلام في ربوعهم .

ويقسم العرب انفسهم الى ثلاثة اقسام : عرب بائنة ، وعسارية ، ومشرقية ، فالبائنة كعاد وعمود ، وقد ذهب الدهر بهم ، وذكرت عمود في الآثار المتعددة البنا عن سرغون الثاني ، واما (عاد) فقد ظهرت في حضرموت وفشا امرها فيها ، واما العرب الذين بقوا بعد اندثار عاد وعمود ، فيقسمون الى قسمين ، عازية ومشرقية ، والاولون عرب اليمن ، من ولد قحطان والمشرقية اولاد اسماعيل سكان الحجاز ، وقد سبق القحطانيون المدنيون في الحضارة كما قدمنا .

العرب والحضارات القديمة

وكذلك نرى ان الجزيرة العربية كانت تقع جغرافياً بين حضارتين : الحضارة المصرية والحضارة البابلية ، ولا يجب استثناء الحضارة الفينيقية بسبب اتصال جنوبي الجزيرة بمصر عن طريق البحر الابيض والبحر ، واما اتصال جنوبي الجزيرة او اليمن بمصر واfrica فكان عن طريق صحراء حينا والبحر . ما كان البحر هادئاً ، وكان سكان سواحل على اتصال دائم مع مصر ، يمددون اليها الحاصل الاحمر الذي يستخرج من ارضهم ، كما ان مصر كانت على اتصال بحري مع اليمن لما فيها من الثروة الطبيعية ، خصوصاً اللبان ، والجنود والعاج والبحور وغيرها ، وزاد هذا الاتصال في عهد ثوتموت الثالث سنة ١٤٧٩ ق م . واشتهرت حضرموت في هذا العهد بتجارة اللبان ، ولا تزال هذه التجارة رائجة فيها حتى الآن .

(١) كان النحاس يستخرج من مكان بالقرب من مدينة الطور الجديدة .

وكذلك انفصل الآشوريون وقبيلهم البابليون بالبلاد العربية في فترات مختلفة قبل المسيح ، وفي الآثار الآشورية ما يدل على الزخوف التي كان يبعثها ميوكتها لافتحام بعض اطراف الجزيرة خصوصاً سورية ، وذلك في ايام تبغلت بيلسر الثالث ٧٤٥ - ٧٢٧ ق م . ، الذي هاجم سورية غير مرة ليحافظ على الطريق التجاري بين آشور والعراق وبين البحر المتوسط ، وفي عهد سرغون الثالث ٧٢٤ - ٧٠٥ ، الذي فتح كركيش والسامرة من اعمال فلسطين ، نجد أثراً يؤيد اخذ هذه القبيلة قود التي ورد ذكرها في القرآن ، وكيف انه نقل البقية الباقية من هذه القبيلة العربية الى السامرة .

وفي عهد سحرديب ٦٨٨ ق م ، نجد أثراً آشورياً يدل على انه اخضع سكان ادوم ، دومة الجندل اليوم ، وحمل معه الى بنيوى عاصمة آشور ، الاضنام والنعف والمثكة نفسها .

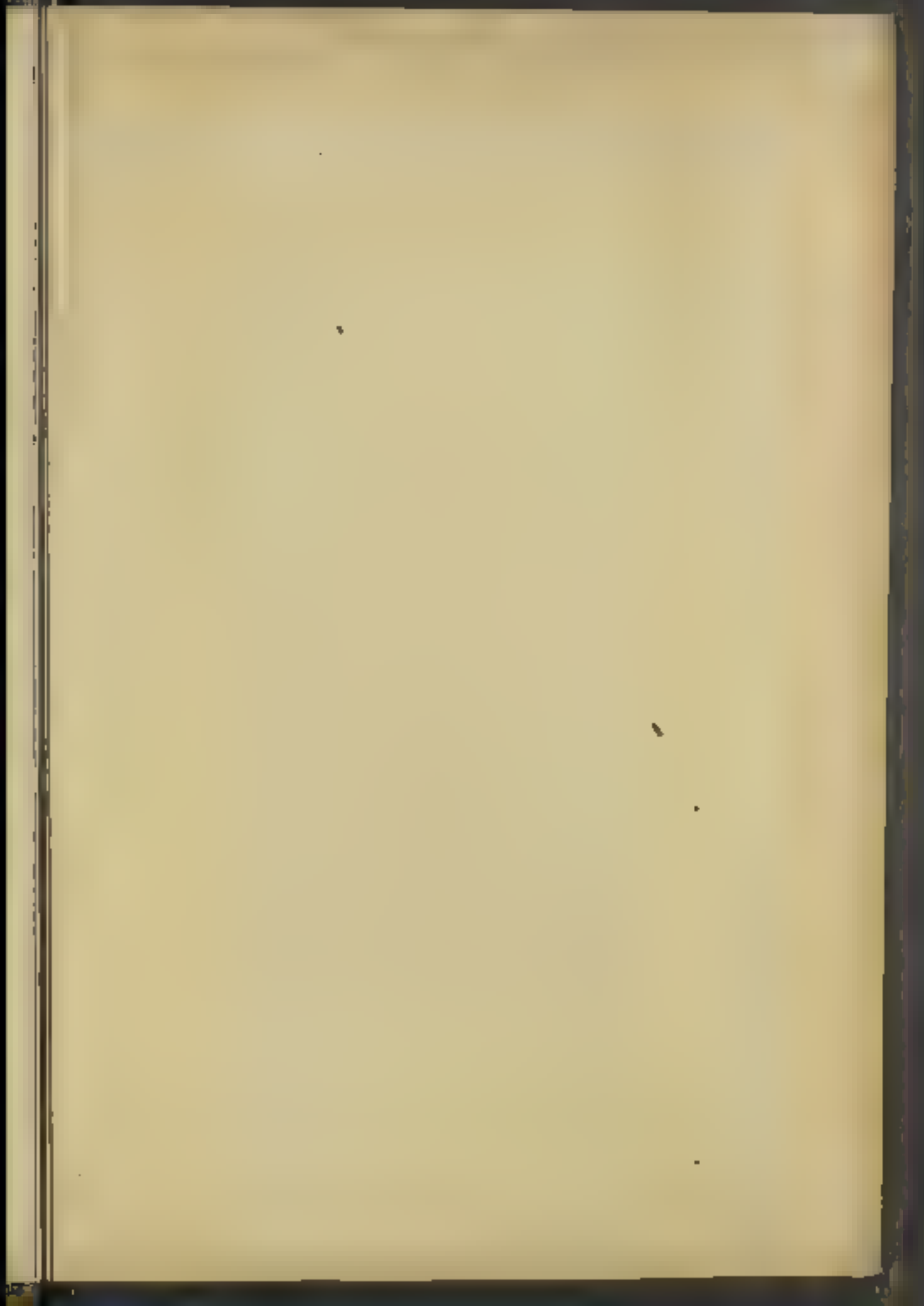
وتذكر الآثار الآشورية كثيراً من امراء العرب الذين حاربوا اخضاعهم ، وهذا يدل على ان القبائل العربية كانت تظيق الممرات الآشورية في سورية بعد احتلال آشور ، مما كان يضطر ملوك آشور الى تجهيز الحملات العسكرية لاختضاع الثوار العرب .

وفي عهد الفرس نرى تميز كسرى فارس (٥٢٥ ق م) يتفق مع امراء العرب ويحتل القبائل ويحاربهم في طريقه الى مصر لاختضاعها ، خصوصاً وانه كان مجبراً على المرور في ارض عربية لموصول الى وادي النيل ، ويقول هيرودوتس ان ملوك الفرس لم يوفقوا الى اختضاع العرب ابداً ، واما اليهود القدماء فاضلهم سامي من الجزيرة ، على هذا يجمع اكثر المؤرخين وفي طريقهم الى فلسطين من مصر ، حوالي سنة (١٢٢٥ ق م) صعدوا اربعين سنة في صحراء سينا والنفود ، وفيها دعا موسى قومه الى عبادة

أثمة ، وتزوج امرأة عربية من أهل مدين ، ودخل اليهود فلسطين كجماعة
من البدو ، وفيها بدأ اتصالهم بالكنعانيين سكانها السابقين ، ولم تكن
اليهود من فلسطين وقتئذ امرهم ، وأمنه نفوذهم الى شبه جزيرة سيناء ،
كان لملكيان النبي اسطول في العقبة ، وفي التوراة ما يدل على خلاصات
عسكرية انتظمت بين اليهود والعرب ، حاربوا العرب الذين حولهم
وحاربوهم واتصلوا بهم ، حتى اذا ظهر اليونانيون ثم الرومان بعدهم ،
وجدنا كتاب هذين الشعبين يتحدثون العرب على استقلالهم وحرياتهم ،
كما يتحدثون عن ثروة بلادهم العظيمة .

ولما حاول الرومان ، وهم في اوج عظمتهم التقدم نحو الجزيرة
بمساعدة انصارهم من عرب النبط ، سنة (٦٦ ق م) فشلت حملتهم
وشتمت العرب ، وكانت غاية هذه الحملة التي خرجت من مصر ، الاستيلاء
على الطريق التجاري الذي يسيطر عليه عرب اليمن .

وفي الآثار الرومانية التي بين ايدينا ما يدل على ان الرومان كانوا
يطمعون بالذهب الموجود في بلاد العرب ، والذي كان يستخرج من
الارض الواقعة بين مدائن صالح واليمن ...



الحضارات العربية الاولى

البيثون

كان البيثون أو اهل سبأ اول شعب عربي متحضر بعد بلقيش
معين عرفه العالم ، ذكرته المصادر اليونانية حوالي سنة ٢٨٨ ق م ، وكانت
مواقعها جنوبي الجزيرة العربية في اليمن .

وساعد حذب الارض ، وقرب من البحر ، واتصالها بالعند ، على
تحضره وثقافتها وازدهارها ، واشتهرت اليمن بالبخور الذي يصدر من
ارضها ، وبجواهر الكريمة التي كانت تصدر من الطنج العجمي ،
وبالمعادن اقلية خصوصاً السيوف التي كانت تزد من العند ورويش
العام الذي كان يرد من الحبشة ، وبخزير الذي كان يصدر اليه من
الصين ، وكانت واحدة هذه محطة تجارية هامة ، وطريقاً حسناً للقوافل
بينها وبين غيرها من البلاد القريبة والبعيدة .

وكان اهل سبأ يوقع بلادهم على البحرين الاحمر والاحدي بتناول
دور البيثونيين في البحر المتوسط ، سيطروا على تجارة البحر ، وركبوا
غاريبه ، وفتحوا خاضع الامم المختلفة على سفنهم من مكان الى آخر ،
وكانوا في الالب الاوى قبل المسيح وخدم في هذا الميدان لا يراهم
احد ، وليس لاحد عليهم سلطان .

وهم الذين احتضنوا الطريق التجاري البري بينهم وبين سورية ،
لصعوبة الاتصال بمرأ بن اليمن وسورية ، وذلك بطريق مكة وبثراء ،
ومنها الى مصر وسورية والعراق ، كما انشأوا بعض المحطات التجارية

في هذا الطريق البعيد السحيق .
وكانت لغة السبائيين الحيرية ، وهي قريبة من العربية .

مملكة معين

وأول مملكة ظهرت في جنوبي الجزيرة العربية هي مملكة (معين)
التي ازدهرت بين سنة (١٣٠٠ - ٦٥٠ ق م) ونشأت هذه المملكة في
الجوف من أعمال اليمن ، بين نجران وحضرموت ، وكان الملك وراثياً ،
وبدأ مملكة المؤرخون ٢٦ ملكاً من ملوك معين ، ويظهر أن مملكة
السبائيين نشأت من مملكة معين ، أو هي تسمية لها ، وكان أول ظهورها
سنة ٩٦٠ ق م ، وامتدت إلى سنة ١١٥ ق م ، وأول ملوك سبأ ، هم
أواخر ملوك معين ، وبعد ثلاثة أجيال تمكن السبائيون من السيطرة
والسماط ، وروثوا مملكة معين ، والدور الأول لمملكة (سبأ)
ينتهي سنة ٦٥٠ ق م ، ولما زال هذه الدولة آثار بالقرب من (مأرب) ،
ومأرب تعاد عن سطح البحر ٣٩٠٠ قدم ، وكانت مركز التجارة ،
واشتهرت بحراستها ، التي كانت تحفظ لها كمية وافرة من الماء طين الحاجة
إليه للري والزراعة . . .

وتتبدى الدورة الثانية للمملكة السبائية من سنة ٦٥٠ - ١١٥ ق م ،
ويظهر لنا في هذه الدورة أنه قد تزعت عن الملك فيها الثواب القداسة ،
فبعد أن كان ملكاً زمنياً ودينيّاً ، أصبح ملكاً دنيّاً فقط يطلق عليه
لقب (ملك سبأ) ، وأصبحت مأرب العاصمة في هذه الفترة من الزمن ،
وهي تبعد ستين ميلاً عن حضنة الحاضرة ، وسبأ اسم المملكة والأرض
لا اسم بلد معين ، وكانت هذه الدورة من مملكة سبأ من أروع ما ظهر
في بلاد العرب من حضارة رائعة قبل المسيح .

مملكة حير

ثم ظهرت - ١١٥٠ ق م مملكة حير ، التي عاشت حتى سنة ٣٠٠ ق م
ومملكة حير ورثت ملكتي ، معين وسبأ ، وهي فرع منها على الأكثر ،
لأن اللغة واحدة مع بعض النقوش ، وكانت عاصمتها أرموا و (زافار)
نقع على طريق صنعاء ، وقد قامت مقام مأرب عاصمة سبأ ، و (كارتو)
عاصمة معين ، ولا تزال آثارها ظاهرة حتى اليوم بالقرب من بلدة
(بريم) المعاصرة .

ويظهر أن ملوك حير كانوا أقرب إلى الملوك الأفطاريين في أول
عهدهم ، يعيشون في الخصون ، ويملكون الأرض ، ويضربون الدراهم
باسمهم ، وكانوا تجاراً ينقلون محمولات الذهب ، ومحمولات المنسج ،
وشرقياً الغربية على الجمل من مأرب إلى مكة وسورية فصر ، وأحياناً
كانوا ينقلونها بحراً إذا كانت الأحوال الجوية ملائمة ، وكانت الرحلة تدوم
سبعين يوماً .

والمواقع أن جنوبي بلاد العرب ظل يحتفظ بسيطرته وحضارته ،
ورخائه ، ما قبل طريق التجارة في البحر الأحمر بيد ابتائه ، ولما أخذت
السيطرة تنتقل إلى الروم . أن الذين بدأوا بالظهور والسيطرة على
العالم ، وأخذوا يبتلون الأساطيل ، وينشئون المستعمرات ، ويميلون
للسيطرة على الطرق التجارية ، خصوصاً بعد أن استولوا على سورية
وفلسطين ، أخذت السيطرة العربية بالضعف والانحطاط ، ولما تمكن
الرومان من طرق المواصلات البرية بين العراق والهند ، وبين سورية
وفلسطين ، تراجع العرب أمامهم ، ولكنهم ظلوا يسيطرون على الطريق
البحري مدة من الزمن ، وذلك حتى القرن الأول بعد المسيح .

ولما كثر الطلب على محصولات اليمن وجنوبي الجزيرة دفع اصحابها اسعارها ، كما رفعوا الجزية المفروضة على المحصولات التي غر بارضهم ، مما حمل التجار الرومان في عهد المؤرخ (بليني) على الاحتجاج والتأفف من الاسعار الشديدة التي يفرضها العرب على بضائعهم التي كانت رومنة بحاجة اليها ، والتي كانوا يضطرون الى دفع ثمنها نقداً ، لانه ما لدى رومنة من المحصولات لم يكن يحتاجه العرب ، فلم يكن والحالة هذه من سبيل الى التفاوض ، ومن هذا الوقت كثرت الاشاعات عن ثروة العرب العظيمة ، وقد استغذت بقوا ، وتدمر ، البندقيين العربيين في اواخر عهد المملكة الحميرية من هذه السوق التجارية العظيمة التي كانت رائجة في بلاد العرب ، ومن دفعوها على طرق التجارة العالمية ، ولكن ظهور (روما) قلب الموقف رأساً على عقب كما قدمنا ...

ولما قويت مصر في عهد البطالسة ، ووفد الاسكندر الكبير ، اخذت تراحم العرب في طرق التجارة البحرية ، ونفست مصر من القضاء على تجارة المملكة الحميرية ، ولما استولت (روما) على مصر ، واخذتها من البطالسة حوالي منتصف القرن الاول قبل المسيح ، انفت ما سبقت اليه مصر من مزاحة العرب على تجارة البحر الاحمر ، ولما بدأت البوارج الرومانية تنخر عباب المحيط الهندي ، كان ذلك ايداً بنهب زعمامة العرب في التجارة البحرية ..

وحوالى سنة (٣٠٠) ب م ، نجح اسم ملوك جنوبي الجزيرة يكتب كما يأتي : ملك سبأ ، ووعدان ، وحضرموت ، واليمن ثم ضمت اليها تهامة ، مما يدل على ان كل هذه البلاد كانت تحت سيطرة ملك عربي واحد ...

الحضارة العربية في جنوب الجزيرة

والواقع ان الآثار التي بين ايدينا تدل على ان مراكبي معين وسبأ قد نهضتا بجانب عظيم من القوة والثروة والحضارة ، وان سكان المساحتين قد اشتهروا بالتجارة ، وسيطروا على طرق المواصلات البحرية والبحرية في عهدهم ، وامنت نفوذ الدولتين التجري من الهند الى مصر ، ومن جنوبي الجزيرة العربية الى غزة من اعمل فلسطين .

وبشهادة ابن تولد كما انشترق الانبياء ، ووفقاً لما شاعده من الحفريات والآثار ، عن الحضارة العربية الرائعة التي قامت في اليمن منذ الالف الثانية قبل المسيح ، واذا كان يذهب غلباً وحذف هذه الحضارة بالتدقيق ، فان بقايا المني الفخمة والسفوح الكثيرة ، التي لا تزال قائمة الى يومنا هذا تشهد بان الحضارة التي قامت في اليمن حضارة عجيبة .

ولقد اشتهر في اليمن بمراكبتين ساعدت على نموها معين - سبأ وحمير ، وكان سبب حضارة هاتين الممكتين ان اليمن كانت اقلاداً زراعية خصبة تصلح للاثمار والاشجار ، واماً كانت وفرة على البحر ، وكانت اليونان والرومان على معرفة بهذه الحضارة ، وشهدوا بها الثراء والمدن ، ولكن معلوماتهم كما يظهر كانت غريبة محدودة ، وام الزوراة قد بسطت اكثر من الكتب اليونانية والرومانية عن زيارة ما اصبحت سبأ لسلطان النبي ، فان ما ظهرت به هذه الملكة من وخر السبب وقبح الخلق ، وما اهدته الى سليمان من الهدايا الثمينة يدل على حضارة مملكة بلغت درجة عظيمة في الثرف والرخاء .

ويظهر ان اهل سبأ كانوا اصحاب ثروة كبيرة ، واهم جمعوا ثروتهم هذه من احتكادهم التجارة في الجزيرة في ذلك العهد السحيق ، خصوصاً

المواد العطرية كالسخور الذي كان كثير الاستعمال في المياكل والمعابد في مصر والحبشة وغيرهم ، وقد ذكرت الزوراة هذه العطور خصوصاً البخور والذهب والحجارة الثمينة كأنها من الأشياء التي اشتهر بها أهل سبأ ، وفي الآثار التي وجدت في الحجاز ما يدل على أنه كان لسبأ محطات تجارية خارج بلادهم ، ومن المؤكد أنهم تروا كثيراً بحضارتهم على البلاد العربية القريبة منهم ، والبلاد التي كانت غرباً بها فوافلهم .
ولكن الثابت اليوم أن هذه الحضارة اليمنية لم تخرج من بلاد العرب ، ولم يعمم بها غير العرب أنفسهم .

انهار السد

أما ما يقال من أن سبب انهار الحضارة اليمنية يرجع إلى انهار سد مأرب ، فإني فيه كثير من الشك ، لأنه يصعب علينا الآن أن نقرر ان انهار السد كان كافياً لاحتلال هذه المملكة المنهضرة .
ثم ما كان يمنع أهل اليمن من إعادة بناء سد ما فعلوا قبله ، ولما كان الرأي الصواب أن أهل اليمن أصبحوا بالاحتياط قبل انهار السد بمن بعيد ، وأخذ عدد كبير من أهلها بالهجرة إلى الجهات الأخرى من جزيرة العرب ، وكان من أول ذلك أن أخذت العناية بالسد ، وأمنه اشوكاوت بشأنه ، فتصدعت جوانبه ، ولم يعد يحمل هجيات السيول والفيضات الكثيرة المحبوسة خلفه ، وهوى وتدفقت المياه على ما حوله من القرى والمزارع وتلفتها ، وكان ذلك في عهد احتلال الأحباش لليمن بين سنة ٥٤٢ و ٥٧٠ ب م .

وقد ساعد سكان اليمن من سبأ وحبر ذلك الحصب الذي امتد به هذا الجزء الذي كانوا يحتلونه من بلاد العرب على الاستقرار ، كما أنه كان

لنجاوتهم الواسعة النطاق مع مصر وسورية وبنين والحبشة اثر كبير في تدفق الثروة عليهم ، واما ما بلغته مدن سبا من الخطر والحضارة فنؤيده هذه الاخبار المنقضة عن اواني الذهب والفضة ، واعمدة الرخام والهيكل العديدة ، كما لم يشهد العالم القديم مثله ، كما ان القنباطر التي اقاموها على الائمة لابحال مياه الشرب الى المدن تدل على براعة ومهارة في البناء ، ومهارة في فن العمارة ومعرفة تامة بنظام الري .

بقيس

ومن اشهر ملوك اليمن باقيس ملكة سبا ، وقد راوت سليمان الحكيم وذكرها القرآن الكريم ، ومن تخوفهم من سليمان - وملكة سليمان لم تتجاوز فلسطين - ما يدل على ان ملكة سبا لم تكن واسعة الارض . عديدة الجنود ، وان اهلها كانوا رجال نجدة وعجزة لا رجال حرب وسلاح . وفي سنة ٣٤٠ - ٣٧٩ ب م استولى الاحباش على اليمن ، ثم عاد بعدهم ملك حمير الى الحكم ، وجعلوا حكمهم البلاد الى حوالي سنة ٥٢٥ ب م ، ولم تكن هذه المرة الاولى التي غزا فيها الاحباش بلاد العرب ، فقد سبق لهم ان سيطروا مدة من الزمن على بعض انحاء اليمن وسواحله .

وفي اواخر عهد المملكة الحميرية دخلت المسيحية واليهودية اليمن ، وكان السكان يعبدون القمر والنجوم قبلاً ، فمما استقام امر المسيحية فيها انشأوا بعض الكنائس خصوصاً في نجران .

وكذلك دخلت اليهودية اليمن ، وانتشرت فيها في عهد ملكة حمير الثانية ، ويظهر ان اليهودية دخلت الى بلاد العرب بعد ان دمر نييطس الروماني القدس سنة ٧٠ ب م ، فهرب بعض اليهود الى شمالي

الجريرة ، ونزل بعضهم في جنوبها ، ثم أخذوا مع الأيام يسيطرون
سلطانهم ، فجازة أولاً تم سياسة وحكماً حتى أن آخر ملوك حمير وهو
(دونواس) اعتنق اليهودية ^١ ، ومنب كانت المسيحية تؤيدها الحليشة ،
والحليشة عدو سياسي لليمن ، فقد اضطهد دونواس المسيحيين وأحرقهم
بالأحرار سنة ٥٢٣ ، فامتدح المسيحيون بالتعطيلية ، فطلب جوستينيان
امبراطور الدولة البيزنطية من نخشي الحليشة غزو اليمن ، فأرسل هذا
قوة من جنده بقيادة ابرط الثالث ، مشى هذا اليها ، وغلب على اليمن ،
وقال (دونواس) وأماوت دولة حمير بعده ، ومنع سلطان اليمن
السياسي ... ^٢

ثم خلف ابرط الحليشي ابرط في حكم اليمن ، وظل الاحباش في
بلاد العرب من سنة ٥٢٥ الى ٥٧٥ بعد المسيح

وعكر ابرط في بلاد هبكل في صنعاء بعرف به الخبيث عن مكة ،
ثم غزا مكة فدمر الكعبة والقض ، على الوثنية فيها ونشر المسيحية ، فلم
يوفق وارند ، وسوراً ٥٧١ - ٥٧٤ ، وفي عهد الاحتلال الحليشي انهار
سد مأرب وذلك بين سنة ٥٤٢ - ٥٧٠ ق م ، ولقد تصدع السد قبلاً ،
فصار اضلاعه كمنهصر ، ثم تصدع نهياً ...

ولما تصدع السد في المرة الاولى ، هاجرت قبيلة بني غسان الى
حوران واستوطنت فيها ، كما هاجر بنو حنبل الى العراق ، واسموا دولة
الماذرة النخيبين ، وكانوا انصار الفرس ، كما كان الفساسمة انصار
الرومان البيزنطيين

(١) لا يزال يعيش حتى اليوم في اليمن عدد من اليهود .

(٢) ولا يزال يوجد حتى اليوم قبيلة من حمير مئزر - من عدنان حيث كانت موطن
الماضيكة السابقة .

ولكن الروح القومية لم تمت في اليمن باحتلال الأحباش لها ، فاعلم
 ان ظهر فيها سيف بن ذي يزن من العائقة المالكة الطويلة ، ومساعد
 كسرى الفرس فكان من طرد الأحباش ، وملك اليمن وارضها ،
 وفرض كسرى على سيف بن ذي يزن جزية وجراجا يؤتيها اليه في كل
 عام ، واستبى امر سيف في اليمن لما قتله حبشي واسقل الفرس بالحكم
 بعده في اليمن ، وظل امر اليمن على هذا الحال حتى سنة ٦٨٨ حيث
 قبل الاسلام آخر حكامهم على اليمن ، وهو (يزدان) وظهور
 الاسلام انتقل الساطن العربي في الجزيرة العربية من الجنوب الى
 الشمال او من اليمن الى الحجاز .

الخطوة والعمران في شمال الجزيرة

ولقد ظهرت في شمالي سورية قبل الاسلام ، لك صغيرة في شمال حطاً
 مدكوراً من الخطوة الحربية والآثار الساسانية ، ولكنهم غالب خطأ من
 التجارة والنسب في العمران ، وانما المدن ، وإقامة الشان في المنطقة
 والآثار العجيبة ، ولا تدمر التي وقعت توفيقاً حسناً في الوفوف بوجه
 روميه ، واقتحم بعض الملاكها وانماهم ، ولكن هذا لم يدم جنوباً
 ما عثمت روميه ان استرجعت ما أخذ من ، وما عثمت ان قضت على
 تدمر ودمرتها . . .

فاذا كان القرن الرابع قبل المسيح ، في نجد قبيلة عربية من النبط
 في ضواحي فلسطين ، وعاصمتهم (بترا) في وادي موسى من اعمال
 شرقي الاردن اليوم ، وفي الآثار التي بين ايدينا يدل على ان الأنباط
 قد استولوا أولاً على ارض الادوميين ، كما استولوا على بترا ايضاً ،
 والادوميون قبيلة يهودية ، واما بترا فكانت منذ وائل القرن الرابع

قبل المسيح مركزاً تجوئياً ممتازاً يقع في الطريق التجاري بين آسيا والبحر المتوسط .

وأول ما نعرفه عن الألباط أنهم كانوا على جانب من القوة والبأس حول سنة ٣١٢ ق م ، بحيث استطاعوا مقاومة القوة السورية التي أرسلها عليهم أحد فؤاد الاسكندر الكبير ، الذي احتل سوريا بعد وفاة الاسكندر ، ويظهر ان الألباط كانوا تحت حكم البطالسة في مصر ، أو أنهم كانوا يؤيدونهم سياسياً ، ثم اصبحوا انصاراً لرومية ، وساعدوها في الهجوم الفشل الذي قامت به على الجزيرة العربية ولم نوفق كما قدمنا ، وكانت الهجوم بقيادة (كالوس) القائد الروماني ، وذلك في سنة ٢٤ ق م .

ووصلت ملكة النبط الى اوجها في عهد الحارث الرابع ٩ ق م - ٤٠ ب م وكانت تقيم في عيده حتى دمشق ، وقد استغلصوها من ايدي السوفيين ورثة الاسكندر ، سنة ٨٥ ق م تقريباً ، وظلت هذه المملكة العربية حرة مستقلة استقلالاً ذاتياً حتى سنة ١٠٥ ب م ، حين قضى عليها الامبراطور تراجان الروماني ، واصبحت مستعمرة رومانية . والظاهر ان الرومان بعد فتحهم على ملكة الألباط منحوا (بترا) نوعاً من الاستقلال الذاتي ، لتكون سداً في وجه المملكة البادية التي كانت تحول السيطرة على الطريق التجاري المنفذ من البحر المتوسط ، وكانت بترا كما قدمنا محطة تجارية من الضرائر الاول ، فبهنا تستقر القوافل ، وتبدل الحبوب ، كما يصاد في اسواقها الى التجارة والمبادلة . وفي المائة الاولى بعد المسيح نجد امضاء امراء واشراف من العرب في تدمر والرها وادسا - اودفه - وغيرها ، والآثار الكثيرة التي وجدت في تدمر تدل على ان اكثرية سكان هذه البلدة التجارية العظيمة كانوا

عرباً ، ويظهر انه في أثناء انحلال المملكة السوقية اخذ العرب يسيطرون على هذه المدن التي وجدت فيها آثار عربية كثيرة ، ولا يبعد ان يكون بعض امرائهم قد استقلوا بها ولو رجعاً من الزمن قصير . . . ومن المؤكد لدى اليوم ان كثيراً من القبائل العربية سكنت سوريا في العهد الروماني ، وقد استعمل هؤلاء العرب اللغة الآرامية في كتاباتهم ، لان العربية لم تكن تعتبر في ذلك الوقت لغة صالحة للكتابة والتجارة . . .

تدمر

وبتقدم المواصلات ، وازدياد الحاجة الى محلات تجارية في الطرق التجارية الكبرى ، ظهرت مدينة جديدة في سماء السياسة العربية ، وهي مدينة تدمر ، التي لا تزال آثارها مدعاة للاعجاب والاكثار والاحلال . ولما كانت تدمر واقعة بين الرومان والمملكة البترية فقد رغبت في حفظ التوازن بين الدولتين ، واخذت سياسة الحياد للوصول الى هذه الغاية .

وتدمر هذه مدينة فعنة كما يظهر ، لانها مذكورة في الآثار الاشورية منذ سنة ١١٠٠ ق م ، وبين سنة ٣٨ ق م - ١١٧ ب م ، اصبحت تدمر مملكة تابعة لرومية ، وزارها الامبراطور هدریان سنة ١٣٠ ب م ، وحوالي القرن الثالث الميلادي تولى تدمر مملكة مستقلة استقلالاً ادارياً مع دخولها ضمن النفوذ السياسي الروماني ، وما كان الرومان ليجعلوا اهمية هذه المدينة من الوجهتين السياسية والتجارية ، وقد كانت طريقهم من دمشق الى العراق .

وبين سنة ١٣٠ - ٢٧٠ ب م بلغت تدمر اوج عظمتها ، وآثارها

توجع كلها الى هذا الوقت ، ووصلت تجارتها العائبة الى الصين ، واخذت
مكان بئرا ، واحتلت المكان الاوسع في العالم القديم .

ولم يظهر سكان تدمر شيئا من المواهب الحربية الا في عهد (اودينة)
سنة ٢٦٥ ب م . الذي اخرج شابور الاول امبراطور الفرس من سورية ،
وكان الفرس قد حلوا محل المملكة الساسانية على حدود تدمر الشرقية ، وكان
شابور قد امر الامبراطور فاليريان الروماني واستولى على قسم كبير
من سورية ، وظل اودينة يناوئ شابور حتى ابواب عاصمته المذابن ، وفي
معركة سابقة ابد اودينة الروماني ضد الفرس ، فاعطاه الرومان
لقب نائب الامبراطور في الشرق ، ومعنى هذا انه كان حاكما عسكريا
على آسيا الصغرى ومصر وسورية وشمالي الجزيرة العربية ، وبعض
ارمنية ، وفي سنة ٢٦٦ - ٢٦٧ ب م ، قتل اودينة ونجده الاكبر في
حصص ، ويقال ان الرومانيين الذين دفعوا القتل الى الجريمة ، لما اوجسوا
خرا من اودينة الفروسي ، وتعاظم شأنه .

زيم

قامت مقام اودينه في حكم البلاد زيم العربية امراته ، وبرهنت على
انها خير خلف خير سابق ، وحكمت باسم ابنها الصغير ، (وهب اللات)
واسمها نفسها ملكة الشرق ، ودعفت في وجه الرومانيين في غير معركة ،
ونكبت من الخضع مصر وبعض آسيا الصغرى لمطامنها ، وطاردت
القوات الرومانية حتى انقرضت ٢٧٠ ب م ، وفي سنة ٢٧١ استولت على
الاسكندرية ، ثاني مدينة في العالم ، وحكم ابنها مصر ، وصك النقود
باسمها ، بعد ان حذف صورة اورليان الامبراطور الروماني منها ،
واخيرا تحرك اورليان ، وفي المعركة التي وقعت قرب حصص ، تمكنت

الجيش الروماني من كسر الجيوش التدمرية ، وفي ربيع سنة ٢٧٢ بم
دخل أورليان تدمر ، فقوت زينب من وجهه إلى الصحراء ، فذكرها
رجالها وأسروها ، وبينما أورليان في طريقه إلى عاصمته ثارت تدمر على
رجالها ، فعاد إليها وهدم أسوارها ومنازلها ، فضعف شأنها ، وانهار
سلطانها ، وكان ذلك آخر عهد أهلها بالمؤدد والمجد والسلطان ، أما
زينب فأنها أخذت إلى رومية حيث ماتت فيها .

وكانت الحضارة التدمرية مزيجاً من مختلف الحضارات المعروفة في
ذلك العهد لوقوعها على طرق التجارة العالمية كما قدمنا ، وكانت أهلها
يعبدون الآلات ويقدمون الشمس والنجوم كما كان حال أهلهم
من سكان جنوبي الجزيرة .

فصل

وبسقوط تدمر انتقل طريق التجارة العالمية إلى بحري ، من أجل
حوران فاستقامت مدن الفسيفساء الواقعة في هذه المنطقة من سقوط
تدمر ، كما استقامت تدمر قبلها من سقوط بتر .

وكذلك نرى كيف أن بلاد العرب كانت طريقاً تجارياً عالمياً يجمع
بين الشرق والغرب ، لأن العرب لم يكونوا أمة معزلة عن العالم كما
يتصور بعض المؤرخين ، بل كانوا أمة محلت أكثر من سواها على
تقريب المواصلات بين الهند والعراق وفارس وجزيرة العرب وبين مصر
ومروية والبحر المتوسط .

وكانت في بلاد العرب طريقان عظيمان لتجارة بين الشام والمحيط
الهندي ، أحدهما يسير شمالاً من حضرموت إلى البحرين على الخليج
الفارسي ، ومن ثم إلى صور على البحر المتوسط ، والثاني يسير من

حضرموت أيضاً ، ويسير محاذياً البحر الأحمر منجنياً صحراء نجد
وعجيراها ، ومنجنياً هضاب الشطيء ودعورتها ، وعلى هذا الطريق
نقع مكة .

ولما امار سلطان اليمن قضى على ناصية التجارة عرب الحجاز ،
وعرب الشام ، وعرب العراق ، أي ان تجارة اليمن انقطعت بين القبائل
في شمالي الجزيرة ، فكان الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين
والحبشيين ثم يبيعونها على حشيمهم في اسواق الشام ومصر ، دبرت
فارس ، لان اسواق فارس كانت بيد عرب الحيرة من سكان العراق ،
وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارهم ، كما جعل عرب الشام بدمشق ،
وعرب العراق الحيرة . ووضع عرب مكة الطريق التجاري تحت حمايتهم
وعلى تجارة مكة كان يعتمد الزود في كثير من شؤونهم ، حتى فيما
يتجهون به كالحرير مثلاً .

وكان التجار يخرجون بتجارهم قوافل عظيمة ، وقد تبلغ القافلة
حماية و ألف بعير ...

وكان عرب الحيرة يتجهون بحماية قوافل التجارة الفارسية عند
مرورها في بلاد العرب ، مقابل مبلغ من المال بأخذوتهم من الفرس ،
ويقال ان الفرس استكثروا مرة هذا العمل فأبوا دفعه ، فهاجم
العرب قافلة فارسية وهزموا حمايتها ، وكان من اثر ذلك يوم ذي قار ،
وبه تقضى الشعراء وعدوه نصراً للعرب على الفرس ...

وكانت القوافل التي تذهب من بلاد العرب الى الشام تنزل في
اسواق معينة عينتها لهم الحكومة الرومانية لتعصيل الضرائب المفروضة
كما يظهر ، وكانت هذه القوافل اول ما تنزل في ابلاد الرومانية تنزل
في (ايلة) - العقبة - ومنها تذهب الى غزة ، وهناك تتصل بتجار

البحر الأبيض ومن غزه يذهب بعض التجار الى بصرى .
والعاصمة قبيلة من أزد اليمن قدموا الى حوران والبلقاء . لما بدأ سد مأرب بالتصدع ، وذلك في اواخر القرن الثالث السبعي ، وتزلزلت هذه القبيلة في مواطن قبيلة عربية سبقها ، وهم الضحمة ، واحذوا مكانهم في الجنوب الشرقي من دمشق على شاطئ الطريق التجاري الذي يربط مأرب بدمشق ، ثم تحسروا مع الأيام ، وتعلموا اللغة الآرامية السورية ، دون ان يفقدوا لسانهم العربي ، وفي اواخر القرن الحادي عشر المسيحي خضعوا النفوذ الامبراطورية البيزنطية لبيسني ، ووقفوا سداً متيناً بين الولايات الرومانية والقبائل العربية التي كانت يعبروها من حين الى آخر . ويظهر ان مصاصيهم لم تكن مستقرة في مكان واحد ، ففي الشعر العربي القديم ما يدل على ان الجبيبة ، واجنت وحليمه بالقرب من دمشق كانت عواصمهم . ووصلت محاصرتهم العاصمة الى ادوخ لاجمها ، واجم سلطانها في القرن السادس المسيحي ، وكذلك كان حال ملكة الحيرة مناظرتها ، ففي هذا القرن سيطر الحارث بن جبلة الفسافي ٥٢٩ - ٥٦٩ ، وانتذر الثالث بن ماء السماء الحارثي ٥٥٤ م على السيادة العربية فكان فيها ملء السمع ملء البصر ، ولما تمكن الحارث الفسافي من كسر شوكة منافريه اللخمي المنتصر سنة ٥٥٤ م ، عينه الامبراطور جوستينيان اميراً على القبائل العربية في سورية واعطاه لقباً هو الثاني بعد لقب الامبراطور نفسه في الامبراطورية البيزنطية . وكانت حرب الحارث بين الملصين العربيين النزاع على الاراضي الممتدة على جانبي الطريق الحربية من دمشق الى ما بعد ندمر .

وفد حرق الحارث حياته يحارب في سبيل الرومان البيزنطيين ، وسافر الى القسطنطينية ، واستعصر من الامبراطور امرأته هين المطران

بمقرب وهو من الرعا ونيساً دينياً بمغرب السوريين ، واليه ينسب اليعقوبيون
 اصحاب المذهب اليعقوبي ، وخلف الحارث ابن المنذر الذي اختلف مع
 القسطنطينية على مذهب اليعقوبي ، الذي كان يؤيده ونفساؤرخ في
 القاضية ، وفي سنة ٨٥٠ م زار القسطنطينية مع ولديه في عهد
 تيموريوس الثاني ، واستقبل فيها استقبالاً حافلاً ، وفي هذا العهد أيضاً
 حارب ملوك الحيرة ، واحرق عتقهم ، ونهضت هذه كاهل لم يمنع
 القسطنطينية من التفتت عليه واساءة الضم له وسجنه ، ولما حاول ابنه
 النعمان الثورة كان محبوساً مضطرباً والده .

وبعد السمر والنجاش بدأت مظهر العصب بغير ملكة الفساسنة ،
 واخذت القبائل العربية التي كانت تحت نفوذها تسفل عنها الواحدة بعد
 الاخرى . ولما زحف الفرس على البلاد السورية في عهد خسرو امبراطور
 فارس ، واستولوا على دمشق والقدس ٦١٣ - ٦٣٤ فاضوا على الفساسنة
 القضاء التام ، ولا يعرف بالتصديق فيما اذا كان هراقلدوس بعد انصاره
 على الفرس قد اعاد الى الفساسنة عريهم واجدادهم ، ولكن مؤرخي العرب
 يقولون ان جبلة بن الايهم كان آخر معركهم او امراهم ، وانه حارب
 مع الروم في معركة اليرموك ، سنة ٦٣٦ ، ويقولون انه اسير بعد ذلك ،
 ثم اُرند عن الاسلام لما اراد عمر بن الخطاب معاقبته لانه اعلم عربياً
 وخطيباً فضل اواره ، وعرب الى فيعبر ومات في القسطنطينية سنة ٢٠
 للهجرة .

وقد وصل الفساسنة في عهد الرومان الى درجة حسنة من العمران
 والحضارة ، وسبقوا ملوك الحيرة في حضارتهم وعمرانهم ، وكانت
 حضارتهم مزيجاً من الثقافات والحضارات المعروفة في عهدهم فهي حضارة
 رومانية سورية عربية يونانية في وقت واحد ، وترك الفساسنة من بعدهم

آثاراً عديدة ، منها القصور المختلفة ، واقواس النصر ، والفتاحات العامة ،
والدور ، والكنايس والمرايح ، حتى حوراث نفسها لا تزال تحوي الى
اليوم ما يقرب من بقايا ثلاثة مدينة ، ليس في اليوم منها الا اقلها .
وكان ملوك الفساسة من الادياء الذين يتدوفون الشعر ويجيئون
الشعراء ، وفند عليهم لبيد ، والنايفة وحسان بن ثابت ، فأحسنوا اليوم ،
واجازوهم .

ملوك الحيرة

واقعد عرست القبائل العربية ان تتحرك مواطنهم في الجزيرة ، ما كان الى
ذلك سبيل ، خصوصاً اذا خافوا ملاقاة ، او احسوا جدباً ، وفقرًا ، ولما
اخذت بلاد اليمن بالانحطاط اخذ اهلها بالهجرة الى ارجاء البلاد العربية ،
فسار ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز ، واستقر الى المدينة فملك اهلها وكان
اكثرهم من اليهود ، وسار حارثة بن عمرو . وهو من خزاعة . بن معه
فانضموا الحرم واجلوا عنه سكانه من جرهم وهم من اليمنيين ، وسار
عمران بن عمرو نحو عمان واستوطنهم ، وهم ابناء حمير ، وسار جفنة بن
عمرو الى الشام ، وهو ابو الملوك الفساسة ، ومنهم قبيلة حليم بن عدي
الذين منهم نصر بن دبيعة ابو الملوك المشددة بالحيرة ، ومنهم حلي . الذين
نزلوا الشمال الشرقي من المدينة المنورة .

وكذلك تفرقت القبائل اليمنية واحتلت الخصب بقاع جزيرة العرب .
والارجح انه حوالي القرن الثالث المسيحي نزلت (قبيلة من تنوخ)
ادعت انها قدمت من اليمن في ارض العراق ، وبصفت حياها الى جنوبي
الفرات ، ولعل هذا كان حوالي سنة ٢٢٦ ، لما ابارت الامبراطورية
البارثية ، وقامت الامبراطورية الفارسية مقامها ، وعاش التنوخيون

اول امرهم في الحيرة ، ثم استقروا في مدينة اسموها الحيرة ، وهي تبعد ثلاثة اميال جنوبي الكوفة ، وكانت في ارض خصبة غربيها فروع من غر الفرات وكان سكان الحيرة يكثر منهم من المسيحيين النسطوريين ، ويرجع الدروز بالناسهم الى بني تنوخ ، وقد هجروا الى جبل الدروز ولبنان لاجيال خلت ، لا نستطيع ان نؤكد من ذريتها بالضبط والتحقق .

وكانت الدولة الفارسية بعد الفرجة التي منيت بها جيوشها في عهد الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ ق م ، قد اصبحت دويلات صغيرة يحكمها ملوك يعرفون بتلك الطوائف وقد اتبع الاسكندر سياسة التجزئة هذه في بلاد فارس حتى لا تمهد هذه الدولة بعدد الدولة اليونانية الناشئة ، واستمر ملوك الطوائف يتولون حكم بلاد فارس الى سنة ٢٢٦ م حتى تبع فيهم اردشير بن بابك مؤسس الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان او الاكاسرة ، واستمر في الحكم الى سنة ٢٤١ م فوحسد كلمة الفرس في هذه ، كما اعاد الى سلطانه الاراضي العربية المتاخمة لبلادهم ومنهم الحيرة والاببار ، ومنعها الاستقلال الذاتي واقامها حدا بينه وبين الروم ، واحلافهم من الفرسنة على الحدود الفارسية البيزنطية .

وقد نشأت دولة الحيرة كما قدمنا في القرن الثالث الميلادي ، واستمرت الى ظهور الاسلام ، وكان لاسنها اثر كبير في الحضارة العربية ، فعززوا الترجمة في النجاء الجزيرة العربية واشتهروا بتعليم القراءة والكتابة فساعدوا بذلك على نشر العلوم والمعارف ، كما ساعدوا على نشر النصرانية في بلاد العرب لما اعتنق بعض ملوكهم الدين المسيحي ، وكانوا الى ذلك اي اهل الحيرة همزة الوصل بين الحضارة الفارسية والعرب .

واول ملوك الحيرة ، عمر بن عدي بن نصر بن ربيعة بن حنم ، واخبار

مملكة الحيرة وتطورها من هذا التاريخ الى ظهور الاسلام معروف متوفر ، كما تعرف اسماء خمسة وعشرين ملكاً من ملوك الحيرة ، من أشهر النعمان الاول الملقب بالأعور ، وهو الذي بنى الحورنق القصر المشهور على مقربة من الحيرة ، لينزله بهرم غور ابن يزدجرد الاول ٣٩٩-٤٢٠ م الذي اراد ان ينشأ ولده في البادية ، والحورنق قصر مشهور اصبح عليه الشعراء كثيراً من الاجلال والجمال والروعة ، وظل النعمان طيلة حياته وثقياً ، وفي فترة من الزمن راح يعذب المسيحيين وينتقم منهم ، ثم تبدل بعد ذلك واعتدل ، ثم بنى السدير وهو قصر آخر جميل اقامه بين سوريه والحيرة في الصحراء ، وفي ايام النعمان خليفة المنذر الاول ٤١٨-٤٦٢ م لعبت الحيرة دورها السياسي الخطير في التاريخ العربي قبل الاسلام ، واستطاع النعمان ان يحمل كهنة فارس واستراخا على مبايعة بهرام لعرش فارس دون غيره من المنافسين .

وفي سنة (٤٢١) حارب الامبراطورية البيزنطية مع الفرس ، وفي اوائل القرن السادس المسيحي حكم الحيرة المنذر الثالث بن ماء السماء ٥٠٥-٥٥٤ م وكان من رجال الحرب المعدودين ، حارب الروم غير مرة ووصل الى انطاكية حتى رده عنها الطارث العماني .

واما ابنه وخليفته عمر بن هند ٥٥٤-٥٦٩ فقد كان عاسفاً قاسياً ، وشعراء الجاهلية يذكرونه كثيراً ، وهو صاحب طرفه بن العبد ، والطارث بن حلزة ، وعمر بن كلثوم ، وقد لقي نهايته على يد عمرو بن كلثوم الشاعر ، لانه اهان والدته ، وحاول تحقيرها .

وانتهت مملكة الحيرة بالنعمان الثالث ابو قابوس ٥٨٠-٦٠٢ م ابن المنذر الرابع ، وهو صاحب الشاعر النابغة الذبياني ، واعتنق المسيحية ، وهو اول من اعتنقها من ملوك الحيرة ، ونقم عليه كسرى فحبسه ومات

في حبه ، ولم تبلغ الخيرة من العظمة والجلال في العمران ما بلغت بترا
وتدمر وملكة الغسانة ، وكان سكانها يتكلمون العربية ، ويكتبون
السريانية ، كما كان يفعل الانباط وسكان ندمر قبلهم ، الذين كانوا يتكلمون
العربية ، ويكتبون بالآرامية ، ومن المؤكد ان الخيرة كانت ذات اثر
يطبع على العرب الرحن في عهدها ، ويقال ان فرساً نقلت بعض عباداتها
الروائية عن الخيرة ، ومنها لغت الكتابة ، وكان سكان الخيرة يجوبون
الارض للتجارة ، واشتهروا بتعليم القراءة والكتابة ، وكانت علاقاتهم
مع فارس اقرب الى نظم المحاذات منها الى شيء آخر ، وكانوا يتعمدون
باستقلالهم الداخلي ، ولكن كسرى فارس كان يتعمد بمصاحبة اختيار
الملك من قبيلة حيم ، وادامات الملك عين من يختاره من اهل بيته .

وحلّ الضعف بالسلطنة مدة قبل عهد ابي قسايوس ووفاته في سجن
كسرى . وكان شعروب التي توالى بين الفرس وقباصرة القسطنطينية
الكبر الاثر في اخضاعهم ، لاخضرتهم الى موالاته الفرس في الحروب
المذكورة ، وكانت اول الحوادث التي توالى بها تذرة هزيمة المنذر بن ماء
السيا ، وقتله على يد الحارث بن ابي شبر الغساني في موقعة مرج حليسة ،
سنة ٥٥٤ م ، ثم هزيمة ابنه وقتله على يد المنذر بن الحارث الغساني سنة
٥٧٠ ، ثم نلى ذلك تشايع اولاد المنذر على تعرض ، ولما استتب الامر
للمنعمان بن المنذر غصب عليه كسرى وقتله كما ذكرنا ، ثم اقام مكانه
باسم بن قبيصة خلفاً للمنعمان على بلاد الخيرة ، ولم يصكن من اهل بيت
الملك ، واشترك معه رجلاً فارسياً في الحكم . وبذلك ضاع استقلال
المناذرة ، وظل الحال على هذا المنوال حتى زحف العرب على العراق
بقيادة خالد بن الوليد ، واستولوا على الخيرة سنة ٦٣٣ .

وكان من اثر هذا الضعف الذي تولى بملكة الخيرة ان نشبت حرب

(ذي قار) بن إياس بن قبيصة حاكم الحيرة وثأيب الفرس ، وبعض العرب من طي ، وهرا ، وباد وتغلب والتمر ، وبين العرب من بني شيبان في جموع مسن بعكر ، فكان النهر للعرب ودارت الدائرة على الفرس وانصارهم .

وفي يوم ذي قار يقول أبو تمام الشاعر يمدح أبا ذؤيب الشيباني :
إذا اختفرت يوماً تيم بقوسها وزادت على ما وطدت من مناقب
فانتم بذئ ذي قار أمالت سيوفكم عروش الذين استقرهوا قوس حاجب

ملوك كندة

وهناك مملكة عربية أخرى ، وهي مملكة كندة ، كانت تقع من اليمن موقف غسان من الروم ، والحيرة من الفرس ، وكان مواطنها في وسط جزيرة العرب .

ومن المؤكد أن كندة ترجع أصلها إلى قبائل جنوبي الجزيرة وكانوا يسكنون حضرموت ، ولكن هذه القبيلة القوية لا تذكر في الآثار القديمة قبل القرن الرابع المسيحي ، وأول من أسسها (حجر الكل المرار) وهو نسب أحد ملوك حمير - حسن بن ثوبة - وقد عينه لإقامة قومه سنة ٤٨٠ ب م وبعض القبائل العربية الأخرى في وسط الجزيرة . وفي فترة من الزمن تولى مملكة كندة هذه تسنوي على الحيرة لتفقدوها بعد ذلك بوقت قصير ، وذلك سنة ٥٣٩ ، وقد استعدها السند الثالث الذي قتل ملك كندة الحارث مع خمسين من العائلة المالكة .

وعلى أثر ذلك نشب الاختلاف بين أبناء الحارث ، فسقطت المملكة ، وارتدت كندة إلى حضرموت بعد أن خسرت سيادتها الفعلية على وسط الجزيرة .

ومن أبناء ملوك كندة امرؤ القيس الشاعر الجاهلي المشهور الذي حاول استعادة ملكه ، فذهب الى القسطنطينية بطلب مساعدتها فلم يوفق ، ومات بالفقر في طريقه الى بلاده مسوماً ...
ومن أشهر رجالات كندة في الاسلام الاشعث بن قيس الذي اشتهر في حروب سورية والعراق .

وكان ذريع ملكة كندة عبارة عن محاولة غير ناجحة تقوم بها قبيلة كبيرة ، لتوحيد القبائل العربية المختلفة تحت شعار واحد وملكة واحدة ، اسوة بالدول التي كانت قائمة حوفاً في سورية والعراق ، وجنوبي الجزيرة (١) .

- بقوا -

(١) يذهب بعض المؤرخين الى ان مدينة (نرا) هي التي ذكرها داود في مزاميره بقوله : من ذا الذي يبلودني الى المدينة الخفية ، لان نرا مدينة مخفوة في الصحور ومخفوة بها ثمرها هي احدى عجائب الآثار الشرقية ، بل هي اعجب هذه الآثار في نظر العرب والعراقيين ، تقع على الحد الشمالي الغربي لصحراء العرب في منتصف الطريق تقريباً بين خليج العقبة والبحر الميت ، فوق رأس جبل الذي تحت باحدى صحوره ، اما تاريخها فلم يبق الى اربعة مصور :

(١) مصر الجاهلية التاريخية وهذا العصر هو العصر الذي ظهر في الاحافير وما عثرت من خضد . (٢) مصر غداة الفريين يدل عليه ما ظهر من آثار يافية الى اليوم وما عثرت قائمة وضور عثرت حفراتها بالثقة الفروغية كما ترى على جدران الآثار المصرية سواء بموا . (٣) مصر اليوناني وقد حفر في الخارج المخوفة ما جمل حفرها واخرائن المسورة عثرت وما عثرت جدران هذه وثبت من الكتابة اليونانية القديمة . (٤) مصر الرومان تدل عليه المعابد والقصور الخفية المسورة على الطراز الروماني المظلم كالكهوف والمقابر وما حوفاً من صور رومانية هي آية في جمال الفن .

بني عهد واحد هو عهد بني حمر وبني مبيع حين سكنوا المدينة ولم يخلقوا بها شيئاً الا الذكرى التاريخية مسب .

وقد حاول المؤرخون جميعاً ان يثبوتوا على اسرار هذه المدينة والعمر الذي انشئت فيه ، عموماً من بينهم هذا ان انها كانت موجودة على رأس جبل هارون الذي تقوم على رأسه

اليوم أيضاً منذ القرون التاسع قبل الميلاد ، وكان عدد سكانها يقارب الفين الفاً .
 ورجعوا إليها كانت مملكة يسوم ، وسقطت الأناضول من سيطرة الساسانيين عليه السلام عام
 ٣٠٠ قبل الميلاد ، وقد حاربها اليونانيون ، ثم أثارها لابس مدينة أنطاكية وأنطاكية وذكرها
 (استرابون) المؤرخ اليوناني الذي عاش في بداية القرن الأول الميلادي .

ولقد كانت مدينة أنطاكية عاصمة أنطاكية القرن الرابع الميلادي ثم كانت إليها الحروب لا
 تحولت عنها طريق القوافل الآتية من الشمال قصد البحر الأحمر إلى خليج العقبة ثم يدرسها
 عام ٤٠٠ ميلادي إلا وقد هجرها سكانها وأصبحت مدينتاً ميسرة . وكانت كذلك إلى أن عثر
 عليها الاستاذ سيزون في رحلة الشرق عام ١٨٠٧ ميلادي . ثم زارها الاستاذ بيرنارد
 الألماني عام ١٨٦٢ مسكراً في زيارته لأعماله .

وأخيراً من زارها العالم الألماني الكسندر كينيدي ووصفها بالتالي :
 « إذا اتفقت الآيات على المدينة ، هجر على كل ما كانت وجوهها فرعون ذات الألفمة
 الخيلة التي يزعم الناس أن أحد أمراء مصر قد هجر بها في يوم من الأيام أنطاكية أنطاكية
 هجر في أمر يجره في الصحراء حين زار المدينة عام ١٨٠٧ ميلادي وأمر به هجرها مبدلاً
 لآلهة دابرس » .

« وترى على يشارك حين تترك تحت طرفة عين عظيماء عديداً ، يسير النوح من
 الناس حصص الأمان الوفرة ، وبها من مروج الجبال العظيمة . وهذا الموضع هائل
 الشكل أبدع في كبره ، لا تولى اليونانية يسوقه على اثنين فرجة مثابة » .

وقد كتب السير الكسندر كينيدي في أنطاكية مكتشف على مورس الأناضول والرومان وآثار
 أخرى من بينها قبر مؤلف من ثلاث طبقات حصاة فوقه من وهذا هو قبر ملكيتاس
 هورتيانوس أحد حكام أنطاكية الرومانيين .

والمدينة آية من آيات الفن والحول ، أثبت بها الساسانيون بواسطة نهر صفر
 يجره ندياً بآلاته المروعة ، فإذا دس في أثناء جريها ، إلى نيل مجرى في
 أجل ممره ستة عشر قدماً ، وإذا دس في ستة عشر قدماً ، وإذا دس في ستة عشر قدماً ، فإذا دس في
 إلى واحد عشر ، ولا يجرى في واديها إلا نهر من حدي في حديقته ، وأهل أنطاكية
 الذين يحولوا هذا النهر كما يحولوا مدينتهم ، مما عجب إذا حاربهم المؤرخون حيازة العصر ،
 وسوا أنطاكية الجيزة » .



الشرق القديم

الجزيرة العربية قبل الاسلام

— الحياة الروحية والدينية —

تقسيم العهد التاريخي العربي

- جرى بعض المؤرخين على تقسيم التاريخ العربي وفقاً للآثار العربية التي صار اكتشافها حديثاً الى ثلاثة اقسام (١) :
- ١ - العهد السبائي الحميري : وينتهي من القرن الثامن قبل المسيح وينتهي في آخر القرن الخامس بعده .
 - ٢ - العهد الجاهلي : وهذا العهد يوافق على المائة سنة التي سبقت ظهور الاسلام في الجزيرة العربية .
 - ٣ - العهد الاسلامي : وينتهي من ٦٣٢ بعد المسيح وهي السنة التي هاجر فيها رسول الله من مكة الى المدينة .
- والعهد الجاهلي هو الفترة التي كان فيها العرب لا يسمعون بدين ولا ايمان حقيقي وكان اكثرهم وثناً .

شمال الجزيرة

وبختلف شمالي الجزيرة عن جنوبها - وقد عرفنا التاريخ الجنوب - في ان اكثر مكانه من البدو الرحل وتاريخ هؤلاء البدو ليس الا

(١) تاريخ العرب الادبي : هرولد نيكولسن : الطبعة الاخيرة ، لندن ، ١٩٤١

عبارة عن هذه الغزوات التي كانت تقع بين القبائل بعضها مع بعض ،
وتسمى (أيام العرب) ويحصل فيها حروب ومعارك بكثرة فيها السلب
والنهب ، وبقل عدد القتلى والجرحى .

ومصادر هذا العهد ترجع الى ما كتبه المؤرخون المسلمون بعد هذا
التاريخ ثلاثة سنة او اقل او اكثر قليلاً ، اذ ليس هناك مصدر
عن هذه الأيام ، وليس هناك مصدر عربي قديم كتب عنها ابن وقوعها ،
ومنها يمكن في هذه المصادر من الحقيقة ، فها على كل حال مثل لما لونا
من الوان الحياة العربية في العهد الذي سبق الاسلام ، ولو كان في هذا
التصنيف بعض الاغراق والاسراف .

وكذلك لم يترك عرب الشمال ان يذكر قبل محمد ، وليس هناك من
المصادر المتعددة عنهم اليه ما يستحق الذكر ، او يساعد على تفهم
درجاتهم ، ودراسة حياتهم الاجتماعية على الوجه الاكمل والافضل .

الحياة العربية

ومن الثابت اليوم ان هناك بعض قبائل عربية عاشت في شمالي
الجزيرة ، كما ان بعض سكان الشمال تولوا جوارهم ولكن هؤلاء كانوا
اقلية لا سكاك تذكر .

واذا نظرنا الى تاريخ هذه القبائل التي لعبت دوراً خطيراً في تاريخ
الاسلام وقبل الاسلام ، وفي مصيبت الأيام ، فاننا نرى في تطور هذا الاخير
ما يدهش وينير العجب .

فقبيلة قريش مثلاً ، التي خرج منها القواد والحكام والابطال في صدر
الاسلام ، اصحت اليوم بمئة في بعض افراد من البدر الفقراء في الحجاز
وقد ذهب مجدها السابق ، ودالت سيطرتها السالفة .

وقيلة (طي) ذات الشهرة في الماضي ، والتي كانت يطلق بعض المؤرخين الأقدمين اسمها على جزيرة العرب كلها ، أصبحت اليوم بطناً صغيراً من قبيلة شمر .

والواقع ان الحياة في الصحراء قاسية شديدة لا ترحم الضعيف ، ولا تأسو على العافي البائس ، فكما يذهب الفرد في الصحراء غيبة باردة للوحش الصاري اذا لم يكن قادراً على الدروع من نفسه ، فكذلك تضيق مختلف القبائل اذا لم تدافع عن نفسها ، ويذهب حلفائها وتضطرب للاندماج مع غيرها من القبائل .

وبعض القبائل ترجع في اصولها الى رجل واحد ، كان كثير الولد ، وكان اولاده مثله كثرة وولداً ، فاسموا قبيلة جديدة حملت اسمهم . اسم الاب طبعاً (١) - واستقلوا عن غيرهم من القبائل ، وانضم اليهم جماعة تركوا قبائلهم ، لاسباب شخصية او لاختلافات محلية ، ومن هذا كانت الاكثار من الاولاد مقبداً للعربي ، لان في ذلك قوة له ، وتعزيزاً لمصيبته ، ونوعليداً لمركزه ..

والمفروض في زعيم القبيلة او شيخها ان يكون قوياً جريئاً باسلاً ذكياً حازماً ، فليس في الصحراء مكان للضعيف الجبان ، وليس ما يمنع قيام الابناء مقام الاب في زعامة القبيلة بشرط ان يكونوا مثله حزماء وقوة ، وان يكونوا في عصبة عندهم واؤدهم ، ومن الصعب على انسان في الجزيرة عرض سلطانه على غيره اذا لم يكن متعلّياً بالحفلات التي ذكرناها .

ذلك انه يصعب على العربي قبول حكم المتوسط الذكاء والدعاء ، والبسالة والجراثة ، وهذا الصناد من العربي ، وانكاره الانقياد لحكم غير (١) قد عمل القبيلة الجديدة اسم مكان ، او اسم حيوان من حيوانات المادية ايضاً .

العبري القوي الباسل من زملائه ، كان من نتائج عدم استقرار التاريخ العربي واضطرابه ، لأن المرافقة والوعاء الكبار لا يتناولون على الأرض بكثرة ، واشتراط العربي لحضوعه وجود زعيم كبير أو عبقري نابغة ، لم تكن الممالك العربية من الاستقرار والثبات ، وجعلها أبداً عرضة للاضطرابات والانحطارات .

وهناك شيء آخر أضرت القضية العربية والممالك العربية ، وهو صعوبة إقناع العربي بحقوقه غير قبيلته ، ذلك أن العربي لم يكن يحاول أن يعرف أن هناك في الحياة غير القبيلة ، ولم يكن يريد أن يفتن إلى أن هناك نظاماً سياسياً غير النظم السياسية الموجودة في الصحراء - والتي كانت معدومة طبعاً - ولذلك كان تقبله للنظم الجديدة صعباً ، وكان إقناعه بها لصحته مستحيلاً ، فالعربي كان يحب قبيلته ولا يعترف بشيء سواه في حياته الاجتماعية والسياسية ...

والذلك كان يصعب عليه العمل مع جماعة غير جماعته ، ولو كانت هذه الجماعة تعمل لحاجته ، لأن كان لا يفهم ذلك ولا يعرفه ، وإذا فهو ضعيف الوطنية كما نعرفها نحن ، لأن الوطنية عنده كانت بمثابة قبيلته ، بحيث أنه لم يكن يجد كبير أمر في محاربة القبائل العربية الأخرى حرباً لا هزاة فيها ولا رحمة ...

تقسيم القبائل

واقداً اختلفت قبائل عربية عديدة قبل الإسلام ، أو أنها ضعفت جداً ، وانضمت إلى غيرها ، وذهب اسمها والباقي منها كان يقسم إلى أقسام هذا تفصيلاً :

قبائل الشمال كانت مؤلفة من ثلاثة أقسام كبرى : وكانت تسمى

الاسماعيلية ، ومنها : مضر ، وربيعة ، واباد ، وهم أبناء تزار ، حفيد
عدنان ، من اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام .

فقبيلة اباد بعد حياة مضطربة ، اختفت من مسرح العربي ولم نتروك
خلفاء يذكرهم .

واشهر قبائل مضر : قيس عيلان وقد ايسوا دوراً حطيراً في بناء
الامبراطورية العربية .

ومن مضر هوازن : وكان منها هلال وكلاب في الماضي وعقيل
والمنتفك في الحاضر ، وهم يسكنون العراق اليوم .

ومنها : عدوان وسليم وغطفان ، وغطفان انقسم الى القبائلين
الشهريتين عيسى وذيبيان وكان العداء مستحكماً بينهما في الجاهلية ...

ومن مضر : قيس وكانت تسكن ناحية البصرة ، وهذيل التي كانت
تسكن جبالاً قريبة من مكة ، واسد وكنانة ، ونسكن جوالي
الطجاز ، ومن كنانة خرجت قريش ...

واشهر قبائل ربيعة : بكر وعبد القيس سابقاً ، وعنزة اليوم ،
وقد ظهوروا في القرن الثامن عشر ولا يزالون يسيطرون على الصحراء
السورية .

وقد كان بين ربيعة ومضر عداً شديداً ظل قروناً طويلة . وكانت
ربيعة تتحالف غالباً مع اليمنيين ضد قبائل المصريين :

قبايل جوالي الجزيرة

وأما اشهر قبائل جوالي الجزيرة العربية فلخم الذين اسسوا مملكة
العراق في الجزيرة ، وهمذان ، وطيه ، ومن طي خرجت قبيلة شمر
المعاصرة . والازد الذين كان منهم العباسية مترك الشام ، وخزاعة

الذين سيطروا في السابق على مكة حتى اجلاهم عنها القرشيون ، ثم
الايوس والخزرج الانصار من سكان المدينة .

وهناك فضاة التي كانت تقول انها بنية ، والتي تزاوجت مع القبائل
الشمالية خصوصاً مع مضر ، وبعض الشعراء يزعم انهم من عرب الشمال .
واحدة فضاة ان منها خرجت قبيلة (كلب) التي لعبت دوراً
خطيراً في اول عهد الدولة الاموية ، والتي كانت ام يزيد بن معاوية منها .
وليس هناك شك في ان الحلاف السيامي بين كلب ، وقبس عيلان
كان من الاسباب التي قضت على الدولة الاموية .

ومن فضاة ظهرت جالغ ، وتنوخ ، وجبنة .

وهناك غير هذه القبائل الكبيرة ، قبائل صعدة ، لاثال حتى
يومنا هذا ، كحطيم ، والشرارات ، ولسيب ، ولاشان سيامي لهذه
القبائل .

وقبيل الاسلام نجده قبائل عربية كثيرة على الحدود السورية
والعراقية وبعضها كان قد تخطت هذه الحدود ، وراح يسكن في الارض
السورية والعراقية ، كقبيلة (بكر) فبنهم كانوا يتولون الارض التي
نسبت اليهم وهي (دبر بكر) وقبيلة (كلب) وكانت تسول تدمر ،
وتسيطر على الطريق النجدية الذي يمر فيها .

كل شيء هادي

وكذلك كانت الحالة هادئة في الجزيرة العربية في هذه السنوات
الاولى التي سبقت ظهور الاسلام ، وكان العرب الى ذلك لا يزالون
يصرفون اوقاتهم ، وينقسمون حياتهم على النحر الذي وصفناه ، وذلك
ما بين غرو وخلاف ، وسمي خلف الكلاء ، وشرب للخمرة ، ونشيب

بالنساء ، وقول للشعر ، وعبادة للأوثان ...

ولم يكن هناك في الواقع ما يدل على الحضر القريب ، والحادث العظيم المنتظر فقد كان اهدوء بلا الجزيرة ، وبسير على النحو الذي كان يجري عليه لعشرات خلت من السنين .

وفي الجنوب كان المسيحيون واليهود يعملون للسيطرة الواحد على الآخر . وكانت بعض الامصار الشمالية من الجزيرة العربية تحت حكم القرص بينما كانت اقسام اخرى في الشمال تحت السيطرة البيزنطية . اما وسط الجزيرة فقد كانت بعيدة عن السيطرة الاجنبية ، وخلو من الاختلافات الدينية ، بحيث استطاعت قبل ان تفتح حرة ، وفرد بعضها بعضاً اجنبياً ، وتتكمش اجنبياً اخرى ، لا تعرف الاتفاق ، ولا تؤمن بالانحداد والعمل المشترك .

وفي هذا الجو افردى ، - من حيث ان الاختلافات بين القبائل العربية بعضها مع بعض كان شيئاً عادياً . كان بعض العرب قد قبلوا اليهودية او المسيحية ، واما وسط الجزيرة فقد احتفظ بوثانيته واصنامها . والذي لا شك فيه اليوم ان العرب كانوا يؤمنون بكائنات اعلى محيط بالعالم وما يحويه من كائنات هو خائفها ، وانه الذي يرسل عليهم المطر من السماء ، وكانوا يعتقدون الى ذلك ان ليس له كهنة ولا هياكل كذلك التي خصوا بها اوثانهم .

وكانوا يعتقدون الجن ويوجدونهم ، بسبب صناديقهم الواسعة التي كانوا يصلون فيها الاماسيع فيتمثلون فيها الروى المختلفة الخيفة المظلمة ، وكانوا يؤمنون بان اجسام الجن تشغل جزءاً من الفضاء وانها مخلوقة من النار او الهواء فلا تراها العين ، وان يعطوهم افشاء اثير او الشر الى الانسان ، فعليهم والحالة هذه تجيدها وتقديسها ، كما راحوا يعتقدون

ان لكل جني موطناً خاصاً به ...

مكة وامامها

وعبد العرب الاصنام المختلفة ، وكان لبعض القبائل اصنام خاصة بها ، كما عبد البعض الآخر الشمس ، وغيرها القمر ، وبعضهم النجوم . ولكن الحياة الدينية عند العرب كانت ضعيفة جداً ، وكانت هناك بينهم من ينكر عبادة الاصنام ، ويفكر في الحياة الأخرى ، ولكنهم كانوا جماعة قليلة وعدداً محدوداً ، وتفكيرهم الديني كان ضيقاً قاصراً . وكانت مكة مهد الوثنية ومهد التثنية في وسط الجزيرة ، وقد بنى قريش في مناصب القرن الخامس الميلادي ، في واد رملي شديد الضيق ، حتى لا يبلغ أقصى اتساع فيه نحو سبعمائة خطوة ، وأما ضيق مكان عبه فلا يزيد عن مائة خطوة ، تكسفه جبن عمودية مقفرة يتراوح ارتفاعها بين مائتي قدم ومحمائة .

وفي مكة كانت الكعبة ، وقد صار بناء مكة حول الكعبة ، والكعبة اقدم من مكة بما يذهب تقديره على الوجه الاحدق والاصح ، والكعبة (١) مؤلفة من اربع حوائط مبنية بحجارة لم يصبها الصقل ، وقد رصف بعضها الى بعض دون ان يداخلها الملاحط ، وغضبت بثلاثة او بقطعة من القماش ، وأما ارتفاعها فيزيد عن ارتفاع الرجل ، وأما مساحتها فتبلغ مائتي قدم .

وكان لقريش اصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان اعظمها هبل ، وهو الصنم الرئيسي بين اصنامها منذ النصف الاول من القرن الثالث ، وهو فتال من عقيق احمر على صورة انسان مكسور اليد اليسرى ، وقد ادركته (١) حيث كدلت لأنها ترف من يده على شكل مكعب مضم الاملاخ .

قريش كذلك ، فاجعلوا له يداً من الذهب ، وجلبه من الخارج بعض رؤساء قريش ، ويقال ان اول من سبه خزينة بن مدركة ، وكانت يقال له : (هبل خزينة) وكان هبل في ذلك العهد رباً لقبيلة قريش ، واما الكعبة نفسها فلم تكن ملكاً لهم بل كانت مشاعاً لا كثر القبائل التي تربطهم بها وشائج المصلحة السياسية والتجارية العامة ، بحيث ان الكعبة كان لها صيغة عامة لاحكامها .

ورضعت كل قبيلة من هذه القبائل التي تربطها الكعبة مذهباً سياسياً او دينياً او تجارياً كما قدمت ، وصمم الذي عمده في الكعبة حتى بلغ عدد الادواب ثمانية وستين صنماً ، وكان اللد مع الذي سائداً لا يظهر عند هؤلاء العرب الوثنيين ان كانت ترى في الكعبة مع الالهة صورة ابراهيم الخليل وصور الملائكة ، وصورة المنزهة مع مالهسا المسيح عيسى بن مريم .

الحجر الاسود

وكان العرب انى ذلك يقدسون الحجر الاسود ، وهو قطعة من الحجر البركاني ، تلج في الخلاء بقدر بظورية ، وتبدو في بعض جهاته قطع صغيرة من النوع الذي يقاتلون عليه اسماء فياسمار ، لونها حمرة احمر باسفله ظلال قذمة ، وتارة امير بين الى السواد . وقد تماورته فنوف مختلفة ، فكسر اكثر من مرة حتى غدا في هذه الايام مؤلفاً من اثني عشرة قطعة مضمومة بعضها الى بعض ، والاكثرية على انه حجر مقعد من السماء .

تقديس الكعبة

والظاهر ان قريشاً مع الايام زادت في تقديس الكعبة ، وزاد
اجلالهم لها ، حتى قدسوا ما جاورها من البقاع ، التي خلعت عليها الكعبة
مسحة القداسة ، ثم اصبح ما يكتنفها الى بعد عدة فراسخ حراماً لا يجوز
لكائن من كان ان يفتك بانسان فيها ، او يصفطاد من حيوانها احتراماً لها .
وروى ابن الكلبي في كتابه الاصنام ، انه كان لا يظمن من مكة
قناع الا احتل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للكعبة ،
وصابة بكة ، فحينما حلوا وضعموه ، وحافظوا به كطوائفهم بالكعبة تيمناً
مهم بها ، وصيانة بخرم وحباله ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة
ويحجون ويعتدرون على ارض ايهم اسماعيل من تعظيم الكعبة والحج
والاعتبار .

وكان يؤم الكعبة في كل عام من العرب في اجاهلية جهور غفير من
الناس لادوية الشداير المريفة ، وحضور الاسواق النجارية التي كانت
تقام حول مكة وقت الحج .

عبادة الاصنام

ونقول المصادر العربية القديمة ان اول من ادخل عبادة الاصنام هو
(عمر بن خفي) وانه اول من بدّل دين اسماعيل ونصب الاوثان ، وقد
جسّد في كتاب الاصنام : ان السبب في ذلك انه مرض مرضاً شديداً
فقبل له : ان في البقاء من الشام (حق) ان انتبى براءته ، فانها فاستعم
بها فبراً ، ووجد انهم يعبدون الاصنام فقال :

— ما هذه ؟

فقالوا : نستقي بها المظفر ، ونستنصر بها على الممدد .
 فسأهم الله بمطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة .
 ولكن عبادة العرب الاولى فقدت معناها الاول ، وقوتها الباقية في
 القرن السادس من المبلاد ، ودب فيها الفساد ، وتغير جوهرها فاصبحت
 طائفة من الحرافات والالوهام ، كان يعرف ذلك منهم - اي من اهل
 مكة - بعدد كبير من الزعماء وغيرهم ، ولكنهم ظلوا يحتفظون بها
 للفائدة التجارية التي كانت تدرها عليهم من وجودها في مكة وحج
 العرب لمكة وطوافهم حول الكعبة واحسانها ، ومن اجرهم مع هؤلاء
 الطعاج من العرب ، ويبيعهم ما جلبوه من البضائع المختلفة الى مكة ،
 اذ كانت مكة مركزاً تجارياً عظيماً ، وطريقاً برياً للتجارة العالمية في
 ذلك العهد .

ومن المؤكد لدينا اليوم ان رجالات مكة ، وهم الذين يدل التاريخ
 على انهم كانوا ينعمون بذكاء ومعرفة عظميين ، ما كانوا يؤمنون
 بادباب بضمونها بلديهم من الحجارة والخشب ، لولا هذه المصلحة التجارية .
 كانوا في ظاهر امرهم يحددون هذه الابواب ، ويحبسون الى بحراها
 ويحفظون بواصي السنوية ، ويحبسون القرابين في هياكلها ، ويوقنون
 دعاءها على تلك الالهة التي يعبدونها ، سواء اكانت من الحجر ام من
 الخشب ، بل لقد كانوا يلجأون اليها كلها خرمهم امر يلتمسون منها
 البركة ، ويشكفون بواصفيها مستقيل امرهم القوي .

ومن المؤكد ان عقيدتهم فيها لم ترد على هذا القدر من المظاهر ، اما
 فيما عدا ذلك ، فقد كانوا لا يترددون في تحطيم آلهتهم اذا لم تحقق
 نبوءتها ، وقد نزل ناجدهم كارثة فينزل لاحد الاصنام ان يذبح نعمة
 قرباناً له اذا تكشفت عنه ، فلا يكاد يزول عنه المظفر ، حتى يستبدل

النعمة بغزال لا يكلفه ثمنه أكثر من أن يضطاده بيده ، يفعل ذلك ثقة
منه أن هذا المعبود لا يفرق بين النعمة والغزال ، والنعمة طبعاً أكثر
من الغزال : وكان حقيقة عند العرب لأنهم كانوا ينتقمون بلبسها
وسوقها ولحمها ، وأما الغزال فكان محدود الفائدة ، سهل الصيد ..

ثم إن تبهوات الألفه أو الأصنام ثم يكن ما فيه عديم ما لم يوافق
رغبتهم ، وفي التاريخ العربي الكثير من قصص الأعراب الذين قتل أبوم
فراحوا يستشيرون الأندلس في التآمر له على طريقته ، فلما لم ترضهم
نتيجة الاقتراع خسروا وجه الحزم فالتفتوا :

.. لو كان أولئك يقولون ما رخصت التآمر له ..

وكان يار حنيفة وهم قبيلة من العرب أقل الناس احتراماً لأنفسهم ،
أدكوا ما كانوا يكرهون ، لأنهم كانوا يحتمونهم من العجوة واللبس والزبد ،
فأدكوا وقعدوا في قحط أو مجاعة أكلوها ..

وفي كل ما خدم يردون على أن العرب لم تكن عظمى الإيمان بأصنامها
التي لم تكن نفعهم ولا ضررهم ..

عند شتى

والعرب إلى ذلك لم يكتفوا بإجماعهم عبدة أوثان وانصاب ، فقد
كان هناك بينهم - وهؤلاء أقلية طبعاً - من يؤمن باليهودية ومن يؤمن
بالسحرة ومن يؤمن بالحفية ، والحفية هذه فكرة روحية دينية ، تولاهما
بعض العرب قبل الإسلام ، وكانوا يرددون أصلياً إلى إبراهيم نفسه ،
ومنهم من كان يؤمن بحجة ثانية بعد هذه الحفية ، ويدفن باليوم الآخر ،
ولا يقف عند حد الاعتقاد ببعث الإنسان بل يبعث الحيوان أيضاً
ومن ثم كان يدفن واحلته إلى جانب أو يتركها تقوت على فجرة ليركبها

يوم البعث ، فلا يتكبد عنه السير على قدميه .

ولكن سوادهم كان ينكر فكرة البعث ويسخر منها ، وكانوا
يدينون برأي القائل :

حياته ثم موت ثم حشر ... حدثت خرافة بالأمم عمرو ...
وهذه الفكرة من تأثير اليهودية طبعاً لأن بعض اليهود ويسمونه
بالصدوقيين نسبة إلى الصدوق ، وهو من أمرة أوستقراطية ومن أحياء
بيت المقدس كانوا لا يعتبرونه غير الزوراة المكتوبة ، ويرفضون
كل ما عداها بما زعموا عليه من الأحداث المروية عن موسى ،
كما كانوا يرفضون كل ما اخبرنا به من الدسيس والشيوخ التي ادعوا
عليها من جده بعد موسى من رجال الدين والمسيح ...

ولهذا رفض الصدوقيون الأيمان بمحمد الأسس التي أنشئت عليها الديانة
اليهودية ، ولم يؤمنوا بالبعث ، ولم يقبلوا فكرة الخلود ، ولا فكرة
الجزاء في الدار الآخرة .

والذي يستعربه المؤرخون هو انه مع جميع خرافات الديانة العربية
وخرافاتهم ، فلا المسيحية ولا اليهودية فككت من التأثير على العرب
وحمل هذا الشعب البدوي المتعمش إلى المعرفة على ترك دينه ، واعتناق
دين جديد .

نعم لقد انتشرت المسيحية في بعض أنحاء الجزيرة العربية ، انتشرت
في سوريا ، وغزت مدينة نجران من بحال اليمن في جنوبي الجزيرة ،
ودامت بها شبه جزيرة سيناء ، ولكن هذا الانتشار كان محدوداً ضعيفاً
وأما في أواسط بلاد العرب ، وفي قلب الجزيرة ، فلم تجمع المسيحية في
كثير ولا قليل ...

ويقرر لثسا (دوزي) في كتابه عن تاريخ الأندلس قتل

المسيحية (١) ، وبأنها بما تحويه من معجزات واعاجيب ، وبما فيها من عقيدة
 التثليث ، لم تكن تنعم بما يساعد على التبسط في الجزيرة ، ولا بما
 يمكنها من التأثير في نفس العربي على الوجه الاكمل والاسع ...
 ويضرب لنا دوزي مثلاً حديث الأسقف الذي زار في سنة (٥١٣)
 المنذو الثالث ملك الخيرة بمحاول اقناعه باعتناق المسيحية فلم يوفق ،
 وبقيت علينا قصة جرت بين الأسقف والملك لا تزي فائدة من سردهما
 وليراجعها القارىء في مصدره . . .

اليهودية في الجزيرة

اما اليهودية فكانت اكثر حظاً في الجزيرة الى حين ... نزل عدد
 كبير من اليهود الجزيرة العربية بعد ان شردهم الامبراطور اورليان
 الروماني ، وبثوا دعواتهم فيها ، فدان اليهودية بعض قبائل الجزيرة ،
 حتى سيطروا على اليمن فترة من الزمن ...
 ولكن هذا الدين ايضاً لم يلق تأييداً من العرب ، لانه دين غامض
 مليء بالشكوى والآمال الغامضة ، وليس هذا بما يلائم العقل العربي .
 الذي كان قبل الحداثة الدينية كما قدمنا ، والذي كانت حياته نهياً مقصداً
 بين امرأة والغرور والاخذ بالثأر ودبح الذبائح واقامة الولائم ...
 والواقع ان العربي رجل محلي مادي ، لا يعني بميراثه حتى في
 شعره ، فهو لا يسبح في الحيات والوهم ، ولا يميل الى الاخذ بالافكار
 والمعصيات الدينية ، التي يمتد الانسان في امتيعها على التخيل اكثر
 من اعتماده على العقل .
 وليس ادل على ذلك من هذا الشعر الذي تركه شعراء الجاهلية

قبل الاسلام لنا ، فاننا - وهؤلاء الشعراء يمثلون جبلهم وتعكير زمهرهم طبعاً - لا نراهم يذكررون في شعرهم ديناً او عقيدة ، ولو عرضنا قصائدهم لم نوفيها اذا استقبلت اسم الآفة وبعض الشعراء المخلقة ، إلا عبارات مقتضية لا تكاد تفسر لنا شيئاً عن عقائدهم وادبائهم ...

ولكن هذا كله لم يمنع جماعة قلبية من العرب من تقبل الوجدانية الالهية والايان بالغة ... وكان هذا الايمان خطراً في القرون السادس بعد المسيح حين نسمع بعض الشعراء العرب يذكررون انه والوجدانية في قصائدهم ، كما نشاهد في اشعارهم شعوراً يفتأ بالبيعة اثرتية على ما تصنعهم ايديهم من خير او شر ، وهذه الفئة من الناس كانت تسمى (الخفاء) ، وكأوا كما يظهر ، لا يؤمنون بجمعة واحدة ، ولا بفهم مذهب بعينه كما يفعل العاشية المتأسبون الى ابراهيم والذين كانوا يسمون انفسهم حنفاء ايضاً ، وكان من بين الطائفتين من الخفاء رأي واحد في رفض اليهودية والسبعية معاً ، والاعتراف بدين ابراهيم والد جدهم اسماعيل مؤسس الكعبة ...

وكانت الخلفية مذهباً لنا جميعاً ، مذهب السبل ، سهل الاسافة هؤلاء العرب العمليين ، ولكن لم تكن قايمة مغيرة ، ولا كان هبة روحية ذات سيادة دينية ، فكان ذلك سبب ضعفها وعدم تبسطها ، وقوعها في مكانها ، وانهارها بعد ظهور الاسلام ...



خارطة بلاد الفرس ومصر والموتة البدوية في الشرق القديم

مكة وتاريخها قبل الإسلام

— الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الحجاز —

مصر محمد بن عبد الله

وفي هذه الأثناء ، وبينما كانت الحياة في الجزيرة تسير على النحو الذي وصفناه ، وفي الوقت الذي انتهت فيه الحرب العديدة الطويلة القاسية بين الرومان والفرس ، وذلك في أوائل القرن السابع الميلادي ، ولما ظن الناس أن الحياة ستعود سيرتها الأولى ، وأن السلام سيمود الشرق الأدنى ، بحيث تنصرف الدولتان إلى تعمير ما تدم من بلادها وتنظيم ما تدمع من أسباجها ونظمها ، ظهر في مكة شيب عوفي لم يغفل أحد إلى عظيم شأن وكبير خطره ، أخذ يفتك أظفار الناس إليه بأخلاقه وهذره ومحقق نظرائه ، وكان ظهور هذا الشيب الذي أبصر النور في أواخر القرن السادس الميلادي مؤذناً عهد جديد ، وحدث عظيم ، فما هو شأن مكة في تاريخ العربية ؟ ومن هو محمد بن عبد الله ؟

تاريخ مكة

في تاريخ مكة شيء من الغموض ، واغلب الظن أنها ترجع في تاريخها إلى مئات تقطعت من الأعوام قبل الأعلام . . . وهي أن ذلك تقع في طريق القوافل التي كانت تضرب الأرض في

الجزيرة قبل الاسلام وبعد قليل ..

وكان العمالة اول من سكن مكة ثم خلفهم قبيلة جرهم البدوية عليها
وفي عهدهم تزوج اسمعيل بن ابراهيم وصاهر الجرميين ، وسكن بينهم ،
فلما رآه ابراهيم بعد ذلك نادى على رافع القوامد من البيت الحرام ،
ليتوجه الناس اليه الى ان وحده ..

ومدت اسمعيل نوقى امر البيت بعهد ابنه ثابت ، وهو اكبر
اولاده ، ثم تولاها ولادة من جرهم ، واستمرت ولايتهم عليه الى سنة ٢٠٧
بعد المسيح .

وظل امر مكة لجرهم بعد ان غلبوا العماليق عليها الى عهد مضاض بن
عمرو ابن الحارث ، وراحت لجرهم في عهدهم ، كما نضب ماء زمزم واخذ
عرب خزاعة يفتكرون في الوثوب الى ماء صب الامر في البلد الحرام .
وانقضت جرهم في يومهم . وحين ذلك مضاض بن عمرو ،
واذرك انت الامر رائي عنهم ، وحق حفر زمزم وعهد الى غز الذين من
ذهب كانت مع طائفة من الاموال الكعبة ، مدفعا بقذع البئر واهال
الرمال عليها ، وخرج معه بنو اسمعيل عن البلد الحرام ، ووليت خزاعة
الامر فيه ، وظلت تنوارث حتى آل الى قضى بن كلاب الجد الخامس
لنبي . . .

رجوع قضى

ولما رجع قضى (١) الى مكة بعد اشوام عديدة سنة (٤٠٠م) كانت
سدانة البيت في خزاعة حليل بن حبشية ، فتزوج قضى ابنته ، ووقفه الله
(١) اجمع المؤرخون على ان حريش تقدمت منه قضى بن كلاب الجد الرابع لرسول
عليه السلام من ولد كندة اذ يرجع نسبه الى عبدمنان ويتهي الى احماع .

في تجارته فزادت امواله وفشا شأنه ، وعظم شرفه ، حتى آلت اليه
سدانة البيت ومفتاح الكعبة ، وحتى تمكن من اجلاء خراطة عن البيت
الحرام بمعونة قريش وبعض القبائل الاخرى .

ومما تم لقضي امر مكة جمع قريشاً وامرهم ان ينوابوا ، وابنداً هو
مبنى دار الندوة يجتمع فيها كبار اهل مكة تحت امرته ليتاورروا في
امورهم ، ولم يكن يتم امر الا بموافقته ، فم تكن تنكح امرأة ولا
يتزوج رجل الا في هذه الدار ، وبنت قريش يامر قضي حول الكعبة
دورها وتركوا مكاناً كافياً لاطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين
طريقاً ينفذ منه المظاف .

وكان عبد الدار اكبر ابناء فصي ، لكن اخاه عبد مناف كان قد
نقدم عليه امام الناس وقد شرف فيهم ، فبدا كبر فصي وضعف بدنه
وعجز عن نوفي امور مكة جعل الحجابة لعبد الدار ، وممن اليه مفتاح
البيت كما اعطاه السفينة والاثواب والهدية ، وكانت الزفدة قسماً يخرجها
قريش كل عام من اموالها فندفعها الى قضي يمنع منه في موسم الحج
طعاماً ينال منه من الحجاج من لم يكن ذا معة ولا راء .

ونولى عبد الدار مناصب الكعبة كما امر ابيه ونولها ابنائه من
بعده . ولكن ابناء عبد مناف كانوا اشرف في قومه واعظم مكانة ،
لذلك اجتمع هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بنو عبد مناف على ان
ياخذوا ما بأيدي ابناء عمومهم ، وتفرق رأي قريش لتصر طائفة هؤلاء ،
واخرى اولئك ، وعقد بنو مناف حلف انطيين لانهم غموا ايدهم في
طيب جاؤوا به الى الكعبة ، وافسوا الا يقضوا حلفهم ، وعقد بنو
عبد الدار حلف الاحلاف ، وكان هؤلاء واولئك يوشكون ان يقتلوا
في حرب نديب قريشاً ، لما تداعى الناس الى الصلح على ان يعطوا بني

عبد مناف السقاية والرفادة ، وان تبقى الحجابة واللواء والنفقة لبني
عبد الدار ، وورثي الفريقدان بذلك ، وفضل الامر على هذا الحل الى ان
جاء الاسلام .

احمد بن محمد

وكان منهم كبير قومه وكان ذاب رعي السقاية والرفادة ودعا
قومه الى مثل ما فعلهم اليه فصي جده ، ودمهم الى ان يخرج كل منهم من
ماله ما يشاء في اصداء الخراج التذوي الموم ، وانصل به وكرمه باهل مكة
الذين هم ، وله اجبت مواشيهم ، وهم في ايام الجذب والقطط ، وهاتم
هو الذي من رحلتي الشتاء والصيف . رحلة الشتاء الى اليمن
ورحلة الصيف الى الشام . وهذه المظهر كلها ازدهرت مكة وسمت
مكاتها في الحوض الجارية ، واعتبرت العائمة المعروفة بها ، وسهل
هذا ازدهار لائلاء عبد مناف ان يقدوا معاهدات امن وسلام . وقد
عقد هاتم بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ومع امير غسان معاهدة
حين جرار ومودة ، وحصل من الامبراطورية على الاذن لقروش بان
يجوز لهم في امن وملاينة ، وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع
النجاشي كما عقد نوفل وانطاب حلفاً مع فزرس ومعاهدة تجارية مع
الخيريين في اليمن . وكذلك ازدهرت مكة منعة جاء بها ازدهار يساراً ،
وبلغ اهلها من الشهرة في التجارة حتى اصبحوا ولا يدانيهم فيها مدائن
من اهل مصرهم ، كانت القوافل تجيء اليها من كل صوب وتصدر عنها
في رحلتي الشتاء والصيف ، وكانت الاسواق تنصب فيها حولها لتصرف
هذه التجارة فيها او تخبرها عنها ، ولذلك مبر اهلها في النسيئة والربا
وفي كل ما ينصل بالتجارة من امسيات المعاملات .

وظل هاشم يتقدم به السن وهو في مكانه على رئاسة مكة لا يفكر
أحد في منافسته حتى خيل لابن أخيه أمية بن عبد شمس أنه قد بلغ
مكاناً يسول له هذه المنافسة ، ففعل فم يوفق ربه .

الخطب

ومات هاشم فخلفه أخوه الخطب في مناصبه ، وكان الخطب أصغر
من أخيه عبد شمس ، ولكنه كان ذا شرف ومقدل وكانت قريش
تسميه الفيض لشهامته وقضاه .

وفكر الخطب يوماً أن أخيه هاشم ذهب إلى المدينة وطالب إلى
أمه أن تدفع إليه الفتي وقد بلغ أشده ، وأردف الخطب الفتي على
بعمره ودخل مكة فظنه قريش عبداً له جاء به ففداه بحت : عبده
الخطب . . .

فقال الخطب : ويحكم الله هو ابن أخي فدمت به من المدينة .
على أن هذا اللقب غلب على "الفتي" فدعي به ونسي الناس أهم شبة
التي تسمى به منذ ولد .

وأراد الخطب أن يرد على ابن أخيه أموال هاشم ، لكن نوفل ابن
ردمعه بده عليه ، فلم أشد ما عند عبد الخطب استدمى أخواله بالمدينة
على عمه كي يردوا عليه حقه ، وأقبل ثنونا فارساً من خزرج يثرب
لنصرته ، فأنظر نوفل إلى رد ماله إليه ، وقدم عبد الخطب في مناصبه
هاشم ، له السقاية والوفادة من بعد عمه الخطب ، وقد لقي في القمام
بمنزلة المنصبين ، والسقاية بنوع خاص ، شيئاً غير قليل من الثقة ،
فقد كثر إلى يومئذ وليس له من الأبناء إلا ولده الحارث ، وكانت

سقاية الحاج يؤتى بها منذ نضجت زمزم ، من آبار عديدة مبعثرة حول مكة فتوضع في أحواض الى جوار الكعبة ، وقد كانت كثرة الولد عوناً على تسخير هذا العمل والإشراف عليه ، فأما ولم يكن لعبد المطلب من ولد حين وفي السقية والرفادة إلا الحارث فقد عناه الأمر وطال فيه تفكيره .

حضر زمزم

وكانت العرب ما تزال تذكر زمزم منذ طهرها ماض بن عمرو لثلاثمائة سنة خلعت من السنين ، وتسمى لو أنها كانت بقية ما تزال ، وكان عبد المطلب بطبيعة مركزه أكثرهم تفكيراً في هذا الأمر واشدهم قنياً أن يكون ، وأصح هو باحثاً عن زمزم حتى اهتدى اليها بين الوثنين أطراف مكة ، وجعل يحفر مستعرباً به الحارس حتى نبع الماء وظهرت غزاة الذهب والفضة ماض الحرمي ، وإرادت فريش أن تشارك عبد المطلب في البئر وفي ما وجد بها فقال لهم :

« لا . ولكن هلموا الى امر نصف بيني وبينكم ، يضرب عليها بالقداح ، فتجعل للكعبة قدحين ، فمن خرج قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . »

فارتأوا رأيه ثم أعطوا القداح صاحب القداح الذي يضرب بها عبد هبل في جوف الكعبة ، فتخلف قدح فريش وخرجت الاسياف لعبد المطلب والفراتان للكعبة ، فضرب عبد المطلب الاسياف باياً للكعبة ، وضرب في الباب غزاة التي الذهب حلبة للبيت الحرام ، وأقدم عبد المطلب على سقاية الحاج بعد أن يسرت زمزم له .

وأحسن عبد المطلب قفة حوله في قومه لقلة أولاده فندب أن يولد له

عشرة بنين ثم بلغوا معه حتى يتبعوه من مثل من بقي حتى حضر زمزم
ليتمرن احدهم ثم عند الكعبة - وثواني بنوه عشرة انفس فيهم المقدرة
ان يتبعوه ، فدعاهم الى الوفاء بنفوسهم فطعنوا ...
ثم قتلت لقومه الحيلة ففدى نذاهم من الابل ، فنحرت كلها
ووركت مكانها لا يصد عنها انسان ولا حيوان ولا ينفع .

الكعبة ومكة وفريش

والكعبة بيت صغير مربع الشكل يحيط به بناء مكشوف ، وهي
الى ذلك رمز القريش العربية ، فقد كان لكل قبيلة فيها صغار ،
وقال اهل ، حرم فريش وهو من العتيق ، كانوا له اكثر احتراماً
وتقديساً من جميع الاصنام الاخرى .

وقد اصبحت فريش في مصحة وحول الكعبة حكومة جمهورية
مصفرة ، ولما كانت فريش قبيلة نجارية فقد رأت من حسن
السياسة واللباقة الحيلة ان تتخذ جرماً من الارض الفدوة توليه احترامها
وتعتبره مقدساً وتجعله حراماً لا يجر فيه القتال ، واخذوا على عاتقهم
حمايته فاطمأنوا عندئذ الى انهم في امن وسلام من اعتداء القبائل عليهم
ونشوب المعارك في جوارهم ، وقد زاد في عهد فريش انهم في مكة ،
وان الكعبة في مكة .

واما نظام الحكم في فريش فلا يذكر التاريخ عنه شيئاً مسكوراً
قبل عهد قصي الذي انشا دار الندوة بمكة ، وكان له من مظاهر الرياسة
اربعة امور :

١ - وثامة الندوة حيث تلتاور فريش في مهام الامور ، وبصار
فيها الى الزواج وكان لا يسمح بدخول الاثنى بلع الاربعين من عمره .

٢ - كان أمير الدوا فلا تعقد رواية لحرب الالبامره .
 ٣ - حجارة الكعبة وسداسها ، فلا يفتح باب الكعبة الا هو ، وهو الذي يتولى خدمتها ايضاً .

٤ - سقاية الحج ورفادته ، وكانوا يسلأون للعجاج احواساً من الماء بجوارها شيء من النمر والزبيب ، واما الرفادة فهي طعام كان يصنع للعجاج على سبيل القديفة ، وقد قام بهذه الرفادة بعد فتي ابنه عيسى مناف ، فابنه هاشم ، فابنه عبد المطلب ، ثم ابنه ابو طالب ، ثم اخوه العباس عم النبي .

وكانت اشهر الحج عندما اشهر حرمياً بمقدون فيها اسواقهم التجارية حول الحرم فلا يجزوا احد على الاخلال بحرمه البيت ، واثارة الشقاق والخلاف والحرب حوله .

واما حلف الفضول فقد كان عاملاً كبيراً من عوامل الامن والسلام والمدل في الجزيرة ، وخبره ان قريشاً خدت على نفسها ان تود كل عظمة لاهلها لا فرق في ذلك بين قريش وغيره .

والواقع ان كل هذه العوامل التجارية والدينية والاجتماعية ساعدت على اعلاء منزلة قريش ، بحيث رعت العرب في عهدها ، وزاد خطرهما شأناً . وامرهم عزة ، لما مشى امرؤ الحبشي الى الكعبة يريد هدمها فلم يوفق .

ابوة والكعبة

ولقد كان سبب هذا الزحف الحبشي على مكة وكعبتها ان ما بلغت مكة في بلاد العرب من مقام عظيم لبيتها الحرام وحج الناس له ، ونقاطر التجار اليه ، مما كان يزيد في غيرة القرشيين ويوفر لهم الخير

والنواء ، ان اخذت بعض الامم تفكر في انشاء بيت على غرار البيت
في مكة لعلها تصرف العرب عنه ، واقام القسيسة بيتاً في مواضعهم ،
واقام ابوهة الحبشي بيتاً باليمن ، فلم يبق ذلك العرب من بيت مصفة ،
ولا هو عرفهم عنه ، فاغضب ذلك ابوهة واحقده وقرر الزحف على
مكة وعدم بينها ... وتهدد للعرب في جيش من الحشنة تقدمه هو على
قيل عظيم وركبه .

واسقط في يد العرب وعظم عليها ان يقدم رجل حبشي على هدم
بيت حجهم ومقام اصنامهم ، وهذا رجل كان من اشراف اهل اليمن
وملوكهم يدعى ذا نقر ، فدعا قومه ومن اجاب من غيرهم من العرب
للقائلة ابوهة وحده من يريد من هدم بيت الله ، لكنه لم يستطع ان
يصد ابوهة بل هزم واخذ اسيراً ، وهزم كذلك عيسى بن حبيب
الخنمسي واخذ هو الآخر اسيراً ، واقام نفسه دليلاً لابوهة وجيشه .

فلما نزل ابوهة العتائف كلها اهلها ان يشتم ليس هو البيت الذي
يريد ، انما هو بيت اللات ، وبعثوا معه من يده على مكة ، وها اقرب
من مكة ، بعث رجلاً من الحشنة على فرسان له يدان اليه اموال اهل
نخامة من فريش وغيرهم وبينهم مالك امير لعبد المطلب بن هاشم ، وهت
فريش ومن معهم من اهل مكة بقتاله فرأوا ان لا طاقة لهم به ،
وبعث ابوهة رجلاً من رجاله يدعى حناطة فسل عن سيد مكة .

فذهبوا به الى عبد المطلب بن هاشم وبلغه رسالة ابوهة اليه ، انه
لم يأت لحرب وانما جاء هدم البيت فان لم تحربه مكة فلا حاجة له
بدماء اهلها .

فلما ذكر عبد المطلب انهم لا يريدون حرباً ، سار به حناطة ومع
عبد المطلب بعض ابنائه وبعض كبار مكة حتى بلغوا معسكر الجيش

فأكرم أبرهة وفادة عبد المطلب وإجابته إلى رد ابنته إليه ، ولكنه رفض
 رفضاً باتاً كل حديث في أمر الكعبة ورجوعه عن هدمها برغم ما عرض
 عليه أهل مكة من التزول له عن تلك ثروة ثمينة ، وعاد عبد المطلب
 وقومه إلى مكة ، فذبح إلى الله أن يعلم أن يخرجوا منها إلى شعاب الجبل
 حيفة من أبرهة وجيشه ، حين يدخلون البلد الحرام قدم البيت العتيق .
 وذهب عبد المطلب ومعه نفر من قريش فخذ حلقه باب الكعبة
 وأخذ يدعرون ويدعون ، يستنصرون آفئهم على هذا المعتدي على بيت
 الله ، فلما انصرفوا دخلت مكة منهم وآت أبرهة أن يوجه جيشه ليتم له
 ما اعتزم فيهدم البيت ويعود ادراجاً إلى اليمن ، كان ربه الجذري قد
 نفى في الجيش وأخذ يفتك به ، وكان فتكاً ذريعاً لم يعهد من قبل
 قط . ولعل جرائد الودع جاءت من الربيع من ناحية البحر وأصاب
 الجذري أبرهة نفسه فخذ الروع وأمر قومه بالعودة إلى اليمن ، وفر
 الذين كانوا يمشون على الطريق ، ومات منهم من مات ، وكانت الوباء
 (الجذري) يزداد كل يوم شدة ، ورجال الجيش يموت منهم كل يوم
 بغير حساب ، وبلغ أبرهة صنعاً وفقد أثر جسمه من المرض ، فلم يقم
 إلا قبلاً حتى لحق بمن مات من جيشه وبذلك أرح أهل مكة عام الفيل
 هذا وقدمه القرآن بذكره له ، وفي هذا العام ولد محمد بن عبد الله صلى
 الله عليه وسلم

تأني عام الفيل

أما أثر هذا الحادث العظيم في إكبار مقام مكة الدينية والتجارية
 فكان عظيماً حقاً ، زاد مكة رفعة ، وزاد الكعبة إجلالاً وتقديراً ،
 وزاد أهل مكة سرحاً وفخراً ، واكثراً من المباهاة ، واغترافاً في

الرخاء والترف ، والاستمتاع بالاشربة خصوصاً النبيذ ، واطلاقاً لعنان
شهواتهم ، كما زادهم حرصاً على حريتهم وحرية مدينتهم ، والدرد عن
هذه الحرية ما كان الى ذلك - يميل .

وعادت الحياة الغائبة الوادعة الى مكة بعد هذا الحدث ، فاختلطوا
يجلسون في كل صباح ومساء الى جانب نيف وثلاثمائة صن ، يقص بعضهم
على بعض اخبار البادية والحدائق البادية ، وما يقع في الحيرة وعند
الغساسنة ، بما ترويه القوافل ، او يتفقه اهل البادية .

ولم يكن بمكة من اليهود والنصارى الا عدداً قليلاً ، وكانت مكة
وكعبتها مركز الوثنية في الجزيرة كلها ، وكانت منازل اهل مكة تحيط
بدار الكعبة وتقرب منها او تبعد عنها ، وفقاً لدرجة كل أسرة او
فخذ من جلال الخطر ، وجليل النقام ، فكان القرشيين اقربهم اليها
داراً ، واكثرهم بها اتعلاً ، كما كانت لهم حدائق ومقبرة زمزم ، وكل
القاب الشرف الدينية الوثنية ، التي قامت من اجاب حروب ، وعقدت
من اجابا احلاف ، ووضعت بينها وبين القبائل معاهدات صلح حفظت
في الكعبة وبين اصنامها فجيلاًها ، ولجل غضب الاصنام من يحصل
بدمه داهماً ، وفيها وراء منازل قريش كانت تجي ومنازل القبائل التي لها
في الخطر ، ثم نبي محمد منازل من دورهم حتى تكون منازل العبيد ،
وكانت منازل اليهود والنصارى بمكة بعيدة عن الكعبة امتداحة للصهرام .

الحجاز

وكانت مكة واقعة في الحجاز ، والحجاز مؤلف من ثلاث مدن
مكة والمدينة والطائف ، وكانت الطائف تسمى سنة الف قدم عن سطح
البحر ، وهي محيط الاشراف من قريش ، ولا تزال كذلك الى اليوم

وهي تشبه جبال لبنان في جبالها وكثرة أشجارها ، يستخرج منها العسل
والنوز ، والتين والعنب ، والريتون ، والطبيب من بعض الزهور .
وأما المدينة فكانت تبعد ثلاثمائة ميل شمالاً عن مكة ، بكثير فيها
التخيل ، وكانت مدينة زراعية عامرة .

ومما يكن من ضعف الحجاز في الثقافة والحضارة قبل الإسلام
وبعده ، وعدم ثقله من إنشاء دولة ونظام سياسي مستقر ، فإن سكانه لم
يكونوا بعيدين عن الثقافة والحضارة المعروفتين في عهدهم ، إذ كانت
أكثر تجارات الأمم المتحضرة تمر بأرضهم ، فتحجارة اليمن والحبشة في
طريقها إلى سورية والعراق وغيرهما من الأمصار ، كانت تمر بمكة ،
وبواسطة الجزيرة عاصمة العراق كانت تدخل الثقافات الفارسية والآرامية
والنسطورية إلى الحجاز ، كما أن الحجاز كان على اتصال دائم بالعباسة
والسورية المتحضرين بسبب القوافل التجارية التي كانت تير بين
سورية ومكة .

الحياة البدوية

والعرب من حيث حالتهم الاجتماعية ينقسمون إلى قسمين : البدو
وهم أغلب سكان الجزيرة ، والحضر وهم سكان المدن وما يقوم على
أطرافها من مزارع وغيرها ، وهؤلاء كانوا يكثرون في اليمن ويقفون
في الحجاز ، إذا استلينا مكة والمدينة والطائف .

وقد وحشنا في فصول سابقة كيف كان البدو يعيشون ، وكيف
وكيف كان سكان المدن يقيمون في مدنتهم ، وينعمون بهذه الحضارة
والرفاهية التي كانت تسوقها المدنية اليهم .

ونحن حين ندرس الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية لابد لنا أن

نعرض لحيام البدو التي هام في وصفها الشعراء ، كما كثر بكافهم على
اطلاها والآثار الباقية بعد رحيل أصحابها عنها . كما نجيب الإشارة الى
الأبل التي كانت عماد الحياة في الجزيرة يأكلون من لحومها ويشربون من
لبانها ، ويكفون من أوزارها ، ويحصلون عليها انقاعهم ويقايضون عليها
في المقايضات ، كما يقوّمون بها ثوبهم ، ويقتدون بها أسرارهم ، ويؤدون
منها دية القتلى ، ويهرون بها في الزواج ، فكل هذه الأسباب دعيتهم الى
العناية بتربيتها ودعيتهم الى ان يكفروا حياتهم ودفعاً لحبها ، يرحلون
من مكان الى آخر لاجلها ، ويتصلون اماكن الدفء لتوليدها ، كما ينوا
كثيراً من لغتهم عليها ، وخربوا في الامثال الكثيرة ، ونفى الشعراء
في وصفها ، ونعزوا بأشعارهم في حديثها . . .

وكانت لديهم الحيل بعنون بها ، ولكها كانت منافع المتروكين ، واما
الأبل فهي منافع العرب جميعهم .

واما العلاقات بين القبائل العربية فكانت ثلاثة عدا غداً ، ومن
اجل هذا شعلت حبة القبائل والأفراد الحروب والغزوات ، يتغنى بها
الشعراء في قصيدهم ، ويتحدث بها الأعراب في منادهم ، وكانت ظاهرة
الاحد بالآخر والانتقام شديدة عندهم ، طغت على كل ما عداها في حياتهم
الاجتماعية ، بحيث مليء الشعر الجاهلي بوصف الوفاة والحروب والندح
بالاحد بالآخر ، والفخر بالانتصار ، والافتخار من اعداءه ، والاعتزاز بالقوة ،
والحرص على الشرف دون الحياة والمال ، كما مليء بوصف الآلات الحروب
من رماح واسعة ودهام ومجن ودروع وسيوف ، فسادت الاخلاق
الحربية حياتهم ، وغمرتهم الوان الشجاعة والكرم والوفاء ، فاطشوا
في مدحها وعدوها غاية العايات .

وكما كان الصيد من متع الحياة عندهم ، كانت الحرة غاشية بينهم ،

ولا ترى شراً جاهلياً يتحدث عن حياته من غير أن يتحدث عن المحر
وكرمه إذا ضرب .

الخضريون

أما الخضريون وهم أهل الأمصار والمدن فقد كانوا أقل شجاعة وأكثر
حباً للدين ، وأكثر توفراً على أسباب التوف والنميم ، وقد نبهوا في
النجدة ، وحاربوا أهل القرشين البلاد طويلاً وعرضاً كما فعل أهل اليمن
فبهم ، فوصلوا إلى غزة وبيت المقدس ودمشق وعبروا البحر الأحمر إلى
الحبشة ، وكانت بناء جدة ودمد عن مكة أربعين ميلاً واسطة عقد
النجدة بين الحجاز والحبشة ، فكانت تعمل كدورها إلى القطيف في إقليم
البحرين حيث تنقل في القوارب مع المؤاخذ الذي كان يخرج من
بواحل الخليج الفارسي إلى مدب الفرات .

ومن المؤاخذ أن هذه العائلات بين قريني والامم المتحضرة هوفا ،
فما عصى اليها بكثير من المؤاخذ الأجنبية ، ورادها معرفة بالجهلاء التي
تعيش على الشرافها ، ودرت مداركهم ، وحسب ادارتهم لشؤون
الكمية وشؤونهم الخاصة وانوى بعضهم انواء عظيماً .

أهل العرب

وأيام العرب في الواقع ليست إلا معارك صغيرة ، لأحباب ثقافة
تجسّد بين القبائل المتفرقة ، من الخلاف حول الكلاء والمرعى والماء ،
وجمل خاص ، وواقعة صامتة ، فأحدثها قبيلة ثانية ، وهذه الأيام تمثل لنا
العربي في صحرائه احسن وصف ، فصف لنا تلكه بالأخذ بالثأر ،
واجارة المظلوم ، وإكرام الضيف ، كما تصف لنا بطولة الافراد ،

ورغبة القبائل في الغزو ، واحراز الفجود عن طريق السلاح والبطولة
والافتخار والبأس والشجاعة ، وتبدأ هذه المعارك او الايام عادة
باختلافات او اختلاف يقع بين الافراد ، ثم يتعداه الى عصابة افراد
القبيلة الذين يتضامنون مع نبيهم ظناً كان ام مظلوماً .

كذلك كان يوم « بوات » بين الفلوس والخزرج في المدينة ،
وحرب « الفجار » بين عريش وكنانة وبين هوازن ، وكان محمد صغيراً
يومئذ ، ولكنه اشترك مع عشيرته في هذه الحرب .

وامم هذه الايام حرب البسوس التي وقعت في اواخر القرن
الخامس المسيحي بين بني بكر وبني تغلب ، وكانت سبب الحرب تعرض
كثير من بني تغلب لبقرة تخص امرأة من بني بكر وجرحه لها ،
فشبت الحرب بين القبيلتين ، وظلت مستمرة اربعين سنة ، وانتهت
اخيراً بالصلح سنة ٥٣٥ بتوسط ائمة ذلك الحيرة ، بعد ان
انهكت الحرب القبيلتين وافنت وجفها ، وكان يتوغم بني بكر
وشبان الحرث بن مرة ، ويتوغم تغلب المهلب الشمر .

وهناك ايام داحس والغبراء التي وقعت بين عيسى وذبيان في وسط
بلاد العرب ، ونشبت الحرب بين القبيطين حول سبقي حين ، بين
داحس والغبراء ، وابتدأت سنة ٥٣٥ - ٦٦٥ اي بعد انتهاء حرب
البسوس ، واشتهر فيها اسم عنترة العبسي البطل العربي والشاعر المشهور .

مركز الحجاز ومكة

وكان الحجاز عامة ، ومكة خاصة مركز الحركة الدينية والتجارية
والاجتماعية عند العرب ، لانه متى كثرا قبيل الناحي على بلد من البلاد ،
زادت تجارته انتشاراً ، وامره تبسطاً ، واداً فقد كان حج العرب الى

مكة وكميتها يحدث حركة تجارية عظيمة ، وحركة أدبية كبيرة ، وكان امتناع الناس في هذه الأشهر الحرام عن ابتداء بعضهم بعضاً ، يساعد على إقبال العرب على هذه المواسم ، التي كانت تحدث نشاطاً فكرياً وتجارياً ودينياً عظيماً ، لا سبيل إلى إنكاره ، رددت آثاره الأخبار والقصائد والصادر الأدبية التي حملت ذلك التاريخ عن شعراء الجاهلية وخطباء الجاهلية ، في هذه الأسواق التجارية الأدبية التي كانت تقام في عكاظ والمريد ، وغيرهم من أسواق العرب ...

وكانت عكاظ تقع في الجنوب الشرقي من مكة ، وعلى بعد عشرة أميال من الطائف ونحو ثلاثين ميلاً من مكة في مكان منبسط وواد فسيح فيه نخيل وأعناب وماء .

وسمى هذه سوق عكاظ كما يقول المؤرخون : إن موعد انعقادها كان قبل الحج ، وهي قريبة من مكة ، فمن أراد الحج من جميع قبائل العرب ، سهل عليه أن يجمع بين العرض التجاري والاجتماعي بفشبات سوق عكاظ قبل بداية الحج ، وبين العرض الديني بالحج . وإن موسم السوق كان في شهر من أشهر الحرام على قول أكثر المؤرخين ، والعرب كانت في أشهر الحرام (لا تفرع الأسنة ، فيلقى الرجل فتل أبيه أو أخيه فيه فلا يبيعه تعظيماً له ، وفي انعقاد السوق في الشهر الحرام عزبة واضحة ، وهي أن يأمن التجار فيه على أموالهم وأولادهم ، وإن كانوا أحياناً قد استهكوا حرمة الشهر الحرام فاقتنلوا كالذي روي في الأخبار عن حروب الفجار ، ولكن هذا كان نادراً والقتل في هذا الشهر كان مملاً فيجاء مستهجنات .

السوق الحبية

« وكان يأتي عكاظ ، قریش وهوازن وغطفان والاحبابش وطوائف من افناء العرب ، وكانت كل قبيلة تنزل في مكان خاص من السوق ، وفي التدریج ان وصول الله ذهب مسرع معه العباس الى عكاظ ليريه العباس منازل الاحباء فيها ، ويروي كذلك ان رسول الله جاء كندة في منازلهم بعكاظ .

بل كان يشترك في سوق عكاظ الحبشون والخيرون ، ويقول الازرقى : (١)

« كان في عكاظ اشياء ليست في اسواق العرب ، كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد والحلة الحقة والركوب الفاره ، فيقف بها وينادي عليه ليأخذه امر العرب ، يراد بذلك معرفة الشرف والسيد ، فيأمره بالعودة عليه وتحسن صفته وجارته ، ويروي ان الاثيو عن ابي عبيدة ، ان النعمان بن النضر لما منحه كسرى ابرويز عن الحيرة كان النعمان يجهز كل عام عطية - وهي الخافضة من التجرة - لتباع بعكاظ . فترى من هذا ان بلاد العرب جميعا كانت تشترك في هذه السوق . واختلفت الافوال في موعد انعقادها ، واكثرها على انه كان في ذي القعدة من اوله الى عشرين منه ، او من نصفه الى آخره ، وقال الازرقى في تدریج مكة :

« فاذا كان الحج ... خرج الناس الى مراتبهم فيصحبون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة فيقيمون به عشرين ليلة تقوم فيها اسواقهم بعكاظ ، والناس على مراتبهم وزياباتهم منحازين في المنازل تضبط كل قبيلة (١) تاريخ مكة ... الازرقى .

اشراقهم وفادتهم ، ويدخل بعضهم في بعض البيع والشراء ، ويحتمون
في بطن السوق ، فإذا مضت العشيرون انصرفوا الى محلة فاقاموا بها
عشراً ، راسواهم قفلة ، فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا الى ذي
الحجاز ثم الى عرفة ، وكانت قريش وغيرها من العرب تقول لا تحضروا
سوق عكاظ والجنة وهذا الجوز الا بحر مبعين بطبع ، وكانوا يعظيرون ان
يأتوا شيئاً من الفخار او يمدوا بعضهم على بعض في الاشهر الحرم وفي
الحرم .

في سوق عكاظ

وكانت سوق عكاظ تقوم بوظائف شتى فهي منجر تعرض فيه
السباع على اختلاف انواعها ، ويعرض فيه الادم والحرير والوكاء والخذاء
والعروود من العصب والوش وغيرها ، ويبيع فيه الرقيق ويعرض فيه
كل سعة عزيزة وغير عزيزة ، وما يهديه الملوك يباع بسوق عكاظ ،
ويشتاق ابن الحنفية مع الحارث بن عظم ويقطع ابن الحنفية ويأخذ سيف
الحارث ويعرضه للبيع في عكاظ ، وعبد بن عبيد بن خالد يبيعها زوجها
بالسوق لئلا يهمل له عكاظ .

ولم تكن العروض التي تعرض في سوق عكاظ فاصدة على منتجات
جزيرة العرب ، فالتفان يبعث الى سوق عكاظ بقافلة من حاصلات
الخبزة وفارس النخيل ، ويشترى منها حاصلات اخرى ، بل كان
يبيع في عكاظ سلع من مصر والشام والعراق ، فيروون انه
قبل البعث بخمس مائة حضر السوق من نزار واليمن ما لم يروا انه
حضر مثله في سائر السنين ، يباع الناس ما كان معهم من ابل وبقر
ونقود وابتاعوا صنعة مصر والشام والعراق .

وكانت السوق تقوم بعمل مختلف اجتماعي ، فمن كانت له خصومة عظيمة تنتظر موسم عكاظ ، وكانوا اذا غدر الرجل او جنى جناية عظيمة انطلق احدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر فيقول : **يا فلان فلان ابن فلان غدرنا عزموا وجهه ، ولا نضاهروه ولا نجالسوه ، ولا نسمعهوا منه فوقاً ، فان اعلى ، والا جعل له مثل مثله في رمح .** حسب بعكاظ عامن ورجيم .

ومن كان له دين على آخر انظره الى عكاظ .

ومن كان له حاجة استصرخ القبائل بعكاظ كالذين سلكوا الاصفايا ان رجلاً من هوازن آثر دسمة اخوه يقوم غير هشوة فركب الى موسم عكاظ واتي منازل قبيلة مذحج يستصرخهم .

وكثيراً ما اتخذ السوق وسيلة لمصلحة والزواج فيروي الاغاني انه اجتمع يزيد بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب يوم عكاظ ، وقدم امية بن الاسكر الكوفي وبعثه ابنة له من اهل اهل يها فخطبهم يسايرهم وعامر . فتودد ابو هاشم ، ففخر كل منها بقومه وعداد عكاظ في قصائد ذكرها . (١)

ومن كان صاحب كفا فاجراً ختمه غيبته - ان شئت - بسوق عكاظ ونجرات منه ومن فداه ، كالذي فعلت حراثة :

« فقد خلعت فيمن من متفقه بسوق عكاظ ، واشهدت على نفسه بالعلمها اياه ، وانها لا تحسن له جريرة ، ولا تطالب بجريرة يجرها احدعابه . »
ومن كان داعياً الى اصلاح اجتماعي او انقلاب ديني كان يري ان خير فرصة له سوق عكاظ ، والقبائل من انحاء الجزيرة مجتمعة ، وكثيراً ما كانوا يرون فسي بن ساعدة يقف بسوق عكاظ يدعو دعوته ، ويخطب (١) الاغاني لأبي العرج الاسماني .

فيها خطبته المشهورة على جبل له ، فيرغب ويرهب ويحذر وينذر .

عهد في عكاظ

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم انجوه الى دعوة الناس بعكاظ لانها مجمع القبائل ، وروى الواقدي : ان رسول الله اقام ثلاث سنين من نيوته مستخفياً ، ثم أعلن في الرابعة فهدى عشر سنين ، يوافي الموسم ، يقع الحاج في مدرهم بعكاظ والجنة وذوي الجواز ، يدعوم الى ان ينهوه حتى يبلغ رسالة ربه وهم الجنة ، فلا يجيد احد يصبره حتى انه يسأل عن القبائل ومدارهم فيبته فيبته ، حتى انتهى الى بني عامر بن صعصعة فلم يلق من احد من الاذى ما تلقى منهم ، وفي خيبر آخر انسه اني كنت في مدرهم بعكاظ وهم يأت حيا من العرب كان ائني منهم ، وعن علي بن ابي طالب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج في الموسم فيدعو القبائل فما احد من الناس يستجيب له ندائه ويقبل منه دعاءه ، فقد كان يأتي القبائل تحية وعكاظ ومني ، ثم يعود اليهم سنة بعد سنة ، حتى كان من القبائل من قال له :

— اما ان لك ان نياس من ؟ من طول ما يعرف نفسه عليهم .
وروى البيهقي : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قام بسوق عكاظ عليه جبة حمراء فقال :

— يا ايها الناس قولوا لا اله الا الله ، تفلحوا وتنجحوا ، وكان يقيمه رجل يكذبه وهو عمه ابو هب بن عبد المطلب .

وكان امكاظ اثر كبير لغوي واثني ، فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من فصحانيين وعديانيين تتولى بها ، وملك الحيرة يبعث تجارتها اليها ، ويأتي النجار من مصر والشام والعراق ، فكان ذلك وسيلة من

وسائل نظام القبائل ، وتقارب الميقات ، واختيار القبائل بعضها من بعض ما ترى انه اليتق بها والسبب لها ، كما ان التجار من البلدان المتقدمة كالشام ومصر والعراق كانوا يطمعون العرب على اشيء مما رأوا من احوال تلك الامم الاجتماعية ، وفوق هذا كانت عكاظ معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية ينقى فيها الشعر والخطب وينشد ذلك كله ويهذب قال ابو المنذر : ه كانت عكاظ منبر في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبه وفعاله وعد مأثور وايام قومه من عام الى عام .

نظام سوق عكاظ

وكانت القبائل -- كما اسلف -- تقول كل قبيلة منها في مكان خاص بها ، ثم تلتقي افراد القبائل عند البيع والشراء او في الخلقة المتخلفة ، كالذي حكى ابن الاعشى رأى الناس يجتمعون على مريحة ، او حول الخطيب بخطب على منبر ، او في قرب من ادم قدم هذا وهناك ، ويخطب الرجال بالنساء في الجماع ، وقد يكون ذلك سبباً في خطبة او رواج او تنادير وكانت تحضر الاسواق -- وخاصة سوق عكاظ -- اشراف القبائل ، وكان اشراف القبائل يتوافون بتلك الاسواق مع التجار لان ائناك كانت تخص كل شريف منهم من الادواح ، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بئذ ، الا عكاظ فانهم يتوافون بها من كل اوب .

والظاهر ان المراد بالملوك هم الامراء ورؤساء القبائل الذين يسلون بضائعهم لبيعها في اسواق العرب كملك الحيرة والفسانة وامراء اليمن ونحوهم ، وكانت القبائل تدفع لرواسيها ائنة في نظير اقامتهم بالسوق ، فقد ذكر البعقوني في تاريخه اجار اسواق كثيرة كان

يعشرها اشرافها - اي يأخذون العشر . وفي عكاظ كانت القبائل
تدفع لاشرافها هذه الأتوة فهاون كانت تدفع لزهير بن جنيمة
الأتوة كل سنة بعكاظ ، وهو يسومها الخلف وفي نفسها منه غبطة
وحقد ، وكانت الأتوة سبباً وغشياً وغيرهما ، وكان عبد الله بن جهمدة
سيدها مطاعاً وكانت له أتوة بعكاظ يأخذها ، ويدفعها له هذا الخي من
الأزد وغيرهم ، ومن هذه الأتوة ثياب .

وكان الاشراف يشون في هذه الأسواق مثليين ، ولا يوافقها
(عكاظ) شريف ، لا وعلى وجهه يرفق عادة ان يؤمر يوماً فيصير
فداؤه .

وكان على سوق عكاظ كلاً وليس إليه امر الموسم واليه القضاء بين
المتخاصمين ، حتى جاء الاسلام فكان يقضي عكاظ محمد بن سفيان
بن جاشع .

تاريخ عكاظ

ومن المصير جداً ان نحدد هذه عكاظ ، فلما نجد في ذلك خبراً يصح
التعويل عليه ونكتب على كل حال ليست قدبة جداً وقد لاقتد الى اكثر
من مائة سنة قبل الاسلام .

واستمرت عكاظ في الاسلام ، وكان يمين بها من يقضي بين الناس ،
فمعي محمد بن سفيان بن جاشع غنياً لعكاظ ، وكان ابوه يقضي بينهم في
الجاهلية وصار ذلك ميراثاً لهم .

وضعف شأن هذه الأسواق بعد الفتوح فاصبحت البلاد المفتوحة
أسواقاً للعرب خيراً من سوق عكاظ ، وصار العرب يشون
المدن الكبيرة لثقتهم اغراضهم ، فضعفت أسواق العرب ومنها

عكاظ ، ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد به . فيس سقوط الدولة
الأموية . قال الكلبي : « وكانت هذه الأسواق بعكاظ وبجندة وذي
الجزاز قائمة في الإسلام حتى كان حديثاً من الدهر ، فأما عكاظ فأنشأ
تركها عام خرجت الحروب بكفة مع أبي حمزة الخزاز بن عوف الأزدي
الاباضي في سنة تسع وعشرين ومائة ، حادف الناس أن ينهبوا ويغلبوا
الفتنة فتركوها ، ثم تركت بجندة وذي الجوز بعد ذلك واستغفروا بالأسواق
بكفة وبني وبهرة ... »

فعكاظ عاصرت العصر الجاهلي الذي كان فيه . وحمل البنا من شعر
وأدب ، وجررت فيها أحداث تحلل بحجة السي حلى أمه عليه وسلم قبل
مبعثه ، ومهدت السبيل قبل الإسلام لتوحيد اللغة والأدب ، وحملت
على إزالة الفوارق بين عقليات القبائل ، وعصدها التي حلى أمه عليه
وسلم يبيت فيها دعوته ، وعاصرت الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين
والعهد الأموي ولكن حينها في الإسلام كانت الخوف من حياتها قبله ،
وبدأ ضعفها من دفت الفجرة لها ، كان من غزوات وحروب بين مكة
والمدينة أو بين المؤمنين والمشركين ، فلما فذعت الفتوح رأى العرب
في أسواق المدن المتحضرة في فارس والشام والعراق ومصر عوفاً
عنها ، ثم كانت ثورة أبي حمزة الخارجي بكفة ، يأمن الناس على أموالهم
فغربت السوق ، وخضت صحيفة طيبة حافلة ذات أثر سياسي واجتماعي
وادي في تاريخ العرب .

الربد

أما (المربد) فضاحية من ضواحي البصرة في الجهة الغربية منها مما
يلي البادية ، بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال وكان سوقاً لأبل ، وهو

واقسع على طريق من وود البصرة من البادية ومن خرج من البصرة
اليها ، ويظهر انه نشأ سوفاً للابل ، انشأ العرب على طرف البادية
يقضون فيه شؤونهم قليل ان يدخلوا الحضر او يخرجوا منه .
وكان هذا السوق اقل خطورة من عكاظ ، وكان سوفاً للدهنات
الباسية . وعاشت هذه السوق الى العصر العباسي ، فكانت اطول عمراً
من عكاظ ، وان كانت اقل منها شأناً وامية .

الحقة الادبية

اما حالتهم الادبية فليس من شك انها كانت تساق حياهم التجارية
تقدماً ونسباً وازدهاراً ، واذا كان التعليم في الجاهلية لم يكن منشراً
بين العرب كل الانذار ، فان مغامراتهم التجارية ، وتجوؤهم من منطقة
الى اخرى قد افادهم كثيراً ، وجعلهم يتعلمون بالامم المجاورة لهم والتي
كانت اكثر منهم علماً ومعرفه وثقافة ، فخرج من هذا الاختلاط هذه
الحركة الادبية التي فشلت قبل الاسلام في الشعر خصوصاً ، والتي بلغت
درجة سامية من الرقي ، مما يدل على انها ليست وليدة هذه السنوات القليلة
التي سبقت الاسلام ، وانما هي فدية نظرب في الجاهلية لا اقل من مائتي
سنة .. على الأرجح .

وسبب ذلك ان ما وصلنا من الشعر الجاهلي كامل في تعبيره ، راق
في معانيه ، وهذا يستحيل ان يحصل ارتجالاً وعفواً ، فلا بد ان يكون
قد سبقه شعر اقل منه اثراناً ، وادنى تعبيراً .

وكان الشاعر الى ذلك ضروري شكل قبيلة عربية ، فهو الذي يرد
بشعره حكاية اعدائها ، ويحرمها في الحرب ، ويصف منافقها ، وينسب
في تاريخها ومفاخرها ، فالشاعر اذن كان داعية مسيرة القبيك ، وصحيفة

تدافع عنها ، وتود جور الخصوم وشيئا لها الحمد الذي تستحقه والذكرى
التي هي خليفة بها ، وكانت الشعراء الجاهليون من ارض الضبقات عقلاً ،
وارفهم شعوراً ، سيقوا غورهم الى ادراك كثير من حقائق الطبيعة
فصاغوها في شعرهم ، كما وصفوا الحياة في زمانهم وصفاً نعتقد بحق انه
احدق وصف للحياة في العصر الجاهلي ، واذا كانت غلبة الادب ان
يعصف الكتاب الحياة في عصره ، فشعراء الجاهلية قد وفقوا في ذلك توفيقاً
يدعو الى الاعجاب والاكبار .

وايس في العالم كما يظهر للناظر ان كانت اثره على اهلها كاللغة
العربية ، وتشعر عواطفهم ، وتسميهم انفسهم ، وتغفرهم للذل ، والافدام
والاستبداد والتضيعة ، وتخلق حوهم جواً جديداً لا عهد لهم به من
قبل ، ولذلك لم يعرض العربي لغير لغة من اللغات الخائرة والتفهمة ،
فمنى بها اكثر من غابته اي شيء آخر ، وصرف حيله في تشييدها ،
ورضع فصيدها ، ووصف عاداته ، واخبر ومرداته ، في أسلوب رائع ،
وكلمات مختارة ، مما واثق حتى يومنا هذا مدار اعين الباحثين
والحقائق ، فذلكم الذي ينفع عديم كان حقيقاً ، لا يحيل والاكثر ،
وهو ان ذلك مثل الطبيب السامي اليوم ، او الجريدة المعاصرة ،
لفصيده تفصح القليلة عن اعراضها ، وبشره تدين عن دأبه ، وتبسط
في غاباتها وامامها راجحه ، ومن آخرها ، والفصيدة الروائية كانت تعلق على
الكعبة ، اعظم ما لها واكثرها بلاغاً وحمماً شعرياً .

والواقع ان العربي لم يفلح اعبر امته ، وكانت خريف الادب بكل
شيء حتى باوثاقه ، ولذلك لم يخلق حوهم الشعر الدينية المتروكة ،
والموجودة عند غيره من الامم الوثنية ، فعبادته كان عليه مسحة عربية
من البساطة والبساطة .

السم الاخير

وليس من شك في ان من اراد ان يخلق لنفسه اسماً في الجزيرة العربية كان عليه ان يخلق هذا الاسم في سوق عكاظ او في مكة ، وفي ايات المواسم التي ذكرناها ووصفناها ، وليس عجيب بعد كل هذا ان انا تصبح مكة مركزاً عظيماً دينياً وتجوياً ، خصوصاً بعد سقوط سلطان حمير في جنوبي الجزيرة ، فقد أصبحت مكة اعظم مدينة في العربية ، وليس مرد سلطانها هذا الى وجود الكعبة فيه وعجب ، بل انه شيئاً كثيراً من هذا السلطان يعود الى ذكاه القرشيين وتقدمهم الثقافي بالنسبة لغيرهم من القبائل العربية الاخرى ، كما وان مركز مكة التجاري ورفوعه على طرق المواصلات العالية كما قدمنا قد ساعد على حل ثقافات الامم المتحضرة والمجاورة الى مكة وسكان مكة ، ولا ادلة نشاط فريش وتقدمها الثقافي والتجاري من قيامها بها بالندجيرة مستقلة عن الوجدان ، كما كان حل خديجة زوج رسول الله ، مما يدل طبعاً على حرية اجتماعية رائعة ، وحياة اجتماعية رحيمة ، وثروة غريضة ، والنزعة والحضارة يقدمان الثروة دائماً وابتداءً ، اذ يصبح الانسان في رفاه من العيش يحملة على التفكير في العوائم التي حوله والتفكير اول الحضارة والتقدم .

ثم ان مكة الى ذلك كانت تنعم بحياة ونظم سياسية مفررة ، كدار الندوة التي كانت تشاور فيها فريش في مهام الامور ، ويصدر فيها الى الزواج ، والى اقرار الحرب وغير ذلك من المسائل الخطيرة ، مما يدل على وجود نظام ثابت مقرر ثقافته فريش ، ووضعت بالتزول تحت سلطانه .

وإذا فتحنا في مكة وفي أول القرن السابع الميلادي أمام نظام
اجتماعي وسياسي يمثل ما كانت عليه العرب في ذلك العهد ، مع غزوها
وانقسامها إلى قبائل مختلفة ، لا يعرف فيها العربي غير قبيلته ولا يعمل
لغير قبيلته ، وأما الوطنية العربية والوحدة العربية فكانت شيئاً بعيداً
عن فهمه وعقله

وكذلك كان ينقص العربي شيئاً آخر ، هو الطاعة ، كان هناك في
البادية زعماء وشيوخ ، ولكن أحداً من هؤلاء لم يكن يستطيع فرض
سلطانه على العربي فرضاً تاماً ، ولكي يصبح العربي أمة موحدة كان لا بد
له من معجزة أو معجزة ، وهذه المعجزة خلق محمد وحده ، محمد بن عبدالله
الطفل الفقير البني الذي ولد عام الفيل في مكة بالقرب من الكعبة .



نماذج من الصناعة الخزفية القديمة



قندج من من الصاعه العربيه



ابو الهول والاهرام تدج من من الهرم المصري

محمد بن عبد الله

— صلى الله عليه وسلم —

السيرة

ليس من شك أن تأثير الأديان الجديدة والآباء على الإنسانية والحضارات القديمة والحديثة ، ولكن أهدأ في العلم وتاريخ الإنسانية ، سواء أكانت نبياً مرسلًا ، أم عقيدة رزوم ، قد يبدن نظام العالم ، ويفرض سيطرته على الشعوب والأمم ، بل المرأة التي فرض محمد ودينه ، على شعوب العالم وحضارته .

وإذا نحن ألصقنا بهم الجماعات التي فوضت بواسطة الإسلام نفوس دينه وحضارته الجديدة في مختلف أقطار العالم ، فإن شرح صاحب الدين الجديد ، وبخت أماليه ، والوسائل التي استعملها للوصول إلى زعامته المطلقة العجيبة .

والواقع أن هناك فروقاً عظيمة بين محمد ، اليوم والمضي ، وبين زعامته محمد ، فإن أركان الدين لا تكتمل إلا بتبع على هدمه ، إذ يلغوا زعامتهم عن طريق الحزبية أو الحرية أو القوة ، وهي زعامات اقلية لا قيمة لها إلا في أرضها ، ولا سلطان لها في غير موطنها ، وإذا محمد فقد بلغ الزعامة العالمية عن طريق الأمان ، والفقراء ، والعربية والجهاد ، وفي سبيل مثل العليا والمصالح العالمية ، ثم جعل في عشر سنين من الرعاية

المشتق على رسال الففر ، امة متأسكة الاجزاء متحدة الاهواء ،
متباعدة القوى ، متباعدة الطباع ، بلغت رسالة الله ، وحكمت عامر
الارض ، ومدت اكثر العالم .

ورعاه اليوم يكتوبون قبل الزعامة غساً كائنات ، ثم يصيرون
بعدها آلهة كالألهة ، يتقنون . وعدوا ، ويستحلون ما حرموا ، ولا
يرون كبير امر في الاحتفاظ بهذه الزعامة ، ولو تكبوا عن الكرامة ،
واستبدروا كل سرور وخلق كريم .

اما محمد فقد ملك الجواز واليمن وهي الجزيرة كلها وما داتها من
العراق والشام ، وظل ينام على فراش من ادم حشوه ليف ، وببيت هو
واهلك على الطوى ، لا يتلفون الا الاقل من الفداء ، وكان عبارة عن
النمر والمام ، ويكثرون الشر لا يتوفدون غراً ، ويلبس الكسا الخشن ،
ويقسم على الناس افسه الدباج المذهب ، حتى اذا اقبل على اصحابه
فقاموا اجلالاً له فلهم .

لا تقروا كما تقوم الامم بعظم بعضهم بعضاً ، انما انا عبد آكل
كأيا كل العبد ، واجلس كما يجلس العبد .

ورعاه اليوم يسيرون الجنود الى الحدائق ، ويبستون على حشايا
الدباج ويوسدون المال الى المال ، ويظنون هم في ابواب العاج .
اما عر فكان يقاتل مع الجندي حتى يدمي ، ويعمل مع العامل حتى
ينضب ، وكان سمعه اذا احتمل الناس واحترت الحدائق انقروا به فـ
يكون احد اقرب الى العدو منه .

واما القرون اذه الوحي ، فما كانت اعمال الرسول كلها وجباً ، ولكنها
الرجولة الكاملة والخلق العظيم والمبقرية الفذة والشخصية القوية التي
جعلت من هذا الفتي شخصية عجيبة ما رأى العالم لها مثيلاً ، وحديث

الحفوف ، وآحت بين الناس ، وفقت على التقاليد ، وهدمت الجور ،
وحمت فسد الأخلاق ، وجعلت هؤلاء العرب الذين كانوا أبدأً بأنفون
الحكم ويرفضون السلطان ، يجمعون على حبه إجماعاً لا يخرفه
إلا الكفر بالله . وأقواله من تشع ، وأعماله عهد تحفظ ، وأراؤه أوامر
تطاع ، وأحكامه اقضية تنفذ ، وكذلك نرى أن محمداً خلق من أخلاقه
هذه الأمة التي نمت المعجزات ، ودرجت هذه الانتصارات العظيمة
التي امتدت من المشرق إلى المغرب ، والتي حوالت تثير اهتمام المستشرقين
حتى اليوم ، يحاولون الوصول إلى أصولها وأصول الحقيقة ، والتي كان
أبو بكر وعمر وغيرهما من الأبطال المغايرين مثلاً صارحاً لها .

حسن السامية

وكان محمد ذات مرة في سفر فامر أصحابه بصلاح شاة ، فقال رجل :
- عليّ دبحها .

وقال ثان : عليّ سلخها .

وقال ثالث : عليّ طبخها .

فقال الرسول : وعليّ مع الخطب .

فقالوا : يا رسول الله تكفيك العبد .

فقال : عذت لكم نكمتي أباه ، ولكي أكرم أن أثير عليكم .

وزعموا اليوم إذا زعموا لا يفتنون لغير منوبة الصديق وعقوبة

العدو ، فلا تخرج أعمهم وآمانهم عن دائرة الخيبة الصغيرة الخفية ، أما

محمد فكان يعادي في الله ومثله العليا ، ويصادق في الله ومثله العليا ، ثم

كانت سياسته كصور الأرض لا تعرف الحدود ولا التقسيم ولا الزمن ،

كانت نعم الغريب والبعيد ، والصديق والعدو .

محمد في طفوله

ولد محمد بن عبد الله يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع
الاول عام الفيل سنة ٥٧٠ ميلادية ، وذلك بعد شهرين من وفاة والده
عبد الله ، فخرج الى الدنيا يتيماً فقيراً ، وترك له والده غير خمسة من
الابل وقطيعاً من الغنم ورجلية هي ام ايمن حاضنة محمد .

وكانت مكة هدنة أهواء ، شديدة الحر ، هدنة النفس ، ما احسن
اهل بيتاً ، ولا اقي في دورهم امر ، واذا هم ينصرفون في صباح
والليل ، الى امورهم ومعارفهم ، واذا عبد المطلب قائم مقامه وحوله
الانوة وجمعته من فريش ، ومشى اليه اليشير مسرعاً ، حتى اذا انتهى
اليه بشره بالولود الجديد ، فبيب جدلان فرحاً ، ويغضي الى بيت آمنة ،
ونظير الى الولود ونحده امه يا واثت وسمعت وشاهدت ، فلا يعجب
شيء ، ولا يسكر امر ، ثم يحسن الصبي على ذراعيه الى الكعبة فيطوف
فيها ، ثم يقوم داعياً شاكراً له ما اعطاه ، ذلك ان عبد المطلب كان
محباً لعمدته ولده ، ولولماته ، فلما نوهه الله بملاء النكد ، وغلبه
الحزن ، فذا ، رأى الولود الجديد جلاله الحزن عن قلبه ، وحبيب
الصبي الى جده ، فكان من اكثر الناس عطفاً عليه وبرا به ، ورعاية له ،
ثم يخرج الشيخ بحفيده ويدفعه الى امه وهو يقول :
لقد اسيت محمد .

وهو اسم جديد في العربية ، ليس يقع عليها حتى الآن على ان
العرب كانت تسمي مواليدهم هذا الاسم قبلاً .
ولنا نعيم شيئاً كثيراً عن حياة محمد في طفولته ، الا ما كانت من
ارسائه الى البدية للرعاية فيه ، كمادة للعرب في ذلك العهد ، ويظهر

لما من تشكو الممرضات محمد وهو في طفولته ، وما نذكره لنا السيرة
من انه لما عرض على الممرضات ايضاً فاقبلن انهن يشين ، ذلك انهن انما
كن يوجون المعروف من والد الصبي ، فان تولى هذا الموت ، فلا
امل من بشي . من النعمة او حفظ من البر ، كل هذا يدل على ان ما
تركه له والده من ابل وغد لم يكن به شيئاً مذكوراً ، كما ينقص
الاحماع على ان عائلة محمد مع شرفهم وعظيم مركزها كانت عائلة فقيرة .
واذا كان محمد في السادسة من عمره توفيت امه ، فكيف جده عبد
المطلب .

موت عبد المطلب

وبصبح الشيع ذات يوم مريضاً مثلاً بعم انه زائل وانه مفارق
مكة فرائاً لا رجوع بعده ، ويقف محمد امام فراش جده ، يشاهد
انتقال ربه الى العالم الآخر ، ويضطرب قلبه ، فسهل من عينيه دموع ،
ويخفق في قلبه اشفاق كثير .

لله من دموع اليتيم ما احرقها واشدها ، هذا الفتى اليتيم ما يعرف
اباه وما اكتنحات عيناه برأى امه الا قبلاً ، فدا ما حكمه جده ، وراح
يمر به ويهتف عليه ، راح يأخذ الموت من بين يديه ، كأنها الاقدار
قرب هذا الفتى ان يكون يتيماً حقاً ، ما تضطرب حوله عاطفة ولا تبسم
امامه بشرة راضية . وهو في ذلك ضعيف ما يملك للافئاد رداً ، ولا
يستطيع فاعولاً .

وكذلك موت عبد المطلب ، فكفل اليتيم عمه ابو طالب وقد غلب
الصبي الحزن والالام . فبعضي كثيراً من يومه وبعض ليلة يذكر فيه اباه
الذي لم يره وجهاً ، ويذكر امه التي لم تنوقرها العناية به الا بتقدير ،

وذكر جده الذي فارقه منذ امد قصير ، ثم يطلق بعمره الى السباه يطلب
منها ملجأ وحامياً وهو اليتيم الغريب القريب .

حصة محمد

لم يبق لمحمد بعد امويه وجده غير حاضنته ام ايمن جارية ابيه عبد الله
التي شهدت ليله الوصل ، والتي ما كادت ترى الطفل يسقط على الارض
ساجداً حتى ينفي الله حبه في قلبها ، رضى يتلى ، فليب عطفاً عليه وشغفاً
به ، واذا هي تحضن الطفل وتحويه عنقه ، واذا هي تغمره بعنوف من
الحنان والحنه والبر ، وما تحويها غير فلوب النساء ، فاذا ما اخذته
المرضع الى البادية ، اسقط في يده ، وثولاه من الحزن شي كثير .

فاذا ما عاد الطفل الى مكة ، وتوحيب امه بعد ذلك ، خلص اليتيم
الى الحاضنة من دور الناس ، فقف نفسها عليه ، وتحننه بحبها
وحانها كله ، وهي امة حبشية هذه الحاضنة من هروث الحنان والحب
والعطف الا في هذا الطفل ، ولا تفهم ما فيها من المعاني الرائعة الا
حين رأت اليتيم واختصت به .

ومن المؤكد ان محمد لما توفي جده عبد المطلب كان في الثامنة او
التاسعة من العمر ، ولا يعني وجه التحقيق شيء في هذه السنوات
التي تقطعت بعد وفاة جده ، ولكن المؤكد انصرافه فيها الى رعي الابل
والغنى للحصول على بعض معدات او لائاة نفسه ، لان عمه (ابا طالب)
الذي كلفه بعد وفاة جده كان رجلاً فقيراً كثير العيال ، وكان لا بد
والحالة لمحمد من القيام بعمل يكفيه بعض الكفاية حتى لا يكون
عالة على عمه .

ومن المؤكد اليوم ان رعي الابل والقتل في ذلك العهد ، وفي مكة

خاصة لم يكن من الاعمال التي يقبل عليها اشرف الناس واغنيؤهم ، وانما كان عملاً خاصاً بالفقراء والذين هم من اهل مكة . من الذين لم يكن مقدورهم القيام بتجارة ، خصوصاً وان التجارة في مكة كانت نافقة واجبة في ذلك العهد ، فكان كل اهلها من التجار ، حتى نسأله مكن به احلج التجارة ، كما هو حال خديجة زوج محمد قبل ان امرت به ، وانفقت معه على الذهاب بتجارة خاصة الى دمشق .

ومن المفروض في قوم يشتغلون بالتجارة ، ان يكونون واجاهم اكثر اقبالاً عليها ، وبعداً عنها ، ويقتصر بعض المستشرقين مقدار الاموال التي كانت قريش تضعها في تجارتهم وترسلها الى دمشق في السنة الواحدة بما لا يقل عن مائة الف دينار ذهباً .

السفر الى دمشق

اما سفر محمد الى الشام مع عمه ابي طالب وتعلقه به ، وسؤاله له في الحاج العتيبي واغرائه ان يحمله معه في سفره ، وهو الى ذلك ما يزال مضطرب في التاسعة من عمره ، فامر لا يزال موضع احذ ورد عند كثير من المستشرقين .

ذلك ان بعضهم يرى في القصة المشهورة عن السفر الى دمشق او الى الشام واجتماعه الى بحيرا الراهب المسيحي ، وتحذير بحيرا لعمه من خطر اليهود على اليتيم ، قصة تجعله قريبة الى الاختراع منها الى الامر الواقع . والمستشرقون تناولوا حدث هذه الحفرة كما تناولوا سواها وغيرها من الاحداث التي ارتبطت بتاريخ الرسول ، وذهبوا في تأويلها المذاهب فانكروها بعضهم ، واثار الآخرون الى اهميتها وحظوتهم ، وكيف ان اليتيم قد وفق فيها الى اجتماع حديث بعض الرهبان من الذين حبسوا

انفسهم في الصوامع ، فما تولى عنهم الا بعم وفير وخير كثير يتصل بالحياة الدينية في عهده . وعبدة الاحدم في بلده ، وان الدين الحق لا يستقيم الا بعبادة الله وحده ، اما نحن فما نعلم ان حياً منها بلغ دكاؤه واستطارت عيافته ، يتوفر على تفهم هذه الاسرار المتصلة بالحياة والدين وهو ما يزال في السابعة من عمره . ويعتقد بحق ان حديث هذا الاتصال مع بحيرا وعميره اقرب الى الحبال منه الى الحقيقة ، وانه يحتل الرواية مضطرب الاسباب ، واذا كانت قد توفرت لمحمد في سفرته هذه بعض المعرفة بمقائد النصرانية واليهودية في زمت ، فان هذه المعرفة ليست تمدد الصور الخارجية بظن في المرء بعينه عليها ، عيرى فيها لونا جديداً ليس يفهمه ويعهده ولكنه لا يوفق الى تفهم ما فيها من اسرار ، هي دون ما شك عيرة كل المر على من كان مثله وفي سنة ، وفقد انكر كارابل وعمير كارابل من مشاعر الكذب هذا الزعم وقالوا انه نفيهم ، وانه بعيد عن الحقيقة ، لان محمداً في رأي هؤلاء لا يستطيع ان يفهم هذه الاسرار في مثل هذه السن .

وانت انكر ما قد يتوفر للفن السام يضرب الارض في تجارة مع جماعة من الكس ، وفقد تبسط اكثروهم في مواطن الحضارة في ذلك العهد ، واستقامت لهم معرفة بعض الوان الحياة في ذلك الزمن ، فيروح يتحدث بما رآه شاهده في سفراته السابقة من الوان واحداث حين يحين الليل ، وتسكن الطبيعة ويأوي رجل القفوة الى نبي من الراحة ثم يمشد الحجة اليه ، بعد نهار قضوه في قطيع المفوز تحت تلك الشمس المحرقة وفي تلك الصحراء المقفرة .

والواقع ان حياة محمد قبل الخامسة والعشرين من عمره لا تزال حتى اليوم محوطة بكثير من الغموض والابهام .

واما بعد الخامسة والعشرين فان محمداً يدخل في التاريخ ، ولا يخرج منه بعد ذلك ابداً .

حرب النصار

فاذا كان محمد في الخامسة عشر من عمره كانت حرب الفجار بين فريش وكنانة وبين قبيل ، وكان قائد قبيل جميعها حرب بن امية فكانت فيهم سناً وشرفاً ، وكان رئيس بني عبد المطلب الزبير بن عبد المطلب . وقد حضرها محمد فكان يجهز لعمومته الذي لزمي .

ثم تداعت فريش (حلف الفضول) وللتداعيات هم : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبنو اسد بن عبد المزي ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو عيم بن مرة ، وقد تحالفوا وتعدّدوا ان لا يحدوا بكفة مظلوماً من اهلها او من غيرهم من سائر الناس الا قدموا معه وكادوا على من ظلمه ، حتى ترد اليه مظلومه ، ومن ذلك الحلف في دار عبدالمطلب بن جدعان النسيبي ، وشهد به محمد بن عبدالمطلب ، وقال فيه بعد الرسالة .

- لقد شهدت مع عمومي حلفاً في دار عبدالمطلب بن جدعان ما احب ان لي به امر النعم ... ولو دعيت به في الاسلام لاجبت (١)

(١) وسبب حرب الفجار ان العرب بن النضر كانت يث كل سنة طاعة من الغيرة الى عكاظ لعن الملك واثم بديلاً عليه بالخود واثم واسجة اليمن المرركفة ، فصرص الراس الكندي معه ليقود القاعة في حلبة فيه كلفة . وعرض عروة الهوازي معه كدلت على ان ينضمي الى الحجاز فترقب عسده ، وانذر النضر عروة ، فحفظ ذلك الراس منه وعده واحد فعهده مهبت هو اذن لاتعد بكثر وحقت بفريش على ان يدسوا الحزم فافلتوا وتراجعت فريش حتى لانت من المتصدين بخرو ، مدرتهم هو اذن الحرب بكافة القليل ، وقد خلت هذه الحرب نسب بين العريقين اربع سنوات متتالية انتهت بدمها بالصلح .

الحمد بخديجه

أما اتصاله بخديجه فلا يزال إلى يوم هذا سرّاً من الأسرار ،
كيف عرفت به خديجة ؟

ولما إذا اختاره وفضلته على غيره من شباب بلدها وهو الفقير
البائس ؟

ثم ما هذه الشوائع التي كانت تودح عن أمانته وصدقه ، وما هو
صعبها لأن المقروض في مثلها أن تربط بحوادث وقعت ، وأخبار
وأعمال صدرت عن محمد وانتشرت بين الناس ، وذاع أمرها في مكة ،
حتى أطلقوا على صاحبها لقب الأمين !

والنتيجة المنطقية لكل هذا ، هو أن خديجة عرفت على محمد أن
استعنت إلى اختاره ، وصدقه وإمانته ، من أشخاص اتصل
بهم محمد ، وعرفوا فيه الأمانة والأخلاص والصدق ، ولما كانت امرأة
ناجدة قليلة الثقة راعها كما يظهر ، فقد كان من مصلحتهم لها الاعتماد على
شخص تؤمن بإخلاصه وصدقه ، وكان الشخص الذي وقع اختيارها
عليه محمد بن عبد الله ، فقررت إليه ، واستدعته إلى بيتها ، وكافته السفر
بشجاعة لها إلى الشام ، فعمل وعاد موفقاً ناجحاً ، فاعتزمت الزواج به ،
وعرضت الأمر عليه فلم يرفض .

والظاهر أن محمداً ذهب يتحدث إلى الإمام بالأمير ، فخرج معه
معه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن أسد والد خديجة ،
فخطب ابنه لابن أخيه . . .

وفي بعض المصادر أن عائلة محمد جيم كانت موافقة على الزواج ،
وكذلك كان محمد وخديجة ، وأما الشخص الوحيد الذي عارض أول

الامر ، فهو والد خديجة ، الذي كره كما يظهر ان يشركه شخص آخر
في ثروة ابنته وهنأها .

مجدد بناء الكعبة

فاذا استقام محمد في الخامسة والثلاثين من عمره ، كان هدم فريش
للكعبة وتجديد بنائها ، وقد فسوا العمل فيها على قبائل فريش ، حتى
اذا وصلوا الى مكان الحجر الاسود اختصموا بين يثار شرف وضعه
في مكانه ، واشتد النزاع بينهم ، ثم اتفقوا على تحكيم محمد بن عبد الله ، لم
يختلف عليه احد ، فبسط رداءه ووضع عليه الحجر الاسود ، وطلب من
الرؤساء ان يمسك كل رئيس طرف منه ، وامرهم ان يرفعوه ، حتى
اذا حاذى موضعه اخذه بيده فوضعه مكانه .

ثلاثون سنة من حياة النبي

وبنساءل من بحارول التاريخ محمد بن عبد الله - وذلك بعد عودته
من زيارة الشام ومث هدته - كانت انعم به من آثار اليوم والفسانة -
عن اثر هذا الاتصال الاول بالحضارة الرومانية والسيحية في هذا الشاب
الناعم الرقيق !!

توى ما كان من اثرها في نفسه ؟ وما كان من تأثيرها عليه ، لقد
اطلق النبي بصره حقاً في بيها ومعبدها وفصورها وقبابها ، وانكشف
له ارضها عن جهل برع وطلمعة جديدة ، يكن له بها بعد عهد في
صحراوات الحجاز ، فهل اشجته هذه الروعة الجديدة ، وهل فتحت
قلبه هذه الريض المانعة ، أم خلكت مشعره صحراوات الحجاز
وضواحي مكة ورمالها ، فكانت عنده اشد انسا ، واكثر استنافة من

عده اجنة على الارض وهذه الخطاوة الملية بلا كاذب والاولهام !!
 ثم ترى يعرف كيف مضى اليهم سراته الاولي وحفظاته العدة ؟
 وهل كان له اصدفه بخاطوته وبخاطمه وبخاسوته وبخاسمه
 وانسون اليه ويانس اليهم ؟

ثم ما كان شأن اليهم بين السنة الثانية - والخامسة والعشرين من
 عمره ؟ وكيف راح يصرف هذه الاعوام المديدة من غزواته الجبلية ؟
 ثم ما هذه الشوائع - حين استوى اليهم في الخامسة والثلاثين من
 عمره - فملا مكة ، وشهدت مكة ، وتحدثت عن استقامته وجبل
 خلقه ، وصدق حديثه ؟

مثل هذه الشوائع لا تخلق ارتجلاً ولا تروى عن الناس عفواً ، اذا لم
 تسبقها اعمال وفعلات ومكاسب صالحة ، معروف امرها معلوس شأنها
 صدقة احوارها ...

واذا كان اليهم قد ذهب برعى الغم في ضباب اباه قبل الي البعثة ،
 وكيف كان صلطته ان يدخل الناس هذا الاتحال الوثيق ، بحيث
 تفتلن لامره حديجة بنت خويلد ، هناك ، المتجوز بها ، وتستأجره اعيانها ؟
 ان كذب الحيرة لا تنوذلك بشي - من الحارة الاولى ، وكل ما
 يمكننا قوله هو ان اليهم كان راجعاً في الثاني وسجراً في شابه ، وانت
 صدقه وامارته ، الشهرا بين الناس فدعه خديجة الى العمل لها ، حتى اذا
 وفق في عمله ، وارادها في تم ربه ، ورأت في معاشه مصداق ما
 حدثها الناس عنه ، عرضت عليه الزواج بها ، فآسفت عندئذ لليهم حياة
 جديدة ، فيها شيء كثير من الرفه ورغد العيش .

فادا اشرفنا من تصوير حياة اليهم بين السنة المشرقة والخامسة
 والعشرين ، فنحن امام خمسة عشر عاماً اخرى تبتدى بزوجهم ونشئهم

ببعثته ، وهذه أيضاً لا يعرض لها المؤرخون ، إلا ما كان من شأنه وهو
في الحامة والثلاثين من عمره ، أعاد الحجر الأسود الى مكانه في
الكعبة ...

من المؤكد ان محمداً احداً يفكر في هذه الفترة ، اي بين السنة
الحامسة والعشرين والاربعين من عمره -- وبعد ان اطمأن الى معاشه
ومشربه -- تفكيراً جدياً في العوام التي حولته ، والامرار التي تغير
هذه الارض ومن عليها . وادام تفكيره هذا الى التعبد في غار حراء
يبعث عن الحقيقة ويفكر في امرار الكون

ويؤدي لو اوفق الى تصوير هذه الايام بقصتها عند العرب في هذا
الغار ، ولكن احداً من المؤرخين لم يعرض لها ، ولا حاول تفسيرها
وتدويرها .

ولذلك فلا يزال غار حراء سراً من الامرار ، ولا يزال تعبد
الرسول فيه لغراً من الغار الحبة ، ونحن اذا وجهنا الذكر الى هذا
الجيل وحاولنا تصوير هذه الحبة المحمدية ، فقد لا نكون بعيدين عن
الحقيقة اذا ذهبنا نقول ان الرسول كان ياتي الى الغار بين شتوي
النهار ، قائماً حيناً ، مفكراً حيناً آخر ، وان نعبدوه وعبادته ونفليح
بصره في السماوات ، انه كان في القيسية ، والقمر مشرق ، وامواه
وطيب عذب ، والسما غارقة في انوارها ، ومن المؤكد انه كان ينادي
الغار ما بين شتوي الليل منمشياً على صفح الجبل مولياً وجهه شطر
السما ، كأنما هو يحاول الانصال به . والحدث اليه ، وما يزال هذا
شأنه حتى تلمس اشعة الشمس شعوره المرسله على جبينه وكنتفه .

معلومات محمد

وكان محمد أميناً ما نعيم أن قرأ أو كتب على وجه التحقيق ، وإذا كانت مكة قد أثرت ببعض الآراء والأفكار الفلسفية التي حملت إليها من العراق وغير العراق ، فإنه لم تقيم فيها نظرة علمية ، ولا كانت في جبهة العرب كلها من الله رف غير فرقت الشعر ، ودرس الانساب ، ومع أن رمول الله كان ينعم بموسيقى لفظية وطرافة جذابة في حديثه وأقواله ، فإنه كان قليل الميل للشعر ، ولعل سبب ذلك ما كان يتعلق به الشعراء من الكسب والافتراق والتباعد ، وهو ما كانت ينكره ويحفره ويؤدبه ، كما أن الشعر الجاهلي في نظره كان يمثل الوثنية وعادات الجاهلية ، وكان كانت مكروهة لبعضه الله .

أما فن الكتابة فقد كان ضعيفاً وقليلًا في مكة ، ومن المؤكد أن محمدًا لم يكن يحسن الكتابة ولا يعرف القراءة .

ويظهر لنا أن الكتابة لم تكن ضرورية للتعبير والتجادة ، وأن المعاملات في ذلك العهد كانت من البساطة بحيث يستطيع المرء دون ما حاجة إلى دفتر لحسابات ، وكتاب للمعاملات ، ولولا ذلك لذهب على خديجة تكليف محمد بتجارتهم ، وهو الشاب الأمي ، إلا أن يكون في أحوالهم ميسرة معه ما يدل على أنه كان يقوم بهذه المعاملات عن محمد .

محمد في غار حراء

تزوج محمد خديجة وهو في الخامسة والعشرين من العمر ، وكما مضى سنوات الطفولة والشباب في جو يكاد يكون مجهولاً جهلاً تاماً

عندنا ، وكذلك قضى محمد خمس عشر سنة أخرى بعد زواجه في جو
اقل ما يقال فيه اننا لا نعرف عنه فيه شيئاً يذكر ...

ولكن هناك شيئاً واحداً يستلفت النظر ، وهو انه ما كادت الحياة
العائلية العذبة تنساق الى محمد بعد زواجه بخديجة ، حتى اخذ الموت
يرثعه بينه الواحد بعد الآخر ، لقد نمرت السعادة الزوجية لما ولد لها
القاسم وعبد الله ، ثم زينب ورفقة وأم كلثوم وفاتمة من البنات فلما
تناول الموت القاسم وعبد الله ، حزن الزوجان ، ورعش قلب خديجة
النبيقة التي جريحت امومتها في فتوة من الزمن كانت العرب فيها لا
تفضل بالولد الذكر شيئاً ، بينما كانوا ينظرون الى الانثى نظرة فيها
كثير من الاحتقار والاشفاق .

اما ما كان من تأثير ذلك على محمد نفسه ، فمدا ما لا يحدثنا عنه
التاريخ في قليل ولا كثير ، ولكننا نستطيع ان نعلم لهوته وحزنه
وحبه للولد من حزنه على موت ابنه ابراهيم ، فقد ادعى هذا الفراق
قلبه ما في ذلك شك ولا ريب ...

والواقع ان الحياة ما اشغقت على محمد في كثير ولا قليل ، فقد
تكلته بامه وابيه ، ثم بجده فيولديه ، وكانت غناية الامسان في الجاهلية
ان يكون له من الولد ما يحفظ اسمه ، ويعزز عصبته ، ويدافع عنه ،
كانا اراء القدر ان يظل محمد يقبلاً حتى آخر يوم من حياته ، وان لا
يكون له من الولد الا البنات ، والبنات في الجاهلية والاسلام شيء
ضعيف لا يرفع شأناً ولا يؤيد سلطاناً .

هذا الالم الذي كان يحزن صدره ، ولا يظهر على وجهه ، جعله بصرف
حياته في هذه السنوات التي احبقت النبوة والوحي ، اما في تجارة
زوجيه ، او في استمتاع بوحده التي كان يحن اليها ويفضلها على سواها

من الران الحياة الأخرى ، وهي وحدة كانت تتألق وغبانه وتصل الى
قرارة نفسه ، كما كان يجد فيها راحة وطمأنينة لا عهد له بها في حياته
المربوة القاسية .

ويضي قنبان مكة وشبهها الى نعيمهم وملاذمهم وعيشي محمد الى نفسه
يفكر في هذه الحياة وشأنها ومصيرها ، وينظر الى الاصنام فإذا هي لا
تفني عنه من الله شيئاً ، وإذا هي حجارة لا تضر ولا تنفع ، وإذا هو
كلها حاول نفهم ما حوله من الأسرار باحثاً عن الحقيقة طالباً الهدى
والحق لم يوفق في بحثه ولا تفكيره .

وانقطع محمد قبيل الأربعين من عمره الى المياعة - كما كانت من
عادة مفكري العرب ان يفعلوا - وطلب الوحدة فالفأها في غار حراء ،
وهو غار بقرب من ثلاثة أمثال في متون في قمة جبل على يسار السالك
من مكة الى عرفة .

كان محمد في هذه الأيام على نحو ما نقول كتب السيرة ، بألف
العمره ، ولم يكن يحب شيء اليه من ان يتخلو وحده .
وكان يقضي شهراً مجاوراً في غار حراء .

ويمكن ان يفكر : وما الذي كان يطلب ؟ وما هذا التحول الجديد
الذي طرأ عليه ؟ وما الذي جعله يتهرب من الناس ، وينفرد منهم ؟
هذا ما لا يزال حتى اليوم سرّاً من الأسرار .

والكنى الشيء الذي لا شك فيه ان محمداً كان في هذه الفترة ، وعلى
الأخص في غار حراء في حجرة عظيمة عبر القرآن عنها بقوله : ووجدك
ضالاً فهدى ، لم يعجبه دين قومه ولا نوع حياتهم ولا كفرهم ولا إيمانهم
ولا أخلاقهم ، ثم اداه ذلك الى الإيمان بأنه لا بد ان يكون في الحياة
شيء أشرف من هذا وذاك ، وان هذا الشرف والكمال يوجدان في

السماء التي فوق رأسه والتي حيرت نظامها ونجومها ...
لقد ذهب محمد إلى غار حراء بشراً حائراً ، وانساناً مرئيكاً مضطرباً ،
وغادره انساناً نبياً ، ورسولاً كريماً ...

المدن الإسلامية المحمدية ومكة

دعا محمد قومه إلى عبادة لا اله الا الله ، وان محمد عبده ورسوله ،
وترك الاولاد ، وعدم الاشراف بالله ، وما كانت الاولاد في نظر سكان
مكة من العوامل التجارية الفعالة في حياتهم ، ومن الاسباب التي تدعو
العرب من مختلف أنحاء الجزيرة إلى زيارة مكة لما فيها من اوقاف ، ولما
لكهنتها من مقام ، فقد كانت دعوة محمد ، ضربة شديدة عليهم ، وفريقاً
للقوة من عادات ، واقاموه من مصالح ، وانشأوه من تجارات بعيدة
المدى بين مكة وغير مكة .

كانت مكة كما قدمنا مركز الوثنية في جزيرة العرب لوجود الكعبة
فيها ، وكان تدفق عرب الجزيرة على مكة واوقافها مورداً عظيماً من موارد
العيش عند سكان مكة ، وكان زعماء مكة من قريش يسيطرون طبعاً
على غيرهم من القبائل في الاشهر الحرم التي يزاولون مكة في شأنها ، وكانوا
يستفيدون تجارياً وادبياً واجتماعياً من قدوم الحجاج إلى مدينتهم وقيام
الامواق التجارية حولهم .

فجماعة هذه حالتها الاقتصادية والاجتماعية ، وارتبطت بهذه الحالة
الاجتماعية والاقتصادية بالمدينة نفسها ومركز الكعبة والاولاد فيها ، كان
من المفروض فيها طبعاً ان تخرب كل تبدل وتعديل في نظمها الدينية
والاجتماعية هذه النظم المرتبطة إلى حد وثيق وعظيم بحياتها الاقتصادية ،
سواء كان محمد صاحبها ام غير محمد ...

ولا عيب والحالة هذه اذا حارب اهل مكة ونجارها محمداً ودينه
لان دعونه كانت كافية - في نظرهم - بالقضاء على مصالحهم الاقتصادية
والسياسية والاجتماعية .

ثم ان العرب كما قدمنا كانوا لا يعرفون شيئاً اكبر من القبيلة في حياتهم
الاجتماعية ، ولا يحاولون التزول تحت سلطان غير سلطان القبيلة ، ودعوة
محمد كانت تدعو الى المساواة بين جميع المسلمين ، وكان من نتائجها
تمزيق عرى الوحدة القبلية بين العرب ، وهذا ما كان يرفضه العرب في
مكة وخارج مكة ، كما ان فكرة ائساواة نفسها كانت بعيدة عن زعماء
مكة لا تفهمها عقولهم ولا تقبلها ثقافتهم .

محمد ومكة

وقف سكان مكة في اول الامر من دعوة محمد موقفاً وسطاً فيه
كثير من عدم الاهتمام والقلق ، وسبب ذلك انهم لم يفتنوا اول الامر
بخطب الدعوة ، وخشوا من هذه الدعوات التي ما تلبث حتى تموت في
مهدا ، ثم انهم في الوقت نفسه كانوا ضعيفي الايمان بعقائدهم الدينية .
والموثنية ، فلم يدخل في روع احدهم ان من الضرورة الدفاع عن هذه
العقائد والارثان ، ولذلك تركوا محمداً وشأنه ، في اول امره ، فلما
وجدوه اخذ ينتقد اوثانهم ، وينكر ادیانهم ، ويستخف بثقاليدهم ،
وادركوا انه مثل هذا الاستخفاف والشك والانتقاد قد يؤثر على
تجارهم ، ونجارهم اذا تقوم على بقاء هذه الاحتمام الذي يدعوا محمد الى
هدمها وازالتها ، فاشكروا له ، وقاموا بجاريونه وبجاريون انصاره ...
وطبعاً اخذ اهل مكة في اول الامر ينتقمون من ضعفاء المسلمين ،
ومن لاعصية قوية قنعه في مكة ، واما محمد فلم يتعرضوا له اول الامر ،

لأن بني هاشم عائلته منعه ووقفت تدافع عنه ، لا إيماناً بدينه ، وقبولا لتعاليمه ، وإنما عصاة منها ، ووفقاً لعداوات العرب في الجاهلية ، من ضرورة الدواعي عن ابن أبيثب ظاناً كان أم مظلوماً .

ولكن دعوة محمد ظلت تجد أصداءً وأعواناً برغم اضطهاد قريش للمسلمين ، وكان أكثر المسلمين في هذه الفترة من الزمن من أبناء الطبقة المتوسطة الأدنى أفراداً قليل عددهم وهم كانوا من الطبقة الأرستقراطية . وعندئذ رأت قريش أن تقطع محمداً وعائلته من بني هاشم وانصاره من المسلمين فلا تم لهم ولا تنجر معهم ولا تخاضبهم ، وتضع أحداً من معد ملتزم والاتجار معهم حتى يموتوا جوعاً ، وكذلك حجرت قريش محمداً وعشيرته من بني هاشم والمطلب في بعض شهاب مكة ، وقصص بنو هاشم والمطلب في الشعب نحو ثلاث سنين ، فدعوا فيها جهداً وضائقة عظيمين حتى فقدوا بسمع صوت حمارهم وهم يتضورون جوعاً ، وحتى فم من قريش من حركتهم عاصفة الريح والقرابة فسعوا إلى إخراجهم من الشعب فأخرجوا .

وكان بعض المسلمين قبل هذه الفترة وقبل هذا الحصار قد ذهبوا إلى الحبشة هرباً من أذى قريش وعدوانهم . . .

والظاهر أن محمداً بعد خروجه من هذا الحصار الذي فرضته مكة وأهلها عليه ، قد أيقن أن الأمن ضعيف جداً في قريش وعظماًيا إليه وإلى دينه ، ففكر في الذهاب إلى الطائف على عهد يحد فيها قوماً يؤيدونه وينصرونه على عدوان مكة عليه . . .

وذهب محمد إلى الطائف فم وافق ، فعد إلى مكة حزناً مضطرباً ، وكانت قبل ذلك إلى الطائف قد مدت لهما أبي طالب ، وفقد بعد عمه زوجته خديجة ، وكانه بخوان عليه ، ويقويانه ، ويساعدانه ، فصحبت

الحالة شبه جداً امامه ، واصبح الموقف مظلماً ...
وفي هذه الاثناء لاحت في الافق بؤرة من النور ، فقد تعرف محمد
على بعض اهل المدينة ، ووعده هؤلاء بتأييده والدفاع عنه ...
ولكن قريش عرفت بهذا الاتفاق ، وادركت ان الموقف اصبح
يسندهم شيئاً من الخزي والسرعة ..

الاجتماع الخطير

ففي يوم من ايام شهر صفر من عام الفجرة ، اتفق عظماء قريش على
الاجتماع في دار الندوة للبحث في القضية الهمدانية ...
وكانت (دار الندوة) عبارة عن برهان قريش ، ولم يكن للدار نظام
مكتوب ولا دستور مكتوب ، وإنما كان لها دستور او قانون متعارف ،
حافظه الأوصياء والتقليد ، واماماً اعطاء الدار ، فكانوا من رجالات
قريش الذين اظهروا شخصيته وفهموا بافعال حكمتهم من توهم قبيلتهم ،
على ان يكون واحدهم قد بلغ الأربعين من عمره .
وكانت دار الندوة في دار قدي بن كلاب ، توارثها اعدائه بعده ،
وحصوه للتشاور في عظمه امورهم ، وكانوا لا يقضون امراً الا فيها ،
وكانت تقع في الجانب الشمالي من الكعبة ، وهو الآن جزء من المسجد
الحرام ..

وكان الاجتماع ، وقد حضرته قريش كلها ، ونشاوروا فيها بينهم حتى
استقام رأيهم على ان يأخذوا من كل قبيلة قتي شاباً جليداً نسياً فيهم ،
ثم يعطوا كل قتي سبباً صارماً فيعبدوا الى محمد بن عبدالله فيضربوه
بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، ويذهب دمه في القبائل فلا يقدر بنو
هاشم على حرب قومهم جميعهم ..

وكذلك ارادت قريش ، و اراد الله غير ذلك ، ولما علم محمد صلى الله عليه وسلم بما اجمع القوم عليه من ايذائه قرر الهجرة الى المدينة ، في اول ربيع الاول سنة ٦٢٢ ميلادية ، وباشقائه رسول الله من مكة الى المدينة انتقل الاسلام الى طور جديد ووضع حديث ... حتى اذا وصل رسول الله الى مقره الجديد اقبل اهمل المدينة يدخلون في الاسلام افواجا ، فواخي الرسول بينهم وبين المهاجرين من القرشيين الذين هاجروا معه ، ويكون بينهم وحدة متواصلة اذ هم الاحمال وجيل الاطفال ، وبواجه رسول الله بقوته الجديدة وابانة الراعي خدومه في طول الجزيرة وعرضها .

محمد في المدينة

اصبح محمد في المدينة شخصاً جديداً ، فقد كان في مكة يعمل على نشر دينه واما في المدينة فقد كان عليه ان يؤسس حكومة ، ويخلق نظاماً سياسياً واداريّاً وعسكرياً لانصاره واعوانه من المهاجرين ، وسكان المدينة الذين ايدوه وتقبلوه فيها بينهم .

وكانت اول اعمال محمد ان ألف بين المهاجرين والانصار ، بسين المسلمين الذين هاجروا معه من مكة الى المدينة وبين الانصار من سكان المدينة الذين تحروهم ، ثم رتب مساقاة الصلاة ، التي يقول فيها المستشرقون : « انها نوع من التدريب العسكري » في ذلك شك ولا ريب ... »

والواقع ان الصلاة الاسلامية فيها نوع من الرياضة البدنية التي يقول اليوم الاوروبيون بضرورتها ولزومها لكل امة تريد ان تحيا وتعيش ، ثم ان فيها من التدريب العسكري شيئاً كثيراً ، من الوقوف

صفاً واحداً على قياس واحد ، ثم القبة ، حركات المفروخة من ركوع وسجود ، وقافاً لأمر بصيرة الأمام ، على أن يشار إلى انقضاء ذلك جماعة واحدة ، وصفاً واحداً ...

وإذا نظرنا إلى أن العرب المحورين بأنفسهم وعاداتهم وتقاليدهم لم يكونوا يقبلون نوعاً من أنواع التقييد والحصار ، أدركنا خطورة هذه الصلاة التي فرضت عليهم انتشارهم بين رجل واحد ، في رفوف ، وركوع وسجود ، بما كان جديداً عند العرب ، غريباً عنهم وعن تقاليدهم وعاداتهم .

وإذا ما ذهب إلى المؤرخون العربون من أن المساجد كانت معسكرات لتدريب العسكري ليس بعدو الحقيقة إذا نظرنا إلى أن الحركات التي يشار إلى أفرادها في الصلاة إنما هي حركات وباضية عسكرية .

ثم إن هذه الاجتماعات المقررة لسكر المسلمين في المسجد قد خلقت فيهم نوعاً من روح التضامن والتفهم بعضهم مع بعض ، خصوصاً بعد إقرار مذهب السواري في الإسلام مما جعل على رابطة القبيلة ، وأحل محل هذه الرابطة الصيقة رابطة عرسه الإسلامية الإنسانية واسعة ، كانت الخطوة الأولى لتوحدة العربية ، التي جمعت العرب ، وفذعت بهم إلى العالم .

وهناك الزكاة ، وهي ظاهرة جديدة في العالم ، ذلك أن الدين الجديد لم يبر من الحكمة ولا من الفائدة أن يترك مساعدة الفقير للجماعة نفسها ، بل فرض ذلك فرضاً ، وحدده تحديداً ، وجعله من أركان الدين ، وكلف الحكومة أن تقوم بجمعه ثم تعمل على تقسيمه بين المستحقين ، مما يجعل محمد بن عبد الله ، صاحب أول فكرة اشتراكية

في العالم .

وكذلك نرى ان محمداً كان من الانبياء المستوعين وليس من
الانبياء الفلاسفة . هم يفكر في مظاهر الانسان الفردية وعلاقتها مع
الروح ، واننا رأى الضرورة تدعو الى انشاء جماعة تتكاتف على الارض ،
وانتد فوجه ان هناك يوماً تعرض فيه الحسب وتعرض العفوف ،
فن واجب الانسان ان يستعد هذا اليوم وينتهي له .

وبما كان محمد في مكة كان رسولاً فقط ، ولكنه لما ذهب الى
المدينة اصبح رسولاً وزعيماً وطيباً ، وفوقه كرمول وبني مكنته من
اقرار تشريعه الباسم والاداري في البلد الجديد .

ومع ان محمداً كان عربياً قريشياً ، فان العادات العربية فيما يتعلق
بوشائج القبيلة لم تتعلق به ولم تؤثر عليه في حال من الاحوال . لقد كان
على استعداد له دوة بينه ووطنه وبلده وفيلته في سبيل الله مودبه الجديد
كان يقضي على كل ما يدعو الى الانقسام والخلاف ، كان ديناً وطيباً
شعاره توحيد العفوف في الدين والاجتماع ، دأب في الدين فقد وجد
الناس حول آله واحد ، بعد ان كانت الاوثان تعد دلائل ، واما في
الاجتماع فقد وجد الناس عامة ، لا فرق بين قبيلة وقبيلة ، ولا بين
عربي وغير عربي ، فكانت احد المسلمين الفرس مستشاره العسكري في
معركة الخندق ، وبلال العبد الاسود مؤذنه ومؤذن المسلمين .

وكان محمد الى ذلك كائنصخر امام المسائل الاسمية ، كالاشيان بالله
ورسوله وعدم الاشراك به وبعد الاوثان ، وتوكل العصبية الجاهلية
والنفاق بالانساب وغيرها ، وكانت الاسلام في بعض المسائل الثانوية
اقرب الى التساهل منه الى التشدد ، فقد ترك للعرب بعض عادات
جاهلية لم يمنعها الا على قدر ، كتعدد الزوجات والرق ، وبعض الشعائر

القديمة ولكنه نهى عن الاغراق فيها ، وصح بتركها خصوصاً الرق .
ولما انتهى رسول الله من تثبيت امره في المدينة انصرف الى اهل
مكة ، وكان اول ما فكر به العليل على اضعاف سيطرة مكة التجارية ،
ومثل حركتها المالية ، بالقضاء على تجارتها وتهديد سلامة قوافلها ،
فارسى البعوث لمطاردة القوافل ، وخرب الحصار على طرق المواصلات
الحاصلة بها .

ثمة عند المسلمين

وكان نجاح الدعوة الاسلامية ضعيفاً شيئاً في اول الامر ، واذا اعتمدنا
المصادر التي بين ايدينا ، والتي نقول ان ٨٣ عائلة من المسلمين هاجرت
الى الحبشة ، وحسب العائلة مؤلفة من أربعة اشخاص مثلاً وحبينا
من بقي من المسلمين في مكة ، فثمة نجد ان المسلمين لم يكونوا يزيدون
عن خمسة اشخاص بين رجل وامرأة وغلّام .

ومع ذلك فان هذا العدد الخاف اهل مكة واقصى مضاجعهم ، لان
عدد المنحصرين انفسهم كان قليلاً ، وخروج مثل هذا العدد من بين
ظهور انفسهم اضعفهم ، فارسلوا وفداً الى التجار يروجونه اخراج المسلمين
من بلادهم ، فرفض عليهم ، لانه رأى الدين الاسلامي يساق كثيراً
من العقائد المسيحية ، ولانه في الوقت نفسه كان يكره مصيعة
واصنامها . . .

ومن المؤكد ان تأييد الدولة الحبشية للمسلمين اخاف انفسهم . وما
كان لهم ان ينسوا اضعاف الحبشة في بلادهم وتجارهم وكهنتهم ، فقرروا
عندئذ مقاطعة المسلمين ثم فكروا جدياً بالقضاء على محمد ما كان الى
ذلك مبيل ، خصوصاً بعد ما عرفوا بالتصال محمد باهل يثرب ، واذا

كانوا قد اعتبروا محمداً خطراً عليهم بسبب عطف نجاشي الحبشة عليه وعلى
شيعته ، فكيف به اذا نزل بثوب ، وابده اهلها وهي محطة تجارية
تقوم على الطريق الذي يربط مكة بالشام . فلما لم يوفقوا وتمكن محمد
من الهجرة الى بثوب ، احسن انكبيون من قرش وحلفائها ان الامر
قد خرج من يدهم ، وانهم امام احداث خطيرة قريبة .

وكان اول هذه الاحداث حصار محمد مكة ، والعمل على القضاء
على تجارتها ، وكانت خطة هذه من الاسباب الاولى التي ادت الى معركة
بدر وظفر المسلمين فيها .

وكان عدد المسلمين قليلاً يوم بدء حملة السلاح منهم لا يزيدون عن
مائة من المقاتلة ، وسبب ذلك ان اكثر اهل المدينة لم يكونوا قد
تقبلوا الاسلام ، وكانوا لا يجدون انفسهم مرتبطين بمساعدة محمد اذا
كان مهاجماً ، واما اذا هاجمه خصومه ، فلواجب بقضي عندئذ بتساعدته
والمدافعة عنه .

اما اهل مكة فقد اضطروا طبعاً الى محاربة محمد دفاعاً عن تجارتهم ،
وخوفاً من انتقال الحركة التجارية من مكة الى المدينة ، ورغبة منهم
في القضاء على الخطر الذي يهددهم .

رسول الله واليهودية

وهنا يتناول امره لماذا لم يحاول اليهود الاستيلاء من تطور الحركة
التجارية مصلحة المدينة خاضعة والبلاد العربية عامرة ، لانه اذا زاد نفوذ
محمد قوة وسعة وتمكن من اخضاع اهل مكة لسلطانه ؟ اصاب
اهل المدينة منها اخير الكثير ، واليهود عدد كبير في المدينة ، فهم طبعاً
سيتمنون باخير الذي ينعم به غيرهم ؟

يقسر المؤرخون موقفهم العدائي نحو محمد بن مروه تعصبهم الديني ،
وكرههم للتعاون مع غير اليهود كما هو شأنهم ، وكما هو حالهم حتى
يومنا هذا ، وكما كانت عريشهم في السابق سبباً في شقائهم وتشردهم ،
وان هذه الضرورة التي توارثوها من المس في البعيد ، والتي ما تزال
عائقة بهم ، قد اضرت بهم في الحاضر ومرفتهم وجعلت الشعوب المختلفة
في أوروبا لا تطبق التعامل معهم ، والعيش وادبهم .

وكذلك اضطر محمد الى مقاومة اليهود ومحاربتهم لانه فرديتهم
كانت تعارض النسبة الواسعة وجبه للتعاون مع الجميع ، وكما ضرب
محمد اليهود وتشردهم ، وعلى اهل مكة مثله فقص على منطاتهم الوثني الذي
كان رأس النظام في الجزيرة العربية .

واول ضربة اصبحت اهل مكة هي معركة بدر ، التي انتصر فيها
محمد انتصاراً عظيماً عليهم ، ومع انت محمد فقد فشل في غزوة (احد)
التي وقع عند بدرية واحدة ، فان هذا الفشل ، كان من الهوان
حيث ان كان موضعاً لم يضعف المسلمين ، ولم يؤثر على معنوياتهم
وسلاحهم ..

معركة بدر

وحديث بدر انه تقدمت قريش في ١٦ مارس من السنة الثانية
للهجرة نحو (بدر) كانت المشركون بانتظارهم في صفوف متراصة منتظمة ،
وكان رسول الله نفسه قد سوي صفوفهم ، وثبت نفوسهم ، وادخل في
قلوبهم انهم الغالبون .

انما كان اهل مكة يعدون الف مقاتل تقريباً والمسلمون لا يزيدون
عن ثلث عدد خصومهم ، ومع ذلك فقد اشتد عجب اهل مكة لما هجبت

خبلهم على المسلمين فلم يتراجع احد ، ولم يرتد شخص ، وثبتوا امامهم
ثباتاً مدحشاً ، اقلقهم واخذوا يحسبون له الف حساب ، ثم عادوا الى
مفوقهم لا يدرون كيف يفسرون هذه الظاهرة الغريبة التي شاهدوها
من ثبات مشة المسلمين امام هجوم الفرسان ، وعندئذ بدأت الجوزات
الفردية ، وانتهت بالنصر المسلمين على اعدائهم ، ودام هذا حتى انشاء
وعندئذ احذر رسول الله امره ، فاجتمع العزم ، فلم يثبت اهل مكة مع
كثرتهم امام المسلمين الا قلباً ولا وولوا الا ذمراً ، فتركوا على الاربعين
سبعين قتيلاً ، ومثلهم من الاسرى ، ولم يخسر المسلمون الا اربعة عشر
قتيلاً .

معركة احد

اما معركة احد التي حدثت بعد معركة بدر بسنة واحدة ، وقد
كان عدد رجال محمد بقى ثوب السبع مائة شخص ، واهل مكة يقاربون
الثلاثة آلاف مقاتل ، واقعد انجبت هذه المعركة عن قتل المسلمين
اعدم ثلثهم ، لاوامر التي صدرت اليهم وعدم انقيادها حروباً ،
خصوصاً الرواة منهم الذين صدر اليهم الامر بالانقياد في مراكزهم بها
حصل ، وبها ثقلت مصير المعركة ، فعادوا مراكمهم لما شاهدوا
المكئين يتراجعون وغبة منهم في الحصول على نصيبهم من الغنائم
والسلاح ، وقد فطن خالد بن الوليد الى الخراج الذي احدثه في الدواخ
الاسلامية انسحاب الرواة من اماكنهم - وكانوا يحسون مؤامرة المسلمين
- فهاجم المؤخرة ، وانشى المسلمين من خلفهم فكان الفشل .
ومن هذا يظهر لنا ان سلطان التمايل الجديدة لم يكن قد بلغ
الغاية من نفوس المسلمين العرب بحيث ينسحب عدائهم الجاهلية ،

وحرصهم على عدم الانصياع للأوامر الصادرة ، وبحملهم على قبول النظام المفروض عليهم والذي لم يتعودوه قبلاً .

ولقد حاول أهل مكة بعد معركة بدر واحد ، القضاء على سلطات محمد فالبوا عليه القبائل وجمعوا الأحزاب وحصلوه في المدينة ، ولكنهم لم يوفقوا ، واضطروا أخيراً إلى الاتفاق معه ، والاعتراف بكمثل طاعة مثلهم سلطاناً وقوة ، وهذا الاعتراف منهم بسلطان محمد الذي حاربوا قتله لسنوات خلت ، كانت ايذاناً بانقراض سلطانهم واندحارهم ، وهو ما وقع فعلاً لما مشى محمد من المدينة إلى مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين ، ودخل مكة دخول الفتح ، وانزل الأحكام عن الكعبة ، ودخل أهل مكة في الإسلام ، ولما عاد محمد إلى المدينة ، كانت مكة بلداً تابعاً لها ، بعد أن كانت مركز الحركة الدينية والتجارية والسببية في الجزيرة قبل الإسلام .

ولما كان أهل مكة فجاراً أذكياء ، وجماعة من الأشخاص العديفة البارعين فقد أدركوا بعد أنه تقبلوا الإسلام ، أن في بذور هذا الدين من الفوائد والباطن والاعجاز الشيء الكثير ، فخلدوا للدين الجديد إخلاصاً ماهرقتاً محمد وآتوه بقبائلهم وعده ارتدادهم بعد وفاة رسول الله وعند ارتداد العرب بعده .

فما كانت الفترحات كان سكان مكة أول من قدم القواد والحكام والأسراء للبلاد المفتوحة الجديدة ، وللدولة العربية الناشئة ، كما نرى بني أمية الذين كانوا من أشد الناس مقاومة لمحمد وبنيته في أول الدعوة يقيمون باسم هذا الدين الجديد الذي أسكروه أول الأمر ، أميرة بطورية عظيمة عاصمتها دمشق ، بعد أن أصبحت المدينة العاصمة الأولى غير صالحة لأن تكون عاصمة الامبراطورية الواسعة الاطراف .

نشوء الدولة

وفد رسول الله

أصبح اليوم الثامن من شهر ثور سنة ٦٣٢ هـ ممناً عاصياً ، وأصبح الناس بين الساعة الثانية والثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم وريها كانت الشمس فبعد حدث تسير إلى مسقط رأسه ، ويقولون ان الذين يفتيق ، يذهبون حول المسجد النبوي في الساعة وينظرون حوله حذراً ومراقبة ، لا يأبهون أشعة الحر ، والذئبة المجرعة ، ولا يفتقرون لشدها ، وكانهم في عالم آخر غير العالم الذي هم فيه ، وكانوا في ذلك حركات عديدة ، يذهبون إلى مكة ، تحت سعة البخيل ، إلى مكة حول المسجد ، والذين من الآخر امتدوا إلى جدران المسجد القارية ، والذين يتحدثون بصراخ خافت ، وانهم أب ظهروا ملأ وجههم ، واستأثروا على أنفسهم وفقرهم . وكان ذلك كان يرى المظهر حرفة من البذر توضح وفادته ، كما كانت هناك بعض الناس والأطفال في حالة عصبية من كثرة الظهور على الأمثلة عادة ، ولكن هذا الجو الجامع الذي ملأ الفضاء ، من الأختال أنفسهم على السكون والانسكاس ، وعدم الانحياز ، يتحدثون به عادة من لغة وفوق وروح .

كان كل شيء يدل على ان القوم ينظرون حادثاً حثيرة سينع قريباً . . .

كما ان اصوات البكاء التي كانت تصدر من ناحية المسجد ، كانت تغمر

نوع هذا الحادث الخطير وأهميته .

وكان البيت الذي وقف حوله الناس ، أو أخذوا مكانهم على مقربة منه ، ملاحقاً لمسجد ، وكانه قطعة منه ، ظهر البساطة ، مدار بناؤه من حجارة ثم تشذب ، وقطع من الطين الخفيف ، وذلك في فتحات متقطعة من الرمي ، ولم يكن البناء يعبر كثيراً عن طول الرجل المعتدل ، وأما سطح المنزل فقد صار صامعاً من عصف النخل وبعض القنن بحيث يتبع ماء المطر من الداخل إلى الداخل ...

وجلس خارج الباب الوحيد المنزل أشخاص على مقاعد من الطين أقيمت على جانب الحائط ، وفي فسات وجوههم ما يدل على أنهم ينظرون خوفاً من الداخل .

وفجأة وقف بلال يدعو الناس إلى الصلاة ، فقاموا إلى حلالهم وما كان أشد تجميهم حين شهدوا أن بكر يصلي بهم ، وعندهم لمعات خلت برسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا أدرك المسلمون أن رسول الله قد صار مرغماً واستند ، ولولا ذلك ما كان أن يسكن القريش قبضه ، وأما رسول الله فكان متمسكاً في بيت عائشة ، باب الحراية وثقلته ، وقد استند عليه الجميع ، وأخذت فواء تضحك شيئاً فشيئاً وهو ينظر إلى السماء بعينه ، وكأنه يريد الصعود إليها سريع ما يكون من الوقت .

والواقع أن وفاة رسول الله كانت صدمة عظيمة للمسلمين ، حتى أن بعضهم ومنهم أبو الأحنان بن محمد سيذهب عنهم ويحادرهم ، أو أن الموت الذي يترافق الناس حينئذ بالرسول الكريم ، الذي خلقهم خلقاً جديداً ، ووجد محفوفهم ، والقبور في قلوبهم ، وجعلهم أمة قوية تستطيع أن تفرض سلطانها في الأرض ، وإذا تكاثرت أدا شامت وأرادت في

مسألة الحكم

والواقع انه ما كان يتقبل رسول الله الى ان لا الاعلى ، حتى فطن
المسلمون الى ظاهرة خطيرة تتعلق عليهم ، صيرهم ، ذاك ان رسول الله
الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة من شؤون الحياة ومعالجتها الا بحشبه
وعرضها ، لم يعرض مسألة الحكم بدهة يقين ولا كثير ، وكما ان
القرآن لم يعرض هذه المسألة الخطيرة ، فكذلك افطن رسول الله لهذا
الامر الخطير ليس يصنع رسولا محسب ، وانما يصنع مؤسساً للدولة
عربية جديدة ، المتروض في مؤسسه ان يعرض لولاية العهد من بعده ،
حتى لا تكون عرضي ولا اختلاف .

يعرض المستشرقون هذه المسألة في تفسيرات المذاهب في تأويلهم ،
ويقول بعضهم : ان كان يجب هذا الايمان ان رسول الله لم يمت مسألة
موت كمنه حماية عربية ، ، خصوصاً وان احداً في المدينة لم يظهر .
وكما ان من موقف عمر بن الخطاب والكره من رسول الله - لم
يكن يظن الى ان رسول الله داعبنا ، ، على الاقل يقال هذه
السرعة ؟

وسواء كان رسول الله قد توجه الى بحث مسألة الحكم المتدبر حتى لا
يشير اختياره سابقة وسنة من بعده فبحار كل حايطة من يشاء من رجله
واصحابه واهله ، ام حشي الفتنة بين اصحابه ، والاسلام لا يزال طرباً
ليناً ، ام استقر رأيه على ان الخلافة ليست من العقائد الاساسية
الاسلامية في كثير ولا قليل ، فترك الامر المسلمين يختارون من
يشاؤون تخبياً لتفضيل واحد من اصحابه على الآخر ، فان الواقع ان

رسول الله لم يعين خلفه من بعده ، وانه وقف من اهله واصحابه موقفاً واحداً ، فترك للجميع حرية الرأي والاختيار .

وكان موقف رسول الله سليماً مكيناً ، فاستلمون عند الله وعند رسوله ، لا يفضل احدهم الاخر الا بما يقضي من خدمات للمصلحة العامة ، والعصية الى هذا كانت لا تزال قوية عند العرب ، فقد كان هناك الانصار والمهاجرون ، وكل يريد الحكم لنفسه ، وكان الانصار والمهاجرون في الوقت نفسه ينقسمون فسيما بينهم ، فكان الانصار يضطربون في حزينهم ، الأوس والخزرج ، والمهاجرون ينقسمون مثلهم الى حزين هاشم وامية ، وكاب الروح العربية كما قدمت لا تعرف غير وابطة القبيلة التي هدمها الرسول وابكرها ، ولكن تعاليمه هذه لم تكن قد بلغت الغاية من نفوس القوم ، وكان لابد لها من الوقت الطويل لتحملي ثمرها ، كل هذه العوامل يعتقدت حلت رسول الله على تأخير بحث مسألة الحكم من بعده لعدة الاخير ، ولما كانت الساعة الاخيرة ، عليه الوجع ، واشتدت عليه الحزن ، وسحب الى رحمة ربه ملاقبساً على المسلمين انفسهم مسؤولية خطيرة عظيمة .

والواقع انه ما كان يراه الناس موت رسول الله حتى ظهر الاختلاف ، واول ما ظهر الاختلاف بين المهاجرين والانصار الذي آوى رسول الله اليهم ، فقد رفض الانصار التزول تحت حكم المهاجرين وفردوا اختيار امير مسلم ، كما رفض بنو هاشم في الوقت نفسه قبول حكم شخص غريب عنهم ، واما موقف العرب الذين اسسوا مؤخرًا في اطراف الجزيرة فقد رفضوا اداء الجزية ، وبعضهم ثار على الحكم الاسلامي ، والبعض الآخر انكر الاسلام ، واما شوامية فلم يحركوا ساكناً ، وهم زعماء مكة ، ورفضوا برفقون الفرصة ، وينتظفون الى الريح ...

الحيفة الأولى

وكان أبو بكر أحب الناس إلى المسلمين في ذلك العهد ، وليس
سبب ذلك مكره عند رسول الله ، وحبه الرسول له ، وإنما كان
مكانه في مرفه ، وأنه مرد هذا الخطب كبره خلقه وديانة أخلاقه ،
وجبل صفاته ، وصدقه وأخلاقه ، وكبر سنه ، وكبر السن عند العرب
إذا كن الشخص المحترم حاشوا لبعض الصفات التي ذكرناها ، من
أو كذا الأسباب لأخبره وتوحيده .

والواقع أن عمر بن الخطاب في تسرعته بتأدية أبي بكر في سقفة بني
ساعة قد حدث الموقف (١) وأحدث أعظم انقلاب عمره الشريف .
لقد كان أبو بكر يربح في الخروج من هذا الأمر لأعبه ولأله ، كان
كل همه أن يخرج الإسلام من هذه السعة الجاهلة وهو أقوى سلاحاً
وأعظم سلطاناً ، وكان لا يرى كبير أمر في اختيار عمر بن الخطاب أو
إني عبيدة عامر بن الجراح سوى شؤون العرب المسلمين ولكنه قد
يدعو الناس إلى اختيار أحد هذين الرجلين على صاحبه عمر ، فذكره
موقفه هذا ، فقلنا : إن أحدنا لا يقدم عليه ، ثم سأل من انت يسط
بده ، فسط بده فبأية وديعة الانصار ، دون أن يفتن أبو بكر إلى
أهمية هذا الحدث العظيم ، ودون أن يفتن عمر في الوقت نفسه إلى أن
مضيق الإسلام السياسي كان معاقباً بهذه الطريقة وأقاربه على الوجه
الأكمل والاحسن ، ولو أن الناس سألوا أحد الانصار ، أو الخلفاء ،
ثمزق الإسلام ، وهذه العصبية التي كان عمر مشهوراً بها ، والتي كانت

(١) انظر الطبري وابن الأثير واليعقوبي والبيهقي وغيرهم ، والمعروف في مروج

تظاهر اماراتها فيه حين روى مخالفة من بعض الناس لا يعتقد حقا
 وواجبا ، كانت لفظة بركة القضية الامامية والوحدة العربية يوم
 السقيفة (١) لام . مكثهم من ندوة قضية الحكم بسرعة ، ليتفرغوا
 صفاً واحداً لمواجهة الخطر ثورة داخلية عرفها الاسلام في تاريخه واول
 نشاته . . .

ومن غريب امر عمر بن الخطاب انه لا تولى الخلافة ، همدت عصيته
 وزالت سرعة لغته ، وحل محلها الاعتدال وخطب النفس ، بحيث لم يشهد
 العام منه في عهد موافق اسلم فيه مواظده وانجزها في وجوه الحكم
 والسنان .

وفي اليوم الثاني بيع الدس ان بكر في المسجد وتغلف عن البيعة
 سعد بن عباد بن عبد الأوس ، وعبي بن ابي طالب وبعض بني هاشم ،
 فكانت هذه المواجهة حادثة جديدة للدولة الجديدة . وهذا الدستور
 يقوم على الخطاب الحليقة من وجوه الدس في الهجمة ، وموافقة الناس
 في الامصار على هذا الاختيار بعد ذلك .

حرو - الردة

وما كان بعد حرب الحيرة بموت رسول الله حتى ارتد بعضهم عن
 الاسلام ، وانقلب البعض الآخر داسي ربطت معايرهم بضائر الدولة
 الجديدة ، وكانت موقف الخليفة الاول من المرتدين والثائرين العرب
 موقفاً موفقاً فهو نهى في شيء من امور الدين معهم فقد الامر ،
 ونصحت اصول الاسلام ، وكان ابو بكر اى ذلك رجلاً مؤمناً كل
 (١) انظر تفصيل ذلك في كتاب عمر بن الخطاب مع ذكر جميع المصادر
 والشواهد . . .

الايمان برسالة محمد ودين محمد ، وكان هذا الايمان الذي مذك عليه عواطفه
وقلبه من اكبر العوامل في نجاح سياسته ، واستمر جيوشه ، وخذ مثلاً
ارسله جيش اسامة بن زيد الى مشرف الشام مع حاجه الماحية ومكة
الى هذا الجند بسبب الثورة التي غمرت الجزيرة من افصحها الى افصحها ،
فان ارسله هذا الجيش مع غيظ هذا الخطر الداهم ، لان رسول الله
امر بتنفيذ هذا الجيش قبل وفاته - لم يكن من الحكمة العسكرية في
كثير ولا قليل ، ولكنه كان عملاً رائعاً يدل على حلاوة في العقيدة
تنهار امامها الجبال ، وهذه الحلاوة في العقيدة ، وهذا العناد في الايمان ،
مكنت ابا بكر من تخضير الثورة ، لأنه لم يرحل في غروب جوده ،
فعمدوا ايمانه منهم ، وهرموا عذومهم وهم مائة فدية لان ايمانهم كان شيئاً
فوق الوصف وفوق التصور .

وكذلك رأيت ابا بكر يقف ثابتاً امام ما يعاقده حقاً بصرف الدمار
عن خطورة الموقف ، واضطراب الحال ، ومن الحارم ان الدلالة في
الحق أفضل من التردد في الحق ، وبذلك فازت سياسة الخليفة الاولى
ونجحت .

فلما انتهت حروب الودة بانتصار الجيوش الاسلامية ، خرجت
جزيرة العرب من ثورة دامية ، لعب فيها الصغير دوراً عظيماً ، فاهاب
بالخليفة الاول الى ارسال هذه الجيوش التي تولت قمع الفتن ، ومع من
يريد الانضمام اليها من رجال القبائل شرط ان لا يكتسبوا اوتدوا عن
الاسلام ، الى غزو البلاد المجاورة ، فمكينة تدوة العربية الجديدة ، وعملاً
بسياسة الرسول من نشر الاسلام والدعوة له .

وما كان الاسلام قد وجد الصغوف في الجزيرة ، ومنع الغزو
والاعتداء ، وما كانت حروب الودة قد انقرت كثيراً من القبائل ،

فقد رأى الصديق فوق رفبته في نشر الاسلام ، ان الحالة الاقتصادية تدعو الى توسع القبائل العربية وتزودها على المواطن الحصة التي كانت حوزها ... (١)

ولكن الاسباب الاقتصادية وحدها لا تكفي ، وما نعلم ان مثل هذه الاسباب قد مكنت امة من الامة من انشاء دولة عابثة ، ثم ان العرب كانوا انتمت سلاحاً ، واول جنداً من الامة المهدورة ، وما كان يعلو العرب والحالة هذه عارية سواهم ، او مهاجرة جيوشهم ، لولا الاسلام الذي وحد صفوفهم ، وخلق فيهم روح القومية بدلا من روح القبيلة ، ثم اعطاهم شيئاً ما كانوا لولا ان يظفروا او ينجعروا وهو الايمان ..

يقول بعض المؤرخين ان السبب خلفت على الدين في اول الفتحوات وان الرعية في السيطرة والحكم كان اقوى من الفكرة الروحية ، واضربون مثلاً على ذلك خالد بن الوليد ومروان المصنف ، وهما من اكبر القواد العرب ، وان الروح الدينية عندهما كانت ضعيفة لينة ، ومع ذلك فقد فتح الفتحوات ، وبسط سلطنت الاسلام ، واذا فما قد فعل ذلك بدافع الوطنية والعصية لاءلاء بحمد العرب لا بدافع وحي ديني . وهذه الفكرة خاطئة جداً لان انكروا بها الحكم على شيء مجهول ، فما الحجة التي لا تدفع واني تؤيد ان خالد بن الوليد كان قبل الايمان ؟؟ وانما فتح الفتحوات ، وضحى بنفسه في المعارك بدافع سياسي زمني ؟ لا بدافع ديني

ثم ما قوله هؤلاء المؤرخين بعمر بن الخطاب ، وما قام فتوح الا

(١) هذا ما يذهب اليه كثير من المؤرخين المستشرقين ، الذين يحملون الاسلام الاقتصادية اساسا لرموف العربية ولكن نذهب في هذا مذهباً وسطاً ، فنقول انه من جهة الاسباب ..

بأمره ، ولا سر جيش إلا باذنه ، أكان الليل أو النهار ، فعل ما فصل في
سبيل السياسة والسيادة العربية !!!

أما القول بأن الذين قادوا الجيوش وفتحوا البلاد كانوا أقل إيماناً
من سواهم ، فليس إلا عين بظاهرها الخرجية ، وإثارة عمل والأعمال ،
ونحن أمام الفصل والعمل لا سبيل إلى التكررها ، وأمام نصيبات في
سبيل نشر الدعوة ، غدت أرض الفاتوح من مشرق الأرض إلى مغربها
بدماء الشهداء من العرب المسلمين .

ومن المؤكد عندما ان التوحش وفت بدافع من الدين والوطنية
معاً ، فبعض القلائس العربية في المهرك كانت تؤدي بعض الاحياء
بشعرها في الجاهلية ، وكانت تحارب منسكة مسقة ليطهر خطنرها ،
ويذهب بغير العبد دون سواها .

معركة ذي قار وثمة

خذ مثلاً معركة ذي قار التي وقعت بين العرب والفرس قبل الاسلام
وفي الجاهلية ، فقد غلب فيها العرب الفرس ، وكان هذا الانتصار العربي
نتيج بعبدته الذي في الاسلام .

وقد دانت معركة ذي قار على ان العرب كانوا ينتمون بحركة اجتماعية
انسانية عظيمة ، ولكن هذا الشعور ظل هزياً لا يعرف الظهور حتى
جاء الاسلام فوحد العرب ، وجمعهم ، واغنى اليهم بروح وعينية
جديدة ، وكان له الفضل الاكبر في الدور الذي لعبه الشعب العربي في
الحضارة العاشية .

وكانت قبيلة بني شيبان قد انحلت منصرة في معركة ذي قار ، فلما
كان الاسلام وانتقل رسوله الله الى ربة ، اخذت هذه القبيلة بزعامة

كبيرها المنى بن حارثة الشيباني فحارب الفرس على حدود العراق ،
بسبب الفخر الذي نالته من انتصارها الاول ، والقوة الجديدة التي نفعها
الاسلام في حدود ابناءها وكبرها .

وكذلك نرى ان بني شيبان كانوا اول من غزا الفرس في الاسلام
من العرب ، حتى اذا انتهى امر الرودة وجه ابو بكر الجيوش لمساعدتهم
بقيادة خالد بن الوليد القائد الذي لم يغلب في المعركة الكثيرة التي
لشمت بينه وبين الفرس ابداً .

لقد سعى العرب الفرس في معركة بين القادسية (و نهاوند) ،
وسحقوا الروم في معركة واحدة باليرموك ، ووصلت الفتوحات العربية
في ايام عمر بن الخطاب واول عهد عثمان بن عفان وذلك في الشرق الى
نهر جيحون الذي كان يفصل بينهم وبين القبائل التركية وبلاد الترك ،
واما غرباً فوصل العرب الى اورشليم وقرطبة واستولوا في اقل من
خمسة عشرة سنة على كل بلاد فارس والافقيت وسورية ومصر ،
وافريقيا ، وهو حادث عظيم طبعاً ، ولم تعد الفتوح الى سابق عهدها
وكانت قد توقفت في عهد عثمان بسبب الاختلافات الداخلية ،
الا في عهد الوليد بن عبد الملك اتخذت في مسير يتقدم نحو خوارزم
وبلاذ ما وراء النهر ، حتى اخضعها وفرض على أهلها خريبة قدرها
ملبونة فضة ذهبية واقام في خوارزم مسجداً متواضعا صلى فيه بعد ان
كسر الترك واجلاهم ، وما زال هذا شأنه حتى وصل الى بلاد الصين ،
وفرض الجزية على ملوكها .

وفي الوقت نفسه كان محمد بن القاسم القائد العربي الشاب يقنهم
حدود الهند ، ويفرض على أهلها الجزية والاسلام ، هذا في الشرق ،
واما في الغرب فان موسى بن نصير ومبارقة بن زياد راحا يظهان بلاد

الاندلس الى الدولة العربية ، وبفكر ان - انضي يفتوحها في بلاد فرانسا
والمانيا ...

وهذه الفتوح الاسلامية العظيمة التي وقعت بهذه السرعة العجيبة ،
كانت شيئاً لم يسبق له مثيل في التاريخ ، حتى قال الكثيرون ان العرب
فتحوا في ثمان سنه - غير متدبر ولا متبعض - اكثر من فتح الرومان
في ثمانه سنه ، وكان نبيون يقول : ان العرب فتحوا نصف الدنيا في
نصف قرن . وديلموت الذي كان يضر في الطواذ من المسيحية
العسكرية ، كان يذهب الى ان العرب من الاسلام كانوا ذوي بشار
بالحرب وخبرة عظيمة ، وان حروب القرون العربية معها مع بعض
كانت قد ساعدت في تنظيم افرائده وديلموتهم الى ماخذ الذي صيرهم امة
محاربة من الدرجة الاولى ...

وكان نبيون من المسلمين محمد الذي حقق هذه الامة العجيبة
اعبداً عظيماً حتى راع في فترة من الزمن ، ووفقاً المصادر التي بين
ايدنا يريد الدخول في الاسلام ، وحين جيشه في مصر على مثل ذلك .

العرب

ثم ان العربي نفسه وقد خلقه الاسلام خلقاً جديداً اصبح قوة
عظيمة ، فهذا البدوي الذي يحجر على الصحراء وحباتها المرفقة ،
ومطالبها القاسية ، وعبائها الشديدة ، ولا شعاع له سوى اللبن والتمر
احباً ، مما لا يطيقه غيره ، ولا يتصور سواه ، ثم يأتي الاسلام فيبت
فيه روحاً جديدة ، ويخلق خلقاً جديداً ، سهل عليه ولا شك ان يقف
وحده في وجه العشرة من جنود الفرس والروم ، ولا عجب اذا
كان بضعة آلاف من هؤلاء الاشداء الحثين قد عصفوا بمئات الآلاف

من جنود الدور الرومانية التي كانت تقيد جنودها وتصفهم لشنعهم من
الحرب والفرار .

هذه الحياة في الصحراء التي كانت تعرض صاحبها ومن يعيش فيها
للإوار والمهلك في كل لحظة ، كانت تجعل من العربي كما قدمنا رجلاً يرى
الحياة ولا قيمة لها ، فإذا اخفت أن هذا فعل العقيدة والأيمان المراسم
بحياة أخرى - حملها الإسلام إليه - وهي أطيب وأغنى وأكرم ، فهل
يستغرب أحد أن هؤلاء البدو الخفة ، الذين لا يتكفون إلا السيوف
والرمح والأيمان ، اكتسبوا دولة كبيرة وممالك عظيمة ، وهدموا بناء
كان يبدو شامخاً قديماً .

وكذلك يرى أن الأيمان الجديد يمكن العرب من الخروج من
جزيرتهم إلى البلاد التي حوهم ، ثم انحدروا على الماء المتدفق في رملهم
كما ينحدر السيل الجرف وغرقوه ، ولم يفرقوه فقط ، ولم يفتحوا
البلاد ويحكموها بحسب ، بل فلبسوا عربية حاضرة ، وإذا كان الفرس
قد استطاعوا أن يحتفظوا ببعض حذقهم وخصائصهم وبروحهم القومية
، عما لم يستطيع البيزنطيون مثله . لأن الفرس كانوا أكثر صلابة في
وطنتهم من البيزنطيين بخلاف ذلك أن البلاد التي فتحها العرب من دولة
الأكامرة كانت مرسية وأهلها من الفرس على خلاف ما فتح العرب
من بلاد الدولة الرومانية ، فإنها كانت اجنبية لارومانية ولا بيزنطية ،
فبقاء الشعوب القومية في بلاد فارس طبيعي ومعقول والفتح لا يمكن أن
يقتله ، وانعدام مثل هذا الشعوب فيها فتحه العرب من أملاك الدولة
الرومانية معقول أيضاً ، لأنه لم يكن هناك في الأصل ، ولهذا بقيت
فارس شوكة في جنب الدولة العربية .

الجزيرة العربية والحاجة الجديدة

ولكن الصحراء التي جعلت من هؤلاء القوم جمعة أشداء مغوياء لا
 يأمنون الموت ، ولا يفتنون لتجاعة والنعم ، ثم تكن ندام
 لأن تكون مقر الدولة العظيمة التي انضمت إليها ، وفتحها شباها .
 نعم نستطيع بسهولة أن نحفظ استقلاله وعزبه ولكن لا تقوى على
 حكم افترار أخرى بعيدة كالشام والعراق ومصر . وقد بقي الحجاز مقر
 الدولة العربية في صدر الاسلام وعلى عهد الخلفاء الراشدين ولم يكن هذا
 كان زمن التوسع والامداد ، لازم الامتداد والنظام الدائم ، فلما
 انتهت الفتوح او معظمها وهما ، وصارت الفتوح بعد ذلك عبوة عن
 توسع طبيعي لدولة مستقرة تعرب ما است من بينها من القوة والبأس
 والشوكة بالتوسع والرجف ، وتدفعه مقتضيات المحافظة على ما في البلد
 الى هذا الرجف ، وصارت جبروت العرب لا تصلح ان تكون هي مركز
 الدولة ، اما في زمن أبي بكر فقد كانت الحاجة تدعو الى توليد الامر
 في قلب الجزيرة اولا ، قبل امكان التفكير في غيرها . واما في زمن عمر
 فقد كانت الجيوش ترحف ولا يعقل ان تنقل العاصمة قبل ان يثبت
 الامر . نعم فتحت البلاد في عهده ، ولكن الفتح يستدعي التثبيت
 والتوحيد اولا . ثم ان عمرا كان يشق عليه ان يخرج من الجزيرة ،
 وكانت صلته بالنبي عليه الصلاة والسلام اوثق من ان تسمح له بتترك الجزيرة
 حتى ولو كان كل شيء قد استقر وانظف . ولم يكن قد عاش في الشام
 او مصر او العراق حتى يبدو له مزية التحول بقاعدة الدولة الى جهة
 اخرى . واما زمن علي وعثمان فقد كان زمن اضطراب ونزاع وانقسام ،
 وكان هذا حسبها شغلا عن اقامة مركز الدولة اقامة تامة نهائية في

مكان آخر غير الحجاز . ولما انتهى النزاع بغزو معدوية كانت هذا قد
أودك مزبلة البلاد الأخرى وعرف فصل كمر كبر ذلك ومقر للدولة التي
شاهدها بفضل ما تولى منها في الفترة السابقة .

وبلاء جزيرة العرب أنها بحجة فاحشة ، فإذا امتدت لها ردة ذلك
أهلها إلى التحول عنها إلى غيره . لأن الحجة في غيره تكون أوسع
والعيش أصيب . والموت يحسن إلى الراحة والدعة منها بلغ من اغتيازه
أحشوية والشقة والضيق ، وقرق بين هجرة تدعو إليها كثرة السكان ،
وهجرة تدعو إليها الفاقة والمجمل . ولأن بلاد تريد أن تكون مقر دولة
كبيرة أن تكون هي ذات موارد كافية إلى حد ما . ولهذا لم يكبد
العرب بفتحون الأقطار المجاورة حتى كثرت هجرتهم إليها طلباً للراحة
والراحة ، ومن ألم النقص وكثرة الرجل من حاجة إلى أخرى انتجاعاً
للراقي لم يفتق عنه الهجرة إلى بلاد بعيدة لأنه لم يزل ابتداء مهاجراً في
قلب بلاده . وما دامت الدولة واحدة في الحجاز ومصر والشام والمراق
فأخلق بهذا أن يكون مشجعاً على الهجرة ومستحثاً على التفرح .

وما بلغت الضر في أمر الجزيرة وسكانها أن القبل إلى العربية الدعوة
لم تنقل الإسلام في أول الأمر عن طيبة حظوظ وعن الخلاص ، وهذا
بقصر قوة الردة بعد وفاة رسول الله ، ولكن أبي بكر عرف كيف يعلم
العرب الثأرين أن سياسة الرسول التي تدعو إلى الوحدة القومية ،
وخطط قبائل العرب بعضها مع بعض هي سياسة خلقته من بعده ، وبعد
انتهاء حروب الردة لم يبق في جزيرة العرب حاجة ثائرة ، ولا غيبة
عاجية ، فأصبح من حق أبي بكر والحالة هذه أن يفكر في أفراد سياسة
الرسول خارج الجزيرة ، وتوحيد العرب اقتضت على أطرافها وفي
الامصار القريبة منها والدين كانوا تحت حكم الروم أو الفرس .

وما كان أبو بكر ليستطيع ذلك لولا ما تم له من النجاح في الجزيرة ،
لأن الأمة التي تعجز عن توحيد نفسها لا تستطيع الغلبة على غيرها ،
والظفر على سواها ، وكان ذلك أمام الخليفة الأول ، طربش يضرب
نحو الشمال ، وآخر نحو الشمال الشرقي ، ثم تأخر في إرسال الجنود على
الضريقين ، وضرب الروم والفرس من حينئذ .

وكذلك نرى أن المسلمين الذين لم يكونوا في معركة بدر يشكون
قوة يزيد عن ثلاثمائة مقاتل ، والذين أصبحوا في غزوة تبوك ثلاثين ألفاً ،
فداسطعوا في الحروب الأولى وفي عهد الخليفة الأول أن يجمعوا ما
لا يقل عن سبعين ألف جندي غزوة الروم والفرس معاً .

وإد القول بأن أبي بكر لم يكن بنعم بفكرة واضحة مقدرة في
هذه الزخوف ، وأن كانت مجرد غزوات لأشمال العرب ، مردود بالأوامر
التي أصدرها إلى قواده الأربعة لما وجههم إلى الشام ، وأقر كل واحد منهم
على حكم البلاد التي ينتجع في الاستيلاء عليها . . .

وإذا كانت جزيرة العرب قد خضرت سباحتها السياسية في عهد علي
بن أبي طالب لما نقل عاصمته إلى الكوفة ، وفي عهد الأمويين لما نقلوا
عاصمتهم إلى دمشق ، ولما احتفظت بسيادتها الدينية ، وما تزال تحتفظ
بها حتى اليوم .

والواقع أن الزخوف الأولى التي قام بها سكان الجزيرة أفقرتها من
الرجال ، لأن كثيراً من أهلها بعد الزخوف الأولى استقروا في الأمصار
المنقوشة ، فخسرت الجزيرة والخطبة عهد ليس فقط قسماً كبيراً من
مكالمها ، وإذا خسرت أيضاً أذكى رجاء الذين وجدوها خبيقة على
مواهبهم ، ورأوا في الأمصار الواسعة والأنهر القاذرة حول الجزيرة ميداناً
واسعاً لنشاطهم .

ولقد حاولت الجزيرة استعادة مركزها السياسي بواسطة
عبد الله بن الزبير فانه توفى ، وبقتل عبد الله بن الزبير سنة ٦٩٣ ميلادية ،
انتقلت السيادة السياسية الى دمشق ، ومنها الى بغداد في عهد العباسيين ،
ثم الى منازل اخرى من المدن العربية ، ولكنها لم تعد الى الجزيرة ابداً .



نقل هذه الصورة عازر روماني في العهد العربي .

النظام السياسي للمدونة المصرية

المقدمة

ذهب السلف الى ان اساس كل حكم في الاسلام ، الخلافة ، او
الامامة العظمى ، وهو جريها في معرفت خلافة علي امير المؤمنين في امور
الدين والدنيا ، يترتب على رسول الله ، وان منزلة الخليفة من الامة ، منزلة
رسول الله من المؤمنين ، كما عليه الولاء المأثورة ، وبالصدقة المأثورة ، وله
حق القبول على عظيمه ، وتبجيل عظيمه ، وحرمة شراعه ، وله حق القبول
على شئون ديارهم ايضا ، بعده وحده ، ثم ما ائتم به ، وكان ولاية مستمدة
منه ، وكل خليفة دينية او دنيوية ، فمصرعها من منصبه ، فهو الخليفة الكرمي ،
وهو الخليفة الرومي .

والخلافة هي ، جديدة ، تكن فيها الاسلام ، وامت ان مستمدة عن نظام
سياسي سابق ، وتكون هي ، ثم بعد ذلك ، وسرته ، ثم من لقب
هذا القاب ، او يكون الصدق الخليفة الاول في الاسلام ، ووارث هذا
اللقب من بعده من امرائه المسلمين .

وقد ذهب كثير من المستشرقين بقولهم ان الخلافة ، وبذلك ، ورفان
نظام الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي نشأ في اوروبا في العصور
الوسطى ، ودرج بتبعية بحول التقريب بين المسلمين ، والتكيف بين
المذهبيين ، وتكن الواقع ان الخلافة هي ، والامبراطورية المقدسة ،
آخر ، وقد فطن الى الفوارق العظيمة بين المذهب والنظام من السر

توماس ارنولد في كتابه الخلافة فقال : (١)

« لما صرح البابا اينوونت الثالث بان المسيح قد استودع بطرس الرسول شؤون الكنيسة العنيفة ، وحكم العالم كله ايضاً ، اعلن مذهب الدين العنفي الذي كانت تدعو اليه الكنيسة منذ نشأته ، ومن هنا نشأت فكرة الامبراطورية الرومانية المقدسة التي يكون الامبراطور فيها امبراطوراً عنيباً ، وحاكماً مرشداً لشؤون المؤمنين الدينية بسلطات واسعة جداً حتى نعم سيطرته العالم كله .

والاسلام كذلك دين عني ، يدعو جميع الناس الى الانقياد اليه ورسوله ، او يدفعون الجزية كثمن قبول خاصية لمصداة الاسلام التي يشرف عليها سياسياً ودينياً الخليفة .

« ومع وجود فكرة او مبدأ السيطرة العنيفة بين المذاهب فانها تختلفان في بينهما من حيث ان الامبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن مستحدثة الوجود ، وانما هي منبثقة عن امبراطورية وثنية سابقة ، كما نجد فيها حاكماً كاثوليكياً احدهما . ومعني (وهو الامبراطور ، والآخر (روحي) وهو البابا ، واما الخلافة فنظام مستحدث ، ووليد ظروف واحوال نشأت عند وفاة رسول الله ، والخليفة الى ذلك حاكماً سياسياً ودينياً ، ولكن وظيفته الدينية لا تمتد الى المحافظة على الشؤون الدينية المقررة في الاسلام ، وليس له صلاحيات دينية كهذه التي يتمتع بها البابا ، من عصمة وغفران الخطايا ، فان مثل هذه الامور ليست من شأن الخليفة في كثير ولا قليل ، وانما هي شيء يتعلق بين المرء وربه ، والله وحده عند المسلمين يغفر ويصفح ويتحقق الذنوب .

« ولما تذكر ان الخليفة كان يتمتع بصلاحيات سياسية عظيمة ،

(١) السير توماس ارنولد « الخلافة » (لندن)

ولكن حجاجاته الدبية كانت ضعيفة جداً - وهذه هي نظرية السنة في هذا الموضوع - وان كان الشيعة يدعيون ان (الامام) وهو ما يطلق على الخليفة في نظرهم ، يجب ان لا يفوض امره الى نظر الامة ، وان الامة ركن من اركان الدين ، لا يجوز لشيء اغفاله ولا تفويضه الى الامة ، بل يجب عليه تعيين الامام له ، وان يكون هذا الامام معصوماً عن الكيثر والصغار .

الخليفة

واذا فنظرية الشيعة في الامامة اوسع وابعد مدى من نظرية السنة فيها وهي عندهم ملكة فائقة ، ووراثية دائمة ، وهي اصل من اصول الدين والامة معصوم في نظرهم ، واما الخليفة عند السنة ، فرجل من عامة المسلمين صدر اختياره هذا المنتخب لفضله وشرفه واخلاقه وقدرته على الاضطلاع بعناء الحكم اذ لا شخص من رسول الله على خلقه ، واخذت الموضوع المتعلق بين الخلافة في قریش ، خلاصة ، هو التعريف والوضع ، ولو كان حديثاً عن رسول الله لعرف به العمدة والاعتبار ، والأحج ، ابو بكر وعمر يوم السقيفة ، ولا كان اجتراء الانصار على المطالبة بالامارة ، ونحن نرى بالانصار وقد نصروا رسول الله وابدوه ان يطلبوا الخلافة لأنفسهم ، وهم من غير قریش ، وهذا الحديث معروف بينهم ، ورسول الله قد يدفن ، وما يوارى التراب ... وكذا ذلك نرى ان الخليفة عند السنة ، رجل كفيرة من المسلمين

(١) ولما هم الاكثرية الساحقة من المسلمين ، لان الشيعة لا يحدون اكثر من ١٢٠٠٠٠ ، واما اهل السنة فيعرفون انهم ياربون عن عشرة مليون في العالم ما يزيد عن ٢٠٠ مليون من المسلمين - دائرة الشرف الاسلامية - الصلة الانكسرية -

لا يستطيع ان يتقدم او يتأخر عن ما جاء في القرآن الكريم ، وقرنه
الاحاديث الموثوقة ، وليس هو افضل من غيره من المسلمين إلا بالعمل
الصالح ...

واكثر صلاحيات الخليفة التي انعقد عليها الاجماع كالصلاة بالمسجد
اماماً في المسجد مثلاً ، وقيامه فيهم خطيباً يوم الجمعة ، لا يستقل فيها
وحده ، بل يستطيع اي مسلم القيام بها ، اذا رضى به الجماعة
الاسلامية . ذلك ان الاسلام لا يعرف نظام الكهنوت ، ولا يقره ،
وليس هناك فئة من المسلمين تستطيع القيام بعمل معين من اعمال الدين
لا يستطيعه غيرها من المسلمين ، والعدد في الاسلام جماعة انصرفوا الى
دراسة الشؤون الدينية ، والعلوم النقية ، وليس هم صلاحيات خاصة
يبين الناس بسبب تخرجه هذه الدروس ، وليس ذلك نص في القرآن
ولا حديث مشهور يجعلهم فئة خاصة ، هذا امتيازاتها وحقوقها ، وانما هم
جماعة ادموا هذا العمل بسبل اوارادهم ، واحترقهم الناس اهلهم
وفضله . كما احقرموا غيرهم من العلماء الذين حدفوا الفنون والمعارف
الاخرى وتخصصوا فيها . لا تلتهم هؤلاء فئة معينة دينية خاصة ،
تستحق هذا الاحترام والاعتراف .

وما يقال في العلماء يقال في الفئة الذين يعملون بالناس ، ويلقون
الخطب الدينية يوم الجمعة او يدورون في المساجد المختلفة ، فهؤلاء صار
تعيينهم هذه الوظائف - التي قد يستطيع القيام بها كل مسلم صالح لها -
في العصور المتأخرة ، بعد ما رؤي من المناسبات اختيار امهم ، ليكون
المختار المكلف بهذه الاعمال حاضراً في المسجد وقت الصلاة ، فلا تتأخر
الصلاة ربنا بخدر المحزون من رضي به اماماً ، وكذلك الحال في
صاحب خطبة يوم الجمعة ، فانها لما تحتاجه من استعداد سابق ، رؤي ان

يكلف بها شخص معين ، ليكون مستعداً للقاءها في أوقتها ، لا أن يتوكّل الأمر للعاملين ، وقد لا يكون بينهم من هو على استعداد للخطابة والوعظ والأدب في الوقت المعين . . .

وإذا فخلّافة في الواقع مع صفات الشخصية الضيقة ، لا تنعم بشيء من الصلاحيات الدينية ، وما عليه هذا المذهب صاحبها من صلاحات دينية ، لا يردعه عن غيرة من السليين ، لأن هرد الصلاحيات هي سواء عند الجميع ، لا تتعلق به وحده ، في كثير من الأحيان .

وكذلك تختلّف الخلافة عن الأمر بطورة الروم نسبة المقدمة من حيث أنها الأخيرة عند القديس والقدوس ، وقد انبثرت وانتشرت انقسامها ، قبل أن يعلن مانيون في سنة ١٨٠٦ م. أن لا يعرف وجودها ، وليس هناك اليوم أحد من ممالك الميراث ففكر في معناه ، وأما الخلافة فإنها إذا لم تكن قائمة فعلاً عند المسلمين بعد أن صار العالم في توحشها - في ٣ آذار ١٩٢٤ - فهو أمر يذكّر به الجميع . ومما لا يخفى .

ديونقرادة

ومن المؤكد أن السبب في هذه الظاهرة الخاصة التي فشت بين المستشرقين من وجود علاقة عتيقة بين الخلافة والإمبراطورية الرومانية المقدسة تعود على الأرجح إلى أن المستشرقين نظروا إلى الخلافة ، نظراً إلى البابوية ، ورفقوا ، أدنولد ، في كتابة الخلافة حين يبحث هذا الأمر ما يأتي :

« أن العقيدة الإسلامية المتعلقة منه وحده تختلف اختلافاً عظيماً عن الصفات الألهية في الدين المسيحي ، فلا سلام يعقب صفات الله ، شيئاً خاصاً بالله دون غيره من المخلوقات لا يشركه فيها . أحد ، ولا يتعلق

بعضها احد ، وهي الى ذلك تربط العلاقات بين المسلم وربه ارتباطاً
يختلف كل الاختلاف عن العلاقات المقررة بين المسيحي والله في الدين
المسيحي ، والسنة في الاسلام - وهي ما وافق عليه اكثرية المسلمين - تقرر
ان احداً من المسلمين لا يستطيع ان يقول انه اقرب الى الله من غيره ،
وكل المسلمين سواء في طاعة الله والانقياد لأوامره ونواهيه وتقديم
العبودية له على وجه يخالف كل الهنفة ما عند غيرهم من ذلك ...

« وليس يوجد في الاسلام الى ذلك اتصال بين الدولة والدين كما
يوجد في المسيحية وهو امر كان سبباً في حدوث اختلافات عظيمة في
المسيحية في القرون الماضية .

« وليس يمنع ذلك ما كان يقوم به العلماء في الاسلام من وقت الى
آخر ، من انتقاد اعمال الخليفة حين خروجه عن العدل والانعاف ،
ومطالبتهم اياه بالعودة الى اوامر الدين ونواهيه ، لأن هذه الانتقادات
لم تكن موجهة الى رئيس الدولة من جمعة من الكهنة ، وانما كانت تصدر
من جماعة من العلماء الى آخر مثليهم ، ولكي يفهم نظام الخلافة ،
يجب ان نعلم ان الخليفة موهب سياسي قبل ان يكون موهباً دينياً ،
وان المواجهات الدينية الملقاة على عاتقه لا تعطيه حقوقاً دينية او روحية
تجعله يتنازها عن غيره من المسلمين » .

شروط الخلافة

والخلافة صريحتان : اختيارية وقهرية .

والاختيارية هي التي تكون نتيجة انتخاب الامة ويعتبرها ووضاها
وبشروط فيمن يكون مستحقاً لها ان يكون جامعاً للصفات المطلوبة ،
والشروط اللازمة لها ، اربعة : العلم والعدالة ، والكفاية وسلامة الحواس

والأعضاء ، مما يؤثر في الرأي والعمل ، واختلفوا في شرط خامس هو النسب القرشي ، وقد بسطنا رأينا في هذا قبلاً ، وقلنا ان الحديث الذي ينص على ان تكون الخلافة في قريش موضوع ما في ذلك شك ولا ريب .

والقهرية هي التي نالها صاحبها بالطلب والقوة ، ويرى بعض الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها ، حتى لا تكون فتنة عامة وثورة جارفة ، فترق المجتمع الاسلامي . .

واذا كانت الشروط الاربعة التي قدمناها ضرورية لكل مرشح للخلافة ، فان الرأي الخامس وهو النسب القرشي لم يجر اجماع الناس ليصبح فاعلة مقررة ، خصوصاً وليس في الاسلام تعجيل العربي على عجمي من المسلمين الا بالتقوى والعمل الصالح ، فاذا كان الاسلام يمنع المعاملة بين العربي والعجمي ، فمن المفروض ان يتعاهل بين العربي والعربي . وفي رأينا ان كل مسلم يستطيع ان يكون خليفة اذا جمع الى الشروط الاربعة المقررة في كل جماعة ، وهي العلم والعدالة والكفاية وسلامة الخواص والأعضاء ، وقررت السموات الخليفة ، والاسلام الذين المتواضع ابعد الاديان عن الاثرة ، وتعظيم جماعة على اخرى من المسلمين خصوصاً وانه سبحانه ونهائي لم يرسل رسوله الى قريش وغير قريش وانما ارسله هادياً ونذيراً الى البشر عامة .

اختيار الخليفة الاول

والمستشرقون يعجبون كيف ان رسول الله لم يعين خليفته من بعده في حياته ، وبعضهم ينسب الى انه ترك الحرية للمسلمين ليختاروا الزعيم الذي يشاؤون ، لان هذا الاختيار اكثر انطباقاً على العادات البدوية

والخربة العربية .

وكان من عادة القيس العربية اذا مدت رجليها ان تحتاو مكانه من
رجال القبيلة من -هم يمثل رعايتهم وقوتهم- او يكون من الرجال
الذين تحوزهم القبيلة لاجل رفقهم او لخدمتهم العظيمة في سبيلها ،
وهذه الاعيان فراس من البسطة ، واعانق من غيرهم بالعقيدة البدوية في
ذلك العهد .

وكذلك كان اختيار الخبيزة الاول التي بكر ، وسبغت شكل
الانجاب قديماً ، واما الخبيزة الاول فقد اخذ رعين الخطاب ، ولم
يتولك الخبيزة حدهم بلغة -سنة- من رعين الله ، وعص المشرفين
يسهبون الى ذلك هذا الخطاب كان منظرأ ، لان عمر بن الخطاب
وقد اخذوه ، او كان السبب امر في الخبيزة التي بكر للخلافة ، وكان
اي ذلك الخبيزة الخلف في عهد التي بكر ، فقد كان مرشحاً اكثر من
غيره ليري الخلافة بعد الخبيزة الاول .

وهذه النظرية تخرج الى بعض التعليق ، فليس صحيحاً ان عمر بن
الخطاب كان المعتدل في رعي في عهد التي بكر ، لان المصادر التاريخية
التي بين ايدينا لا تدع محذوراً في الشك في ان عمر بن الخطاب كان يختلف
كثيراً مع التي بكر في شؤون الحكم ، اختلف معه في مسألة الردة ،
واختلف معه في امارة حذاف بن الوليد ، ولما بعد مقتل -ثلاث بن نويرة- ،
واختلف معه في كثير من امور الادارية الاخرى (١) ، والشيء
الذي ثبت ان الخبيزة الاول كان ياحذاف في الفروق في كثير مما يهرس له
من امور الدولة ، كما كان ياحذاف في سواه ايضاً ، وانسكه كانت الى
الفروق ورأيه العرب وبه اعق .

(١) انظر الخبيزة وابن الاثير وكتاتبا وعمر بن الخطاب .

وكذلك الخلف الفاروق مع أبي بكر في مسألة خطيرة جداً وهي
مسألة العطاء ، فقد سأل أبو بكر المسلمين في العطاء ، - وهو المال
الذي كان يصرف إلى أوليائه بين المسلمين من واردات الفنائم والفتوحات
الجديدة - وأما عمر فقد رفض اللاحق برأي أبي بكر لما ولي الخلافة ،
وقال : لا أذهب من حرب رسول الله كمن حرب معه ، وراح يقرر
في العطاء خطة جديدة ، وهي تقديم النسب ، فالرسول ثم صحابة وأهل بيته
والمسلمين الآخرين على غيرهم من المسلمين .

حجج علي

ويرى بعض المسلمين من المتأخرين طبعاً أن حسب الخليفة واجب
أنه يوزع المدهون الثوابية ، ويعد لهم بحسب تقديراتهم ، ولكنهم
يجمعون على وجوب حسب الخليفة ، وأن علياً يقول : إن هذا مما
انعقد عليه الإجماع ، والدليل على ذلك إجماع الصحابة بعد وفاة رسول
الله على أبي بكر ، ثم اختيار أبي بكر لعمر ، ثم عهد عمر لأهل
الشورى ، وحبور خليفة بعده ، ولكن الشيء الواضح هو أن البدء من
الله ، لا يستطيع أن يقيم الدليل القاطع على وجوب ذلك بآية من
القرآن الكريم ، وتريد طبعاً آية حريجة لا سبيل إلى الشك في مداومتها
ومعناها .

والغناء السابقون يقولون بأقدامهم في الكتاب بهذا المعنى ،
ويردون الأمر كله إلى الإجماع .

وكما أنه ليس في القرآن نص على الخلافة والامامة وكذلك لا يوجد
في السنة ، ونعني بالسنة الحديث ، نص يعترف بوجود الخلافة أو
الامامة العظمى ، بمعنى النيابة عن رسول الله والتفويض مقامه من المسلمين .

وإذا فكما ترك رسول الله أمر تعيين خلف له من بعده، فعل القرآن
مثله فلم يعرض لمسألة الحكم بعد رسول الله، كما أن الحديث لم يبحث امر
الخليفة بعد محمد.

ولكن رسول الله كان رسولا وكان حاكماً سياسياً في الوقت نفسه،
فقتضاه بين الناس وارساله القضاة الى القبائل، وتعيينه بعض العمال في
عهده، وقيادته الجنود والرحوف وغيرها، فكان اعتبارها كلها من اثار
الدولة، ومظهرها من مظاهر الحكومة، ومن نظر الى اعمال رسول الله
من هذه الجهة ساذغ له ان يقول: انه كان رسولا وكان ملكاً سياسياً
ايضاً...

وهنا تعرض لنا مسألة خطيرة جدوة بالتفكير، وهي: هل كانت
تأسيسه صلى الله عليه وسلم للحكومة الاسلامية، وقيامه ببعض اعمال
الملك السياسي فيها شيئاً خارجاً عن حدود رسالته، ام كان جزءاً مما
بعثه الله له، واوحى به اليه؟

وكتاب السلف لم يعرضوا هذه المسألة على الوجه الذي اشرنا اليه
ولكن ابن خلدون عرض لذلك بما يشير الى ان الاسلام دون غيره من
الملل الاخرى قد اخص بانه جمع بين الدعوة الدينية وتنفيذها بالفعل،
وقد بينه بنوع خاص في الفصل الذي ترمع فيه اسم البابا والبطرك في
الملة النصرانية (١).

والذي يبدو لنا ان محمد بن عبدالله كان رسولا وانه لم يكن له ملك
ولا حكومة، وانه صلى الله عليه وسلم لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي
يفهم (سياسياً) من هذه الكلمة، وان ما اجراه من نظم سياسية
حكومية في عهده كانت اقرب الى الفطرة والبساطة منها الى الملك
(١) المقدمة (ابن خلدون)

وأصول الحكم ، ولو انه رسول الله وغب في تأسيس الملك على النحو الذي نفيه من هذه الكلمة لعرض لأصول الحكم ونظام الخلافة من بعده ، ولتقرر جميع ذلك ومنعته ، كما قرر الأمور الدينية والاجتماعية ، ما فرط في شيء من هذا ، ولا تركه من بعده يجرون فيه على اختيارهم وهوام .

ولكن الرسول كان رسولاً ، جاء إلى العرب بهذا الدين المتواضع العاذج البسيط ، ورغب إلى خلقه من بعده بشر هذا الدين في العالم ودعوة جميع الشعوب إليه بالحسنى والموعظة الحسنة .

الشورى

ولما طعن عمر في أول الأمر على ما يظهر ، ان يفعل ما فعله رسول الله قبله ، فترك المسلمين وشأنهم يتحدرون من بعده ، وأصبح بعض الصحابة حذقوا الفتنة ، فأوحى الشورى وهم ستة نفر ، عبي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومحمد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، على ان يجتمعوا ويختاروا واحداً منهم ، وأمهلم ثلاثة أيام لأقرار هذا العمل واختيار الخليفة . وبعض المشركين خضوعاً ، كبتاني ، يشك في هذا الأمر ، وينهيب إلى ان عمر بن الخطاب لم يمين احداً من الشورى ، وان الناس من بعده ، اجتمعوا على هؤلاء الستة الذين توفي رسول الله وهو راض عنهم فكلهم اختار الخليفة .

ولكن المصادر التي بين ايدينا تنفي هذا الرأي كل النفي ، ويصعب علينا الايمان بان الناس بعد عمر اجتمعوا على ستة نفر فقط ، وعوضوا اليهم اختيار الخليفة ، مع ما نعلمه من حب الناس للحرية واعتبار كل

واحد منهم نفسه مثل غيره من المسلمين ، ومن المؤكد لدينا ان عمر
اختار السنة ولولا ذلك ما اجتمعوا ، ولا انفقوا ، ولا اتبعهم الناس .
وفي اجتماع الشورى صدر اختيار عثمان بن عفان ، وكان علي اقرب
منه للخلافة ، لو سر على رأي عبد الرحمن بن عوف ، ووعد بالسير على
سيرة صاحبه ابي بكر وعمر ، ولكنه رفض هذا الشرط ، وطلب ان
يتوك الامر لاجتهاده ، فخشي عبد الرحمن بن عوف منه هذا التشدد ،
وحرف الامر عنه الى عثمان بن عفان . فان الناس في ذلك العهد كانوا
كما يظهر - ونحن هنا نسلم عن اهل المدينة لانه احدثا سواهم لم يتعرض
للاختيار ولم يؤخذ رأيه - فثمة كما يظهر بين علي وعثمان ،
بعضهم يؤيد هذا ، والبعض الآخر يؤيد الآخر . . .

وهنا بحار البراء في تحت فاجه خطورة في هذا الانتخاب ، وهي
تتماق في موقف الامويين من انتخاب عثمان ، وهل كانوا من المستنرة
بالمدينة بحيث استطاعوا ان يجسروا حوصلة عددا لا بأس به من الناس
استطاع مراعاة الضرر على وحمل عبد الرحمن بن عوف على تقديمه
وترشحه ؟؟

هل كانت الارستوقراطية السكية التي حدثت رسول الله من القوة في
المدينة بحيث استطاعت مراعاة على نفسه في الاستعاب ، وحمل الناس
على تأييده ودفع عقبرتهم هذا التأييد لما راح عبد الرحمن بن عوف يدور
بيد القوم هذه الايام الثلاثة التي سبقت الانتخاب لينعرف على رأي
الناس ؟؟

هذه مسألة من الخطورة بالمكان الارفع ، ولكن شئتاً في المصادر
التاريخية لا يؤيدها ، لانه كما يظهر لنا لم تكن هناك اكثرية لواحد من
المرشحين في المدينة ، على الآخر ، ولو كانت هناك اكثرية ظاهرة قوية ،

لأخذ عبد الرحمن بن عوف بها ما في ذلك شك ولا ريب ، وهو
شخص لا يشك أحد في إخلاصه ، بعد امت إخراج نفسه من الخلافة ،
وتخلي عن حقه في الانتخاب .

والواقع أن اختيار الخلفاء الراشدين الأربعة ، كان انتخاباً ديموقراطياً
حراً ، لأن الخلافة في عهد بني أمية أصبحت ملكاً لا شأن للرعية فيه ولا
رأي لها في إقراره ، وإن كان الانتخاب في عهد الراشدين خيافاً لا يتعدى
أهل المدينة كما قدمنا ، ولا يؤخذ فيه رأي الامصار البعيدة ، بسبب
بعدها ، وضرورة اختيار الخليفة قبل حدوث فساد ، وظهور اضطراب .

لقب الخليفة

ولقد نعت الخليفة بثلاثة القاب : (الخليفة) و (أمير المؤمنين)
(الإمام) ، أما لقب الخليفة فقد ورد في القرآن غير مرة ، ولكنه لم يرد
بمعنى الذي صار استعماله في عهد الدولة الإسلامية ، وأول من استعمل
هذا اللقب الخليفة الأول أبو بكر .

وكان يطلق على أبي بكر (خليفة رسول الله) ، فلما ولى امرأته
بخطبته أول الأمر فلقب : بخليفة خليفة رسول الله ، وكان هذا
اللقب ثقبلاً على الأدان ، فدعت الحاجة إلى استعمال لقب آخر أهملي
وأفضل وأقدر ، فاستعملوا لقب (أمير المؤمنين) وعمر بن الخطاب
أول من لقب بذلك ، وقد تردد عمر في قبول هذا اللقب أول الأمر ،
لما فيه من انزهو والجلال ، ثم ارتضاء وقبله ، حين لم يجد أفضل منه .
وأما كلمة (إمام) فقد وردت في القرآن ، وكانت تعني أول الأمر ما
نعنيه كلمة (خليفة) ولم تستعمل عند السنة الا قليلاً ، واستعملها الشيعة
أكثر منهم ، فخذوا يطلقونها على انفسهم من ولد علي بن أبي طالب

وقاضية بنت محمد : ()

وجا يجب ان يشار الى ذكره قبل ختام هذا البحث ان تكليف
رسول الله في مرضه لا يبي بكر بالحلافة في المسلمين ، كانت من الاسباب
الفعالة في قبول الناس ببعثته دون الاعتراض ، لان امامة الحلافة
كانت خاصة برسول الله في المدينة دون غيره ، وكان الخلفاء بعد
رسول الله يؤمنون الناس بالحلافة الى زمن من آخر ، وكانت هذه
الوظيفة من اجل اعمال الخليفة .

الحوان الخليفة

ولم يكن للحلفاء الراشدين اعواناً معينين ، ولا وزراء مستشارين في
اول الامر ، وكان الخليفة الاول ابو بكر يستشير اصحاب رسول
الله في كل ما يعرض له من امور الدولة ، كما كان يفعل محمد قبله ، فقد
ثبت ان رسول الله كان يشاور اصحابه في الامور العامة والخاصة ،
وكان يشاور ابا بكر في امور اخرى ، حتى ان العرب الذي اختلطوا
مع الفرس والروم قبل الاسلام ، وعرفوا اسم الوزير منهم ، كانوا
يسمون ابا بكر وزير النبي صلى الله عليه وسلم .

ولكن لفظ الوزير لم يكن معروفاً عند العرب في ذلك العصر ،
لبساطة الاسلام ، وبعده عن اية الملك (١)

وفعل عمر بن الخطاب مثل ابي بكر فقد كان يشاور اصحابه في
مختلف الامور التي تعرض له من شؤون الدولة الجديدة ، وكذلك كان

(١) استعمل لقب الامراء المأمون من خلفاء المسلمين ٨١٣ - ٨٣٣ ونقش هذا
اللقب على النقش في عهده .

(٢) ان خلدون (مقدمة)

شان عثمان وعلي بعدهما، ولما افضت الخلافة الى بني امية اتخذوا المنشارين من رجالات دولتهم وانصارهم ، ومع ان احداً في عهدهم لم يلقب بوزير الخليفة ، الا اننا نجد زياداً حاكماً العراق يطلق عليه لقب وزير معاوية في عهده .

ونجد فوق ذلك ان معاوية لما حاول تولية العهد لابنه يزيد كتب الى زياد يستشيره ، فذبحه زياد ان لا يفعل ، وان لا يعرض لهذا الامر خطره واهميته ، فكت عنه حتى توفي زياد فعاد معاوية واقربه .

المسجد مركز الانارة لاسلامية الاولى

وكان المسجد دار الندوة الاسلامية الاولى او البرهان المعاصر ، اد كان يشبه البرهان المعاصر في كثير من الوجوه ، ففيه كان مقام الخلفاء الاولين ، وفيه كان يجتمع كبار الصحابة حول الخليفة ، وفيه صكقات بقر كل مؤمن الدولة الاسلامية ، هذه الخلفاء الراشدين ، فمن اراد شيئاً من الخليفة ذهب الى المسجد ، ومن رغب في التحدث اليه ، تحدث اليه في المسجد ، واداً فلم يكن المسجد مكاناً للعبادة فقط - كما اصبحت بعد ذلك - وانه كان ايضاً مركز الحياة السياسية والاجتماعية للدولة الاسلامية ، ففي المسجد كان يجتمع رسول الله الى اصحابه ، وبقر الغزوات ، ويرسل البعث ، ويبحث السفراء ، وفي المسجد كان يخطب الناس مختلف الخطب السياسية والدينية والاجتماعية ، وفي المسجد استقبل محمد مختلف سواب القبائل التي جاءت الى المدينة ، وفيه استقبل سفراء الممالك المختلفة والجماعات المستقلة كاهل نجران مثلاً ، وفي المسجد بسط ابو بكر الصديق الخليفة الاول في الاسلام سياسته العامة ، وفي المسجد كان يبايع المسلمون الخليفة بالخلافة ، ومن فوق منبر المدينة اعلن

عمر للناس نفقار جيوش المسلمين في العراق ، واستعنت المجاهدون على
المداومة الى الحرب والجهد ، وفي المسجد قام عثمان بن عفان بدعوة
عن حبيبته ، كما بسط عمر قبل سنة المدة للناس يوم ولي الخلافة ،
واذا فامسجد كان دار اجتماع المسلمين ، كما هو حال البرمائيات اليوم ،
وكما بسط رؤساء وزارات الدول الختلفة في عصر الخضر سياساتهم
اقتصادية والداخلية للامة في برلمانية الختلفة ، وكما تلقى حبيب العرش
على سايرها ، ون الختلفة الاولون كانوا يعمدون ذلك في المسجد ، منذ
نصف الف وثلاثة مئة .

واذن فالقول به يجب حصر المسجد بالعلم فقط قول ضعيف ،
فالمدح كان به بزال المكان الذي يجمع فيه الملة الاسلامية للعلماء
ويبحث امورها العامة الدينية والسياسية والاجزعية والثقافة وغيرها .
ثم ان المسجد كان في العصور الماضية من كثر للثقافات الاسلامية ،
ففيه كان يجمع العلم ، وفيه درس علوم الختلفة والتفسير والفقه
والادب وغيرها ، وفيه كان يجمع علماء مختلف هذه العلوم للدرس
والمنافسة والتعليم ، وفي المسجد كان يجلس القادة اعقد جلساتهم واصدار
احكامهم ، وفي المسجد كانت توجد مختلف الكتب الدينية والعلمية
والادبية ، وبذلك يكون المسجد الاسلامي داراً عامة المسلمين ،
ومن كثر علماء ودينه الفضائل .

وبعض الايام فقد أصبح له مكانة السياسية ، فمعه
يبسط فيه الحجة ليست المدة ، ولا يجمع فيه الى ورائه ولا
مشاربه ، ولا عدد يجلس فيه الوالي لانصراف الناس ، ولا القاضي للفصل
في الخصومات ، وغداً عمله مقصور على اقامة الخطبة الدينية والخطبة ،
وتدريس المسلمين شؤون دينهم بشكل عادي بسيط ، لا يتناسب مع

مقامه السابق ، وخطره العظيم .

وما يقال في المسجد يقال في الخطبة - خطبة يوم الجمعة خاصة - فقد كانت الخطبة تشريعاً وانذاراً وبسطاً للبيعة المأمرة في المعهود الأولى ، وكما حصر المسجد مركزه السياسي مع الأيام خسرت الخطبة مقامها الواسع العائلي مع الأيام أيضاً ، ومرة ذلك أنه كانت في أيام رسول الله مسجد واحد ، واما بعده فقد أصبحت المساجد تعد بالآلاف أولاً ثم بالآلاف ، ولم يعد بطريق الخطبة اجتماع صوته لغير أهل بلده . فقل الاهتمام بالخطبة ، وأصبحت أداة للتصالح الدينية .

ولكن الخطبة مع ذلك احتفظت بشيء واحد من شأنه السياسي الأول ، وذلك أنه بقيت محنفة بذكر اسم الخليفة القائم ، والدعاء له بالنجاح والصلاح وطول العمر ، كما أنها أصبحت في الأيام الأخيرة سبيلاً في حيرة بعض الدول الأوروبية التي استولت على بعض الامصار الإسلامية ، إذ كيف تسمع بذكر اسم ملك مسلم ليس له سلطان على المصر الذي يحكمه . . وقد يكون هذا انكسار الخليفة مع كساً لسياستها ، مختلفاً معها . . وطبعاً وقع هذا الاختلاف أيام الدولة العثمانية التي كان يطلق على سلاطينها لقب الخاء ، أيضاً ، ولكن لقب الخليفة عند الاتراك ثم بدم حوسبلاً بعد الحرب العظمى . إذ ألغته الحكومة التي أصبحت جمهورية في آذار سنة ١٩٢٤ فزار من المجلس النيابي الكبير ، وأرسل آخر سلطان حمل هذا اللقب وهو السلطان عبد المجيد الى المنفى .



دولة من امين العرب



المراكب الفينيقية القديمة يورثت من عمارات البحار الوسطى

السياسة الخارجية

العلاقات الدولية

يعرض هذا البحث الى لون جديد من ألوان الحضرة العربية ، وهو هذه العلاقات الدولية الخارجية التي كانت بين الدولة العربية الإسلامية الأولى وبين الدول الأخرى ، وإن كانت هذه العلاقات قليلة متقطعة لا كثيرة متصلة . . .

ولقد عرف بعض العلماء ، الدبلوماسية بأنها :

« استعمال الذكاء والكياسة في إدارة العلاقات الرسمية بين الدول المستقلة ، متعليةً ذلك أحياناً الى علاقات بالدول المستعمرة » .
والعلاقات الدبلوماسية قديمة جداً على ما يظهر ، ولقد رأيناها بين القبائل العربية حين كان يضار الى انتخاب شخص أو أشخاص من ذوي القدرة والكياسة والدهاء لقسوة بعض المنازعات بين قبيلتين مختلفتين .

في عهد الأول

وكان عمر بن الخطاب يسمى سفير قريش في الجاهلية ، أي أنه كان رسولها عند القبائل الأخرى لفض المنازعات التي قد تقع بين قريش وهذه القبائل .

ولكن عمر بن الخطاب لم يكن من أهل اليمن بل كان من أهل

الشدة ...

وأول ما فرأه من تدبير محمد رسول الله وعلاقاته الدبلوماسية ، هذه العلاقات التي كان يحاول تثبيتها مع قريش ، لأن قريشا - بعد هربه إلى المدينة - أصبحت خارجة عن تأثيره ، بعيدة عن سياسته ، وأصبحت في الواقع أمة خارجية يجمع أن يجري معها في علاقات على النحو الذي يجري فيه مع كسرى ورس أو قيصر الروم أو غيرها من الملوك والأمراء ، كما وقع فعلاً في المراسلات الدبلوماسية التي أرسلها إليهم يدعوهم إلى الإسلام والاعتقاد بالله لا آله إلا هو .

السياسة وعهد المدينة

وفي عهد المدينة تجلى تدبير محمد في سياسة خصومه وسياسة أتباعه ، وفي الاعتماد على الله والعهد حيث لا تحسن المسألة ولا تفعلح اليهود .
بدأ الدعوة إلى الحج فلم يقدره في تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالة الله ، بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي تشترك المسلمين في عظيم البيت والسعي إليه ، فجعل له وللمسلمين جميعاً قضية واحدة في وجه قريش ، وهذا بذلك بين دعواها ودعوى القبائل العربية الأخرى ، ثم أقسده على قريش ما نعدوه من إثارة لخوة العرب وتوجيههم إلى مناوئة محمد والرسالة الإسلامية ، وأفهمهم أنه وجماعة العرب ينتصرونهم العرب ولا يذلون بانتصارهم ، أو يقطعون ما بينهم وبين آرائهم وأجدادهم ، فإذا خالفوا قريشاً في شيء فذلك شأن قريش وحدهم أو شأن المنتقمين من قريش بالسيطرة على مكة وليس هو شأن القبائل جميعاً .

ثم أقسده على قريش من جهة أخرى ما نعدوه من اغتصاب العرب

على الاسلام بما ادعوا من قطعه للوزاق ، وتهديده للاسواق ، التي
بمعرفها الحاج ويستفيد منها الغدودون الى مكة والواحدون منها ، فآخذ
محمد معه المسلمين الى مكة كما يأخذ معه من شاء معاصيته من غير
المسلمين فعاد البيت الحرام ، فإذ احوال بينهم حائل وبين ما يقصدون
اليه فلائم اثم فريش وحدهما فهي التي تمنع الناس عن الوصول الى
الكعبة ومكة ...

وَم بكن رسول الله لم يكن الى السيف وحده ولا الى السلم وحده ،
ولكنه كان يصنع كليهما حيث يجب ان يوضع ، ويدفع كليهما حيث ينبغي
ان يدفع ، وقد خرج النبي الى مكة في رحلة الحديدية حاج لاغريها يقول
ذلك ويكرره ويقوم الشواهد عليه من سأله ، ويثبت فيه السلم بالنجيد
من السلاح الا افله .

فم بفضل هذه الحيلة بين العرب وفريش فحسب ، بل فضل بين
فريش ومن معهم من الاحابيش من امصوهم ، وجعل الزعماء وذوي
الاراي يختلفون فيما بينهم على ما يسلطون من مصلك في دفعه او قبوله
وقل من اتباعه من ادرك قصده ومرمده حتى الصفوة القهارين .

الهد

ولما اتفق الطرفان - المسلمون وفريش - على التعاهد والتهادق
كانت سياسة النبي في قبول الشروط التي طلبها فريش غية في الحكمة
والقدرة الدبلوماسية .

ولما طلبوا منه ان يحذف كلمة رسول الله من الاتفاق فعل ، لان
غايته كانت السلم لا الحرب ، وغرضه كان ابعاد مدى من بقاء افعه
او حذفه ...

وكان في المعاهدة ان من اتى محمداً من فريش بغير اذن وليه رده عليهم ومن جاء فريشاً من رجل محمد لم يردوه عليه ، وانه من احب من العرب مخالفة محمد فلا جناح عليه ومن احب مخالفة فريش فلا جناح عليه ، ومن يرجع محمد واصحابه عن مكة غنمهم هذا على ان يعودوا اليها في العام الذي يليه ، ويقبضوا في ثلاثة ايام ومعههم من السلاح السيوف في قريها ، ولا سلاح غيرها .

ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد قتال انهم فيه المشركون وانتصر فيه المسلمون لوجب ان يكتب على غير هذا الاسلوب ، فيعتق المشركون كرهاً وطوعاً بحصة النبوة ولا يردون احداً من مواليهم او فانصرهم يذهب الى النبي ويحق المسلمين .

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت فريش انها هي الحاضرة بذلك الشرط الذي حسنت فيه ما وجدلنا محمد صلوات الله عليه ، فان المسلمين الذين نفروا من فريش ولم يقبضهم محمد في حوزته وعناية لعهد ، عود خرجوا الى طريق القوافل بخروجهم على تجارة فريش وهي امان في عهد اهدنة بين الطرفين ، ولا استطاع المشركون ان يشككهم الى النبي لانهم خارجون من ولايته بحكم اهدنة ، ولا استطاعوا ان يجهزهم في مكة كما ارادوا ببدء اهلوا شروطهم في عهد الحديبية ، ولو قضى العهد بولاية للنبي على من يفر من مسلمي مكة لجاز للمشركين ان ينقضوه او يطالبوا النبي بالمحافظة عليه .

وعندئذ جهر بمخالفة النبي من لم يكن يجير بولائه ، واستباح النبي من فريش ففرغ اليهود حبير وجميع تلك الاجنسية يرسل الرسل الى عظمائها بالدعوة الى دينه ، وفتح الابواب لمن يفتدون اليه واطبأت

الى سنة هادئة يرثب فيها شؤونه وينظم اموره وسياسته .
وهكذا تجلت عبقرية محمد في سبسة الامور كما تجلت في قيادة
الجيش وعال بالسياسة والمهادنة ورحابة الصدر فوق ما كان يتناه
بالحرب والقتال .

عهد وميث مصر

واحد اعظم حداثت سياسي وعسكري في عهد رسول الله ، هو
معركة مؤتة ، ومن هذه المعركة الداعمة البسيطة كانت انذاراً عربياً
مريحاً الامبراطورية البيزنطية ، ودليلاً على ان العلاقات الدبلوماسية
بين الروم والعرب لم تكن على ما يرام .

لقد دعا محمد بن عبدالله فبحر الروم الى الاسلام ، كما دعا كسرى
الفرس ومقوقس مصر ، وجماعة غيرهم من الامراء والحكام في عهده ،
بإلحاقهم عهد الله عليه بان يدعو العالم كله الى دينه .

وكانت هذه السفارات حديثاً غريباً قريباً في اربع الانبياء والمرسلين
فما علم احد من الاولاد ، فخطب ملك مصره بشي . فخطبهم به رسول
الله ، في زمن لم يكن فيه الاسلام قوة يصبح ان تغلب في وجه كسرى
وقبصر ، ولا كان الى ذلك قوة لم يصب في موطن الجزيرة كلها ، ولكن
محمد أرسل الى الناس كتاباً بشيراً ونذيراً ، فكان حقا عليه ان يؤدي
رسالة ، ويبلغ صوته الى ملوك والامراء الذين يحكمون العالم في
عهده ، ويبطلون على شعوبه وامصاره في زمنه .

وكان من نتائج هذه السفارات ان رد بعض الملوك عنها رداً شديداً
ككسرى الفرس مثلاً ، وكان غيرهم بساً رقيقاً كتفجير الروم وملك
الحبشة ، وكانت العلاقات السياسية مع الحبشة حسنة جداً ، وكان

التجاشي كثير الخامة للسلبي وحبهم عند قدومهم اليه ، وتولاهم
بالعناية مدة اقامتهم ، بحيث يصح ان نقول انه كانت هناك علاقات ودية
بين الدولة العربية الجديدة الناشئة وبين الدولة الحبشية .

وكانت هذه السفارات عملاً بديعاً من اعمال السياسة وهي اول عمل
قام به الاسلام في هذا الميدان ، وكانت الى هذا نذيراً للممالك التي حول
الجزيرة فان هناك قوة جديدة قد ظهرت في الجزيرة ، وان هذه القوة
مستكونة خطراً عظيماً على الامصار التي حوفا والممالك التي تجاورها ان
لم يتقبل اهلب الاسلام ديباً ، او يعملوا على التزم والاتفاق مع رجال
هذا الدين الجديد ...

معركة مؤنه

وحدثت معركة مؤنه بعد هذه السفارات ، وكانت السفارات من
اسبابها ما في ذلك شك ولا ريب ، لان رسول الله اراد ان يقتصر من
عامل الروم على البثقة من ارض الشام لقتله احد رسله ، وحدثت هذه
المعركة في الوقت الذي كان الميراثيون يحسبون بانتصارات هرقل على
الفرس ، وبعودة الصليب الحقيقي الى مكانه في كنييسة القبة ، بعد ان
انتزع الفرس منها السنوات خلت ، وبينما كان الامير اطور هرقل في القدس ،
انبأه قواده بعدم قوة عربية تقدمت نحو مؤنه على حدود البلقاء شرقي
جنوبي البحر الميت ...

ومن المؤكد ان هرقل لم يأت بهذه المعركة الصغيرة ، ولا فطن الى
خطورتها ، ولا استشر قواده - وقد ردوا العرب دافق من العناء
والنعب - خوفاً ولا ارتياباً ، وكان من المستحيل في ذلك المهدات
بفطن احد الى ان هذه المعركة ليست إلا مقدمة الزخوف العربية

الكبرى التي شهدها سوريا بعد سنوات قليلة ، بسبب رفض هرقل رسالة محمد ، وبسبب موقف عامه في البقاء من رسول محمد ، ويرى المستشرقون ان الغرض من تحدي المسلمين للروم في معركة موته ، يعود الى سببين : اولهما الانتقام من الغاشية الذين قتلوا سفير رسول الله ، والسفير لا يقتل وفاداً ثم عرف الدين يوم سي دونه بها الحصول على السيوف التي كانت تصنع في القرى حول مؤته ، والتي كانت تعد سلاحاً مفضياً في ذلك العهد .

وكانت هذه المعركة الصغيرة التي انتهت بقتل المسلمين وتراجعهم ، النذير الاول لمعركة صفين حربية عظمى اندمجت فيها الاجيال بين العرب والروم حتى ياذن الله باحتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م .

وكان على هرقل نفسه ان يشهد يوم عينيه انيار امانيه في سورية وغير سورية من امداد الامبراطورية ، ثم كادت تنهي حروب الردة في الجزيرة حتى اصدر الخليفة الاول امره بقتل ثلاثة من فواده بالزحف على سورية ، انتقاماً لقتل المسلمين مؤته ، وتحقيقاً لامر رسول الله بنشر الدين ، وسيادة العالم ، فمضى عمرو بن العاص ، ويزيد بن ابي سفيان ، وشرعيل بن حمنة ، في كتب عربية صغيرة لا يزيد عدد رجال الواحد منها عن ثلاثة آلاف مقاتل ، ثم تابعت الامدادات الى القواد الثلاثة حتى صار كل واحد منهم في سبعة آلاف وحماية مقاتل ، ثم سرح الصديق بعدهم ابا عبيدة عمر بن الجراح في مثل هذا العدد ، بحيث كانت تتراوح قوات العرب المسلمين الذين مشوا بحرية الروم بين الثلاثين والستة والثلاثين الف مقاتل على اوسع تقدير ...

الدبلوماسية في عهد الخلفاء الراشدين

وكانت الدبلوماسية عهد رسول الله والخلفاء الراشدين والامويين ضيقة الحدود ، محدودة المسالك ، ذلك ان العهد كان عهد فتح وانشاء ، ولم يكن من السهل ان ينشأ بين المسلمين والامم الاخرى التي كانت تقوم اى جوارهم علائق دبلوماسية قبل استكمال الفتح ، وتحديد الحدود ، اللهم الا ما كان يحقب فتح كل فطر من عقد الصلح والتعاهد كما حدث في سورية ومصر ايام عمر بن الخطاب ، وهذه علاقات دبلوماسية ضيقة محدودة كما قدمت ، ولم تكن اى ذلك مع دولة خارجية ، وانما كانت تقع بين المسلمين وبين بعض رؤساء الخلق الذين داموا لسلطان المسلمين ، كعهد المعاهدة التي حار عقدها بين عمر بن الخطاب وبطريرك القدس فيليب تسليم المدينة ، والمعاهدة التي حار عقدها بين المقوقس ومحمد بن العاص فيليب تسليم الاسكندرية .

والعلاقات بين الدولة الاموية والدولة البيزنطية كانت محدودة ايضاً ، الا ما كان من هذا الاتفاق الذي تم اولاً بين معاوية وامبراطور الروم ، ثم بين عبيد الملك بن مروان وبين الروم ايضاً ، واضطرار الخليفة لدفع مبلغ من المال اى فيصر القسطنطينية ليربح حياضه موقفاً ريثما يستتب لها الامر في داخل الامبراطورية العربية ، حتى اذا كانت ذلك امراً واقعاً او فاقاً دفع المال ، وعدا اى ما كانا عليه من الحرب والقتال والسياسة المسلحة .

الاسلام والديانات الاخرى

هزة عظيمة

يقول فونت كرمر استشرق الألماني : ان البحث في التأثير الاسلامي على غيره من الديانات ، وتأثير هذه عليه ، لا يزال في اوله ، وان المجال لا يزال واسعاً لدروسه والتبسط فيه ، ونحن مع اقرارنا واعترافنا بهذا التأثير لا نرى بداً من بدولة بشي . كثير من الاعتدال لان البحث كما قدمنا لا يزال طويلاً يحتاج الى كثير من التمهيد والتعريف . ففي القرن السابع الميلادي واوله مرة في ذريع الجزيرة العربية ، حصلت فيها هزة كان من نتيجتها تأسيس دولة عربية عالمية .

وليس بشيعة حصول مثل هذه المرة في العمود الثانية من التاريخ ، لما احد الساميون من سكان الجزيرة . هجرة الى البلاد المجاورة كالحراق وسورية ومصر وغيرها ، وما حصل في القرن السابع لم يحسن ولا تسمية هذه الموجات السابقة ، التي هيأت الاسباب للموجة الصخرية في القرن السابع ، ولكن الامر الذي يشيخ الاهتمام هو ان الموجات السالفة لم تكن تحمل طابع السبع الفتح ولا الاحتلال ، فقد كان العرب الساميون يغادرون موطنهم الاولى الى ما حوله من البلاد طغياناً للسكن والعيش مع السكان السابقين ، الذين كانوا يعارضونهم احباً ، ام لا يعارضونهم ابداً ، واذا حصلت معارضة فان هذه المعارضة تكون محلية لا شأن لها ، ولا تتعدى موضعها ...

وكذلك سمعنا من كسنوفون سنة ٤٠١ ق م بوجود قبائل عربية
كانت تعيش الى شرفى الفرات في العراق ، وسعت في القرن الاول
المسيحي في عهد سترابون ان نصف سكان بلدة (كويت) الواقعة في
مصر العليا هم من العرب ، كما حملت اليها المذود التاريخية قبل الاسلام
ان العرب السويديين من رعايا الامبراطورية البيزنطية ، والعرب
العراقيين من رعايا الامبراطورية الفارسية كانوا يشتركون في الحروب
التي تقع بين الدولتين اشتراكاً فعلياً ...

في القرن السابع

واما في القرن السابع الميلادي فقد تبدل كل شيء ، وخرجت من
الجزيرة العربية موجة جرفت كل ما امامها ، واستولت على بلاد
وجناعات كانوا يقفون العرب الفاتحين في المشرق والعراق والحيرة ،
ومع ذلك فان العرب لم يغزوا ذاتيهم ولا شخصيتهم كما فعلت القبائل
الجرمانية في استولت على رومها المتحضرة ، وكما اخضع المغول شخصيتهم
لما تقدموا الى آسيا ، ولكنهم حفظوا عديبتهم ، وعرضوا دينهم ولغتهم
على كل الممالك والجنات التي سقطت تحت لواهم ، وكان كل هذا بدون
ضغط منهم ، لانه في الواقع لم يكن من مصلحة السياسة المالية للدولة
الاموية اقبال غير المسلمين على الاسلام ، لما يتبع ذلك من سقوط الجزية
عنهم ، ونقص الوارد الى بيت المال ، وكان هذا النقص في نظر بعض
الامراء ، ابعدا ثراً ، واعظم خطراً من انتشار الاسلام وتبسط الدين .

عند النعمان

ولما فتح العرب العراق ، كان يسكنه بعض قبائل عربية من دبيعة

ومصر ، وبعض الفرس والنداري ، ولما فتحت فارس ، كان فيها عدا
سكانها من الفرس ، يهود وروم من الذين أسروا في الحروب الفارسية
الرومانية ، أو من الذين جرى نقلهم من بلادهم إلى فارس .

وأما سورية فقد تداولت عليها قبل الفتح الإسلامي الأمم
مختلفة ، من فينيقيين ، واموريين ، وكنعانيين ، ومصريين من عهد
الفرعون الفرعوني ، ويونان وروم وعرب من الفارسية ، ثم أصبحت
سورية قبل الفتح الإسلامي أغلباً رومانياً أثر الثقافة الرومانية
البيزنطية ، وغلبت على أبنائها الديانة المسيحية ، كما ورث في الوقت نفسه
كثيراً من عادات الأمم المتلفة وحضرتها وتقاليدها .

وكان يسكن هذه البلاد عند الفتح ، السوريون أهل البلاد ، والآراميون
واليهود ، وبعض الروم ، وبعض القبائل العربية ، كعمان ، وحُم
وأجدام وكاب ، وقضاة وطائفة من تغلب ، وكانوا في القسم الجنوبي
من سورية أكثر منهم في القسم الشمالي بحكم الجوار لبلادهم ، وحكمائوا
يتكلمون لغة هي مزيج من الآرامية والعربية ، وكان يعدون أنفسهم
سوريين لا يربطهم بحرب الحجة إلا العلاقات التجارية ، وقد ابتدوا
الرومان ضد العرب عند الفتح بعض التأييد . . .

وأما مصر مهد المدينة القديمة ، والوارثة لحضرة قدماء المصريين
واليونان والرومان ، والتي فيها الاسكندرية مركز المذاهب الفلسفية
والطوائف الدينية ، ومقنقى الآراء الشرقية والغربية ، فقد كان
يسكنها المصريون ومزيج من أمم أخرى كاليهود والرومان ، ولما
فتحت أفريقيا كان يسكنها البربر والرومان ، وكان من أثر كل هذه
الفتوح العربية أن انحلت كل هذه الأمم المختلفة الأغراض والمشارب
والمذاهب والملفات ، والأديان والتقاليد بعضها بعض ، وإن حدثت ،

ما في ذلك شك ولا ريب ، نوعاً من الخرج في الدم والنظم الاجتماعية
والعقلية والعقائد الدينية ، وكان سبب ذلك ما اتبعه العرب في
فتوحهم ، من استرقاق الذين غلبوهم ، أو تركهم أحراراً ، وكانت
هذا الأمر متروكاً للخليفة نفسه يفعل فيه ما يشاء ، وفقاً لفصله
والحاجة ، فقد حرر عمر بن الخطاب كل سواد العراق ، وعرض على كل
شخص من المومنين في الدم ثمانية دنانير ذهباً وعلى غير المومنين
اربعة وعشرين ، كما نرى ان عمر بن العزيز امر باسترقاق بعض امري
الترك في ايامه .

الرق والموالي

وكان الرق شائعاً في العالم ، لم تختلف عن استعماله امة من الامة ،
اكانت كبيرة ام صغيرة ، استرق اليونان في عهدهم ، وفعل الرومان
مثلهم بعدهم ، وصح القانون الروماني لبيالك الحق في قتل عبده ، او
استعباده ، وجعله مستقلاً غير مسؤول عن تصرفه في عبده ، وكثير
الرفيق عند الرومان ، حتى زادوا على عدد الرومانيين انفسهم ...
وكان الرقيق موجوداً عند العرب في جاهليتهم ، واما جاء الاسلام
ظل الرق امر واقعاً وكثير الاسترقاق ، الامة المنتصرة كثيرة هائلة ،
ووزع المسترقون رجلاً ورسد ، وداري على العرب الف تحين ، فكانت
للزبير ابن العوام الف عبد والف امة ، وغيره اقل ، وهذا الرقيق بعد
مملوكاً للسيد كالمتاع ، له الحق في بيعه وهبته ، واذا كان امة جاز للسيد
ان يستمتع بها ، واذا ولدت الامة من سيده فالولد ابنه ، وتسمى الامة
ان اردت ، وتبقى منكاً له بعد ولادته ، ولكن لا يجوز له ان
يبيعها او يهبها ، واذا مات عنها فهي حرة .

وقد اوجب الاسلام حسن معاملة الرقيق ، وجب العتق ، وجعله
كفارة عن كثير من الجرائم .

ومتى اعتق الرجل عبده او امته ورد اليها حريتها ، تبقى هناك صلة
بينهم وهذه الصلة تسمى الولاء ، وبطل العبد المقتنى بسبب ان من اعتقه
فيقولون زيد بن حارثة مولى رسول الله اي عتيقه ، واذا كان المقتنى
من قبيلة فقد ينسبون المولى الى هذه القبيلة فيقولون مولى بني هاشم ،
ويظهر ان هذه الصلة فيما اذا كانت المقتنى من غير وارث فان المقتنى يرثه .
هذا هو نظام المولى ، او الرقيق من الوجهة القانونية ، وانما من
الجهة التاريخية فقد كان يقال : مولى الرجل ، ويعنون خلفاء وورثته
من بني عمه وابنه واسرة عتيقه ، والمولى العصبية ، فلما دخلت العجم
على العرب بعد الفتح الاسلامية اختلف عليهم اسم المولى ، بعد ان
اصبحوا عصبية لهم ، كما كانت اكثر الرق والعاق صكرا استعمالا للمولى
يعنى المقتنين ، وقد نازح المولى بالعصبية العربية فكان مولى كل قبيلة
ينسبون اليها ، ويجوز ان يكون معهم ، وينسحبونهم في شؤونها ، فنرى من
ذلك ان كلمة (مولى) قد خرجت عن معناه العربي القديم ، وصارت
تطلق بعد الفتح على العجم والروم وغيرهم من غير العرب ، وعلى
الذين صار عتاقهم من غير العرب ايضا من العجم والروم وغيرهم ، مع
كونهم من المسلمين . . .

ومع ان الاسلام يؤيد المساواة المطلقة ، فقد كان العرب خصوصاً
في الدولة الاموية ، ينظرون الى المولى نظرة فيها شيء من الازدراء ،
ولكن هذا لم يكن عاماً ، لان نرى العرب في المدن الكبرى يحترم
وقتها من المولى تكريماً عظيماً . . . ولكن موقف الامويين هذا ،
وموقف بعض عمالهم ، اغضب المولى ، وحملهم على الخقد عليهم

والعمل على تأييد كل من حمل لواء الثورة ضدكم .

وبذكرنا بعض المؤرخين ان معاوية بن ابي سفيان قال : « اني رأيت هذه الحمر - يعني الموالي من الفرس والروم - قد كثرت ، وكثرت انظر الى وثبة منهم على العرب والمهاجرين ، فقد رأيت ان افعل شطراً ، وادع نظراً لاقامة السوق وعمدة الطريق ، ولكن معاوية لم يفعل - قال شيئاً ، وكلفت هذه تدل على عدم نظره ، وعلى انه احس بالخطر الذي يهدد الدولة العربية من جراء تكاثر الموالي ، خصوصاً وان العرب الذين تولوا العراق وسورية ومصر وغيرهما من الامصار كانوا اقلية بالنسبة الى المسلمين وغير المسلمين من غير العرب ... »

واقطع وزع كثير من ابناء البلاد المفتوحة وسلبهم - كأنهم غنائم - على الجيش العربي ، - ونهب بلاد المفتوحة البلاد التي حاربت العاصمين ، ولم تقبل منهم الخلع ، وصار اقلهم غزوة ، فكان لكل جندي تقريباً بعض العبيد والامه يستخدمهم في حوائجهم ، ويولد الامه ان شاء ، فتبع عن هذا ان دخلت البيت العربي عناصر فارسية ورومانية وسورية ومصرية ويونانية ، ولم يعد البيت العربي شيئاً عربياً ، بل شيئاً مختلطاً ، وبيت البيت هو العربي . ولكن هذا لم يكن عاملاً حقيقياً ...

ثم ان الامه حكمت بلاد اولاد بمجنون الدميين معاً ، الدم العربي من جهة الاب ، والدم الاجبي من جهة الام ، وكانت عدد هذا النوع كثيراً كثرة الفئوج التي فتحها المسلمون في عهد عمر ومن بعده ، وكان بين الاسرى ايضاً او السبي نساء من بنات الملوك او من المراف القوم ، كما يقال ان ثلاثاً من بنات بوجرد ملك الفرس ، تزوجن ثلاثة من ابناء الصحابة الحسين بن علي ، محمد بن ابي بكر ، وعبدالله بن عمر ، فأولدوهن ثلاثة ابناء فاقوا اهل المدينة فقهاً وورعاً وعلماً .

[illegible]

وعلما - بعد هذا الامتزاج العربي الانجليزي - على امتزاج العربيات
العربية والهندية العربي الذي هو وضعه بين الفرائض والسنة والحاكم
العربي - والهدنة الاجدية - والقبول الرومي - والعادي - والحاكم
الفارسية والرومية - كما هو الحال في نظام الانجليزي للدولة العربية على
غرار النظام الفارسية والرومية القديمة - حتى العقيدة الاسلامية لا تغفل
من التأثير في الامتزاج - فانه في حقيقة الاسلام من الامم الاخرى لم

يتفهموا الاسلام كما تفهمه العربي . حتى انما قصرت منهم في اعتناقهم
الاسلام انه فهو مشوباً بكثير من تقاليدهم الدينية القديمة ، وعقائدهم
الابدية .

والواقع ان العرب في تلك ايامهم لم يأتوا الى الاسلام من
التزويج بل من التزويج ، فقد اعتدوا الشعب العربي كثيراً من حيويته وقوته ،
كما انهم خلقوا في الاسلام اول عهد مشقة للمواشي ، ليس من الوجهة
السياسية بل من الوجهة الدينية ايضاً .

وكانت المواشي عديمة القيمة غير المعينة العربية ، وهم
تقاليد دينية كان لابد ان يزعموا اليها ويخاطبوا بها القواعد الاسلامية
العربية البسيطة ، ولذلك نرى الاسلام في اول عهده وبعد الفتح ،
يواجه حروباً جديدة غير حروب السيف والرمح ، كانت هناك حروب
بين الاسلام واليهود الاخرى ، وحروب بين اللغة العربية واللغات
الاخرى ، وحروب بين اللغة الانجليزية العربية وبين النظم الاجتماعية
الفارسية والرومية ، وبنات الامم كانت الملكية الاسلامية بيداً مبرحاً
لهذه الحروب خارج هذه الامم المختلفة ، ففرس يحولون الى ما كانهم
القديمة ويعتقدون انهم ارفع من العرب ، وروم كذلك ، كما ان النظم
السياسية كانت متضاربة بين العرب والروم والفرس ، وكذلك كان
هناك من الفرس من اسم ومنهم من حمل على يهوديته ، ومثل هذا
كان حال الروم واليهود ، كما ان اللغة العربية كانت مقفلة
وامم لغات الامم الاخرى التي كانت تحت حكمها ، وكانوا كثر الذين
يتقبلون الاسلام ، كما ضعف شأن العرب ، لأنه لم يبق هناك امة
عربية لغوية واحدة وثنية واحدة ، وامة واحدة ، وانما كانت هناك امة
اسلامية مؤلفة من امة ، وثلاث ، ولغات مختلفة ، تحول كل واحدة

منها ان تتحرك في غيرها ، وان تسبحر وحدها .

وفي أثناء هذا العراك العظيم الذي تبسط حتى شمل المملكة الإسلامية كلها ، انتصر العرب في شتى عظيمين ، اللغة والدين ، هاما لعنهم فقد سادت هذه الممالك جميعا ، وانزمت امامها اللغات الأخرى ، وحازت لغة السياسة ولغة العلم ، وظل هذا الانحدار حليفا حتى اليوم في أكثر هذه الممالك ، واما الدين فقد ساد هذه الأقطار ، وغار أكثر من فوز اللغة العربية ، وظل من بقي من سكان هذه البلاد على دينه الأصلي .

أول التأثير

ويذهب بعض المستشرقين الى ان كثيراً من الآثار الإسلامية والمذاهب الفلسفية والاجتماعية من رافداتها من أهل الكتاب ، ونحن وان كنا لا نكر هذا التأثير على الفلسفة الإسلامية والثقافات الإسلامية ، لا سيما لا نرى هذا من الآثار فقط الى ان هناك اختلافاً عالياً بين المؤرخين في مقدار هذا التأثير وحضوره ، فقد كان قوياً في ناحية ضعيفاً في الأخرى ، واما تأثير أهل الكتاب على المذاهب مثلاً ، فقد أصبح اذا كان هذا التأثير محدثاً وحده ، وتأكدت روايته ، واما تأثير الاسلام على المسيحية فليس من شك فيه عند المؤرخين اليوم ، ففي القرن الثامن الميلادي ظهرت فئة من الكاثوليك في وراء المنعكر الاعتراف للكنيسة ، ونفقوا ان الاعتراف لا يكون إلا لله ، ومعلوم ان الاعتراف ليس بوجود عدد المتدينين ، اعمه وجود الكنيسة عندهم ، واحجاب هذه النظرية ان تأثروا بالثقافة الإسلامية التي غزتهم من اسبانيا ما في ذلك شك ولا ريب .

ثم جاء الروم لتحت بعد مئات السنين فغنقوا هذه الفسحة
وابدوها . وهناك مذهب مسيحية اخرى اشر اليها بعض مؤرخي
المسيحية كاسترومين : في كتبه . المسيحية والاسلام في اسبانيا
اقتبلت بدورها من التعاليم الاسلامية . حتى ان بعض اصحاب
هذه المذهب دعوا بمناوشة التقريب بين المذهبين ليعاد الى
توحيد المسلمين والمسيحيين بولاية الله تعالى . منهم حول بعض الامور
الدينية .

وهناك كاثوليكوس وشران اوريث الذي صدر تعييه مطرانيا صا
سنة ٨٢٨ . ومن اول ائمة كان مع المسيح الورد والصور والتماثيل في
ابوتيه . وكان هذا طعنا من تأثير الاسلام عليه . لانه ولد ونشأ في
اسبانيا الاسلامية .

سجنون مدافع

ومن المؤكد اليوم ان اسباب هذا التأثير تعود الى هذا الامتزاج
بين المسلمين وغير المسلمين هذا الفسحة الاولى . وقد اشرنا الى ذلك فيما
نقدم . وتعود في الوقت نفسه الى تفتح المسلمين ووحدة صدرهم . وهو
ما اشر اليه المشرق . فون كرم . دون التفتات التي كانت تجري
بين المسيحيين والمسلمين في دمشق والتي حفظت في التاريخ . وفي
آثار يوحنا الدمشقي . والبرية يودور ابو فرح . تؤيد هذا التسامح
وتؤكد . ولولا ذلك ما كان يقدر يوحنا الدمشقي وتلميذه ان
يضعوا الرسائل في الرد على المسلمين ومفتنيهم . وفي تأييد المسيحية
ومذاهب الخلفاء في وسط مصر ونحت سلطان حكومة مملوكة والاسلام
لا يزال في نشأته . لولا تسامح المسلمين والحكومة الاسلامية العربية .

وكان الموظفون المسيحيون واليهود في عهد معاوية وبهذه
 بلاون دوائر الدولة ، وكان سرجيس والد يوسف الدمشقي مستشاراً
 في عهد عبد الملك بن مروان ، وما توفي فله ابنه مكانه ، وكان
 بخلدون المسيحي في هذا العهد ، ان يحسن حاليه على صدره ، وبشيء بين
 الناس في دمشق ، وليس من شأنه في ان هذه الالحاد الوثنية التي
 كانت تجري بين المسلمين ومسيحيين في دوائر الدولة والسياسة العامة ،
 أدت الى الافلاك القوية اخذاً ، فمصر المسلمون اعلمه قنوصيه من
 احوالهم المسيحيين ، كما رجعوا فبوت القسطنطين والرومان واندهوا على
 الاخذت المذهبية التي كانت تستمر في الكبر ، كما باقوا المسيحيين
 في هذه الاختلافات والمناصب .

وكما بحث المسيحيون في مدته ، بحث المسلمون في حذنه جل
 جلاله ، ثم اراهم هذه التي بحث القضاة والقدر ، وما رجعهم الى الانسان
 من ارادة في الحجة ، وهل هو محير او غير ، ثم انقلبوا الى النار وهل
 هي الهية ام غير الهية ، فمن يركب جارية المفسر مثلاً ، ام ان الله
 يعفو عنه ذلك ويحذف ، وكان اول من حرق هذا البحث في الاسلام
 جماعة المرجئة الذين ظهروا في اواخر عهد بني امية .

ثم هناك القدرية ، وهؤلاء ايدوا ظهوراً في عهد امية ، وكانوا
 اناس مذهب الماتولة ، ومعهم ايدى كثير من الفلاسفة اليونانية ،
 خصوصاً هذه الفلسفة التي كانت مدرسة دمشق تعنى على ديونهم
 والنداء .

واذا كان القدرية والمرجئة فلما نشد في دمشق بسبب الظهور
 اليوناني ، فقد عشت في اواخر بني الحوية الموافقة حول ، بين النهرين
 في عهد الفتح العربية جمعت تسمى الى مختلف العشب والاديان ،

فالفرس اعتنقوا مذهب زردسترا ، وكان بينهم انصار (ماني) وهو دين مزيج من الزروسترية والمسيحية والهندية ، وكان في العراق أيضاً بعض المسيحيين ، وبقايا الوثنيين ، ومن هؤلاء جميعاً من اعتنق الاسلام وحملوا معهم تقاليدهم ومذاهبهم القديمة المختلفة .

ومن المؤكد ان كثيراً من اصحاب هذه المذاهب المختلفة لما اعتنقوا الاسلام لم يعتقدوا بقلوب صافية ، ولا تفهموا او امروا ونواهي المتواضعة كل التفهم ، فكان من المؤكد ان مرج بعضهم العقيدة الاسلامية بما كان عنده سابقاً من تقاليد ومعتقدات دينية ، فاذا الاسلام مع الالهام وبين هؤلاء يختلف كل الاختلاف عن الاسلام المتواضع الحق الثابت الذي نعرفه . . .

وظهرت هذه المعتقدات الدينية الجديدة الغريبة عن الاسلام اول ما ظهرت في القرن المختلفة ، فكان حزب الخوارج اول الاحزاب ظهوراً ، والخواارج حزب ديموقراطي جمهوري مفرق في نظره ، لا يعرف الاعتدال ورحابة الصدر في اقرار مذهبه ، فكان شره اكثر من نفعه ، وكان انصاره اذعن في التعرف ونقسم المذمت من اي حزب آخر .

وقام حزب بعض الائمة الحزاب مختلفة ، نظروا اليهم كاصحاب الحق الشرعي في الخلافة دون غيرهم ثم تطور هذا الحزب مع الايام حتى اصبح مذهباً حياً مبنياً دينياً ، حبك حواء من احذود من النظريات الفارسية الاصل في حق الملكية الاتفي ، ثم هناك الاعتقاد بالوجعة - اي انتظار وجوع بعض الائمة الى الحجة بعد موتهم او اخلائهم - وهذه النظرية ليست من الاسلام في شيء ، يرددها المستشرقون الى اهل الكتاب . .

الحضارة العربية والحضارات الاخرى

حصارة عربية

وقد اشرقت على الركن الحضرة العربية في الادب والسياسة والتشريع والعمران ، وجدده بعض المستشرقين يدعون الى انه لم تكن هناك حضرة عربية ، وانما كان هناك حضرة امم اسلامية ، ويروجون بذلك الى ان الامم التي دخلت الاسلام حملت معها حضرة وثقافتها ، فثبتت من هذه الحضارات والثقافات الحضرة الاسلامية ، وانما الحضارة الاسلامية لا يمكن ان تنسب الى العرب وانما يجب ان توجد وتعود الى هذه الامم المختلفة التي خلطت للاسلام .

ومع ان المؤرخ المعاصر لا يستطيع ان ينكر ما اقصته كل شعب اعتنق الاسلام لحضرة العربية الاسلامية ، ولا يستطيع ان ينكر في الوقت نفسه ان هذه الامم التي جعلت حضرة الاسلام من حدود الصين واخذت الى جبال الهمالايا ، قد حملت معها لحضرة العربية ، لان الحضرة العربية في الواقع تختلف كل الاختلاف عن الحضرات السابقة ، وليست وليدة عنها بحسب ، وسبب ذلك ان هذه الامم الحضرة الاسلامية التي توالت احزابها ، وتعددت بمشاكلها ، كانت ترتبط معاً سياسياً او دينياً او تجارياً بعضها مع بعض ، وكانت جميعاً دائماً وابداً عوامل تعمل على نقل الحضارات والثقافات من بلد الى آخر ، ولا ادل على ذلك من هذا الاجتماع العام الذي يعقد في كل سنة في مكة ، وهو ما يسمونه

يومه الخبير ، فمن هذا البلد الذي كان يجتمع فيه الوف المسلمون المختطفين
في الاخلاق والادب والتميز والتميز والتميز الى اليوم ، فقد
ساعد دونك في ذلك وقتا ورسد على توثيق العادات الثقافية والاجتماعية
والثقافية بين الامم العربية الاسلامية مع بعضها مع بعض ، كما ساعد على
نقل البعثات والحجرات المختلفة من بلد الى آخر .

وكذلك ليس من شك بان الشعب الذي اجتمع في دمشق اولاً ثم في
المسيحية ، والذي اجتمع في الوقت نفسه في الشام الذي كان يغير
العلم في القرون الماضية ، كانت له اثرها وكان يشع نورها على المواطن
المتحدة الواقعة حول نهر الكبيح وبحر قزوين .

واذا فتنتم فيهم حضارة واحدة كانت اجيال عديدة واستقطفت في
اتناء ذلك ان تدبر في وثائق واحدة الثقافات الاسلامية وغير الاسلامية ،
والتي تسيرها في حدهم ، على ارجلهم ، وتخرج من عليها المضي في الطريق
الذي سلكه .

مزايا الحضارة

ومن المؤكد ان اهم ما من من عوامل الحضارة والتقدم هو اتصال
الجماعات ببعضها مع بعض ، وبقية امة او اخرى ، لا يفسر بقيمة
عقائدها الدينية ، ولا بعوامل الحضارة فيها ، حتى ولا زهوية البيئة
التي هي فيها ، وانما يفسر بتركيز الذي اجتمعت فيه الامة في مختلف
الافاق من برنار وناير عليها من حيث التصرف بغيرها من الامم .

ومما يمكن من اهمية الحضارة الحديثة الاوروبية وتفوقها على غيرها
من الحضارات الاخرى ، هو ان هذا الاتصال الوثيق بين وبين الامم
الاخرى ، ولولا التركيز الذي اجتمعت فيه في تاريخها وساعد على هذا

الاتصال ، وظلت الشعوب الهندية الأوروبية متوحشة منحرمة .
وكذلك مما يدل في منفع الآفهم الأوروبي على غيره من الأقاليه ،
ومما يدل في التركيز الجغرافي الذي تحمله اوروبا ، والذي ينعوق على
غيره من المراكز ، من اوروبا الحرة تسيطر على العالم فشكت من
السيطرة على طرق المواصلات القديمة في العالم .
ولذلك يجب ان يدرس تاريخ الثقافة الاسلاميه على البحر الذي
اثره اليه ، من حيث ان هذه الثقافة سيطرت على العالم منذ حدوث
طرق المواصلات في بدءه ، فلم تخلت عن هذه الطرق المهيمنة ، اهارت
حضارتها ، وذهبت ثقافتها ، وفانمت ملكهم الامم التي اسوانت على هذه
المراكز المهيمنة .

العلاقة بين المسيحية والوثنية

لقد ادخلت المسيحية نظرية جديدة في الحياة ، فحطت عن حرفة
شديدة على الوثنية اليونانية والرومانية ، وعلى الشرق القديم .
وقبل ان تتسكن المسيحية من افوار دعوتها ، والروح في خطتها
ظهر الاسلام .
والعراك الذي قام بين المسيحية والوثنية له بتعلق بالدين فحسب ،
بل تعداء الى العلوم والفنون الوثنية ، خصوصاً وان ايدي المسيحيين الاول
تقريباً انتفاء العلم جميعهم لا يكتفون لعموم والفنون الوثنية القديمة ،
ولا للنظم الحكومية المعروفة قبل عهدهم .
ومع ان المسيحية باعدت كثيراً ، على اضافة الثقافات الوثنية
القديمة ، لا انها في الوقت نفسه رفعت مستوى الجماعات العامة ، ومكنتهم
من قراءة الانجيل في لغاتهم الخاصة ، كما مكنت هذه الجماعات من

الاشتراك في الخلاقات الدينية خصوصاً في المدن التي كانت تنعم بشيء من الحضارة ، وشيء من نظام ثابت من نظم الحكم . وكانت الأمصار الآسيوية ومصر الذبابة للحكم الروماني احسن حالا وانعم حبة اجتماعية من غيرها من الأمصار الأخرى ، خصوصاً في الوقت الذي اجتاحت فيه البرابرة الألمان رومهم وامبراطوريتهم ، واجتاح فيه السلاف البلقان ، يدممون ويغزفون الحضارات الغائقة التي كانت تنعم بها هذه الجماعات في رومهم وفي البلقان .

مدن جديدة

وفي الوقت الذي كان فيه تأثير الفكر اليوناني والحضارة الأنطونية على أشدهم ، ظهرت مدن جديدة في آسيا ومصر ، كانت تسابق رومهم نفسها في السعة والعظمة والجل ، فالألكسندرية في مصر ، وانطاكية في سورية ، وسلفونية على بحر دجلة ، كانت جميعها لا تقل عن رومية سعة وعمراناً ، وفي مثل هذه المدن الكبيرة وغيرها من المدن التي أسسها اليونانيون ، كان السكان الأصليون يؤلفون الجماعات المتواضعة المتوسطة ، وإلى هؤلاء السكان ادار المشركون المسيحيون انظارهم ، ومع انتشار الانجيل بين السكان في اليونانية ، نشرت أيضاً مؤلفات أخرى في السريانية والقبطية ، كما نشرت في الوقت نفسه اداب مسيحية في لغات الأمم المختلفة المعروفة في ذلك العهد ، كالتورية والحبشية في أفريقيا ، والجيورجية في آسيا ، والانار التي بين ايدينا تقطع لنا العربية كانت مستعملة في الكنيسة ، ولكن ليس لدينا ما يثبت انه كانت هناك اداب مسيحية في اللغة العربية قبل الاسلام .

ولقد تبطلت المسيحية في هذه النزاع السياسي الذي كان يقوم بين

رومية وفارس . وكانت مواطن هذا النزاع حول ما بين النهرين في العراق ، حيث كان الزعماء المنجليون ، ينضمون الى احد الخصمين وفقاً للظروف والأحوال .

كما ان بلدة (اورفا) الواقعة الى شرقي الفرات ، وعلى طريق المواصلات بين سورية والعراق ، كان لها تأثير عظيم في تاريخ الكنيسة ، والمطارنة المورونية .

عاد غار التاسع ١٧٩-٢١٦ مسيحية . امير اورفا ، كان من الزعماء الارثوذكس الذين اعتنقوا المسيحية ، واصبحت (اورفا) مع الأيام مركز الحضارة السورية والآداب السريانية ، وفي القرن الخامس ظهرت في هذه البلدة المدرسة اللاهوتية الآبرائية التي كان لها تأثير عظيم في توطيد المسيحية ونشرها في ايران ، وعسقلان اورفا . ظهر اول كاتب سوري بارز هناك ١٥٥-٢٢٢ م ، وكان وثيقاً اعزى المسيحية ثم عاد الى وظيفته ، وكان آخر ممثل لمذهب الشوكيين ، الذي كانت مزيجاً من التعاليم الوثنية والديانية وغيرها .

ولما كان مغروخاً على المبشرين المسيحيين بعد الفلسفة والمنطق نقاداً للشوكيين والوثنيين وفلسفتهم وديانتهم ، وقد ظهرت عدة مذاهب فلسفية وثنية ، كمدرسة الاسكندرانية التي اعتمدت فلسفة اولاطون ، ومدرسة انطاكية التي ابدت مذهب ارسطو ، ومنذ القرن الرابع تولى الاختلافات الدينية تستمر في وسط الكنيسة ، وتولى كنائس الشرق مخالعة متفرقة .

من الكنيسة الملكية () خرج الباغية ، الذين كان لهم رأيهم في المسيح عليه السلام ، والسطوريون الذين كانوا يختلفون مع غيرهم

(1) Melchits

في مركز المدواء عليها السلام ، وما أخذتهم الامبراطورية البيزنطية
هربوا الى ايران واستقروا فيها .

وفي اواخر القرن الخامس هرب النسطوريون من (اوردا) بعد
ان هدم الامبراطور زينو المدرسة الفارسية فيها .

وكانت نوى ان درس الفلسفة كانت في القرن الخامس مؤثلاً
ومؤثلاً لكن هذه المذاهب المختلفة ، من المسيحيين واليهود والوثنيين
الذين كانوا مخططين في الامبراطورية البيزنطية .

وهي هذا العهد ، وفي الطروب التي كانت تقع بين درس والروا ان
وى الفرس في تقديمهم في الفلاسفة السور ، بحسب بعض سكان المدن
على الاندلس اوردا ، من خصوصاً صاحب الطرب والخاصات منهم ،
وكانت كما انهم مع الفلاسفة الذين كانوا الفلاسفة في المذاهب
ان كانوا من صاحب الطرب والروا ، يدعون هم الحسبون والسود
وعبره ، واوردا ، من الفلاسفة ، واوردا ، من الفلاسفة في القرون
الطام ، والروا ، من الفلاسفة ، واوردا ، من الفلاسفة في هذه القرون
الثلاثة ، نوى ان الفلاسفة الذين كانوا يسمون مركز اوردا في الحضارة الا
ان الفلاسفة الذين كانوا الفلاسفة .

وليس من شك في ان الفرس في القرن السادس كانوا امضى قدماء
في سبهم نحو الحضارة ، وفي هذا القرن الذي عرف الفلاسفة الحضارة
الوثنية في الامبراطورية البيزنطية ، واوردا في عصر اتصال
بالحضارات الوثنية المختلفة ، وفيه صدر ترجمة كتاب اكليلة ودمنة ، من
الهندية الى الفارسية ، وفيه كانت الفلسفة الفارسية تترجم وتدرس في
فارس ، وفيه قدم يون الفارسي كتابه عن ارسطو الى خسرو الاول في
اللغة السريانية ، وقد حاول فيه ان يبرهن على تقدم العلم على الاغاث ،

لأن العز الذي لا يخطر ببالك يساعد على توحيد الإسلام بين الشعوب،
وأما الألمان الذي يبحث عن المجهول فإنه إذا اختلف وتناقض
أما التجربة والحكمة العارضة فقد وصلا إلى أبعاد المرات في القرن
السابع أي قبيل الفتوح العربية.

وقبل أن نفتح الأبواب لنصل إلى قلب الفرس ونروم...
البيزنطيين حروب تدرت إلى سنوات ٦٠٤ - ٦٣٠ م سنة في الفرس
التي هي كل ما هو في سوريا السورية ومصر مصر ، وكان نائب
كبرى هذه الأقاليم في الإسكندرية التي هي في هذا ما كان المندس
السورية من الحروب والدمار... ولما كانت سنة ٦٣٠ م فقد احتلتها الكوفة
في النوع العربي ، وحدث في القرن السادس سنة ٦٣٠ م كانت يوم
هذه السنة دمرتها الدمار ، وفي سنة ٦٣٠ م دمرها الدمار...
ولكن على ما نرى أنه في القرن السابع دمر الفرس جميع المدن
السورية التي مروا بها ، وذهبوا لشجر الزيتون في المدن التي تزلزلت ،
وظلت آثار هذا الدمار ، ثم بعد ذلك في سنة ٦٣٠ م من هذا
النوع ، ولما كان الفرس قد وصلوا في سنة ٦٣٠ م إلى حواجز القسطنطينية
فليس الضمير قد وجد ، وأصبحت سورية جزءاً من الدمار ، ولما
تمكن الروم أخيراً من كسر شوكة الفرس ، فموا إلى الزمان الواقعة تحت
الحكم الفارسي في سنة ٦٣٠ م فدمر الفرس في بلادهم ، ودمرهم الحروب ،
وقد أدت معاهدة الصلح التي وقعت بين البيزنطيين كل الأقاليم
التي احتلها الفرس فبلا في الأقاليم السورية البيزنطية ، ورجع الروم إلى
بعض الأراضي العراقية ، وكان مثل السلاح الفارسي حدياً في سقوط
خبره الذي ٦٢٨ كبرى الفرس ، وفيه الثورات في فارس ، ولما
كاد الروم أن يلقون من حروبهم مع الفرس حتى عادوا إلى اضطهاد

(الكفرة) أو امرائهم الذين كانوا يخافون مذهب كنيسة القسطنطينية كما اضطهدوا اليهود والنصارى أيضاً ، جعل كل هؤلاء ، انصاراً للعرب فيما بعد .

وبما ظهر المسلمون بدأ انحطاط الامبراطورية البيزنطية ثقافياً وحضارة ، وانتقلت الحضارة العربية الى العرب الذين ظلوا يسيطرون عليها الى اجيال عديدة .

اهل الكتب والحضارة العربية

وليس من شك اليوم ان حياة المسيحيين في الحكم العربي كانت افضل واحسن من حياتهم في عهد الامبراطورية البيزنطية .

وفي العصر الاول امجري ، ظهرت آثار ادبية وعلمية في اليونانية والسريانية في مصر وسورية والعراق ، يعود الفضل فيها الى المسيحيين من سكان الامبراطورية العربية .

وكان يعقوب الاوربي ، وهو من اوفى ، (٦٤٠ - ٧٠٨ م) عالماً مشهوراً ، وبهذه مؤرخ الكنيسة يذكرون ان كان مكتبة العقيدة كما كان القديس جيروم للكنيسة الرومانية .

ومن المعلوم ان الامراء المسلمين استمروا باهل الكتاب في العمارة والادارة ، وقد بنى المسيحيون كنائس جديدة في ارض الحكم الاسلامي ولم يعترضهم احد من العرب والامراء ، لاننا نرى آثاراً مسيحية كثيرة تمتد الى العهد الاسلامي الاول ، ولم يمسكن المسلمون يمهون المسيحيين من الاتصال بحوائهم خارج البلاد الاسلامية ، وفي الاجتماع الذي عقد في القسطنطينية ٦٨٠ - ٦٨١ ، نرى مسيحياً من دمشق يشارك المسيحيين فيها .

وحول سنة ٧٢٠ انتقل نشاط المذاهب الفلسفية اليونانية من
الاسكندرية الى انطاكية .

وفي اواسط القرن الثامن اتصل المسلمون بالعلوم اليونانية بواسطة
المسيحيين ، وفي هذا العهد سأل الخليفة المنصور ٧٥٤-٧٧٥ الاميراطور
في القسطنطينية ان يبعث له بعض الكتب الرياضية .

وفي القرن التاسع نرى حنين بن اسحق اول مترجم ثلاث اليونانية
الى العربية ، ويعرف سنين في القسطنطينية يدرس فيها اللغة اليونانية ،
ثم لما عاد الى بغداد حمل معه كثيراً من المؤلفات اليونانية

وهناك ما يؤيد انه المسلمين اللغة اليونانية ، وكانوا يتعلمونها من
المسيحيين الموجودين بينهم .

وكان (ابو يونس) من اورشليم ، فلكي بلاحق الهدي ، وكان مكلفاً
بدراسة العلوم الفلكية وهو الذي ترجم الاربعة والاذينية الى
العربية .

والظاهر ان الحربة التي اعطتها الدولة العربية الاسلامية للشعوب
التي لم تكن مسلمة ولا عربية ، قد خلقت فكرة شعبية عندهم ، فخذوا
يقولون انهم افضل من العرب ، ويؤمنون بالكتب في ذات ، وما
العرب الى الرد عليهم ، والنقد موقفهم .

وكذلك كانت انعم الخلافة بشي ، لم يكن بنعم ، غيرها ، وهو انها
جمعت تحت سلطانها ، مختلفه الفنون والعلوم والثقافات واجامعات
المتحضرة ، وكان التمسك مع الاسلامي . وهو مما لم يكن بنعم مثله
الرومان - ما عدا وعملاً في تشييد المعارف والعلوم وانصراف
المسيحيين وغير المسيحيين الى الانواء من هذه المعارف والعلوم .
ومع ان المسلمين قد اخذوا معرفهم - اليونانية والرومانية وغيرها -

عن المسيحيين ، فإن المسيحيين في الواقع لم يكونوا أكثر من واسطة ، ولم يظهر بين غير المسلمين العرب مفكر واحد ، احتجاع ان يخلق شيئاً جديداً لم يكن معروفاً ، ولا تكن احد منهم من طرح المذاهب الفلسفية اليونانية مراحاً جديدة ، هي خيرة ودراسة دقة ، بخلاف المسلمين الذين امرحوا امثال الديواني ، وابن سينا ، والميورقي ، وابن رشد وغيرهم من الامثال الى تعدادهم .

وكان الامة الاسلامية المسيحيين ، كثيرينهم من المسلمين ، ومع الالام اصبح المسلمون يسطرون على المذاهب والمذاهب والثقافات اليونانية القديمة ، التي كان يسطرون عليها المسيحيون ، ولا سيما بدأ المسيحيون في القوافل القديمة ، ومن بدراسة الآداب العربية بعد ان ضلوا زواياهم الاقلام كبريون ، لا يدرسون ، مقتصرين على الآداب اليونانية القديمة .

والذي يريد ان نقوله بعد ما تقدم هو ان امارة الثقافة المسيحيين الشرقيين في المدة التي كانت المذاهب الاسلامية في كتيها كبيرة فبينة في نفسها ، ولا القرب على الثقافة العالمية ، وهذه خبره كانت دسمة العرب المسلمين في المذاهب والمذاهب اكثر ظهوراً ، وانور المواقف ، وان كانت اقل عدداً . . .

وفي سورية ومصر كانت المسيحيون حتى منتصف القرن العاشر يسيطرون على وظائف الكنيسة والعلوية ، وكان اليهود امور في التجارة ، وفي القرن الثاني عشر كان السورانيون اول من قبل الاتراك مع الكنائس المسيحية الاخرى على ان يحترق كل غربي الاخر ، وكان الاتراك الاول بين البعاوية والفسطاط .

ومن القرن التاسع ابتدأ شئ غير المسلمين ، لاخطاط ، وسبب ذلك

ذهب الحاجة اليهم في العلوم والفنون بعد ان اتقنوا المسلمون ، كما ان
الامبراطورية البيزنطية كانت تعامل اهل الكتاب المتقيين تحت السلطان
الاسلامي ، معاملة قاسية ، واحتقرتهم وبغدتهم ، ولكن المسلمين وان
استغنوا عن اهل الكتاب في العلوم والوظائف وغيرهما ، الا انهم لم
يخطئوا احداً منهم بحال من الاحوال ، وظل هؤلاء النعمون يركز
بمنار في الامبراطورية الاسلامية ، حتى ان بعض كدوم كانوا يرددون
الملايين التي كان يرتديها كبار المسلمين .

واحد المسيحيون مع الابرار يتقبلون الاسلام ، فحسرت المسيحية
بلاد درس ، وصممت كتبها في مصر ، ولم يبق من الا الافضل في
سورية ، وانقرضت تماماً في افريقية الشمالية .

ويظهر ان مشافة النصارى كان اقرب الى العرب المسلمين منهم الى
الشعوب الاخرى ، ففي الحروب الصليبية كما يقول احد كتّاب الروس
من الذين ارتحوا تلكسية ، كان الكهنة والشعب المسيحي يفتلوا
الحكم العربي الاسلامي على يد الحكيم الاوربي .

وليس يستبعد ان يصل الشرق الى عهد ، يكون للرومية فيه اثر
اكبر من اثر الدين في نفوس شعوبه وجموعه .

الافتح على العربية

واقترنت اليوم ، لا يقبل ذلك ان الشعوب المخططة التي كانت
تسكن اقطار الامبراطورية العربية وجدت من صلاحته قبل الاسلام
والانضمام الى الدين الجديد ، وكان ذلك ارباً واقعاً فدخلت الفرس
والسوريون والقطر والبربر يتقبلون الاسلام ، وحين يتقبلون الاسلام
كانوا يسمون انفسهم عرباً ، وراحوا يقدمون ذكاهم وعمرهم ومعارفهم

لتعزيز الدين الجديد، واخذوا في الوقت نفسه يكتبون بالعربية ويؤلفون بالعربية ، وإذا لم اعترفوا بأن الأمم التي عززت الحضارة العربية الإسلامية كانت بكثرتها من غير العرب . ان هذه الأمم نفسها حين تقبلت الإسلام ، خصوصاً في سورية ومصر وإفريقية قبلت معها العنصرية العربية ، واخذت تتوالد وتعيش بين العرب ونمت تحت ظل الحكومة العربية . بحيث أصبحوا عرباً مع الأيام وتناسوا تغلبهم الماضية وثقافتهم السابقة .

ولم يعمل العرب لنشر الإسلام ، ولم يكن عندهم مبشرون ولا كانوا مبشرون النصارى ، والذين كانوا مبشرون النصارى منهم هم المسيحيون الذين أصلوا والذين تعلموا النصارى من المسيحية .

الحضارة منقذة

والحضارة قبل الإسلام كانت تقريباً منقذة في مختلف المواقف ، فالحضارة الاندلسية نمت الحضارة الرومانية في القبطية والتي أخذت الكثير من الحضارة الفارسية لانهما حكومتها وسياسياً وحروبياً بعضها مع بعض ، كما أخذ الفرس من اليونان فيهم . . .

وكانت الحضارة في آسيا الغربية مزيجاً ، نمت والتأثير اليوناني والاسامي والفارسي كما نمت بكل ثقافة خارجية اتصلت بها .

ومن المؤكد ان الحضارة الإسلامية كانت في اول الامر مزيجاً من الحضارتين الآرامية والعربية ، ولكن هذا لم يطل طويلاً ، فمالت الحضارات الأخرى ان اتصلت بالحضارة الإسلامية ، التي اتصلت بدورها بالحضارات اليونانية والرومانية والفارسية وحضارات وسط آسيا كتركستان والصين والهند .

ما اخذته العرب

ويقول بعض المستشرقين ان العرب اخذوا ادارتهم عن الفرس والروم ، والفلسفة والعلوم الطبيعية عن اليونان ، ومن العمارة عن البيزنطيين والفرس ، واخذوا فنهم وكتبة التاريخ عن الفرس ، واستقل العرب بشعرهم وادبهم ، وقضيتهم وتشريعهم ، لان ما اخذوه من الامم المختلفة من هذه العلوم والفنون كان غنيا لا يذكر .

اللغة العربية في فارس

ومن الدلائل على تأثير العرب على الفرس ، انه لما قبل يزدجرد كسرى الفرس سنة ٦٥٩ ، اعلنت الامبراطورية الفارسية والديانة الفارسية واللغة الفارسية أيضاً ، وفازت العربية مقام اللغة الفارسية فاصبحت اللغة الرسمية ، ولغة العلوم والفنون أيضاً ، وادى هذا على وجه التحقيق الى اخذت اللغة الفارسية اخذت عطيناً ، فاصبحت اللغة العربية لغة سكان نيسابور ، وسكان كشم وهرات ، يتركزون بها ويكتبون ، واصبحت العربية لغة الطبقة الراقية ، حتى في خراسان علبت العربية الفارسية .

وبعد الفتح العربي لم يبق لسكان فارس من وسيلة لاضهار عواطفهم والاعراب عن ادبهم ومناعهم الا بالشعر ، وفي الشعر غلبوا الشعر العربي مع بعض التعديل القليل .

وفي عهد اثمون فقط اخذت فارس تعود الى نفسها ، وبدأت الحركة الاستقلالية الداخلية فيها ، وظهر فيها بعض الامراء الذين اخذوا يعملون هذا الاستقلال ، كبنو طاهر ، وبنو بويه وغيرهم ، وقد

لعب الشعر الفارسي دوراً عظيماً في تنشيط هذه الحركة الاستقلالية كما
اذكى روح الوطنية .

ظلمت كبريان

والخلاصة ان الفكر العربي خلق نظامين كبيرين : اولهما امبراطورية عربية
خلقها العرب وحكمها العرب ، واستمد منها العرب وغير العرب ، ودار
حكمها وفقاً للنظم العربية نفسها ، وهذه الامبراطورية انتهت بانتهاء
امية ، وثانيها الامبراطورية الاسلامية التي كان العرب فيها جماعة من
المسلمين ، والتي قدم بها وحكمها ووطئها جماعات اسلامية مختلفة منهم
العرب ، وهذه الدولة دامت مئات السنوات وظلت حية حتى السنوات
الاخيرة ، ولم تضعف الا بتقدم الحضارة الاوروبية التي حلت محل
الحضارة الاسلامية ، ومع ان هذه الامبراطورية لم تكن عربية بكل
ما في الكلمة من معنى ، وكانت اكثرية سكانها والعاملين فيها من غير
العرب ، فانها اخذت نظم وروحها من النظم العربية السائدة ، وكان من
مظاهر التأثير العربي فيها ان الاسم الأعجمي كان يسمى نفسه باسم عربية ،
ويشعر العربية ، ويؤلف بالعربية ، ويدعى بالاسلام الذي هو دين العرب ،
ويقرأ القرآن الذي هو اوضح كتاب في العربية ، فكيف لا يصبح عربياً ،
ومسنوات قليلة تكفي في الوقت الحاضر لقبول اي اجنبي يعيش في احد
البلاد المتحضرة الحضرة ليصبح من اهليها وابنه .

مادة قدم العرب

ولقد قدم العرب للعالم ديناً جديداً ، حدد علاقة الانسان بربه
تجديداً معقولاً ، قرى الدعائم مسبوك الحفود ، ودفع من شأن المرأة

عما كانت عليه في الجاهلية ، وخلق الوطنية العربية ، ولم تكن هناك قبل عهد وحنية في الجزيرة ، وحرّم الأشرية المسكرة التي لا تزال تعيش واثمة في المجتمع العربي حتى اليوم . واثمة انساواة الإنسانية . والنظم الاشتراكية التي تجعل من المجتمع الإنساني مجسداً متحدداً بعمل كل واحد للمجتمع ، ولا تستمر جماعة من هذا المجتمع غيرها ، فإنه في الواقع شيء جديد يجعل الإنسانية في عهد دائم . ونظم كأنه الربيع الأخضر ...

ومن المؤكد اليوم ان كثيراً من الهدوء العقلي السليم ، والتفكير الفاعل ، المنظم ، الماسين وحلوا إلى الأمم الأوروبية مع عصر النهضة ، وحلوا من عرب اسبانيا وتذكيرهم المنطقي ، وتحكيمهم للعقل في كثير من شؤون الحياة ومشاكلها . والواقع ...

ولكن العرب إلى ذلك لم يوفقوا إلى خلق نظم لهم دائمة ثابتة كالإمبراطوريات الفارسية ، أو كالأباطورية الرومانية السابقة ، ونظمهم الحكومية التي استعنت في عهدهم بدارق العلم الأخرقية قوية جارية في بشام ، ضعيفة مع الأيام ، مهددة بالسقوط ، والانهيار أبداً ودائماً . لأنها نظم تظهر فيها الفردية أكثر مما يظهر فيه عمل الجماعة المتكئة القوية .

والعرب مع ذلك لم يفتخروا باندث فحسب ، وإنما حملوا أيضاً سكان هذه البلاد المغنوعة على نأثرهم والجري على غرارهم ، وقد أثقلت هذه الجاهات عنهم أول الأمر ثم دينهم ، وهم من هذه الناحية أعظم الأمم المستعمرة في العالم لأن أحد من المستعمرين لم يوفق إلى ما وفق إليه العرب من الخضاع الحكومي للفتنة ودينه وعاداته ...

(١) ريتارد كوك في كتابه - مركز العرب في النسل - ص (٥٣)

ومع ان الامبراطورية قد نشأت وقامت على سبوف جماعات مسلمة
من غير العرب ، فان هذه الجماعات لم توفق الى التغلب على التأثير
العربي الا في بعض الاحوال والحدوات ، ومثلت الامبراطورية العباسية
امبراطورية عربية مسلمة ، تتنازعها مؤثرات عديدة ، عربية وغير
عربية .

وهذه العناصر العربية عن العرب كانت في الوقت نفسه تعمل لمصلحة
العرب ، والحضارة العربية ، وكذلك ريت الفن والفلسفة والعمارة عند
اليونان تعود سببهم الاولى في عهد الحضارة الاسلامية العربية ، كما شاهدنا
العموية المندية الفارسية تقدمت بها ، وكما استفاد العرب من هؤلاء
جميعهم استفادوا ايضا من الفن العسكري عند الفرس ، والفن الذي عند
غيرهم ، وحب البحر الذي كان خاصاً بالشرقيين من سكان السواحل .



التنظيم الإداري في عهد الخلفاء الراشدين

الخليفة الأول

كان الحاكم في عهد الخلفاء الراشدين شديداً أقرب إلى الأمور الدينية منه إلى سواها وتغيرها ، وهو في الواقع حكم القصرة لم تستقم فيه سيطرة السلطات ، ولا حرس الخليفة ، ولا دائرة الحكومة ، ولا موظفون يفرغون لظفر في شؤون الدولة ومناهج الحكم ، بل لقد كانت الحالة في عهد الراشدين شديداً بسيطاً هو أقرب إلى حكم العائلة من أنه إلى حكم مملكة قبة جديدة كثيرة الأعداء عظيمة الشأن والسلطان .

لقد انضمت الحكومة في عهد الراشدين ، بل في عهد الخليفة الأول في شخص واحد هو الخليفة نفسه ، وكانت له حسب الشريعة والتقليد ، وكان الحاكم والقاضي ، والمنفذ لصدوره من أوامره وما يشرعه من حدود ، وهي ظاهرة تراه في حجرة الخليفة عن البروق والمرب البدو وهي إلى ذلك كله كانت ظاهرة واضحة في عهد الخليفة الأول الذي كان كل شيء في الدولة ، إلا حين بعهد بعض واجراته الخيرة من الصحابة في المدينة التي كانت عاصمة الدولة الإسلامية الناشئة في عهده ، كما وضع فعلاً ، وقد ذكر المؤرخون أنه وفي عمر بن الخطاب القضاة في المدينة ، وعهد إلى ابن عبيدة عامر بن الجراح بمائة بيت المال قبل تعيينه قائداً لأحد الجيوش العربية في الشام .

ولم يتخذ أبو بكر كاتباً معيناً فكان يكتب له زيد بن ثابت ، وعثمان

بن عفان وعلي بن ابي طالب ، وكان يكلفهم بالكتابة له حين تدعو الحاجة
ويكون الى ذلك سبيل .

والذين كانت يكلفهم ابو بكر بالمعسل له في بعض الحالات ، كانوا
يفعلون ذلك دون ما اجر ، فلا يصح والحالة هذه ان نعتبرهم من
الموظفين في الدولة

اما الدولة الاسلامية في عهد الخليفة الاول فكانت مؤلفة من
الجزيرة العربية نفسها ، لان الاقطار الجديدة المفتوحة في العراق ومشارك
الشام لم تكن امده قد تقررت وانظمت شؤون الحكم فيها ، وكانت
لا تزال تحت الحكم العسكري للقواد المختلفين الذين كانوا يفعلون في
شؤونها ويصرفون على مصالحهم وامورهم .

اما الجزيرة العربية فقد جزأها الخليفة الاول الى ولايات ، وجعل
على كل ولاية اميراً من قبله ، وكان الامير يقيم الصلاة ، ويقضي في
القضايا ويقيم الحدود ، فكان كالخليفة بما كماً ووضياً .

وكان الخليفة الاول يرتفع اول الامر من استقلال ارضه ، وعمل
بده ، وقد مثل سنة اشهر من خلافته وهو على حاله هذا ، لا يتفق على
نفسه من بيت المال شيئاً ، حتى اجتمع بعض كبار الصحابة وقرروا له
شيئاً من بيت المال ، ففرضوا له قوت رجل من المهاجرين ليس
بافضلهم ولا اقارب شأناً ، وكسرة الشتاء والحيث .

وقدور بعض المؤرخين ما فرض له ستة آلاف درهم في السنة فلما
حضرته الوفاة امر بوز ما اخذه من الاموال العامة ، فباع ورثته ارضاً
له حتى استقام فم تنفيذ رغبته .

وكان جند المسلمين في عهده من المتطوعة لا يكلفون بيت المال قليلاً
ولا كثيراً ، وانما كانوا ينفقون من اموالهم ، ثم مما يصيبون من الغنائم

في الحروب التي يشتركون فيها ، ذلك انه كانت للفئدة اربعة اجناس
الغنية ، سوى ما يناله الجندي من سلب من يصرعه في الحرب ، وكان
امير الجيش الى ذلك يفضل الممتازين من الجنود بالبلل ، والحرارة على غيرهم
وسوامهم بالعطاء والنوال .

وكان الخليفة الاول يسوي في العطاء بين الناس ، ولا يميز احداً عن
احد ، فقبل له .

- كيف تسوي بالسائقين الاولين غيرهم ؟

فقال : اوائلك قوم محملوا لانفسهم ، وسبقوا الى الدخول في الدين
ابتهاء مرضاة الله فوقع اجرهم على الله ، واما انا فلا افضل احداً على احد .
وكان يرد الى بيت مال المسلمين من الغنائم الحربية ، ومعدات
المسلمين ، وجزية اهل الذمة ، فكان يأخذ الخليفة من هذه الاموال
عطاء ، ويدفع بها رزق عماله ، وولا ، على الامصار في الجزيرة ويقسم
الباقي بين المسلمين المتخلفين في المدينة وغير المدينة ، والذين سبقوا الى
الاسلام وشهدوا بدواً واحداً في عهد رسول الله .

شر الاسلام

وبما يجب ان يشار الى ذكره بمناسبة الكلام عن الخليفة الاول ايمانه
المطلق بالدعوة الاسلامية ، وقيامه بنشره على الوجه الاكمل والاحسن ،
وموقفه من المرتدين ، يوم اضطربت القلوب ، وضعفت المرائم ...
وهو اول من ادرك ان الامة العربية لا تستطيع ان تنشر دعوتها
اذا لم توحيد صفوفها ، ونشئ الى العالم صفاً واحداً وقلباً واحداً ،
وقد اثبت الايام بعد نظره ، واتزان تفكيره ، فلما توحدت العربية ،
احد امره الى العرب بالرحف الى العراق وسورية ، ولولا توحيد

الصفوف وقضاءه على الاختلافات الداخلية ، كما كان يطوق العرب ان
يسيطروا سلطانهم الواسع ، ودينهم المتواضع على البلاد المجاورة والامصار
البعيدة .

والمستشرقون يخالفون فيما يسطرونه الاختلافات عظماء . بعضهم يقول ان
رسول الله لم يفكر ابداً في بناء دولة ضخمة كهذه الهالك التي كانت تقوم
على اطراف الجزيرة - الامبراطورية الفارسية او الرومانية مثلاً -
وان جل ما كان يرمي اليه هو نشر دعوته بين العرب وفي جزيرة العرب ...
وبعضهم يقول ان رسول الله كان يسعى الى انشاء امبراطورية
اسلامية عالمية ، ويقول دي غوجي (De Goeje) ان ابا بكر ارسل
البعوث العسكرية الى سورية لثلاثة اسباب :

- ١ - دغية محمد في نشر الاسلام بين كل العرب .
- ٢ - دغية محمد في ان يعود الاسلام العالم .
- ٣ - دفع كسرى الفرس وغيرهم الروم قبول الاسلام لما دعاهما
محمد الى ذلك في مراحل الديبلوماسية .

واما (كيتاني) المستشرق الايطالي الكبير فيذكر ذلك كل
الانكار ، ويقول : ان العرب لم يكونوا يفهمون من انشاء الهالك
كثيراً ولا قبلوا بضحوا فيهم في هذا السبيل ، وان محمد لم يكن
عنده مشروع للسيطرة على العالم ، وانما ترك شيئاً من ذلك لحلفائه
من بعده ، وذكروا ما يذكره اليعقوبي : من ان ابا بكر لما ارسل
الرحوف الى سورية لم يكن يرمي من وراء ذلك لغاية غارة مؤفنة
كهنه الغارات البدوية المعروفة ...

والواقع ان كيتاني ومن يؤيده يجوزون لانفسهم انكار حقيقة
اصبحت امراً واقعاً ، ابتدها الفتوحات الاسلامية ، وايدتها القرأت

نفسه ، وايدتها سبحة ابي بكر العسكرية نفسه . . . فان كان ابو بكر يريد غارة ، لاكتفى بالغزوة التي ارسدها بقيادة السامة بن زيد بعد وفاة رسول الله بهام ابي مشرف التميمي ، الا فتدعي من بني قضاعه ، وقد نجحت الغزوة كما هو معلوم ومعروف .

ولكن الجيوش الاربعة التي ارسلها ابو بكر لردية عدو هذه الغزوة ، وبعد الانهزام من حروب الردة ، وتعبه مراكمه هائلة الكلي فائد من فواز هذه الجيوش ، لاقتحامهم واحتلالهم ، لحد ذلك ، وانجذبت على رغبة الطليعة الاولى بالتوسع وبشر الدين ، وهو ما ليس يتفق ومبدأ الغزوة . . .

وهناك خصوص حاربته في القرآن يدل على ان الله الذي بعث رسوله ابي الناس كافة بشيرا ونذيرا ، وفي الحديث " يدل على ذلك ، ولو مدة الله في عمر رسوله لكانت رسول الله اول من جهز الجيوش وبعث البعث الامم التي حوله . . .

عمر بن الخطاب

ويجمع المؤرخون على ان عمر بن الخطاب اول منظم اداري للدولة الاسلامية الشنته ، وعمر بن الخطاب جامع مؤرخي العرب والفرنجية شخصيه خرجت على غير مثال وقانون ، وهو في نظر الجميع يقف وحده وفي الصف الاول بين حكام العالم من عرب ومسلمين ، والمؤرخون الافرنج بقدرهم فيما يقدرونه فيه شخصيته المتدرة وبراعته ، وبعد نظره ، وهدهد اعصابه وجرائه وحسن ادارته ، وقد تمكن بها جميعا من تسير دفة الفتوحات في طول الارض وعرضها وهو في مكانه بالمدينة . ويقول تولد كنه في وصفه : انه كان وهو في مقره بالمدينة يدبر

حركات الجيوش العربية القامحة ، وكان يبعث عبثاً بسيطة متواضعة
تثير الإعجاب حقاً ، بينما كانت الزخوف العربية تدر على بيت المال
الغنائم الوفيرة ، والغزوات الطائفة ، والأموال العظيمة فلا يأبه لها ،
ولا يكاد يهتمها ، وهذه ظاهرة فريدة في تاريخ العبادة في التاريخ ،
تدل على أن عمر بن الخطاب كان فذاً بين الرجال والأبطال .

وأول من سياسي خطير افترده عمر بن الخطاب هذا التشريع الذي
احمدوه ، بشأن إجلال غير المسلمين عن الجزيرة العربية . . .

ويرجع السبب في هذا التشريع إلى ما أفضى به وصول الله قبيل
وفاته ، من الخضي في أوسان القرونة ضد الروم بقيادة أصامة بن زيد ،
وتقسيم غلال خيبر ، وإخراج غير المسلمين من الجزيرة (١) .

وقد صار انقاد الأمرين الأولين في عهد الخليفة الأول ، وفي عهد
عمر صار الأمر الأخير ، وفي المصاحف التي بين أيدينا ما يدل على
أن هناك جماعة من اليهود كانوا لا يزالون في خيبر ، وجماعة من النصارى
في نجران ، من أعمال اليمن ، وأن عمر بن الخطاب وجد من الحكمة
وحسن الرأي أن يكون الإسلام في مواضعه بمنجاة عن الشكوك والبدع
التي كانت تعصف في ذلك العهد ، واستقر رأيه أخيراً على إجلال غير
المسلمين ، ويرى بعض المستشرقين أن عقليته الدينية ، وجهوده العظيمة
لئس الإسلام ونشره ، كان يدعوته إلى مثل هذا العمل ، ولو لم يأمر به
رسول الله ويدعو إليه ، والذي يدعو إلى الاعتقاد بأن رسول الله نفسه لم

(١) هناك اختلاف عظيم بين المؤرخين حول الأمر الذي يخلص بأمر غير
المسلمين من الجزيرة ، فبعض ينكر أن يكون رسول الله قد أمر به ، ودعا إليه ،
على أن هناك نظرية ثانية وهي أن (النصارى) يقيمون بلاد العرب - التي يجري فيها هذا
إجلال مثلاً - هي مكة والمدينة ، واليمن واليمن . ومما هنا ذلك فخرج عن الجزيرة
بالمضي الصحيح المعروف في ذلك العهد .

بأمر باخراج غير المسلمين من الجزيرة ، ان سكان نجران جازا الى ابي
بكر بعد وفاة رسول الله وطلبوا منه تجديد العهد هم ، فكانهم بذلك
كانوا يعتقدون ان العهد الذي قطعه هم بمحمد بن عبد الله كان عهداً
شخصياً لا يربط خلفاءه من بعده ، ثم نزل عمر الخلافة اجماعاً واليهود
وقد صار اجماع اهل الكتاب عن الجزيرة في كثير من اللطف
ورعاية العذر ، هم يكلفهم احد تبديل دينهم ، وفقدت اموالهم غير
المقولة ، فاعطوا ما يقابل في الدماء التي نزلوها ، كما خيروا في البلد
الذي يريدون السكنى فيه ، والمشرق ككتاني يقول : ان هذا
الاجلاء كان حديثاً فردوا كما يظهر فقد بقي بعض المسيحيين واليهود
في الجزيرة ، ولكنهم كانوا من القلة بحيث لم يفكر احد في ترحيلهم ،
واما مسيحو نجران فكانوا يؤمنون عدداً ضئيلاً ، فديرهم ان معه
باربعين الفاً .

وقد ذهب اهل نجران الى سورية والعراق ، وروعت عنهم جزيرة
الجزيرة مدة اربعة وعشرين شهراً ، واعطوا من الارض ما يكفي
حاجتهم .

اما يهود حبيش فلم يكن في العهد الذي اعطى هم عهد رسول الله ما
يدعو الى بقائهم مكانهم عند الدهر ، ان اشر العهد الى انهم يظلون في
حبيش مدة موفقة ، وقد صار اجلائهم عن حبيش في عهد عمر فذهبوا الى
سوريا ، بعد ان دفعت الخراج العدة ما يوازي او ما يقل قليلاً عن
ما كان يملكونه في حبيش من الاموال .

المرحلة العسكرية

والامر الثاني الذي اقره عمر في عهده ، منع العرب من مشقري

الأرض والأقامة فيها في البلاد المغنوحة ، ليظلوا قوة عسكرية متحركة ،
وليظلوا يجاهدون غازين أبداً ، تحت تصرف الدولة .

وهذه النكرة ، مع خطوطهم وأمميتهم لم تنجح كل النجاح ، فعاد
العرب بعد وفاة عمر إلى شراء الأرض ، وبيعها وأقامتها فيها ، ولكنهم
في أيام عمر أقاموا في المستعمرات ، فكان العرب في سورية يقبضون
في الجلبية ، ورحص ، وأمواس وطبرية ، والبلد ، والروملية ، وفي مصر
نزلوا القسطنطينية ، وفي العراق أقاموا بالكوفة والبصرة ،
وتركوا الأرض لأصحاب يزيديون وبنوهم الخراج عليها .

فلما توفي عمر وكان بعد عثمان عدالته سيرتهم من الأخلاق بمود
الدنيا ، وشراء الدور والمعارات ، ففقدت وصية عمر التي أراد بها أن
يظل المسلمون جيشاً متزهياً متعزلاً ، وحركة دائمة غير متصلة بالأرض
في كثير ولا قليل .

والواقع أن عمر بن الخطاب كان رجلاً شديداً - جامع المؤمنين
ضيق على فراس القدر ، فلم يزل أحدهم من الدنيا شيئاً اعظاماً
له وإجلالاً ، ونسباً به واقتداء ، وما لبث عثمان وكان رجلاً ابن عمه
ما فعلوا للباب الذي امره إليه من لطفه ووداعته ، وبعدده عن الشدة
والأخذ ، القسوة والضعف .

ولقد أشار عثمان نفسه إلى خوف الناس من عمر في عهد سده ، فلما
انكروا على عثمان ما استكروه وقف على المنبر وقال يخاطب المهاجرين
والأنصار :

« أما والله لقد عتبتم على أشياء وحقتم أموراً قد أفرغتم لآلئ
الخصاب منكم ، ولمكنتم رقعكم وفمكم ، ولم يجترئ أحد ببلاد بصره منه ،
ولا يمشي بطرفه إليه ،

الولاية

ثم نظر عمر إلى الأقاليم العربية المفتوحة قسمهم إلى اقسام
لبسبل حكمهم ، ويشرف على موارد ثروتهم ، وهي : ولاية الاهواز
والبحرين وولاية سجستان ومكران ، وولاية طبرستان وكمونان ،
وولاية خراسان ، وجعل بلاد فارس ثلاث ولايات ، وقسم العراق الى
قسمين ، حاضرة الاول البصرة ، وحاضرة الثاني الكوفة ، وقسم بلاد
الشام الى قسمين : حمص ، ودمشق ، وجعل فلسطين قسماً ثالثاً يدانها ،
وقسم افريقية ثلاث ولايات : مصر العليا ، ومصر السفلى ، وغرب مصر
ومصرها العليا .

وكان امير الولاية يعين من الخليفة نفسه ، ويتوب عنه في حكم
الولاية ، ويحكم القضاء والعدل والخراج والجند والشرطة وما
اليهم من مهام الدولة ، على ان عمر بن الخطاب عهد معين امسطين ودمشق
وحمص وقنسرين محاذاً للاملاة بالناس وافادة العدل بينهم وهم القضاة .
واختار عمر الولاة من العرب وسار على هذه السياسة من جاء بعده
من الخلفاء الراشدين والامويين .

وكان عمر حريصاً كل الحرص على ان يأخذ عمله صبره ، ويتحرون
صراحته واماليه ، ويتحرون الخلافة وآدابها ، وهذا صلب مراقبته
لعمله ، واستطلاع اخبارهم ، واتخذ المذنب منهم بالثقة من الشدة
والعقوبة البليغة .

وكان عمر قد اقام محمد بن مسلمة مفتشاً عاماً يرسل الى كل بلد شكاً
اهله من اميرهم ، وكان عمر يتق به ثقة عظيمة ، ومما سار به الفاروق
عماله انه كان يحصي عليهم اموالهم قبل توليتهم ، فإذا زاد غم مالى بعد

ولا يتهم حادهم ، عليه كاه او بعضه ، ذلك ان كان يرى ان لا يتناول
العامل من مال الامة فوق كفايته ، وان كثرة له كان اما مربياً اخذه
من غير محله ، ويبت مال المسلمين اولى به ، واما ان يكون واثبه فوق
كفايته ، والمسلمون اولى بسا من كل من كفاية العامل الذي يعمل
بالاجر .

فمصر اذا لم ينجو الاموال الا لافضل الرجال ممن كانوا على غرار
وزعمه ، وكان الى ذلك يستشير كبار العدة في محله ، ثم يقرر ما
يراه في شهم .

ولقد صدر امر عامه على مصر عمرو بن العاص ، لانه قسث له فاشبه
من مشاع ورفيق وآبىة وحيوان ، ثم تكن له حين ولي مصر ، وادعى
عمرو : ان ارض مصر ارض زراعية ومنجرة ، واما اي امواله
الزائدة ... اثنان خيل نتجت ، وسهام اجتمعت ، وانه يصيب فضلاً مما
يحتاج اليه لنفسه ، ومع ذلك فسيه عمر ماله .

ومما صدر امر اموان ابي هريرة عامه على البحرين لانه اجتمعت له
عشرة آلاف وقيل اخذ ف ذلك من الدراهم ، وادعى ان خيله تسامت
وسهامه فلاحقت وانه انجر ، فقل له عمر : انظر رأسك ووزنك
فقله ، واجعل الآخر في بيتك امال .

يريد بذلك ان يحصر العمل كله في خدمة اهل محله ، واما الانجار
وتشجير الاموال فهذا ليس من شأن عمل الدولة ... واما الادارة في
عهد عثمان وعلي فانها كانت على غرار الادارة في عهد الفروقي .

النظام الاداري

واقدم ظل النظام الاداري في عهد الخلفاء الراشدين وصدراً من

الدولة الاموية على ما كان عليه في بلاد الفرس والرومان ، وسبب ذلك ان العرب وجدوا في البلاد التي احوزوها نظاماً ادارياً ثابتاً ، فاقروا وابتسوه ، حتى لا يضرب الامر ، وتفتور الادارة الفوضى بسبب الانتقال من نظام الى آخر ، ولكنهم احدثوا ما يتطلبه الاصلاح من التغيير والتبديل ، لا غنى للعرب عنه ، وما يتفق مع عقائدهم الدينية ، وبماير مصلحة الشعوب التي خضعت لهم .

واما القضاء والحلقة فكافة من الامور الجوهرية التي تساهل التبديل لارطباطها ارنجاً وثيقاً ، وكان النظم الاداري في صدر الاسلام بسيطاً جداً ، لم يكن فيه توزيع الاعمال ، وتقسيم الواجبات ، فكان الخليفة او الممثل يقوم بكثير من الاعمال دفعة واحدة ، وكان الموظفون عهد الخلفاء الراشدين عدداً محدوداً ، ولم يكن عددهم الا اواخر عهد الامويين وفي عهد العباسيين .

الدواوين

ومن الامور التي اقرها عمر بن الخطاب نظام الدواوين في الاسلام ، وهو عمل من اجل الاعمال واعظم ، وسببه انه لما نالت الفتوح الاسلامية ، وكثرت واردات وازدادت نفقات الدولة ، رأى عمر توزيع هذه الاموال على اناسهم مراعيين في ذلك مراتبهم وامتنع عنهم ، فدخل بفكر في الامر واحسن الوجوه لاقراره ، فشرع عليه احد الفرس بادخال نظام الدواوين الذي كان يسير عليه الفرس اصطب دخل الدولة وخارجها فعمل عمر بشورته ، ودين الدواوين وعرض العصد .

ولاجل تقسيم الواردات او العصد ، حدد اعضاء اثنين ، فكانت عائشة ، وزوجات رسول الله اول الجميع ، وكانت عائشة تدل من بيت المال

١٢٠٠٠ درهم في السنة ، ثم بئى آل البيت ثم المهاجرون فلا تدار ، كل واحد منهم وفقاً لما قدمه لرسول الله والاسلام من خدمة وتضحية ، ويتراوح عطاؤه بين ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ درهم في السنة ، ثم يأتي بعده هؤلاء رجال القبائل العربية من انجدهين والفالجين - وكانوا يقدم منهم من يحفظ القرآن - وكان أقل ، فاعطوا انجرب من ٥٠٠ - ٦٠٠ درهم ويدخل في العطاء النساء والاطفال والموالي ويأخذون من ٢٠٠ - ٦٠٠ درهم وفقاً لمررتهم .

الكتاب

ومن اعوان الخليفة منذ نشوء الدولة الاسلامية الكتاب ، فقد كان السواد الاعظم من العرب لا يعرف القراءة والكتابة ، وكانوا يجنارون كتابهم من الذين يجيدون الخط ، فكتب به عن الصحابة لرسول الله ، وكتب لابي بكر غير واحد من الصحابة ايضا ، وكتب لأمير وعثمان وعلي جماعة من الصحابة ، ولم يكن الكتاب يتداول اجراً في هذا العهد ، فكانت الوظيفة مخرجه ، ولكنها كانت مصححة ضرورية من مصالح الدولة ، ولم تصبح الكتابة وظيفه رسمية يتداول صاحبها راتباً من الدولة الا في عهد الامويين . . .

واما الخاجب فلم يكن معروفاً عهد الخلفاء الراشدين بالمعنى الذي صار اليه بعد ذلك ، لانهم لم يكونوا يتبعون احداً من الدخول عليهم ، واول من اتخذه الخاجب معاوية بن ابي سفيان وجيرى من بعده على اثره (١) .
(١) ولكن الخاجب كان موجوداً في عهد رسول الله وعهد الخلفاء الراشدين ، ولكن هذا الخاجب كان تسمية اكثر منه شئ لانس من الدخول الى الخليفة ، ووظيفته لم تكن تصدى نظم الحضرات الخليفة الاول ومن بعده ، وما مع احد عن الوصول الى الخليفة لم يكن معروفاً عهد الراشدين .

ومحمد بن الخطاب أول من وضع النظام السياسي للدولة الإسلامية كما قدمنا ، وكانت سياسته ترمي إلى تملك بلاد العرب ، وادماج القبائل بعضها في بعض ، ففقه منه على روح الجاهلية ، وعصبيه القبلية ، ليخرج العرب من هذا الصير الاجتماعي أمة واحدة .

وكان من سياسته عدم احتلال العرب ، وهي البلاد المفتوحة حتى لا تصبغ قوميتهم ، ولو أمثلة له في مصر ، وفلسطين من إفراز اغرائحه هذه لتبدل وجه الاسلام ، ولما كانت وقعت هذه الفتن التي حدثت - بعده - والتي كانت من الاسباب التي دعته إلى خروج روح العصبية الجاهلية التي حاول عمر القتل - عليها - ولم يوفق في المدة القصيرة التي فتحت في الحكم .

السنن العامة

وم يجرى الاشارة اليه ان محمد بن مسلمة الذي عده محمد بن الخطاب مدبشاً على الحكم والامراء في عهده ، لم يحدس على خطابه هذه عقولاً ، ولا اجراءها امير المؤمنين محمد بن الخطاب عليه السلام ، فقد كان محمد بن مسلمة من انصار رسول الله الاول ، وكان رسول الله كثير آساره به عنه في المدينة المنورة ، وبعد توسعت الفتوح في عهد محمد بن الخطاب ودعت الضرورة إلى ارسال الحكم والامراء إلى المدن المفتوحة ، وكان عمر من اعظم الناس واكبر الخلفاء ، ايماناً بحق ربه ، وعقيدة ، وضرورة اخذ حكمه وامرائه على اربع الطريقة الاولى والحكمة ، حق ، وعدم اضرار القرين ، والمداقة على غيرهم من الرغبة ، فقد فلتت له الخلة بعين محمد بن مسلمة الصالح الورع والفاضل الخبير السكون ، فغشياً عامساً على هؤلاء الحكم والامراء .

ومن اعمال المنقش العام ان كان شكوا بعضهم سعد بن أبي وقاص سنة

٢١ هجرية وهو بطل القادسية، ومع الخطر الذي كان لا يزال يهدد المسلمين في بلاد فارس والعراق، من حيث أن المارك الحربية لم تنصّب قد انتهت، وكان الفرس لا يزالون يجمعون الجيوش، ويرسلون البعث، أصدر عمر بن الخطاب امره إلى محمد بن مسلمة لينذهب إلى الكوفة ويقوم بالتحقيق عما اسند إلى سعد بن أبي وقاص من أعمال تخالف سياسة الفاروق الحكومية، فذهب انفس الغم إلى الكوفة، وبحث وحقق واتي بسعد بن أبي وقاص معه إلى المدينة ليحقق معه عمر بنفسه.

و كذلك ارسل عمرو بن الخطاب محمد بن مسلمة إلى مصر ليحقق في الاموال التي جمعها عمر بن العاص، فذهب وحقق ونظره كيف امواله. وكذلك كانت سياسة عمر مع عماله، لا يسمع عن احدهم شكوى إلا ارسل اليه من يحقق معه، ولا يبلغه عن واحد من تقصير إلا بعث اليه مفتشه، احقفا للحق، وانصافاً للناس، وممماً لاهمال عن استخدام تفوذه لمصالحهم الشخصية.

وبما لا شك فيه ان شخصية مثل عمر، تستطيع ان تفرض على رجال الدولة وموظفيها اخذ الناس بالانصاف والعدل، ولكن متى كان الطليعة ضعيفاً، فإن الفساد ضيعاً يذب إلى العمال، خصوصاً اذا لم يكن فوق رؤوسهم وارع يأخذهم في الجري على سن العدل والانصاف...

وعمر بن الخطاب كان ما في ذلك شك ولا ريب، من اعظم الخلفاء معرفة بنفسية الناس في عهده، فلما بعث معاوية إلى الشام - او حين عين معاوية ليكون عملاً على دمشق بعد وفاة اخيه يزيد بن أبي سفيان - بعث معه بقاض بغير الصلاة وبجحر بين الناس، لانه كان يعرف اصحاب معاوية ودعاهم وبعد نظره ورغبته في تألف الناس حوله، فكان يخشى ان تحمل هذه السياسة معاوية على البعد عن الحق في احكامه ورغبة منه في تألف الناس،

وهو ما ظهر من معاوية بعد وفاة عمر بن الخطاب .

وليس ادل على بعد نظر الفاروق ، وعظيم همته فيما تكلفه من الاحكام والوان التشريع من ان الخلافة بعده أصبحت عارية عن كل ما كانت تنعم به من قوة في عهده ، ولما ولي عثمان وكان شيخاً لينا رأينا بني امية من اهله يفرضون سيطرتهم على الدولة وامرهم على شؤون الخلافة ، بحيث ثارت الفتنه ، ونقم الناس .
ولو كان عثمان مثل عمر قوة ودهاء وبعد نظر وعزيمة لما كانت الفتنه ، ولا كان هذا الشقاق الذي دب بين المسلمين .

عمر وسياسة القوي

وكان لعمر بن الخطاب سياسة عربية قومية مفروقة ، ويظهر لنا هذا من اجلاته الغير المسلمين من الجزيرة ، فقد اراد ان يجعل الجزيرة عربية بعيدة عن كل تأثير اجنبي ، فتوسع والحالة هذه مدة الاسلام ، يؤيد ذلك هذه السياسة التي اجراها في الجزيرة كما قدمنا ، ثم منعه المسلمين من استعمال غير اللغة العربية من اللغات ، وامره الى المسيحيين في الوقت نفسه بتعلم اللغة العربية والكتابة العربية .

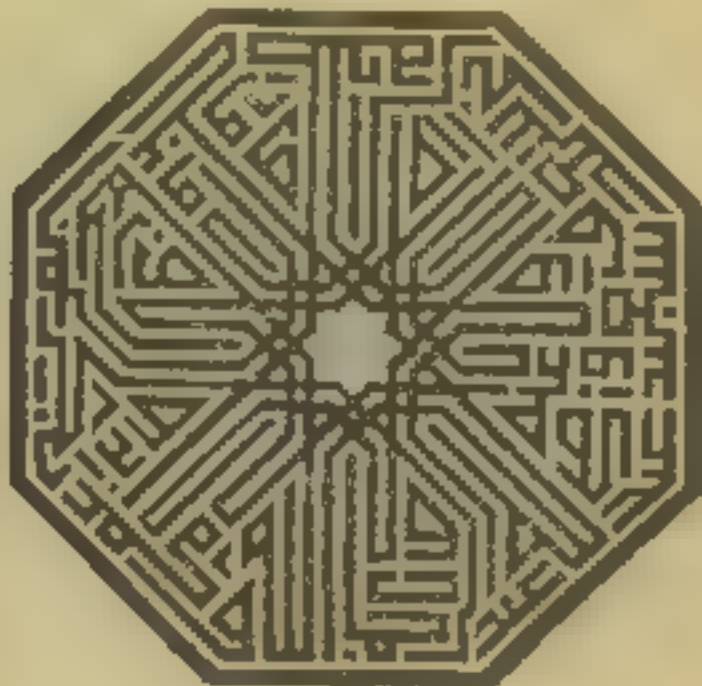
ويظهر لنا ايضاً من اليهود التي قطع عمر لغوي المسلمين انه لم يكن يفكر في تعريب احد منهم ، وانما كان همه ان يجعل العرب عنصراً خالصاً بعيداً عن العناصر الاجنبية الاخرى ، لا يتصل بها ولا يتزاوج معها ، بحافضة منه على نقرة دمه ، كما هو الحال مع بعض دول اوربا المماثلة ، وكثمة عمر (ان العربي لا يكون عبداً) تصور لنا سياسته تصويراً واضحاً ، فالعربي في حياته هو السيد المطاع ، والحاكم الفاتح ، والجندي الشك السلاح .

وبما يدل أيضاً على سياسة عمر الوطنية ، وحبّه للوحدة العربية
والدم العربي ان قبيلة عربية هربت عند ابتداء الفتح الى آسيا الصغرى ،
وكانت هذه القبيلة العربية مبعدة ثم اؤمن بالاسلام ، فكتب عمر
الى امبراطور الروم رده ، او يرسل اليه كل المسيحيين في البلاد
المفتوحة ، فاعده الامبراطور ان الحدود ، ووزع عمر بين القبائل ،
وبما يؤيد سياسته الوطنية العربية ايضاً معاملته للعرب المسيحيين فيها
باعتق باخريفة المفروضة على كل من ليس مسلماً ، واعتراض العرب
المسلمين على كرامة عربية - وهي تعني الذل والصغار ، فبدل عمر الكفة ،
ورفض ان يأخذ منهم مائة من المال (كركاة) على نحو زكاة المسلمين
اسوة ببناء لهم المسلمين ... (١)

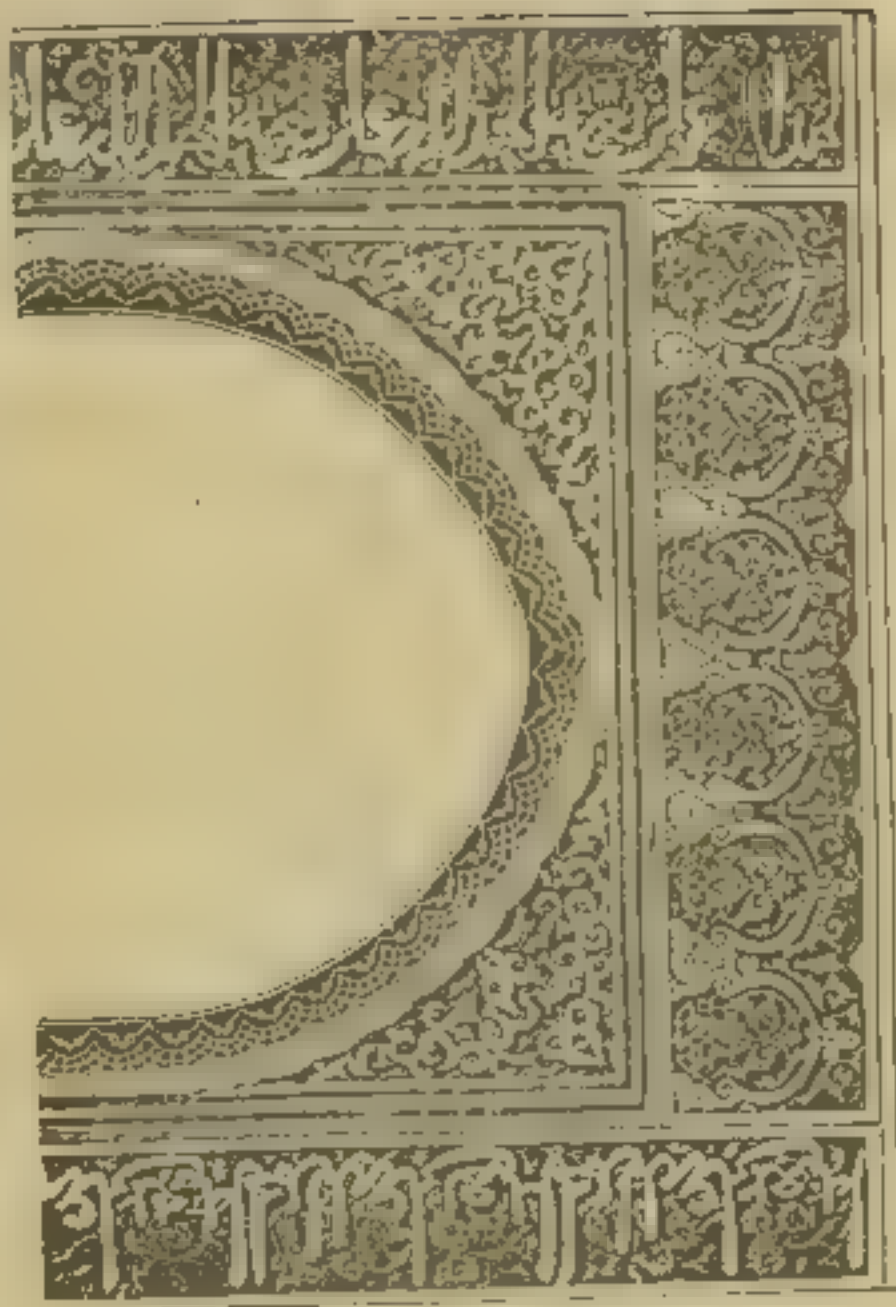
عهد عثمان

وفي ايام عثمان كثرت الولايات بنكائر الفتح ، وكان حاكم سورية
معاوية بن ابي سفيان ، والظاهر انه في هذا العهد وبسبب ابن عثمان اخذ
معاوية بين الحكم والموقف المدن السورية الواقعة ضمن ولايته مثل
حمص ودمشق والاردن ، وفلسطين والبلقاء ، كما عين القضاة ايضاً ...
وكانت تأتي بعد الشام من الولايات : الكوفة ، ثم البصرة ، وقرقيسيا
واذربيجان ، ومن وراء الرمي ، ومعدان ، واصفهان ، وحلوان
وكانت ارمينية اولى حوز فتحه من ارمينية ، بعد لامير مصر ...
وكان شرقي الجزيرة العربية - البحرين وعمان - يحكمها من امير
البصرة ولم يحدث تبدل عظيم في عهد عثمان في دواوين القضاء .
والذي يعرف انه عين قاضياً خاصاً في المدينة ، وذلك نيابة عنه .

وبعد ان أصبح ، جزأ عن الجلوس للقضاء ، يعني الذين .
والظاهر ان القضاء ، يكونوا يوسلون الى كل بلاد الدولة الجديدة ،
وانما الى المدن الكبرى فقط ، واما المدن الصغيرة ، فكان العامل يقوم
مقام القاضي فيها ، كما كان يقوم بالادلة وغير ذلك . واما علي بن ابي
طالب فلم يتمكن من عمل شيء يذكر في عهده بسبب الثورات الداخلية
التي حصلت ، وجرده هذه الحرب مع الروم ، ولكن نعم انه الفى
ما الزمه عثمان من ارض في العراق الى اخذاته واهله ، كما عزل بعض
عمالي عثمان واستبدلهم بسواهم ، واصبح بعض الاخطاء ، وقد
تمكن من افراز اصلاحاته هذه في العراق والشام وهاوس ، ولادة
فصيرة في مصر .



خارج من العين العري



الفن الإسلامي

النظام المالي في عهد الخلفاء الراشدين

المراد من الفتح

لم يكن للعرب حين اقتحموا امدار الامبراطوريتين الفارسية والرومانية دواوين مدونة ، ولا نظم معلوم للضرائب الا نظام الاغشار او الزكاة او الصدقة وهي واحد كما يظهر (١) ، وكانت هناك احدث تتعاق بالضرائب التي وضمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على اراضي اليهود والنصارى كالنخمس والتعريف ، ولكن كانت دور الغاية لبلاد فطمت في الحضارة شأوا بعيداً ، كالأمبراطوريتين الفارسية والرومانية ، وكعصر مثلاً حيث كانت الحضارة والزراعة في حالة راحة ورفعة ، ولهذا لم تكن العنواصير العربية ضرائب وتساخر في بعض هذه الامصار والبلاد حتى دعت الحاجة الى انشاء بيت المال يقوم على صيانة الواردات وحفظ المصالح الدولة الإسلامية الجديدة ...

وهذا لم تكن الجيوش العربية تحتل الزمام المذكورة حتى اتخذ عمر منظم الدولة العربية ووضع دستوراً يبحث عن نظم للضرائب جديد يضمن ليبيت المال مصلحته ولا يكون محملاً بحقوق الاهالي الذين دخلوا في ذمة المسلمين ، فكان له اما ان يبيع حنة النبي في الجزيرة واما ان يسير في طريق آخر اقتضته الاحوال ومنة التطور ، قرأى بعد (١) العشر والصدقة والزكاة واحد قال ابو يوسف : الصدقة على المسلمين والجزية على اهل الذمة .

التحري والتفكير ان يقر الاراضي في ايدي اصحابها السابقين وبأخذ
منهم الجزية التي كانوا يؤدونها لأصحاب السلطة قبله فكان من ذلك ان
اتبع في السواد وبلاد فارس ونواحيها النظام الفارسي او نظام بني
ساسان ، (١) وفي سوريا ومصر وشمال أفريقيا النظام البيزنطي وهو ما
يؤيده البحث التاريخي ولا ينكره كتيبة المسلمين .

ويقول ابو يوسف في كتاب الخراج : ان عمر بن الخطاب لما اراد
مسح السواد اودع الى حذيفة ان ابعث الى بدهقان من (جرجان) ،
وبعث الى عثمان بن حنيف ان ابعث الى بدهقان من العراق ،
فبعث اليه كل منهما بواحد ، ومعه ترجمان من اهل الحيرة ، فلما قدموا
على عمر قال : كيف كنتم تؤدون الى الاعاجم في ارضهم ؟

وبعد ان استشروهم اصدر قراره وفقاً للمعلومات التي اخذها منهم
وفعل مثل ذلك في الشام ومصر والامصار الاخرى التي كانت تحت
الادارة البيزنطية ، وهذا سبب ما نراه من اختلاف بين احكام الجزية
او الخراج في العراق وفارس عن مثلهما في سورية ومصر اول الفتح .
ولعل سبب ذلك اختلاف الدواوين في الاراضي المفتوحة ، فلم
يكن يتصور امير المؤمنين بهو يحمل اعباء هذه السلطات الحربية
العظيمة في تلك الفترة من الزمن ان يعمل على نقلها الى العربية ، وان

(١) انما لم يرد نظام الارض في سواد ايدي سكان الاصليين بدعوتها
ويعصوب ويصون سرية الرؤوس او اجرة عن الخطب . فانه من غير المسلمين ،
ومرية الخراج المفروضة على الارض ، وبما يسهل عمر سكان السواد ، وانما ترسخهم
احراراً ، وسحب في الوقت به بتسليم الاموال ثقتهم الموجودة في السواد من حيوانات
وتجارتها على القانون كمناء حبوب .

وكانت مية وبعية ، قد وعدت ببيع ارض السواد مقبل مساعدتها جيش المسلمين ،
ولكن عمراً بعد المعركة اشترى منها هذا الحق مقابل انهم قدموا تدفع لأمران القيمة كل
سنة من بيت المال .

يستخرج منها نظاماً واحداً يفرغه على الامبراطورية الجديدة من افصاها
الى افصها - وهذه الدواوين كما نعلم تفكر الدولة العربية في نقلها
الى العربية لا بعد خمسين سنة من هذا التاريخ - على ان كل هذه
المشاكل العظيمة التي كانت محل احوالها - كما يظهر - لم تكن لتنبه عن
النظر احياناً في الانظمة التي صدر اقرارها ، ولم تكن تعرفه عن
التدقيق في الضرائب وموارد الخلافة ، فقد ذكر ابو يوسف في كتابه
، الخراج ، ان عمر قال للمدعيين الذين دعاهم يستفسر منهم عن مقدار
الضرائب التي كانوا يؤدونها الى الامام ، وعن طريقة ، وانه عرض
على بعضهم اكثر مما كانوا يدفعونه ، كما يقول في موضع آخر ، ان عمر
قال لما رفع اليه ، فعلم عثمان بن حنيف في السواد ، انهم يطبقون
اكثر من ذلك ، .

تميق

فاذا صحت هذه الروايات ، ان عمر ان يكون قد ادخل بعض
التعديل على نظام الضرائب الذي كان متبعاً في عهد الامبراطورية
الفارسية ، ولكن الذي يظهر لنا ان في هذه الاخبار والروايات بعض
الظلم ، لان حب عمر للعدل ووقفه بهيئته المنة معروف مشهور ، فلا
يجوز والحالة هذه ان يكون قد حمل على اضعاف الضرائب عليهم ، وهو
المشهور بان كان يعدم ويحسن اليهم ، والا فرب اني اني والحق ان
هذا حصل بعد عهده ، ثم نسيه بعض المؤرخين اليه باعتبار ان المنظم الاول
للباسة المالية في الدولة العربية .

هذا اني ان عمر ان كان يطلب من عماله في الامصار وجباة المال ، ان
يقعدوا العدل فيما بين اهل الارض وبين اهمل الفقيه من غير زيادة

تجحف بأهل الخراج ولا تقصد بضرب أهل الفيء (١) . ومن
بدق في أقوال مؤرخي العرب عن سياسة عمر الاقتصادية وأقواله
في وجوب مراعاة العدل ، ويدرس أحوال البلاد القروية درساً منزهاً
عن الغرض لا سيما إذا كان يقر بأن الجزية التي كانت تؤخذ من أهل الذمة في
خلافته لم تكن باهظة ولا مجحفة بحقوقهم وهو ما يقول به مستشرقو
أوروبا أيضاً (٢) . وقد اجمع أصحاب الذب عن كتب الخراج أو كادوا
يجمعون أن الجزية مصر كانت في خلافة عمر بن الخطاب على الخلفاء ما عدا
النساء والحسين والشيوخ ، وكانت جزية أهل المواد دوماً وقسماً
على كل جريب وثبة وأربعين دوماً على رأس الموصلة وأربعين
وعشرين على الوسط ، واثنى عشر على المقبر أو العمل بعده أو الضائع (٣)
وإذا صح ذلك كان ما أفرد عمر على أهل الذمة من الجزية يتراوح بين
دبائرين ودرهمين أي نحو جنيه ونصف جنيه مصري على رأس الخلف كان
يؤديه ورقاً وذهباً أو عرشفاً كالدواب والشاء وهي جزية معتدلة إذا
قارناها بما يؤديه الفلاح اليوم في سوريا ومصر والعراق ، وإذا اعتبرنا
أن أهل الذمة لم يكونوا في ذلك العهد يؤدون غيرهم من الضرائب لا
على بيوتهم ولا على تجارتهم ولا على بنيهم آخر . . . وكانت الجزية تؤخذ
من رقاب أو عند سكن القرية أو الرستاق . الخدم لا عن مساحة
الأرض (٤) . وقد بقي هذا النظام متبعاً إلى أوائل حكم بني أمية حين

(١) الأحكام السلطانية ، توريدي ١٣٣٠ .

(٢) انظر Becker H. Islamstudien ص ٢٢٠ .

(٣) أبو يوسف - ٦٩ .

(٤) انظر كتابه " جزية " Encycl. Musulmane . [الترجمة الفرنسية]

بدأوا يفرقون بين ضريبة الروؤوس أو الرقاب ، وبين ضريبة الاراضي ،
 او بالأحرى خراج الاراضي او اجورها ، فسماوا الضريبة الاولى جزية
 واطلقوا على الثانية ، كلمة خراج وهي كلمة يونانية كانت معروفة في
 مصر وسوريا قبل ان يفتحها العرب ، وكانت تستعمل للدلالة على ما كان
 المزارع يؤديه عيناً لصاحب الارض اي للحكومة او البلدية ، او
 لما كان الدين يؤديه ارضه على شروط معروفة ، وهم في كل ذلك يسمعون
 نظام الضرائب البيزنطية او الفارسية الذي كانت يفرق بين ضريبة
 الروؤوس (رأسية) او رجولية (١) ، وبين ضريبة الاراضي او
 الخراج ، الا ان كتاب العرب حذفوا بين الكلمتين ذكراً وادركوا بسمون
 الجزية خراجاً وطوراً يضافون كلمة خراج على الجزية والخراج وانقل
 هذا الخط الى مؤلفاتهم (٢) .

واعل السبب انه اذا كان الخراج اعظم الضرائب واهمها ، وكانت
 تنوقف عليه حياة المملكة وسعدتها ، فلابد ان هذه الضريبة واسمها على
 سائر الضرائب ومنها الجزية .

وامم من كل ذلك ان المسلمين بعد ان كانوا يؤدون في بلادهم
 عشر عن ارضهم ، اصبحوا بعد ان انتقلت اليهم اكثر الاراضي
 المفتوحة بطريق الاقطاع او الشراء او القوة ، وبعد ان اعتنق الاسلام
 اكثر سكان البلاد المفتوحة ، يؤدون عن اراضيهم الخراج كاهل الدمة
 الذين ظفروا على دينهم ، وهذا ان انتشر كلمة خراج ، لان اكثر
 الاراضي حارث ارضاً خراجية ، وبعد على ذلك ان اهل الدمة وقد
 اصبحوا اقلية في البلاد الاسلامية ، لم يعودوا يؤدون الجزية - ضريبة
 (١) المشرق ، بكر ، في كتابه (بحث في الاسلام) .

(٢) انظر كتاب ابي يوسف في الخراج ، وروح الباقين والغازي والاحكام السلطانية

الرأس والرؤوس - أو تصيروا يؤدونها غداً ، بعد ان أصبحت الدولة
الإسلامية لا تكثر من ثقلها .

واردت بيد الله

أما المال الواو لميت مال المسلمين ، ما ان يكون ضريبة عن
الأرض أو عن أشياء أخرى غير الأرض .

وضريبة الأرض تسمى عشرًا وجراجًا ، ويؤخذ العشر من علة
الأرض التي أصير أهلها بدون حرب ، أو التي فتحت عنوة ، وصادرت
غنية المسلمين ثم صار تقسيم بين المسلمين .

الخراج

ويؤخذ الخراج - وهو مقدار معين من المال أو الخدميات - عن
الأرض التي يملكها المسلمون عنوة إذا عسفت الخليفة عن تقسيمها على
المسلمين ووقفها على مصالح المسلمين بعد ان عاينوا المسلمين عن نصيبهم
فيها أو استولوا عليها كما فعل عمر بن الخطاب ، وكان يؤخذ الخراج أيضًا
عن الأرض التي أدامها على المسلمين مسكونة وجدلوا أهلها على ان
يتروكهم فيها بخراج معين يؤدونه الى بيت مال المسلمين .

وكان الخراج إما شيئاً مقدراً من مال أو غلة كما وضع عمر في أرض
السواد ، وإما حصة شائعة يخرج من الأرض وهو ما يسمى بالعمالة
أو المزارعة ، كما عامل رسول الله أهل خيبر على نصف ما يخرج من
الأرض قليلاً كان أو كثيراً .

وتقسيد مسحت أرض السواد في زمن عمر بن الخطاب فباعت

(١) انظر دفتوري .

٣٦٠٠٠٠٠٠٠٠ جريباً ، فوضع عليها مقادير معينة من الدراهم تختلف باختلاف مقدار الأرض من درهمين إلى عشرة دراهم عن كل جريب ، وقد بلغ ما جبي من خراج العراق في عهد عمر ١٨٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، متوسط جباية الجريب ٣٠٥٥ درهماً ، فإذا كان الفدان يساوي ٣١٥ من الأجرية فتكون ضريبة الفدان المرووع فحاً ١٤ درهماً .

ولم يكن إيراد الخراج ثباتاً ، فقد كانت ضريبة الأرض تقل وتكثر حسب اهتمام أهلها بتعميرها وإصلاح جسورها وخلقائها ونحوها . وكانت ضريبة الأرض هذه أو خراجها ، تدفع من المسلمين وغير المسلمين على السواء .

وكان النظام المالي المتبع أول الأمر ، هو النظام الذي كانت عليه الأرض والناس عهد الفرس والروم ، وكانت ضريبة الأرض مختلفة وفقاً لحصص الأرض وجددها .

وكانت هذه الضريبة تدفع أفساطاً من حاصلات الأرض ويستثنى من ذلك النخيل والحيوانات الخلية .

ولم تكن الأرض تعد من الغنائم ، وإنما الغنائم الأسرى والأموال المنقولة ، كما وإن الأرض وما يخرج منها من الخراج كان ملكاً لكل المسلمين .

جباية الخراج

وكان جباية الخراج أو عماله مستقلين عن الولاية والنفوذ ، يدفعون من الواردات التي تصل إليهم أوراق الجند في المصر اشكافين بجباية خراجهم ، وما تحتجبه المصالح العامة ، ويرسلون الباقي إلى بيت المال في العاصمة .

وكانت الضرائب في عهد الخلفاء الراشدين هيئة لينة ، وكان العهد
عندئذ سامحاً وعادلاً لم يشدد فيه الولاية في جمع الخزينة ، وكانت الضرائب
المفروضة على الأرض تقدر حسب مساحة الأرض وجودتها ونوع
محصولها ، ولم تكن تدفع كلها دفعة واحدة بل كان بعضها يدفع عيناً ، وقد
عنى الولاية بأمر الرعي الضمان جدياً الخراج ، فعزوا بمراقبة الصدور ،
وانشاء الترع والجسور والعمل على صيانتها ، وكانت الضريبة تخفص اذا
قل المحصول بسبب من الاسباب .

وكان الخلفاء يشرفون انفسهم على جباية الخراج ويحاسبون الولاية
وعمال الخراج حساباً عسيراً ، وقد بلغ من شدة مراقبة عمر بن الخطاب
أعماله ، انه كان يحصي اموالهم قبل توليتهم ، وهذا انتهت ولاية ابيهم
احصى ثروته من جديد ، وما زاد من ثروته كره او بعضه ورده الى بيت
الملك ، ويعرف هذا بنظام الخراج .

وكان هناك غير الخراج من الضرائب ، كانت هناك ضريبة (العشر)
وقد مر عليها عمر بن الخطاب على السفن التي تمر ببعض الثغور وهو ما
يسمى بالضرائب البحرية اليوم .

الزكاة

وكانت هناك ضريبة الزكاة ، او الصدقة ، وهي كل ما يؤخذ
من اغنياء المسلمين ، ولم يكن اسم يدفع غير هذه الضريبة عن امواله
ومشاجره ، الا ضريبة الأرض عن الأرض التي في يده ، والزكاة كانت
تؤخذ من المسلمين الاغنياء كما قدمنا ، وتوضع في ديوان خاص في مركز
الخلافة له فروع في سائر الولايات ، ومقداره ربع العشر عما يملكه
من المال ، ذهباً كان او فضة ، واما زكاة الغنم ويلحق بها العنز ،

فكانت تؤخذ بقدر واحد من أربعين لما فوق إلى مائة ، ومن ١٠٦ - ٢٠٠
واحدة في كل مائة ، وفي الأبل عن كل خمس ، شاة إلى أربعة وعشرين ،
فإن كانت خمسة وعشرين فعليها بنت مخاض مائة صغيرة بنت سنة أو أقل ،
والجوامس والبقر كل ثلاثين عليها واحدة (بنت سنة إلى سنين) .
فإذا بلغ العدد سنين ، كانت بقدر واحد بنت سنين ، والجبل إذا
اعتبرت آفة من آلات الحرب فلا زكاة عليها ، كل هذا إذا كانت هذه
الحيوانات تأكل من الكلاء المتبحر ، فإن علمها صاحبها فلا زكاة عليها ،
وإذا دخلت في النجاسة فتقوم ويدفع عنها زكاة النجاسة .
وكانت الزكاة تقسم على الفقراء والمساكين والأبناء الفقراء والمساكين .
وكان معاوية يأخذ ٢ ونصف من كل مائة من غنائه كل سنة ، وهذا
يشابه اليوم حربية الدخل في الدول الأوروبية الحاضرة .

الجزية

والجزية حربية يدفعها غير المسلم ، وهي موصوفة على كل رجل غير
مسلم في الدولة الإسلامية عن الحيوان والغنم والشيوخ . (١)
وأما وجبت الجزية على أهل الكذب وغير أهل الكتاب ، كما
وجبت الزكاة على المسلمين لنكاح الفريقات - وهما دية دولة واحدة -
في المسؤوليات والأعيان ، كما نكحوا في النعمة والحقوق ونسباً في الانتفاع
بالمرافق العامة للدولة ، - أليس في مواثي أهل الذمة من الأبل
والبقر والغنم زكاة - ولا يدفع الزكاة إلا المسلمون .
ومتى مات غير المسلم من نجب عليه الجزية أو اسمه ، تسقط عنه
الجزية .

ولما اخذ الناس يتقبلون الاسلام خصوصاً انوالى ، هرباً من الجزية ،
 ورغبة في الانضمام للحديث العربي ، خسرت الطرانة العامة مورداً عظيماً ،
 فقرر الحاج ود الموالي وغيرهم الى الاراضي الزراعية التي تركوها ،
 والتحقوا بالمدن هرباً من العمل الزراعي ، ورغبة في الحصول على حياة
 الراحة التي تنعم بها المدن المتحضرة ، كما تقبلوا الاسلام ليكونوا كالمسلمين ،
 وينعموا بما ينعم به المسلمون من عطاء واعمال في الجيش وغير الجيش ،
 مما اخر بالحياة الزراعية وافقر الارض ، فردد الحاج الى الارض ،
 وافرغ عليهم الصربية التي كانوا يدفعونها قبل الاسلام ، وفعل مثل ذلك
 بالعرب المسلمين الذين اشقوا الارض ، ففرض عليهم صربية الحراج
 المنقورة عليها .

فلما كان عهد عمر بن العزيز حاول اعادة الحالة الى ما كانت عليه
 عهد عمر بن الخطاب ، من رفع الصربية عن المسلم الا ما كان من
 الزكاة ، وصربية الحراج عن الارض ، لان هذه الصربية تعود للجماعة
 الاسلامية ، كما منع في عهد بنع ارض الحراج الى العربي او المسلم ،
 وقرر اذا تقبل الاسلام احد من اصحاب الارض ، فارضه نمود
 الى سكان البلدة الواقعة فيها الارض ، وصاحبها يكون مستأجراً لها ،
 ولكن هذه الطريقة لم تنجح مما كاد يموت حتى عادت الحالة الى ما
 كانت عليه ...

والواقع اننا كل ما كان يربحه العربي في عهد عمر بن العزيز من
 قبول الاسلام هو رفع الجزية عنه لا غير ...

وكانت تجب الجزية على الرجال الاحرار العقلاء الاصحاء القادرين
 على الدفع ، ولا تؤخذ الجزية من مسكين يعيش من الصدقة ، ولا من
 عاجز عن العمل ، ولا من الاعمى والمقعذ والمجنون ، وغيرهم من ذوي

الغنائم ، ولا من الرهائن واهل العوامع ، لا اذا كانوا من اهل اليسار
والمدل ، ولا من الاطفال والنساء والشيوخ ، وبالأخص من ذلك ان
الشرع لم يفرض الجزية إلا على الاشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب
عليهم الجهاد .

أما مقدار الجزية فقد ذهب ابو حنيفة في تصنيفها الى ثلاثة اصناف :

١ - اغنياء يؤخذ منهم ثمانية واربعون درهماً .

٢ - ومتوسطون يؤخذ منهم اربعة وعشرون درهماً .

٣ - وفقراء يكسبون ويؤخذ منهم اثنا عشر درهماً .

وأما جباية الجزية فقد اوصى الشرع الاسلامي بالرفق والاعتدال في
جبايتها من اهل الكتاب ، وصيانة ارواحهم واموالهم من العدوان
وعيث الجباة والولاة ، ونقضي الفعدة الفقهية ما ورد في الاسلام بها
بتملق بطريقة اخذ الجزية من دافعها بانه لا يضرب احداً من اهل
الذمة في ابدانهم الجزية ، ولا يبدوا في الشمس ولا غير ذلك ، ولا
يجعل عليهم في ابدانهم شيء من المشاكسة ، ولكن يرقق بهم ويهدون
حتى يزدروا ما عليهم ، (١)

ومن الامثلة عن معاملة الخلفاء لاهل الذمة ما روي ان عمر بن الخطاب
سار على باب قوم عليه مثل يسأل وكان شيعاً كثيراً فصرير البصر
فضرب على عضده من حواجه وقال له : من اي اهل الكتاب انت ؟
فقال : يهودي .

فقال : فما الجألك الى ما ارى ؟

فقال : اسأل الجزية والحاجة والسكن .

(١) ولا يبيع في الجزية يفرم ولا حيرم ولا مواشيهم ، ولا يهرع عبد : (٢)
يجب تكليفهم فوق طاقتهم .

فاخذ عمر بيده وذهب به الى منزله ، فاعطاه شيئاً مما في المنزل ،
ثم ارسله الى حازن بيت المال فقال :

- انظر هذا واشيعه ، فوائده ما انصفناه ، اكلنا شيبته ثم
نخذله عند الحرم ، انما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين
اهل الكتاب . . . ووضع الجزية عند وعن امته .

وقد كتب ابو يوسف فاضي هرون الرشيد اليه يقول :

« قد يعني يا امير المؤمنين ابدك الله ، ان تقدم في الرقعي باهل
دمة نبيك وابنك محمد صلى الله عليه وسلم ، والتفقد لهم ، حتى لا
يظلموا ، ولا يؤذوا ، ولا يكافوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شيء من
اموالهم الا بحق يجب عليهم ، فقد روي عن رسول الله قال : من
ظلم معاهداً او كافه فوق طاقتة فاما حبيبه

وكان فيما نكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته . اوصى الخليفة من
بعدي بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يوفي لهم بمحمدهم ، وان
يقاتل من درائهم ، ولا يكفوا فوق طاقتهم .

والجزية ليست من محذات الاسلام وانما هي قسمة ، فرضها اليونان
على سكان اسيا الصغرى حول القرن الخامس قبل الميلاد ، كما فرضها
الرومان على الامم التي اخضعوها ، وكانت اعظم من الجزية التي
وضعها الاسلام .

وهناك (الفية) وهو كل مال وصل من المشركين عفواً من غير
قتال فهو كمال الهدنة والجزية والحراج يذهب همه لرسول الله وبمعد
موته لمال المسلمين ، وكانت الاربعة الاخماس الباقية تقسم في صدر الاسلام
بين الجنود في الاعمال الحربية اشراء الاسلحة وغيرها ، حتى دون عمر
الدواوين وقدر اوزاق الجنود .

وهذا الغنيمة) وهي كل ما اصاب المسلمون من جند العدو
بالقتال وتشمل على اربعة اقسام : الاسرى ، والسبي ، والارض ،
والاموال .

فالاسرى من يقع في الاسر من العدو المحارب .
واما السبي والاموال والاطفال الذين يقعون في ايدي المسلمين ، وهؤلاء
لا يجوز قتلهم ، وانما يقتلون في جهة الغنائم .
والارض التي تؤخذ في الحرب غنوة يخرج اهلها منها لانها غنيمة
كالاموال ، وقد فرقا بعضهم بين المحاربين ، وحبيها عمر الصالح
المسلمين .

واما الاموال المتقولة فهي ما يمكن نقله كالثياب والمال والاسلحة
والثياب والدواب وغيرها ، وكان رسول الله في اول الامر يفسرها وعافاً
لرأيه ، ثم نزلت الآية بفسرها ، فصارت اربعة اقسامها للمقاتلين العائمين ،
والجس البقي للرسول ولذي القربى والذين من المسجد الكعبه وابن السبيل ،
ولما مات رسول الله ذهبت حصته الى بيت اهل .

مقدار حصة الجراج

والواقع ان المورد المقرر الثابت للخزانه العامة كان من الجراج
والجزية ، وهي اقل من الجراج مورداً ، وافضل ثباتاً لانه الجزية كما
قدمنا كانت تفرص على غير المسلمين ، وانما قبل احدم الاسلام سقطت عنه .
واما الجراج فكان يؤخذ من الارض ، والارض اثبت ، ومع ذلك فن
الصب تعيين مقدار الواردات من الجراج في عهد الدولة الاسلامية حتى
اواخر عهد الامويين لان مؤرخي العرب كانوا كثيرين ما يجمعون بين
الجزية والجراج في تقديراتهم التي بين ايدينا ، وربما ادخلوا معها العشور

ابيضاً ، ومع ذلك فنحن ذاكرون فيما يلي امثلة من جباية اعمال المملكة
الاسلامية في عصر بني امية .

واردات العراق

١. لسواد في العراق بلغ ارتفاع خراجـه في ايام عمر بن الخطاب
ا سنة ٢٠ للهجرة ١٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم .^(١)

وبلغ خراج السواد في عهد عمر وعثمان مائة الف الف درهم ، فلما
وفي معاوية صار الى خمسين الف الف ، وهدايا النيووز والمهرجان خمسون
الف الف ايضاً اخذت لنفسه ولجلبه كما يظهر ، وكان قد اصطفى اموال
كسرى من الارض ، فكان يقطع منها ويصل ويحيز من يشاء ، ثم بلغ
الخراج في عهد ابن الزبير ستين الف الف ، وهدايا التي اشترى اليها عشرين
الف الف ، فلما وفي الحجاج صار الى اربعين الف الف ، وما كان يصل
الى ذلك الا بالشفعة والعنف ، ولم يقتل ابن الاشعث عمه الحجاج الى
روما . اهـ . بل السواد فانفق منهم لانهم ابدوا ابن الاشعث ، فغربت
الارض ، وورث الحجاج الى خمسة وعشرين الف الف ، فلما صار الامر
الى عمر بن عبد العزيز عاد الى سيرة عمر بن الخطاب فجاء الخراج ستين
الف الف ، ولم يقلل الهدايا وهناك مصادر تذهب الى غير ذلك فتقول
ان عبيد الله بن زياد جيه ١ ٨٦٢ (١٣٥١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم .

وجاء العراق الحجاج بن يوسف ٨٨٥ (١٨٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم .

وجيه الخليفة عمر بن عبد العزيز ١٠٠ (١٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم .

وكان ابن هبيرة امير العراق بعده بجيه ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم

سوى طعام الجند وارواق المقتلة .

(١) السواد الارض الخصبة في العراق وهي سواد فسيح السواد لسوادها

ثم كان يوسف بن عمر يحبل منه الى دار الخلافة من سنين الى سبعين مليوناً من الدراهم ، وينفق على من معه من جسد الشام ١٦٤٠٠٠٠٠٠٠ وعلى البريد اربعة ملايين وعلى الطوارق مليوني درهم ، ويبقى عنده للنفقة على بيوت الاحداث والعوائق عشرة ملايين ، فكان مجموع جباية السواد ، ثمانية مليون درهم .

اما مصر فقد جباها عمرو بن العاص ١٣٤٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، وهذا الرقم يجب ان يضم الجزية والخراج طبعاً .

وجباها بعده عبدالله بن سعد بن ابى سرح ١٤ مليوناً ، وقل خراجها في ايام بني امية ، حتى اذا كان عهد هشام بن عبد الملك بعث الى عامله عليها ان يسحبها ففعل ، وجباها اربعة ملايين دينار ، ويجب ان ننظر في هذه المناسبة الى ان كثيراً من الذين تقبلوا الاسلام سقطت الجزية عنهم ، فقل واراد الجزية ...

وجباها اسامة بن زيد في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ هـ - اي قبل عهد هشام - اثني عشر مليوناً من الدراهم ، ولما صارت الى بني العباس انحط خراجها حتى بلغ اقل من مليون دينار في السنة .
واما الشام فقد بلغ خراجها في ايام عبدالملك بن مروان ١٠٧٢٠٠٠٠٠٠ دينار ، منها ١٨٠٠٠٠٠٠ من الاردن ، و ٣٥٠٠٠٠٠٠ من فلسطين ، و ٤٠٠٠٠٠٠ من دمشق ، و ٨٠٠٠٠٠٠ من حمص وقنصرين والمواصي . (١)

(١) كان خراج الشام في عهد عمر بن الخطاب خمسمائة الف دينار ، فلما افضى الامر الى معاوية قطع الوفاة على اهل المدن ، ووظف اهل نيسابور ٤٠٠٠٠٠٠ دينار ، وعلى اهل دمشق ٥٠٠٠٠٠٠ دينار ، وعلى الاردن ١٨٠٠٠٠٠ دينار ، وعلى فلسطين مثل ذلك ثم جعل بعد ذلك يعطى الارض الجيدة ويدفعها الى الرجل خراجها وعوجها واخراج على اقله لا يقص منه شيء . (الصولي)

والواقع ان الواردات الدائمة للدولة الاموية امر يصعب تحقيقه ،
فقد ضاع اكثره في الحروب المختلفة ، والنزوات العديدة ، وليس بين
ايدينا من المصادر ما يساعدنا على اجراء حساب عام لكل موارد
الخزانة العامة ، ولكن ما اقتضاه من واردات بعض الامصار بدل على
مباح الثراء الذي وصل اليه سلطان الامويين ، وكان الاعتماد في
الواردات كما يظهر على العراق والجزيرة والشام ومصر ، واما الاطراف
فقد كانت حواجزا يذهب بين العمال والكتاب والجبلة والجند ، وبعضها
لم يكن يدفع شيئاً يستحق الذكر .

مصر من الدولة

اما مصارف الدولة الاسلامية فكانت محصورة محدودة عهد رسول
الله والخلفاء الراشدين ... ولم يكن يوجد عهد رسول الله موظف واحد
للدولة ، وكانت اعطيت المسلمين او اتفاقية غير محدودة ، وانما كانوا
ياخذون عندهم من ثنائيم الحرب .

وكان الجند او اتفاقية كل المسلمين في ذلك العهد ، او كل من
يستطيع حمل السلاح منهم ، وكان رسول الله يقسم بينهم مساير من
خراج الارض التي بقيت في ايدي اهلها ، كالواردات التي كانت ترد من
حبيش مثلاً ... وما يرد من غنائم الحرب ، وكل ذلك كان قليلاً جداً ...
وكان رسول الله في عهده يدفع من واردات الدولة في حياته ديون
من يموت من المسلمين (١) .

وانما فقد كان رسول الله يعتبر المسلمين عائلة واحدة ، يساعد بعضهم

(١) يوجد حديث بهذا المعنى في البخاري ، ذكره البلاذري ، واستند
الحديث الى ابن مريّة .

بعضاً ، وأما إذا ترك أحد المسلمين ماله ، فإنه ينهب إلى ورثته .

عهد أبو بكر

وفي عهد أبي بكر بدأت العشوات العربية ، ولكنها كانت لا تزال في أوجها ، فلم تحمل إلى بيت المال الأموال الوفيرة والعشور العظيمة التي حملها إمام عمر بن الخطاب ، وقد سوى أبو بكر بين المسلمين في العطاء في أيامه ، وكانت الواردات توزع كلها دفعة واحدة على المسلمين عند قدومها ووصولها ، حتى أنه دفع في السنة الأولى من ولايته - في المدينة - تسعة دراهم ونصف لكل مسررجلالة وفناء وأولاداً وأحراراً وموالي ، ودفع في السنة الثانية عشرين درهماً لكل واحد .

وكان أبو بكر يسان المسلمين قبل توزيع العطاء فيها إذا كان واحداً لم يدفع ما عليه من الزكاة ، وإذا كان أجراً بل لخص ، جسم من عطائه مقدار الزكاة ، وإذا كان بلا موجب ، دفع له عطاءه وكامله (١) والزكاة كما هو معلوم ضريبة دينية إسلامية تؤخذ من الأغنياء وتؤد على الفقراء ، وكانت مفروضة على كل مقدار أو مال أو نجاسة صار استنثارها في بحر السنة المحسومة ، ولم يكن هناك من زكاة على الرقيق والحيول ، وإن كان أبو حنيفة قد أجاب ، وأجرى ديناً على الفرس الواحد .

عهد عمر بن الخطاب والاحصاء

فلما كان عهد عمر بن الخطاب واجه الفاروق موقفاً جديداً يحتاج إلى سياسة جديدة ، بسبب تكثر الفروع ، وتكثر الغنائم والأموال (١) شرح الموطأ .

والأرزاق ، فصار أفراد (ديوان العطاء) ، وصار في الوقت نفسه
(احصاء المسلمين) ...

وكان احصاء المسلمين عملاً جباراً من الطراز الاول ، وصار افراده
دورهم وضعاً ممتازاً ، بحيث احصيت كل قبيلة من القبائل المسلمة رجالاً
ونساء واطفالاً ، كما تركت اماكن خاصة للمواليد الجدد من المسلمين ...
ويظهر لنا انه المؤرخين لم يفتضوا الى خطورة هذا العمل ، وكونه
الوحيد من نوعه في ذلك العهد البعيد ، وانه حادث تاريخي من الطراز
الاول ما في ذلك شك ولا ريب ، وليس جديب ذلك احصاء عمر بن
الخطاب للمسلمين ، فان مثل هذا العمل ليس جديداً ، فقد سبق الفاروق
الى مثله بعض اباطرة القسطنطينية ورومية ، ولكن غرض هؤلاء كان
يختلف كل الاختلاف عن غرض الفاروق ، فبطرة الرومان قد احصوا
وعايناهم لزيادة الضرائب عليهم ، والاميل على اقبال كل باب من ابواب
النبهة من وجهه وأمور الضرائب ، واما احصاء عمر ، فهو احصاء جديد
لم يسبقه الى مثله احد ، هو احصاء حكومة لرعاياها لتوزيع على كل منهم
حصته من الاموال العامة ...

تنظيم العطاء

ولقد تقرر قبيل التوزيع العام والاحصاء ان الاموال التي تؤد على
الدولة من الغنائم والضرائب وغيرها خاصة بالمسلمين كلها ، وانه يجب
ان توزع عليهم ، وان التوزيع يجب ان يجري وفقاً لدرجات المسلمين
من رسول الله وخلفائه من بعده .

وكان عمر يفضل اهل السابقة ثم الذين ينتمون ، وكان يقول :
ولا اجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، وكانت ابو بكر

قبله يسوي بين الناس في العطاء ولا يفضل اهل السابقة ، ويقول : انهم عملوا لله فاجورهم على الله ، وانما هذا اهل عرض حاضر ، يأكله البر والفاجر وليس ثمتاً لاعتناهم .

وعلى هذا الاس من صار تقديم نساء رسول الله على الجميع ، فنقرو لعائشة زوج الرسول وابنة ابي بكر الخليفة الاول اثني عشر الف درهم في السنة .

ونقرر لقبية زوجات رسول الله عشرة الاف درهم ... (١)

ثم جاء دور الهاشميين وابناء عبد المطلب من حضروا بدرأ .

ثم الهاشميين الذين تقبلوا الاسلام بعد ذلك .

ثم جاء دور المهاجرين والانصار من الذين حضروا بدرأ ، او اعتنقوا الاسلام اولاً ، او افضوا الى رسول الله والاسلام بخدمة له ملحوظة .

وعلى هذا اعطى عمر كل من شهد بدرأ ٥٠٠٠ درهم .

واعطى الحسين والحسين مثل ذلك .

وقرر لمن كان اسلامه كماله اهل بدر ولم يشهد ١٠٠٠ درهم .

ويقال انه خصص لبعض خمسة الاف درهم وبعضهم يقول عشرة الاف . . وبعضهم يقول اقل .

وقرر ٣٠٠٠ درهم لكل من انضم الى رسول الله فيل فتح مكة

ولمن تقبل الاسلام بعد فتح مكة ٢٠٠٠ درهم .

ومثل هذا المبلغ لابناء المهاجرين والانصار من اهل بدر .

واعطى اربعة آلاف درهم لكل من كان رسول الله راضياً عنهم

(١) يقول الماوردي انهم ائتمن ١٠٠٠٠ درهم . وانما ابو يوسف يقول ان الجميع

اخذوا مثل عائشة .

كأسامة بن زيد مثلاً، وأعطى لأبيه - أي ابن عمر - وبعض أبناء المهاجرين
والأنصار ٣٠٠٠ درهم .

وأعطى أهل مكة ٨٠٠ درهم لكل واحد منهم .

وأعطى أفراد العرب من اليمنية والقيسية الذين يسكنوا سورية من
٣٠٠ إلى ١٤٠٠ درهم ، وفقاً لجودتهم في حفظ القرآن .
وأعطى بعضهم أكثر من ذلك .

وأعطى النساء ممن غادرن مكة بعد هجرة رسول الله ١٠٠٠ درهم
وأقل وأكثر ، ففرض الحنفية بنت عبد المطلب ٦٠٠٠ درهم مثلاً ،
وذلك لقرابتها من رسول الله .

وقد سائر الناس مبالغ تتراوح بين ٣٠٠ - ٤٠٠ درهم .

وقد سائر المهاجرين والأنصار مبالغ تتراوح بين ٢٠٠ - ٣٠٠ ،
٤٠٠ ، ٦٠٠ درهم .

وخصص عطاآت سنوية لغير العرب من الفرس أصحاب الأملاك في
العراق ، وبعض المسيحيين في الحيرة (١) .

ونصح عماله بمعاملة المسيحيين ومعاملة المسلمين ، لا فرق فيما بينهم من
حيث انصافهم والعدل بينهم ، وأدان لهم أن يؤلفوا قبيلة لأنفسهم .

وخصص لأولاد النساء الرجال الذين سقطوا في الحروب أو كانوا
في الحرب عشرة دنانير في السنة .

ولم يترك العبيد ، وأعطى ٣٠٠٠ درهم لكل عبد من العبيد الثلاثة
الذين حاربوا في بدر أول معركة ظفر فيها المسلمون على خصومهم من
أهل مكة ...

وكان ينال سكان المدينة أيضاً بعض الحظوة شيئاً من الأغنية التي

كانت ترد من الخارج .

والواقع ان واردات الدولة الاسلامية عهد الخلفاء الراشدين كانت توزع على اهل الديوان ، وكن الديوان يشمل اسماء المسلمين من المهاجرين والانصار ومن تابعهم ومقدار اعطياتهم ، وفاقاً لنسب النبوي والسابقة في الاسلام ، وكن لكل مسم راتب يتناوله لنفسه ، ورواتب لأهله واولاده .

وكانت هناك مصاريف اخرى غير العطاء الذي وصفناه ، وكانت هذه المصاريف تدور حول ثلاثة ابواب ...

١ - ملابس الجنود الذين يحاربون لنشر الاسلام وحملهم .

٢ - دفع اجور الموظفين الذين يجمعون الضرائب ويقيمون من الموظفين .

٣ - مساعدة الفقراء واليتيم من المسلمين ...

رواتب الموظفين

والظاهر ان عمر بن الخطاب لم يقدر الرواتب إلا في ولاية حمار بن باقر على الكوفة ، فقد أجرى عليه ستائة درهم مع عطاؤه لولائه وكتابته ومؤذيته ومن كان يلي معه امور الدولة في كل شهر .

وأجرى عليه في كل يوم نصف شاة ، ونصف جريب من الخنقة . وأجرى على عثمان بن حنيف وقد ارسله معه ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطاؤه ، وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم .

وأجرى على عبدالله بن مسعود مائة درهم في الشهر ، وربع شاة كل يوم .

وأجرى على شريح الفاصي مائة درهم في كل شهر ، وعشرة اجربة .

في مكة والمدينة ، بعد ما أصبح وروء الحبوب اليها متتابعاً .
وسبب فتح القضاة على ما يظهر المجاعة التي حصلت في الجزيرة ،
والطاعون الذي ظهر في الشام سنة ٦٣٩ فذهب بخلق كثير .

مسألة الزكاة

أما مسألة الزكاة فكانت ضريبة تؤخذ من اغنياء المسلمين كما قدمنا
لنتفق على فقرائهم ، وكانت الحكومة في اول الامر تقوم بجميع هذه
الضريبة وهي ٢ ونصف بالمئة ، على الزجره المقررة بشأنها في كتب
الشريعة ، وتضعها في صندوق خاص ، ثم يعاد الى انفقها على المسلمين
الفقراء والمساكين وابناء السبيل .

وكان المسلمون يدفعون غير الزكاة العشر من حاصلات الارض التي
بأيديهم ، مقابل اخدم العطش من خزانة الدولة واربعة الخماس الفنائم
اذا كانوا من المقاتلة في الحرب .

والعرب لما استولوا على السواد العراقى (وهو هذه الارض الحصة
المشهورة في التاريخ والتي سميت بالسواد اسواد ارضها) (١) لم يفتروا الى
خطره واهميته وعظيم ثروته ، وكانوا لا يدركون الى ذلك اهمية المال ،
ولا ما يتحصده من الادفام ، حتى ان بعضهم لم يكن يعرف فوق الالف
رقماً .

وكذلك لم يفتنوا في اوان ابرم الى اهمية الجواهر ، والذهب ،

(١) السواد هو الارض التي تمت عليها امبراطورية البابليين ومن سبهم وهو
القسم الجنوبي من العراق . لان المساحة الشرقية تمت عليه امبراطورية اشور . وفي السواد
كانت الخيرة ، كما كان يوجد في الانبار مركز الحكومة الفارسية ، وكانت الاله مرفاً
السواد العظيم .

الذي حملته العنائم ، وفضلوا عليهم الحيوانات الداجنة ، والارض المزروعة .

بحث ميسرة عمر الثانية

ومن المؤكد ان ميسرة عمر الثانية كانت موافقة لروح ذلك العصر ، اذا اعتبرنا ان المسلمين كانوا اقلية ، وان غير المسلمين كانوا اكثرية ، وان الثروة كانت عظيمة ، فكانت يتقدم عمر بن الخطاب والحالة هذه ان يخصص لكل فرد من المسلمين مائاً يتقاضيها من بيت المال ، بحيث كان المسفرون والحالة هذه بمثابة جيش عظيم من الجند والموظفين يقومون بحماية ارض واسعة الاطراف عظيمة الساعات كثيرة الخيرات ، على سكانها والمزارعين والفلاحين فيها ان يقدموا هذه الاقلية الاسلامية مبلغاً من المال ، يقوم باودهم مقابل حمايتهم والدفاع عنهم ، وهذا مع الاعتراف ان المبلغ الذي كان يدره غير المسلمين كان ضريبة معتدلة مقررة اذ اقيمت الضرائب التي كانوا يدفعونها للحكومات السابقة الفادحة الغير مقررة .

لقد كانت واردات السواد وحده في عهد عمر بن الخطاب ١٢٠ مليوناً من الدراهم وكان السواد لا يقل عن ٣٨ مليون جريب ، وخصص عمر على كل جريب درهماً ومقداراً معيناً من غلة الجريب .

وكان غير المسلمين من سكان الارض يدفعون ، باقياً عن كل جريب :

لكل جريب مزروع نخلاً	١٠ دراهم
• • • غنياً	• ١٠
• • • قصباً	• ٦
• • • حنطة	• ٤
• • • شعيراً	• ٢

وكان على كل شخص من غير المسلمين ان يضع حون رقبته اشارة
 يأخذها من عامل الخراج تدل على انه من الذين يدفعون ضريبة الجزية
 او المردوس ، وهي ٤٨ درهماً للموسرين ، و ٢٤ للموسطين ، و ١٢ لاهل
 الطبقة الثالثة ، واما النساء والاولاد والشيوخ فلا ضريبة عليهم .

وهذه الاشارة ، وزع منها عامل يجرى الخراب في السواد فقط
 ٥٥٠ الفاً ، وهذا يعني ان سكان السواد في عهد عمر كانوا يزيدون عن
 نصف مليون ، واما عدد المسلمين فيمكن ان يزيد عن باقي الشعب ،
 ولقد وصي عمر من بعده من الخلفاء برحمة الرعية من سكان السواد ،
 ولكن بعض الامراء اخبروا عن مقدار الخراج عن الارض شيئاً
 ثانياً لا يجوز تقصيره ، مع ان سكان السواد كان يقل عددهم ، فسمرو
 بكن بتدوير الباقين في الارض دفع الخراج المطلوب عن الارض كلها ،
 مما جعل الكثيرين من سكان السواد يتقربون الاسلام ، خلاصاً من
 الضريبة ، وكان هؤلاء اذا هموا ذلك ، اخبروا معهم امواتهم المنقولة
 فقط ، واما الارض نفسها فاطل ملكاً للدولة .

ولما اخذ الناس عهد عثمن بن عفان يستملكون الارض خلافاً لوصيه
 عمر ، اخذ غير المسلمين ايضاً يستملكون ارضهم ويخضعون به .

السود

والسواد - وهو الارض السوداء في العراق - كان على اقسام ،
 فالارض التي صار الاستيلاء عليها حرباً كان يستطیع الخليفة تقسيمها
 على المحاربين او حفظها لبيت المال مقابل دفع الخراج ، بدونه اعطيت .
 واما الارض التي صار الاستيلاء عليها بالصلح والاتفاق ، فبقي مع
 اصحابها مقابل دفع الخراج عنها ، وهي ارض الصنع .

وقد نهى عمر بن الخطاب عن استهلاك ارض الخراج ، وامر بتوك
اهلها لتكون مادة للمسلمين ، ولأن السم لم ينموود دفع الضرائب ،
ولا الاشدن بالزراعة ، فتترك الارض والحالة هذه في ايدي اصحابها
كان معاه حفظها ، ورعيها ، بحيث يعمل فيها اصحابها الاصليون او
الذين كانوا يعملون فيها ، وبأخذ لبيت المال منها ضريبة يوزعها على
المسلمين .

ثم انه ترك الارض في ايدي اصحابها كانه راحة لاصحابها الذين كانوا
يعملون فيها ، فحفظ عمر بهذا حقوق اصحاب الارض الاصليين ،
وحفظ للمسلمين ثروة عظيمة ، او حفظ لبيت مال المسلمين ثروة عظيمة
يعاد الى نوردهم عليهم او لم يعود لاصحابهم .

وكذلك نهى عمر عن شراء ارض شخص من غير المسلمين حفظاً
للخراج المقرر عليها لان القطعة تكون مضمناً لبيت المال .

واما اذا ورت سنة ارضاً من والد غير مسلم فعليه دفع خراجها .

حكومة عمر المدينة

والواقع ان حكومة عمر بن الخطاب كانت حكومة عجيبة ليس لها
مثيل في العالم ، فهي حكومة مستفدة من هذه الدولة العربية المتواضعة
التي اسم محمد بن عبد الله في المدينة ، والتي كانت حكومة ديمقراطية
جمهورية اشتراكية لا شك فيها ، لان الزكاة المقررة في الاسلام ، ليست
في الواقع إلا ضريبة تفرض على رأس المال ، وتوزع على الفقراء
والمسحوقين ، واذا نظرنا الى اهمية رسول الله ، وزكاة ، وجعلها من اركان
الاسلام ، ادركنا العدة الاشتراكية العظيمة التي كان يرمي اليها
الاسلام ، والتي كانت يريد من وراثتها ان يجعل المجتمع الاسلامي مجتمعاً

صعباً يعمل فيه الجميع خير الجميع ، لا اثر فيه للخصومات والحروب
التي خلفها رأس المال في العصر الحاضر ، والتي جرّت الكثير من
الحروب والدماء .

ومع ذلك فان بعض المستشرقين يحاول رد الزكاة الى انها من اصل
فينيقي او كيماني ، وامر محجهم في ذلك ، فلان هناك تجربة حكان
بعضها الاغنياء عديم التوزيع على الكهنة ، والكهنة على كل حال ،
ليسوا فقراء الامة ، والاشتراكية المعاصرة لا توزع مساعدات على
الكهنة ورجال الدين ، وانما توزعها على الفقراء ، والاسلام اول من
ايد فكرة الاشتراكية في العالم فجعل ثلثه فقراء حقاً في الحياة ونعم الحياة .

حكومة عمر

واذاً فقد كان عمر بن الخطاب يرى ان من حق كل مسلم ان يسمع
شيء من بينة المسال ، ولكن وهماً لقرايته من رسول الله وحده انه
للاسلام ، وعلى هذا الاساس وضع نظام العطاء ، وجمع اصحاب رسول
الله فقال لهم :

- اني قد رأيت ان اعرض العطاء لأحد .

فقالوا : نعم الراي يا امير المؤمنين .

قال : فبين ابدأ .

قالوا : نفسك .

قال : لا ، ولكنني اضع نفسي حيث وجههم الله ، وابدأ بأل رسول
الله أولاً .

ولما جاء قوم عمر بن الخطاب - بنو عدي - يقولون له :

- انت خليفة رسول الله وخليفة ابن بكر ، فهو يجعل نفسك حيث

جعلك مؤلفاً القوم الذين كتبوا .

قال هم : بئس . بئس . بني عدي ، أردت الأكل على ظهري ، وإن
أحب حسني السك ، لأداته حتى أتبعك الدعوة ، وإن يطبق عليكم
الدفع - يريد ولو أن يكتبوا آخر الناس - إن في صاحب رسول
الله والصدق في سكر ، سلك طريقاً فإن خافها خوفاً بي ، والله ما
أذكر كذا الفصل في الدنيا وما توجد الثواب على عمل إلا بمحمد صلى الله
عليه وسلم ، فهو شرف ، وفوقه شرف العرب ، ثم الأقرب فالأقرب .
وكنك ترى أن عمر بن الخطاب اعتمد في تقرير العطاء على مركز
كل اسم من رسول الله قريباً كان أو بعيداً . . . فقدم قراءة رسول
الله على النبيين المحبين ، وكانوا القوم إذا استأذوا في القراءة قدم أهل
السايفة ، ووضع نفسه معهم وهو الخليفة ، ولو قدم معه ما عتب أحد ،
بل لقد نال العشرة منه أن يقدم نفسه فيهم ووضعها في المركز
الذي اعتقد أنه مركزها .

فقد فرض عمر لأسامة بن زيد ، وهو ابن خادم رسول الله ، أربعة
الآلاف درهم ، وفرض لعبد الله بن عمر الله ، ثلاثة آلاف . . .
ولعبد الله مائة وعشرة ومائة . فراح عبد الله يعتب عليه وقال له :
- فرضت لي ثمانية آلاف ، وفرضت لأسامة أربعة آلاف وعدت
والأسماء .

فقال له عمر : ردت لأنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
منك ، وكان أبو عبد الله أحب إلى رسول الله من أبيك . . .

النظام المالي في العهد الأموي

المطبعة في عهد معاوية

لما احتاج معاوية إلى تأييد الناس له في العهد الأموي ، زاد في إعطيات الجند بصورة خاصة ، وكان جنداً بعدد منبج الفأ ينفق عليهم ستم ملبون درهم في العام ، فيأتق كل رجل ألف درهم ، وهذا ضعف ما فرضه عمر بن الخطاب .

وكان في مقدمة القبائل التي أخذت بيده وحاربت معه ، وأبدت دعونه قبائل البس ، فجعل معاوية البسبة فرقة خاصة ، وعلماً الفأ فارس وفرضهم عطاءً مضافاً ، وجعلهم جنداً مستقلاً لا يخضعون بسواهم وكان يشيخ امراءهم وقوادهم وقريتهم ، واستفهم امر البسبة ، حتى خشى معاوية منهم ، فاقرب عندهم القيسية ، وعندهم مثل عطائهم وصار يغزي البحر البسبة والبر بالقيسية ، عشق ذلك على البسبة وعائيه ، فجمع بين القيسيين وأقرانهم .

وزاد معاوية في عطاء من رأى الحاجة لدموه الى الصفة ، وأخذ يتصرف في بيت المال تصرفاً ما رأى المنصفون من ذلك مثله ، اعطى عمرو بن العاص مصر طعمية له في حياته مدين تأييد السياسة مد علي ، وقد قدروا غلة مصر بثلثي عشر مليوناً من الدراهم ، وأخذ يوزع الاموال ذات اليمن وذات البدر على اصداءه ومن يريد الصطاعة من الناس حتى انه لما انتهى من حربه مع غني ، وأخذ ان الى الخلافة وجد

الحزابة العامة نكاح تكون مازغة ، مما اضطره الى حسم الزكاة من العطاء لتثبيت الموارد التي اقترتها الثورات والحروب السابقة والمبات الكثيرة ...

وكان معاوية يريد العطاء او ينقعه او يقطعها وفقاً لموقف صاحب العطاء من الحكومة الفتنة والنظام الجديد ، زاد في اعطيات انصاره ومعاووية ، وانقص عطاء بعض خصومه من شيعة ، علي او منع عنهم العطاء مذهباً ...

وكان من سياساته استنزاف آل البيت ، فوسع عليهم في العطاء ، وقال انه بعد ان كان عطاء الحسن والحسين في ايام عمر بن الخطاب خمسة آلاف درهم في السنة ، جعله معاوية مليون درهم ، وزاد في عطاء عديلة بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن ابي طالب وغيرهما ، وكان قدّم عمر بن الخطاب من شهداء بدر أول غزوات رسول الله على اهل مكة ، وفي يومهم العطاء ، قدّم معاوية من شهد معركة صفين معه ، ودار حقائق بني امية على خطوات معاوية فاعطوا احزابهم ، وفرضوا الاعطية لشعراء ايضاً ، وهم كالمصنف اليوم ... فخرجوا بذلك عن سنة عمر بن الخطاب في العطاء الذي اجراه على الناس وفقاً لمقامهم في الاسلام وحده انهم لرسول الله ...

الواردات في ايام معاوية

- وكانت واردات الدولة الاموية في عهده معاوية تتدور حول الابواب الآتية : ١ - الجزية . ٢ - الخراج . ٣ - الزكاة . ٤ - عشر حاصلات الارض التي بيد المسلمين . ٥ - حربية عن النخاسة وهي اشته بخزينة الخمارك اليوم .

٦ - ضريبة تؤخذ عيناً من الشعوب المحكومة بموجب اتفاق صار عقده في أول الفتح .

٧ - مبالغ تدفع نقداً من المدن أو الأقاليم التي صار فتحها صلحاً وبموجب اتفاق .

٨ - مبالغ تؤخذ من الأمم التي انتصر عليها العرب في الحرب .

٩ - خمس الغنائم في الحروب .

وهناك مورد عاشر ، وهو تضيق الخراج إما لاهلك الذين يتولون الأقاليم ، أو للملتزمين وهم ليس من أهل الفس والنقوذ كانوا يضمون الأراضي من منوفي الخراج ذلك معرب يقع عليهم بمرأية وضمن الواحد قرية أو بلد أو كورة فيؤخذها ويستغلها ويدفع ما عليها من الخراج ويتسولي على الباقي .

وهذه الطريقة ليست من محرمات الإسلام بل هي قديمة من أيام اليونانيين وقد اقتبسها العرب عن الرومان الذين اخذوها عن اليونان . أما مقدار الواردات في عهد معاوية برصمب نقودها ثلثة المصدرة وتقدرها ، بل واحتفظت بما ، ولكنهم لم ان السواد . وهو ودمشق ومصر والجزيرة اعظم موارد الدولة في ذلك الحين ، لأن بقية الأقاليم لم تكن وارداتها التي بصادراتها . بلغت غلته في أيام عمر بن الخطاب ١٢٠ مليون درهم - سنة ٢٠ هجرية - ، وفي أيام عبيد الله بن زياد - في خلافة يزيد بن معاوية - ٦٢١ هـ ١٣٥١ مليون درهم ، وأما مصر فقد اخذها عمرو بن العاص منعة له ، وأما الشام فقد كان خراجها أيام عبد الملك بن مروان ١٠٧٢٠٠٠٠٠ دينار . بحيث يستطاع المؤرخ المعاصر ان يقول ان الواردات في أواخر أيام معاوية لم تكن لتزيد عن ٣٠٠ مليون درهم مثلاً ، والدوام يسوي حركتها من الذهب .

او ما يبلغ ١٥ مليون ليرة ذهبية ...

الحمة الثانية بعد مسوية

وقد صار عبد الحكك بن مروان على سياسة معاوية في استرضاء الاحزاب والتوسع بالعطاء ، كما راح يمه على العراق الحجاج بن يوسف يزجل للناس العطاء حتى على حرب الخوارج وحرب الترك وغير الترك ، حتى انه صرف على الجيش الذي صار الى رنبل - في الهند - وعدته اربعين الفاً مليوني درهم سوى اعطيت الجند فضلاً عما اعطاه لقوادهم ، وما توفي الوليد بن يزيد من عبد الملك زاد العطاء عشرة دراهم ، فلما خلفه يزيد الثالث اعد العطاء الى ما كان عليه من قبل .

وزادت الواردات بعد معاوية زيادة حسنة ، فقد بلغت واردات السواد - العراق - في عهد الحجاج ١٨٨ مليون درهم ، سنة (٨٨٥ هـ) وبلغت واردات مصر في عهد هشام اربعة ملايين دينار ، ثم نذرت الواردات ، اضطراب الامر وقلة الايدي العاملة في الزراعة ، واقبال الناس على الاسلام ، فقلت جيرة العراق في عهد عمر بن عبد العزيز وضمف امر الجيرة في مصر ثم كانت عليه في عهد هشام حتى بلغت الى مليون دينار ...

وكان يصرف من بيت المال في عهد بني امية مبالغ حسنة لتحسين الترع الكبيرة وانجاري التي اتخذت من الانهار الضخمة كندجلة والفرات لنقل الماء الى الاراضي البعيدة ، كما كان بيت المال مسؤولاً عن حفر الترع للزراعة وغيرها .

وكذلك كان على بيت المال النفقة على المسجونين واسرى الحرب ، من ماكل ومشرب وملبس .

وعليه النفقة على المعدات الحربية وصنعها ، وصرف الرواتب المقررة
للموظفين المختلفين في الدولة .

وكان كذلك - أي بيت المال - مرتعاً خاصاً للشعراء والادباء
ومن يرى الخليفة من زعماء العرب أرضاً ، وتقريره .

ومما يجب أن يشار إلى ذكره أن بيت المال أصبح مدعياً عثمان
بن عفان - إذا احتجبت عهد الأمام علي - فقد إليه يد استحق وغيره .
ففي عهد عثمان حصد بعض قرانه على مبالغ حسنة من بيت المال ، ومن
أمثلة ذلك أن عثمان أعطى مروان بن الحنك كاتبة حمي غنائم أفريقيا
وقد مدره بعضهم ثلث الآلاف من الدراهم ، كما أنه تسامح في مسألة
الأراضي المشاعة فأقطعهم معاوية وغير معاوية ، ويظهر أنه لم يأخذ من
الدين أعطاهم أباه - أروفاً ثابت أن الأرض التي هي لبيت المال أو
للمسلمين جميعهم ، وأنه أقطعها من أقطعه لمدة محدودة من الزمن .

مثال ذلك أن المسلمين لم فتحوا الشام وغفروا الأرض في أبيدي
أصحابها ، كان جاسب كبير منها ملكاً لمظفرقة فواد جنه الروم ، فلما
غلبت الروم وغفروا البطارقة ، أو فتلوا خلت خباياهم مدنية لا مال لها ،
فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يضمنون عنها مدهطون
بيت المال فجاءوا ويأخذون الباقي ، فلما ولي عثمان ، غلب منه معاوية
أقطاعه هذه الأراضي التي لا مال لها ، وأبست من قرى أهل الذمة ولا
الحراج ، وحبته أن الذي أجراه عليه من الورق في عهد لا يقوم
بمؤن من يقدم عليه من وهود الأجداد ورسل أمرائهم ورسل الروم
ووفودهم .

فأقطع عثمان هذه الأراضي ، وانتقلت من معاوية إلى أهل بيته .
وفعل عثمان مثل ذلك بالأملاك العامة في السواد خصوصاً التي كانت تخص

ملوك الفرس ، والاراضي التي تركها اهلها ، وهذه الاملاك اعطاها
عثمان بالايثار الى من يشاء امرهم مقابل خمسين مليون درهم ، كما سمح
لبعض اهل بشار الارض التي حظر عمر على المسلمين شراؤها ومنها يمكن
من امر فان تزيم عثمان لهذه الاراضي او اعطائها كان مخالفاً لسياسة عمر
ووصيته .

سياسة عمر والايام بعده

واذا كانت سياسة عمر بن الخطاب حسنة موفقة في وقت وعهده ،
فانما اصبحت بعد مائة سنة شيئاً لا تستطيع الدولة القيام به ولا تنفيذه .
اصبح العطاء مع الايام مبلغاً ضخماً ودعاً ، وكثير عدد من يأخذون
العطاء بسبب هذه الزيادات التي ادخلها معاوية وغير معاوية من الخلفاء
بعده على ديوان عمر .

فلما كان عهد عمر بن عبد العزيز وذلك بعد ان اصبحت النقص ظاهرة
في الخراج وبعد ان قلت الفتوحات ، وقلت معها الغنائم والثروات
العظيمة التي كانت تحصلها هذه الفتوحات ، حاول عمر ان يعود بالعرب
الى سياسة سلفه عمر بن الخطاب ، وان ينشر الاسلام بين الشعوب
المختلفة ، ونزع الموالى الخفوق التي كان يسعم بها المسلمون من العرب
وحدهم ، واغفرهم من الجزية التي كان يدفعها غير المسلمين ، ثم جعل لهم
حق مقاومة اخوانهم المسلمين من العرب وحسبهم من الاعطيات السنوية .
ولكن بيت المال لم يكن في حالة تمكنه من القيام بكل هذه
الفروض الجديدة ، وكانت الحالة المالية في هذا العهد تتطلب اصلاحاً
عاجلاً ، بعد ان اصبحت الاعطيات السنوية في العراق بيت المال ، وبعد
ان قلّ الوارد اليه من جراء الغاء الجزية في خراسان باقبال الناس على

الاسلام ، وارتفاع الجزية عنهم بسلامهم ، ولذلك لم ندم هذه السياسة
المائية التي اجراها عمر بن عبد العزيز في عهده طويلاً . مما است خفيته
من بعده وهو يزيد ان اعاد الخطة التي كانت عليه سابقاً ، فانغصب
الموالي الذين اسلموا ، وقتل آدمه في المساواة ، وكان من بحق عمر بن
عبد العزيز ان يقضي على العطاء فضاء مجزئاً ، وان يجد اعمالاً جديدة
غير الغزو والفتح المرادطين في الولايات الاسلامية من جند العرب حتى
لا يكونوا عائلة على بيت المال . . .

واذا كانت سياسة عمر بن الخطاب في العطاء في عهده موقفة لما
فرض العطاء لكل مسلم بغيره جديداً موطناً في الدولة ، على الدولة
ان تقدم له ما يحتاجه ، وعليه ان يقوم بخدمة . . . وان عدد الجنود في
عهد عمر كان محدوداً ، وكان غير المسلمين اكثر من المسلمين ، وكانت
هؤلاء يقومون بالزراعة والتجارة وغيره من الامور التي تدور على بيت
المال الاموال اللازمة لصره على جود الدولة ، وكانت هناك ابحاث
الجزية المفروضة على غير المسلمين والتي كانت مصر وحدهم تقدم منها
مبلغاً عظيمياً ، ولكن الخطة تبدلت بعد عهد عمر ، وتقبل الاسلام اكثر
المسيحيين الموجودين في الدولة ، وزاد الجند عن حدة الدولة ، وفقدت
الفتوحات ، فقدت الاموال التي تؤد الى الدولة من الفتوحات ،
كما نقصت الجزية بسلام غير المسلمين ، . . . أصبح بيت المال والحاجة هذه
لا يستطيع القيام بالاعاء المفروضة ، والتي تفرض لكل مسلم عطاء من
بيت المال ، وكانت سياسة عمر تحول دون ملكية الجند للأرض ، لان
الجند في ذلك الوقت كانوا اقلية والفتوحات في اوجها ، وليس يصح ان
يلهو الجند بالزراعة وامامه ما امامه من سياسة التوسع والتبسط في
الأرض ، فلما انتهت الفتوحات واواخر عهد الامويين أصبحت الحاجة

مناعة الى تبديل السياسة القديمة ، وترك الجند يستغل الارض ويعمل فيها ، فتنبهوا الدولة من شر الغطاء ، وتزداد الواردات بما تقدره الارض المستثمرة الجديدة من الخراج للخزينة العامة ، ولكن عمر بن عبد العزيز ، وفي فكر في الاصلاح لم يفتن الى هذا الامر الخطير ، فاراد العودة الى عهد عمر جده ، وعنده غير عهد عمر ، وغرر منع الجند من التوطن في الارض ، واعطاء الموالي من المسلمين الاعطيات من بيت المال ، مع ان الضرورة كانت تدعو في ذلك الوقت الى إلغاء الاعطيات التي كانت تمنح للعرب انفسهم .

وكذلك حدث سياسة عمر بن عبد العزيز التي انقضت بيت المال بدون نجاح سياسته العامة التي كانت ترمي في ذاتها الى الاصلاح واعفاء المسلمين الجدد من الجزية ، فلما عاد حطوا الى الغاء ما قرره ، وارجعوا الضرائب المفروضة على الذين اسلموا . رغبة منهم في دفع الجزية عنهم . بدأ الاضطراب يظهر في الدولة الاموية **ونشأت جماعات كثيرة من المسلمين غير العرب** سياسة الدولة المالية التي غدت في نظرهم عبثاً ثقيلاً لا قبل لهم بحملها ، وهي السياسة التي اتبعها الامويون ولا سيما في خلافة هشام بن عبد الملك ، بعد فشل الاصلاح الذي قام به عمر بن عبد العزيز .

وهناك شيء آخر أيضاً ، وهو انه يجب ان ينظر الى هذه الاصلاحات مع ما كانت تنعم به من خطأ وموضي يعين الاهتمام ، ذلك انها كانت سياسة جديدة ، وكانت هذه السياسة الجديدة مفيدة ناجحة لولا ما اصابها من العوامل التي افسدها واخرت بها . . .

كانت الفرية التي قصد اليها عمر بن عبد العزيز من دفع الجزية عن الشعوب التي اسلمت - وذلك وفاقاً لسياسة عمر بن الخطاب ، ونقضاً

لسياسة الخجاج الذي اغر الجزية على المسلمين من الموالي أيضاً . ان
يساوي بين العرب المسلمين وغير العرب من المسلمين ، وكان عدم
المساواة سبباً دائماً من اسباب الثورات والاضطرابات والقلق في قلب
الدولة ، وكانت الحالة تدعو الى ذلك ، لانه كان من مصلحة الامويين
مساواة المسلمين بعضهم مع بعض ، بعد ان اصبح عدم المساواة خطراً
يهدد سلامة الدولة .

واذا لم تكن هذه المساواة من مصلحة الدولة الخالية ، فلو تكن من
مصلحة الاسلام ؟ بعد ان تباعدت الارض عن الارض ، ونوفقت الفتوح
بعد الوليد ، واصبحت الحاجة ماسة الى اصلاح داخلي عظيم يهدم سياسة
العطاء هدماً ، فلا يحسن قسماً كبيراً من المسلمين يعيشون على حساب
الدولة ، كما انه كان من الواجب خلق موارد جديدة مائة التدييد
المصارف ، وادخال القوانين في الخزنة العامة ، وامرار سياسة مالية
حازمة مقررة تكون موارده مقررة معروفة ، وتكون مصاريفها
محددة معينة . . .

ولكن عمر بن عبد العزيز كان شخصية محقة لم يفتن الى سياسة
عمر بن الخطاب وقد نلتها في عهده ، وضررها بعد عشرات السنين بعده ،
فراح يحاول العودة الى هذه السياسة التي كان يجب تعديلها ، وراح
يحاول التوسع في مسألة العطاء توسعاً ففضى على بيت المال ، وجعل من
الصعب قيامه بهذه الاعباء الجسيمة التي فرضها عليه ، فكان من اثر ذلك
ان الموالي الذين كانوا يؤمنون برفع الجزية عنهم بعد اسلامهم اسوة
باحوانهم المسلمين الآخرين ، لم يوفقوا الى الوصول لغرضهم هذا ، مما
كان سبباً في قلقهم واضطرابهم ، وثأبيدهم لثورات التي قامت بينهم
وحولهم . . .

الضرائب في عهد به

ولقد زادت الضرائب في عهد الامويين زيادة محسوسة ، ولم يراع
الخلفاء الامويون القواعد التي قررها اسلامهم ، بل تجاوزوا حدود
الضرائب التي فرضوها .

وقد كتب معاوية الى وردان قائده على مصر : « ان زد على كل
امرئ من القبط فيواظب » .

فكتب اليه وردان : « كيف ازيد عليهم وفي عهدك انت لا يزداد
عليهم ؟ » .

وكانت الحالة في الولايات العربية مثل ذلك ، فقد صادر احد اخوة
الحجاج بن ابي لهب اموال الناس ، واقر حقههم وسحقهم بفرض عليهم
ضريبة معينة ، وذلك عدا العشر الذي ورد الاسلام .

وفي عهد عبد الملك صدر احكام السكان عامة في حراسان وكانت كل
شخص يسداد ما فرض عليه من الضريبة ، ووزعت جزية كل شخص
ثلاثة دنانير ، كانت عليه من قبل ، وكذلك كانت الخطة في العراق ،
حيث زيدت الضرائب الاستثنائية زيادة ودحة انقلت كاهل السلطان ،
ولم يكن كل عامل يسي امانة من اهل الاخلاص والانصاف ، فانت
منهم من كان ينظر الى الولاية والامارة كوسيلة لاثراء والانجاء ، ولم
يكن الرؤساء وحدهم هم الذين يغرون على حساب بيت المال ، فقد
كانت هناك طائفة من صغار الموظفين يسرعون على منتهى وتعمل على
سياساتهم .

وكان بعض الخلفاء يحسبون المال حسابا عسيرا ، ويفرضون عليهم
القراعات الفادحة لاسترداد الاموال التي جمعوها من ولاياتهم ، فيغضبون

بهمهم هذا قبائلهم ، وكان من الحق ان لا يتركوا مع الخيل على
 الغارب منذ اول الامر ، ولا يقيموا في هذه الوظائف العالية الا من
 ثبتت كفاءته ، واشتهر عنه الفضل والاخلاص والانصاف والذمة .

بحث الغرائب في عهد امية

وبين الاوراق التي صار العثور عليها في مصر . ما يتعلق بالغرائب
 بين سنة ٨٠ - ١٠٠ هجرية ، ومنها يظهر انه كانت هناك عدة غرائب
 على غير المسلمين ، منها ضريبة الارض التي كانت تدفع عنها ونقداً ، اي
 مالا وحياً او حيواناً ، وليسنا على يقين من هذه الضريبة اكانت واحدة
 ام انها كانت مؤلفة من ضربتين !!

وهناك ايضاً غرائب مختلفة هي اقرب الى السكايف الحكومية الغير
 مقررة ، ولكنها كانت تجبي دائماً .

اما المسلمين فلم يكونوا يدفعون الا ضريبة العشر عن ارضهم ،
 والزكاة التي كانت تأخذها الحكومة وتضعها في بيت المال ، على ان
 تصرفها على الفقراء والمساكين .

وليس هناك بين هذه الاوراق ما يدل على ان المرأة كانت تدفع
 الجزية او ضريبة الرؤوس ، وهذا من توريده المصادر الاسلامية .

وكذلك لم يكن يدفع هذه الضريبة كل الناس ، فبعض الكهنة
 كانوا يدفعونها ، وبعضهم لم يكونوا يدفعونها ، وكذلك لم يكن يدفع
 ضريبة الرؤوس او الجزية صغار الاولاد ، وكان يدفعها كبارهم .

اما ضريبة الرؤوس فلم تكن مستقرة على معدل واحد ، فقد كان
 يؤخذ من الشخص الواحد ثلاثة دنانير في السنة ، ومن غيره دينارين ،
 ومن ثالث اربعة دنانير والى القارىء : دج من هذه الضريبة التي كانت

تفيد في الأوراق المذكورة على حساب أكثر من شخص واحد . .
فمثلاً دفع ٩٥ شخصاً ٢٣٠ ديناراً .

و ٥ ٥ اشخاص سبعة دنانير وثلث دينار .

و ٧ ٥ اشخاص سبعة عشر ديناراً .

و ١٥ ٥ شخصاً ثمانية وثلاثين ديناراً ونصف .

و ٧ ٥ اشخاص عشرين ديناراً ونصف .

و ٥ ٥ اشخاص ١٣ ديناراً وهكذا . . .

الأرض

أما الأرض فكان يؤخذ الحراج المنفرد عليها مقدماً وبعثاً دراهماً
وغللاً من محصولها .

وأما حساب الأرض حتى الفسحة من غير الناس كانوا يدفعون هدم
الغريبة ، ويظهر أن الأشخاص الذين يمكن عدمهم أرض كانوا
يدفعون ضريبة القمح والغلل . . . أي أن الأرض المزروعة قمحاً أو غللاً
كانت تخلف الضريبة عيباً بخلاف محصولها يزرع فيها .
وكانت تؤخذ ضريبة عن الأرض التي يزرع فيها الطلح أو شجر
السنط والنخل أيضاً .

واختلفت الضريبة على الأرض ، ولكل أحد تدفع مما وجد في الأوراق
المذكورة عن ضريبة الأرض التي حصرها في السنين والعرب مثلاً :
فقد كان المأور المكلف بالشؤون المالية والحراج ، يؤجر ٤ فداناً
من الأرض العامة بثلاثين ديناراً .

وأجر خمسين فداناً بخمسين ديناراً .

وكانوا يأخذون ضريبة ديناراً واحداً ، وعشر أرواب من الحنطة

وثلاثة ارادب ونصف من الشعير عن الفدان الواحد .
وفي ورقة اخرى نجد ان مأمور الخراج كان يأخذ ديناراً واحداً
و ٩٥ اردباً من الحنطة عن الفدان المزروع حنطة
واما الارض التي تروى شعيراً فكانوا يأخذون عنها ديناراً واحداً
ونصف ارادب من الحنطة ، وسدس ارادب من الشعير .
وفي القرن الاول للهجرة روى الضرائب الفردية قليلة ، وهذا يدل
على ان الارض التي كانت لدى الافراد لم تكن عظيمة المساحة ، فافصى
ما وصلت اليه الضريبة على الفرد الواحد سبعة دنجر .
اما قبيلة العيلة وعونهم الشراعية في ذلك العهد اي : القرن الاول
الهجري ، فهي كما يلي :
ففي سنة ٨٠ للهجرة كان ثمن عشرين ارادب من الحنطة ديناراً واحداً .
وفي سنة ٨٨ كان ثمن اثني عشر اردباً ديناراً
وروى بعد هذا التوزيع الدنجر الواحد يساوي عشرة ارادب من
الحنطة وعشرين من الشعير .
وفي سنة ٩٢ هجرية كان الخروف الواحد يساوي نصف دينار .
اما اجور العمال فكانت رهيبة جداً ، فكانت اجرة العامل في
صناعة السفن لا تزيد عن دينارين في الشهر . واجرة البجار تنشي الديار ،
واجرة البشار احد عشر ديناراً في السنة .
وهنا لابد من الملاحظة ان العمال كانوا على درجات من حيث
براعتهم واحسانهم في صحتهم .
والظاهر ان الحكومة المركزية - او مأمور الخراج في العاصمة -
كان يفرض مقدار الخراج على بلدة او محقة ، ويترك الموظفين المحليين
امر تقسيمها بين الناس .

فقد كتب قره بن تيريش أمير مصر الى سكان بلدة في مصر يقول :
 و المقرر عليكم من الخريبة لعام ٨٨ هو ما يأتي :
 ١٠٤ دينار وثنت الدينار ، واحد عشر اوديساً وثنت الاروب من
 الحنطة ، كتب رشيد في حفر حنة ١٩١ .
 والاختلاف بين التاريخين يعود الى الاختلاف بين التاريخ الشمسي
 والقمرى . . . وكانت هناك ضرائب تؤخذ من الكنائس وغيرها وهي اقرب
 الى التكاليف الحكومية كما قدمت ، وهذه لم تكن مقررة ، وانما كانت تفرض
 عند اللزوم كما يظهر .

اختلاف الضرائب

والواقع ان نظام الضرائب كان يختلف في كل مصر من اعداد
 الامبراطورية عن غيره ، وقد كانت الضرائب التي فرضت على غير
 المسلمين عهد رسول الله والخلفاء الراشدين اقل بكثير من الضرائب التي
 فرضت عهد خلفاء امية .
 فقد قرر رسول الله على غير المسلم في كثير من الحالات ديناراً
 واحد في السنة ، ولم كان عهد أبي بكر وعمار قتيب ، مصرى ، فرض ابو
 بكر على اهلها ديناراً واحداً وجرساً واحداً من الحنطة .
 وعمر من سكان ابطكية مثل ذلك عهد هذا العهد اعمار فتحها .
 وفي ايام عمر رابت الفتوحات زيدة عظيمة ، فكان غير المسلم يدفع
 في اول الامر ديناراً واحداً وجريباً ، ثم ادخل عمر بعض التعديل على
 هذا التشريع الماني الاول .
 فرض خالد بن الوليد على دمشق ديناراً وجريباً وزيناً وخلاً ، (*)
 (١) من الخصال .

واما ابو عبيدة فوضع ضريبة مقررة على كل بلدة ، لا تزيد اذا رادوا ،
ولا تقل اذا غنوا (١) .

وفي حالات اخرى صار دفع الضريبة على الجماعة وفاقاً لمقدمتهم على
الدفع ، فاذا زادت ثروتهم زادت الضريبة ، وان قلت صار انقاصها .
واما في الوفة فقد دفع كل شخص ديناراً ، وسعس الخنطة والحل والزيت
والصل .

وفي الجزيرة - شمالي العراق - احدث العربية عيساً من الجبوب
والزيت والحل ، ثم عدتها عمر بن الخطاب .

وبعض المدن دهمت مقداراً معيناً ، فدفعت الخيرة مبلغاً يتراوح
بين الثمانين والمائة الف درهم في السنة .

ودفعت الانبار ١٠٠ درهم والف ثوب (٢) .

وحصل مثل ذلك في الرقة ، وسمران ، فانها دفعت مبالغ مقررة .

واما حمص فقد دهمت ١٧٠ الف دينار ، وهذا مبلغ عظيم ، ولكن
الطبري يقول : ان اهل حمص دفعوا عن كل واحد منهم ديناراً واحداً وبعض
الجبوب ، فهل يعني هذا ان اهل حمص وما جاورها كانوا يعدون عند
الفتح مائة وسبعين الفاً من السكان ؟

واما مصر فالارجح انها دفعت دينارين عن كل شخص من سكانها ،
واكثر المؤرخين على انها دفعت المبلغ الذي كانت تدفعه فيلا
للإمبراطورية البيزنطية .

ولكن الضريبة عليها زيدت في أيام الامويين ما في ذلك من شك

ولا ريب .

(١) ابن عسكركم في تاريخ دمشق .

(٢) اللاذقي .

فقد حصل عبداً في أبي سرج ، من مصر ، أكثر مما حصل عمرو بن
العاص من الضرائب .

وفي عهد عبد العزيز بن مروان - أيام عبد الملك بن مروان - صار
وضع ضريبة على الكنية ، وبشراً واحداً عن كل واحد منهم .
ويقول سيفروس (١) : أنها كانت أول جزية أخذت منهم ، ولا
نعم إذا كانت الضريبة عن الروم أم عن الأرض التي كانوا
يزرعونها .

وفي عهد عبد العزيز بن مروان وقعت الزريبة أيضاً رغم احتياج
المكان إلى عبد الملك الخليفة .

وقد ريدت الضريبة في بعض دول الشام ، ولكن تاريخ الزيادة غير
معروف .

فلما كان عهد عمر بن عبد العزيز رفع الضريبة عن الأرض التي تخص
الكنية والأساقفة ، ولكن يزيد خلفه أعادها .

والزيادة بعد هذا التاريخ أصبحت عادية ، وسبب ذلك انقضاء
الضريبة بسبب اغتيال القبط على الإسلام ، فكان لا بد والحالة هذه من
زيادة الضرائب لسد النقص .

وأما المصادر المسيحية فنقول أنها - أي الزيادة - أصبحت عظيمة ،
وأما المصادر الإسلامية فتشير إليها فقط ، ولا تبحث بمقارنها .

انواع من الضرائب على الأرض

وكان الأشخاص الذين يدفعون ضريبة الأرض على أقسام :
أصحاب الأرض ، الذين يدفعون الضريبة عن محصول أراضيهم .
(١) تاريخ الطائفة في مصر .

وصناع يدفعونها من واردات من عثم .

وتجار يدفعونها عن ارباعهم .

خذ مثلاً انواعاً في العراق من الجريب الواحد من الارض :

عنب	١٠	درهم
تخل	٥	دراهم
حنطة	٤	دراهم
شمير	٣	دراهم

وهناك مصدر آخر يجمعها كما يأتي :

عنب	١٠
حضر	٦
فطن	٥
شمير	٥

وكل المداد تدل على ان الضريبة في العراق حار ورشها على حسب

الجريب الواحد من الارض .

ولكن هذه الاوزان تختلف عن الاوزان التي وضعها ابن حوقل

للضريبة على الارض في فارس مثلاً :

فقد كانت الضريبة اشد في شيراز كما يظهر ، فهو يضع ١٧٠ درهماً

على الجريب الكبير - الذي يبلغ اربعة اصعاف - الجريب العادي

خصوصاً اذا كان يشار الى سقيه بواسطة . . . النهر .

ويضع ابن حوقل مثلاً ١٩٢ درهماً على الجريب الكبير من الاشجار .

٢٣٧ وتلقي الدرهم على الارض المزروعة خضراً

١٤٢٥ غنياً . . .

واما في الكوفة فكانت الضرائب اقل بما ذكرناه ، فليس هناك

ضريبة على المصب والخضراوات حتى سنة ٣٠٢ هجرية (١) وحتى زمن
علي بن عيسى الجراح .

ضريبة على التجارة

وقد وضع عمر بن الخطاب ضريبة على التجارة فآخذ ٢ ونصف بالمائة
من المسموح خمسة بالمائة من غير المسموح ، وعشرة بالمائة من الغريب الذي
يريد ان يجار في البلاد الاسلامية .

وكانت هذه الضريبة تدفع مرة في السنة .

واما الامام مالك فيقول : انها كانت تؤخذ عن كل سفرة تجارية .

وكان الذي يعيد الدر يعتبر غريباً .

وهناك من ذهب الى ان الفراء لا تعط او الاجانب دفعوا هذه

الضريبة .

وقد اخذ عمر بن الخطاب من النبط خمسة بالمائة من الخلطة والزيت ،

وعشرة بالمائة من الخصى والفول المسحاح مع بالمتاجرة خارج موطنهم (٢)

واما اذا كان التاجر بتاجر ولاشربة وانسكرات فيجار الى تقدير

تجارته بواسطة تجار من شيعته ، واذا اثبت المسيحي التاجر ، ان دهبونه

توازي ما عنده من المال يعفى من الضريبة .

فيظهر من كل هذا ان التكاليف الحكومية التي كانت تؤخذ فوق

الضرائب المقررة لم تكن شديدة ، وان دفع الضرائب لم يكن يحصل

بالاكرام والعنف ، فكانت الدولة تسمي الاشخاص او الجماعات الذين

عليهم ضريبة ، ان يدفعوها اقساطاً ، وفي بعض الحالات كانت الدولة

(١) ابن حوقل المسالك .

(٢) كتاب الام .

تغني من دفع الضريبة الاشخاص الذين يشنون عجزهم عن دفعها ،
والواقع ان نظام الضرائب الذي ورثته الحكومة العربية من
البيزنطيين كان فاسداً ، وكان لشريعه يساعد على رفع الضريبة نفسها
وفقاً للاهواء والميول الشخصية .

وكانت ضريبة الارض تدفع اقساطاً ، واما ضريبة الرؤوس او
الجزية فدفعها واحدة .

ونظام الضرائب منذ عهد عمر بن الخطاب لم يكن واحداً ، وانما كان
نظاماً مختلفاً كل الاختلاف ، وفقاً لمدن والبلاد والجماعات ، وطريقة
استيلائها .

ويظهر انه صار معاملة البلاد التي فتحت سداً كبيراً من البلاد التي
فتحت حرباً مع الايام ، وكان المسيحيون وغير المسلمين في اول الامر
يدفعون الضرائب وحدهم تقريباً - ما عدا ضريبة المشر والركاة التي
كان يدفعها المسلمون - ثم صار الجميع سواء في دفع الضرائب ، وذلك
لما كثرت السامون وفل المسيحيون .

ولكن الاجماع يتفق اليوم بين جميع المؤرخين على ان حالة المسيحيين
في ايام امية كانت حسنة ، نعموا ، الوثائق ، ونعموا بالعدل
والانصاف ، وكانوا احراراً في دينهم وعقائدهم ، ما جرب احد يجبرهم
على الاسلام ، ولا تدخل احد في امور دينهم وحياتهم الخاصة ، واذا
كان عمر بن عبد العزيز قد اشد عليهم قبلاً فامر - حراج المسيحيين من
الوثائق ، وحظر عليهم التمس الاسلامي ، وامرهم ان يرتدوا ذهاباً
خاصاً ، فانه كان يعاملهم كافرين معاملة كاهن وشمس ، وليس
يخبرنا المؤرخون انه امر بعد ان وجد الزيادة عظيمة في واردات مصر
مثلاً ، ان يرد لغير المسلمين ما اخذ منهم من المال ، بعد ان ظهر له ان

والوداد مصر تزيد على مصارفها !!

وليس يرد هذا ان من بعده لم يثأروا ميرته ، فان سياسة الاسلام
نحو غير المسلمين معروفة مقررة ، هي سياسة عدل وانصاف ، لا قهر
ومنفذ ، ولذا كان بعض الخلفاء قد اتبعوا سياسة العنف والقهر نحو
بعض افراد رعيته من غير المسلمين فليس هذا بما يخير الاسلام في كثير
ولا قليل لان هؤلاء الخلفاء فعلوا مثل ذلك مع المسلمين انفسهم وعاملوهم
معاملة قاسية شديدة .



القضاء والتشريع

في الجاهلية

لم يكن للعرب قبل الإسلام تشريع معروف ، وإنما كان لكل قبيلة عرف وعادات وتقاليد تشترك فيها جميعاً ، أو تختلف عنها وفقاً لبعدها عن البداوة وغيرها من العوامل ، وكان القبيلة حاكماً بحكمها بين القبائل ، منهم حسب تقاليدهم وتجاريمهم ، وأولهم كتيب الأدب لوجهه فيها أن العرب كانوا نذرة يدعونهم إلى شيوخ القبيلة ، ويردوهم إلى الكاهن ، وأخرى إلى من يعرف بحودة الرأي وأحوال الحكماء ، وهؤلاء الحكماء لم يكونوا يحكمون بقانون مدون ، ولا فرائض معروفة ، وإنما كانوا يرجعون إلى عرفهم وتقاليدهم التي كانوا يجازيهم ، وأولئك عادتهم ولم يكن هذا القانون الجاهلي المتأسس على العرف والتقاليد مقبوضاً ، ولا المستصحبون ملزمون بالتعدي كما إليه ، والخاضعون لحكمه ، وهم أحرار في التصرف في أنفسهم ، ولا وهم أحرار في قبول الحكم أو رفضه ، ومن رد حكم الحاكم ولم يقطعه فلا جزاء عليه ، لا كثير من أن يجل على غضب القبيلة أو يطرده منها ، والقانون حكم ، ثم تنفيذ هذه الحكم .

ولم يكن عند البدو قضاء ، بمعنى الضعيف ، وإنما هي أحد البدو شخصاً ، قامت عائلته ، أخذ ثأره ، وهذه العادة كانت مألوفة عند كثير من الأمم كما يظهر في العصور الأولى من التاريخ .
وأما إذا اختلف بدوي بتواجبات الاجتماعية كمن سرق ، أو حن أو

اعتُصِبَ حقاً لغيره ، فإن جزاءه يكون طرده من بين أفراد القبيلة ،
واليهودي الذي لا قبيلة له ، يكون في حالة لا نطاق ، فلا يتناصره أحد ،
ولا يؤمنه مؤيد ، وهو عرضة أبداً للاخطار التي يتعرض لها كل فرد في
الصحراء .

والعربي الى ذلك لم يكن بالشخص الذي يضطهد غيره ، والاضطهاد
- بمعناه المعروف عند الروم وغيرهم كاضطهاد اليهود والنصارى والمخالفين
لمذهب الكنيسة الحكومية - وذلك في العصر الذي سبق الاسلام لم
يكن معروفاً عند العرب ، فقد كان يوسع اليهودي او المسيحي ان
يعيش مع العربي الوثني ، ولكن احداً منهما لم يكن يستطيع العيش في
الامبراطورية الرومانية مثلاً ، حتى المسيحي اذا كان مدعياً بخلاف
مذهب الكنيسة الحاكمة .

والواقع انه لم يكن عند العرب قانون وانما كانت هناك تقاليد جرى
الاتفاق على مراعاتها والعمل بها .

وام في مكة فقد كانت طائفة القضاة فيها اكمل واحسن ، وسبب
ذلك ان مكة كانت بلداً متحضراً بالنسبة الى بقية المواطن العربية ،
وكان اهلها قد وزعوا الاعمال الادارية في بلادهم على عشرة رجال من
عشرة اقباض ، كالحجابة والسقاية والروادة والندوة واللواء ، وكان من
هذه الاعمال ما يتعلق بالقضاء ، عهدوا به الى ابي بكر في الجاهلية فقد
ذكروا انه عهد اليه بالديار والمقارم ، وبدلنا على ذلك ايضاً ما وردوا
لنا من اجتماع بعض قبائل غريش على حنف الفضول ، فقد تحالفوا على
الانظام بمكة غريب ، ولا غريب ولا حر ولا عبد الا كانوا معه ، حتى
ياخذوا له بحقه ، ويؤدوا اليه مظلمته ، من انفسهم ومن غيرهم ...

وسبب ذلك في نظرنا ان مكة كانت بلداً مقدساً ، تحج العرب الى

كعبتها من اطراف الجزيرة ، وكانت مركزاً تجارياً خطيراً فاذا
كان من ينزل فيها حاجياً او منجراً يضره وايضاً حقه ، فن الحبيب اليها ،
ونقصت تجارتها ، ومن ذلك رأى اهل ان يكونوا صفاً واحداً على كل
ظلم ، وجبهة واحدة مع كل ظلم حتى نزل حقه .

وكذلك كان التشريع في المدينة قبل الاسلام واقياً رقيقاً نسياً
لاختلاط العرب فيه ، بغيرهم ، ولما حكم به عند اهل الكذب من القواعد
الاجتماعية المقررة .

فما جاء الاسلام اقر بعض التقاليد العربية واكر البعض الآخر ،
وعدل غيرها بحيث تكون موافقة لروحه واهاليه .

عهد رسول الله

اقام رسول الله بمكة ثلاث عشرة سنة ، واقام بالمدينة نحو عشر
سنين ، وفي المدينة نزل التشريع الاسلامي ، وما نزل به القرآن من
آيات واحكام ، وما تحدث به رسول الله الى اصحابه من تفسير فنده
الاحكام .

ولقد نزل القرآن على رسول الله في نحو ثلاث وعشرين سنة . منه
ما نزل بمكة ويبلغ نحو ثلثي القرآن ، ومنه ما نزل بالمدينة ويبلغ نحو
الثلث ، واذا تتبعنا الآيات المكية نجد انها لا تكاد تعرض لشيء من
التشريع في المسائل المدنية والاحوال الشخصية والجنائية ، وانما تقتصر
على بيان اصول الدين والتموية السمة ، كالإيمان بالله ورسوله واليوم
الآخر ، والامر بمكارم الاخلاق كالعدل والاحسان ، والوفاء بالوعد ،
والاحسان بالعمى ، والخوف من الله وحده ، والشكر وتجنب مساويء
الاخلاق ، كالزنا والقتل وراه البتات والتعقيب في السبل والميزان ،

والنهي عن كل ما هو كفر أو ذنب للكفر ، حتى ما شرع في مكة من
عبادات كالصلاة والزكاة لم يكن على التفصيل والبيان الذي عرف بعد
ذلك في المدينة .

أما التشريع في الأمور المدنية من بيع وإجارة ، وديا ، ونحو ذلك ،
والجنابة من فحل وسرق ، والأحوال الشخصية من زواج وطلاق ،
فكل ذلك كان بعد أن هاجر رسول الله إلى المدينة .

وكان التشريع أكثر ما يكون بدسبة حوادث تحدث ، وبينها كم فيها
المتحاصرون إلى رسول الله ، فنزل الآية أو الآيات فاطقة بالحكم ، مثل
ما روي أن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لأن أخ له بينهم ، فلما
بلغ اليتم طلب المال منه ، فقرأه إلى رسول الله فنزلت الآية :
« واثروا إليهم أموالهم » .

وكان الناس في المدينة يسبون فيها لم يرد فيه حكم إسلامي ، على
الأنوف ، دم في الجاهلية حتى يبدله الإسلام أو يقره ، ويمكن القول
أن آيات الأحكام في المدينة كانت نزل حسب تطور جماعة المسلمين
فيها ، وهذا التدرج ومراعاة حال جماعة المسلمين يفسران لنا العلة في
تشريع النسخ الذي يراه في الأحكام الإسلامية الأولى ، لأن الإسلام
دين يسر لا عسر ، فلما أراد الله منع الحرة لم يمنعها دفعة واحدة ، وإنما
منعها أول الأمر منعاً وسطاً عامراً المسلمين أن لا يقربوا الصلاة وهم
مكادى ، ثم صدر الشح البات بعد ذلك ، وبعد أن عبأ المسلمين له ،
واجرام على خطية وسفلى ، لا هي شديدة ولا هي لينتة وعقبة .

وكذلك نرى في الأحكام القرآنية وقد تعرضت إلى جميع ما يصدر
عن الإنسان من أعمال ، أنها لم تتعرض كثيراً للتفصيل الجزئية ، وإنما
تعرضت غالباً للأمور الكلية ، فهي لا تتعرض في الصلاة مثلاً إلى

أوفائها وهيأتها ، وفي الزكاة الى مقدار الواجب فيها ، وأنواع ما يجب ،
وهكذا في بقية الامور الاخرى ، بل ترك ذلك لرسول الله بيينه
بقوله وفعله .

والاسلام الى ذلك فيه تجديد واصلاح كثير في شؤون التشريع ،
ادخل على النظام الجاهلي تغييرات وتعديلات بطول شرحها ، فهي بقا
عدد الزوجات ، ويجعل لتعديدها شروطاً يمتدح بها الانسان المتخلص
الفاضل القيم بها فذلك مغيرة من عامة الناس ، ولو كان الفقه في
الاسلام من ذوي العدل والفضل والعلم ، وكانوا من الذين يأخذون
برأي القرآن لا برأي المظلة والمصلحة ، اكان بعد الزوجات في
الاسلام لا يصار الى إقراره إلا بعد الضرورة القصوى والحاجة الملحة
المشروعة .

ويضع الاسلام كذلك نظاماً ثلاث يتخلف النظام الجاهلي كل
المخالفة ، فقد كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار من ابن
الميت ، وانما يورثون من يلاقي العمى ويقابل في الحروب ، فشرع
الاسلام يورث المرأة ، وكان ذلك شديداً على نفوس العرب ، حتى
راح القرآن يؤكد اعطاء المرأة نصيبها ، ويؤيد في حرثها .

وهناك نوع آخر في التشريع كان في عهد رسول الله ، وهو التشريع
بالسنة ، او التشريع المأخوذ عن احاديث رسول الله وافعاله ، وهذا
التشريع يكتفون تفسير للتشريع القرآني الذي اشره الى انه عرض
الامور الكلية ، وترك التفاصيل لرسول الله يقررها ويبسطها .

وعند الخلفاء الراشدين

فلما اتسعت رفعة الفنون الاسلامية ، وكان عهد الخلفاء الراشدين

والأمويين واجه الخلفاء الأولون امرأة عذراء ، فقد عرضت لهم مسائل جزئية ، وحالات خاصة لم يكن لهم بها عهد سابق ، خصوصاً وإن أحداً لم يدع أن القرآن والسنة الصاعدة نداءً في المسائل الجزئية على كل ما كانت وما عداه ، فنتج من هذا أصل آخر من أصول التفسير ، وهو الرأي الذي انظم به القرآن والسنة وسمي القياس .

وقد جرى على هذا كثير من المعالجة ، فكانوا يستعملون رأيهم حيث لا نص ، واسمعوا رأيهم في مسألة الخلافة ولم يكن فيه نص صحيح ، واسمعوا رأيهم في محاربة المرتدين ولم يحدث مثل هذا في عهد رسول الله ، واسمعوا رأيهم في جمع القرآن ، واسمعوا رأيهم في كثير من المسائل الأخرى ، ومن المفروض في استعمال الرأي طمأناً أن لا يكون الرأي مخالفاً للأدب والعدل والعقل والذوق السليم . ونظرب لذلك مثلاً قصة راومت التي أمر بن الخطاب ، وهي قصة رجل قتلته امرأة ابنه وحبيبته ، فتردد عمر بن الخطاب على قتل الكثير بالواحد ، هل يقتل امرأة وحبيبها ، وقد اشتركا في نفس ؟ فقال له علي بن أبي طالب : - أريد لو أن امرأة اشتركتوا في سرقته ، ذك (أو) دجاجة (فأنفذ هذا عمواً وهذا عصواً) أكنث فاطمهم ؟

قال عمر : نعم .

فقال علي : وكذلك .

فصل عمر برأيه وكتب إلى عمه أن يفعلها ، وفيه اشتراك في نفسه أهل صنعاء كلهم يقتلهم . .

وبما مثل علي في عقوبة شارب الخمر قال : من شرب هذى ، ومن هذى افترى ، فإدى عليه حد افترى - وهو القاذف - ومثل هذا كثير يدل على تفكير ضابط وبعد نظر غريب . . .

اجتهاد عمر

وعمر بن الخطاب كان اجراً الصحابة في هذا الباب ، وهو استعمال الرأي ، وسبب ذلك انه واجه من الامور الحاجة الى التشريع ما لم يواجهه خليفة قبله ولا بعده ، فهو الذي على يده فتحت الفتوح ، ومضت الامصار ، وخضعت الامم المتعددة من فارس والروم لحكم الاسلام ، فكان لعمر من التشريع في المسائل الاقتصادية والمالية والعمرانية ما كان اصلاً للفقهاء من بعده .

وفد سار عمر في اجتهاده الى اوسع مما ذكرنا ، فكان يجتهد في تعرفه المصلحة التي لاجل كانت الآية ، او الحديث ، ثم يستشهد بذلك المصلحة في احكامه ، وهو اقرب شيء الى ما يعبر عنه الآن بالاستقواء بروح القانون لا بحروفه .

مثال ذلك ان رسول الله اعطى المؤلفات فلوهم من الصدقات ، والمؤلفة فلوهم هؤلاء الذين اسلموا بعد مكة من قريش ، فكان رسول الله رغبة منه في استقامتهم بهضمهم من الزكاة ، والزكاة مفروض توزعها على الفقراء والمساكين ، فقد كان عهد ابي بكر جاء بعض المؤلفات فلوهم - وهم من الاغنياء طبعاً - بظليون ارضاً من ابي بكر ، فكتب لهم بها ، وهي ارض المسلمين ، فبعد عمر فزق الكذب ، وقال : ان الله اعز الاسلام واعزى عنكم ، فان ثبتتم اليه ، ولا بيننا وبينكم السيف . فبصرى من هذا ان عمر عطل الدفع الى المؤلفات فلوهم لانه هي المصلحة السياسية في ذلك الوقت ، وقد ارتفعت هذه المصلحة ، بمنزلة الاسلام ، وعدم حاجته الى من تتألف فلوهم لم يستمر في اقرار الحكم . وكذلك ونوي عن عمر انه لم يقطع يد السارق في عام الجماعة ،

وماسب ذلك ان الذين سرفوا انفعوا ذلك لئلا كانوا لاشهوة السرقة...

الاستشارة

وكان الخلفاء الراشدون يحدون الى الاستشارة فيما يعرض عليهم من حدود ما ، فكان ابو بكر ينظر في كذب الله ، فان وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به ، وان لم يكن في كذب الله شيء ، ينظر في سنة الرسول ، فان لم يجد شيئاً سأل اسما من قضى رسول الله بشيء من هذا ، وان اعلم ذلك استشار رؤوس الناس وخيارهم ، فان اجمع عليهم على شيء قضى به ، وكان عمر يفعل مثل ذلك ، وينظر فيما اذا كان ابو بكر قد قضى بشيء من غير ذلك ، ولا يجمع الناس واستشارهم .
وفات الشعبي كانت القضية ترفع الى عمر رضي الله عنه ، فربما يتأمل في ذلك شهراً وسبباً واحداً ، واليوم جعل في المجلس مائة قضية ...

وعلى كل حال من ثمة الراي كان عمر بن الخطاب ، وهذا اقرب الى طريقته في حب الاستشارة ، واشهر من ساد على طريقته عبدالله بن مسعود في العراق ، فكان يمشق مراراً ويحجب برأيه ، وكان لا يخالف في شيء من مبادئه ، بل كان يفتي في كل أعماله وأقواله ، وأظهر فتاوي عمر كبراً لا يشهد الراي حيث لا نص ، وإذا علموا ان عمر اهل العراق كان عن عبدالله بن مسعود ، وان مدرسة العراق اوجبت باني حنيفة ، وأنساب السبب الذي من اجله اشتهرت مدرسة العراق تشهر الراي وأعمال القياس ، بخلاف مدرسة الحجاز التي كانت تأخذ بالحدوث ولا تأخذ بالراي

وهناك مدرسة كانت بين المروستين ، لا تهمل الراي بتاتاً ، وهي

مع ذلك غلبة بالحديث ، ولا تعمل بالرأي الا بشروط ، وعند ما لم
يكن نص في المسألة ، ومن اعلام هذه المدرسة الامام مالك ثم الامام
الشافعي ..

وقد ارتقى البحث في الرأي ونظم ، ووضعت له قواعد وشروط .
وسمي بالقياس ، وحصر الرأي بعد وضع هذه القواعد والنظم في دائرة
ضيقة محدودة .

القضاء في عهد الراشدين والامويين

ولقد رأينا موقف أبي بكر من التفتلات والخصومات تعرض عليه
كيف كان يستشير فيها كبار الصحابة فيها لم يرد به كتاب ولا سنة ،
ولم يؤثر عنه انه عين قاضياً إلا حين كثرت عليه شؤون الامة فعمد
بالشؤون القضائية الى عمر بن الخطاب .

ولما كان عهد عمر جرى في التشريع والقضاء على طريقة أبي بكر ،
وجرى من بعده على غرارها ، حتى كانت الدولة الاموية وانتقل مركز
الخليفة الى دمشق ، وفي عهدها ظهر اثر الامتزاج بين العرب الفاتحين
والامم المفتوحة ، ولكن هذا الامتزاج وما تبعه من اثر الفقه الاسلامي
بالقانون الروماني لم يكن خطيراً في مجال من الاحوال ، ولكن لا
تنكر ان القانون الروماني افاد من ناحية عرض المسائل على الفقهاء
ليبدوا فيها رأيهم حسب القواعد الكلية للتشريعة الاسلامية . ومن الحق
ان مصر والشام كانت تحكمها بحكم رومانية ، لقنونت الروماني ،
فلما جاء الاسلام ودخلت مصر والشام في النظام الجديد ، كانت من
المفروض ان يعرض المحكومون تقاضيه القديم ، واراها حكمهم القديمة
على الاسلام لينظروا ما يقر منها ، وما يرفض ، وما كانت قضاء الاسلام

في الصدر الاول ينعمون بشي . كثير من المرونة والتسامح فيما لم يخرج
عن قواعد الاسلام ، فليس بغريب اذا ان يستمعوا للتخاصمين ، وان
يعرض هؤلاء عليهم النصوص القانونية القديمة ، وان يستمع لها القضاة
بشي . كثير من رحابة الصدر وحسب المعرفة . .

ولم يتم الحلفاء عهد الدولة الاموية بشي . من حثوث التشريع إلا ما كان
من عمر بن عبد العزيز ، والتشريع لم يرق تحت حمايتهم ورعايتهم ، كما كان
الحال في عهد العباسيين ، وانما رقي في المدارس وحلقات الدروس فيها ،
ولم يبذل الامويون محاولة في صيغ تشريعهم صيغة رسمية ، فلا ترى في
الدولة الاموية مثل ابي يوسف في الدولة العباسية بحسب الحلفاء ،
ويؤيدونه في التشريع ، وبوثقون الصلة بيده وبينهم ، وبينه وبين
قضاة الامصار ، ولا ترى من المشوعين من اتصل بالامويين الا الزهري
مثلاً .

وفي هذا العهد - الاموي - لم تكن المذاهب الاربعة قد تكونت ،
وانما كان هناك ائمة كثيرون يجتهدون كالارزامي وغيره . من اندثرت
مذاهبهم ، وبدأ في آخر عهد الدولة الاموية يظهر امامان من الائمة
الاربعة ، الامام ابو حنيفة في العراق ، والامام مالك بن انس في
المدينة . والاول ولد سنة ٨٠ في ولاية عبد الملك بن مروان ، وعاش
نحو ١٨ سنة في ظل الدولة العباسية ، واشتهر بقدرته التشريعية ، وفوة
حجته ، وحسن منطقته ودقته في الاستنتاج ، ومن اجل ذلك عفا امام
اهل الرأي ، ولم يصل الينا شي من تأليفه القانونية ولا ثبت تاريخياً
انه دون مذهبه في كتاب ، انما فعل ذلك ، تليداً من بعده ، ابو
يوسف ومحمد .

وولد الامام مالك سنة ٩٦ للهجرة بالمدينة من اصل عربي ، وها

تعلم وعلم وألف ، واشتهر انه حجة في الحديث ، وبتدريسه بهتاده
على الحديث اكثر من ابي حنيفة ، وتوفي سنة ١٧٩ هجرية ، وخلف لنا
كتاب (الموطأ) وهو كتاب فقه وان ملي ، حديثاً ، ولم يكن غرضه
فيه ان يجمع الاحاديث المعروفة في عهده ، او التي صحب عنده ، وانما
كان غرضه الاتيان بالتشريع مستنداً عليه ، والحديث ، ولذلك نجد فيه
فتاواه الشخصية واداءه في بعض المسائل .

المش

ولم تكن الحاجة تدعو الى تعيين القضاة عند نشوء الدولة الاسلامية ،
فقد كان رسول الله مشرعاً وفاضلاً ، وكان امير المؤمنين يقضي الناس في
عهده ، فلما اتسعت رقعة الخلافة ، وغلب العرب على غيرهم من الامم ،
دعت الحال الى ادخال نظام تشريعي لفض المش كل الذي انتش بين
الاعراد من العرب وغيرهم ، وقضى هذا النظام ان يفتوا بفتاوى
عن الخلقة في فض هذه المش كل ، ووافياً لاحكام الكتاب الكريم
والحديث الشريف (السنة) والقياس بها ثم يرد عليه كذب ولا سنة
ولا اجماع .

وكان القضاء في اول الامر من اختصاص العامل اذا كانت ولاية
عامة ، كان تكون اليه الصلاة والخراج والجند والشرطة والقضاء ،
وكان من مستلزمات القاضي ان يكون رجلاً عفيفاً ورعاً نقياً عالماً
بجهده ، سليماً من العيوب التي تحول دون معرفة الحقيقة كالعمى والصمم ،
لا تأخذه في الله لومة لائم .

اما مسألة اختيار القاضي وتعيينه ، فقد كانت خاضعة لنوع سلطة
العامل او الامير ، فان كانت ولايته عامة ، قام الامير بتعيينه ، وان

كانت خاصة ، كأن يكون عاملاً على الخراج أو على الصلاة فقط ،
فاختياره يكون من قبل الخليفة مباشرة .

وقد دعت سنة التقدم والارتقاء الى اتخاذ الشهود (المخلصين) حين
فشت شهادة الزور ، اذ جرت العادة ان تقبل شهادة من يتقدم لادائها ،
سواء أكان من عرف بالخير أو بالشر ، فقضى النظام الجديد بتعيين شهود
عادل ، عرفوا بحسن السعة والعفة ، فصاروا من هيئة المحكمة يعمل
برأيهم القاضي فيما له علاقة بالتقاضين .

وكان من اختصاصهم أيضاً الشهادة على ما يصدره القاضي من
الاحكام ، وانه غير مخالف لاحكام الشريعة الاسلامية .

وكان سلطة القضاء موزعة بين ثلاثة : القاضي ، والمختب ، وقاضي
المظالم .

والقاضي يفصل في القضايا المرتبطة بالدين بوجه خاص .

وللمختب حق النظر فيما يتعلق بالنظام العام وفي الجنابات احياناً ،
بما يستدعي امر الفصل فيها الى السرعة .

وبفصل قاضي المظالم فيما استعصى من الاحكام على القاضي والمختب
وكان القضاء والحسبة يسندان في بعض الاحيان الى رجل واحد ، مع
ما بين العمليين من التباين ، لان عمل القاضي مبني على التحقيق والافادة
في الحكم ، وعمل المختب مبني على الشدة والسرعة في الفصل .

الحسبة

وكان للمختب النظر في مراعاة احكام الشرع ، والاشراف على
نظام الاسواق ، والحيلولة دون بروز الخواص مما يعوق نظام المرور ،
وكان عليه دفع المخايقة عن الجمهور ، والاشراف على الموازين والمكاييل

وعلى استيفاء الديون ، وكانت سلطته من الانواع بحيث كان له ان يستعين بالشرطة لتنفيذ احكامه وهو يساوق نظام البلديات المعاصرة .

قاضي المظالم

وقاضي المظالم كان ينعم بسلطة قضائية أعلى من سلطة القاضي والمحاسب ، تعرض عليه القضايا التي يميز فيها القاضي عن تنفيذ حكمه في رجل من الاعيان والاشراف ، وقد دعت الحاجة الى انشاء هذه المحكمة لوقف تعدي ذوي الجاه والحسب ، وغداً كان يعد الامر في المظالم الى رجل عظيم القدر ، كثير الودع ، ولم يجلس المظالم احد من الخلفاء الراشدين ، لان الناس كانوا في الصدر الاول ، ولقرب عهدهم من النبوة ، عن المظالم ابعد ، والى الحق والانصاف اقرب واسرع ... وقد احتاج الامام علي نفسه الى الجلوس المظالم ، ولكنه لم يفرد يوماً خاصاً للنظر فيها ، وانما كان اذا جاءه من نظم الحفص ، ثم صار تخصيص يوم معين للنظر في المظالم ، واول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان ، لكنه كان اذا وقف منها على شكل احتاج فيه الى حكم رده الى قاضيه ابن ادريس الازدي ، فكان ابن ادريس المباشر ، وعبد الملك الأمر ، وكانت تنعقد محكمة المظالم تحت رئاسة الخليفة او الوالي او من ينوب عنها .

وكان صاحب المظالم يعين يوماً بقصده فيه المنظفون ، اذا كان من الموظفين لينصرف بقية ايام الاسبوع الى عمله الآخر ، واما اذا كان خاصاً بالمظالم ، فانه كان ينظر في المظالم كل ايام الاسبوع . وكانت محكمة المظالم تنعقد في احد المساجد ، كثيرها من الخواكم التي يعقدها القضاة ، وكان صاحب المظالم يحاط بخمس جماعات مختلفة لا

بمنظم عقد جلسته الا بحضورهم :

- ١ - الخانة والاعوان : وقد اختيروا بحيث يستطعون التغلب على كل من ينجح اى القوة والعنف ، او الفرار من وجه القضاء .
- ٢ - القضاة والحكام : ومهمتهم الاشارة على قاضي النظام باقوم الطرق لرد الحقوق الى اصحاب واعلامه بما يجري بين الخصوم لعرفتهم بشان الامور الخاصة بالمتقاضين .
- ٣ - العقاب : واليه يرجع قاضي النظام فيما اشكل عليه من المسائل الشرعية .
- ٤ - الكتاب : ويقومون بتدوين ما يجري بين الخصوم واثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق .
- ٥ - الشهود : ومهمتهم الشهادة على ان ما اصدره القاضي من الاحكام لا ينافى في الحق والعدل .

احكام قاضي النظام

وكان من اختصاص قاضي النظام النظر في القضايا التي يقيم الافراد والجماعات على الولاء اذا حادوا عن طريق العدل والانصاف ، وعلى الحال الحراج اذا اشتغلوا في جمع الضرائب ، وعلى كتاب الدواوين اذا حادوا عن اثبت اموال المسجلين بنقص او زيادة ، والنظر في نظم المرتبة اذا قصت اوزافها ، او تأخر ميعاد دوما اليهم ، وكان يستعان بشخصية صاحب النظام ونفوذه وميته في التأثير على الخصم حتى يعترف بالحق ، فذا اعترف حكم عليه باعترافه ، وتنفيذ ما يعجز الفضي والمخسب عن تنفيذه من الاحكام ، ومراعاة اقامة العبادات كالجمع والاعباد والحج والجهاد .

وكذلك نرى ما كان لصاحب هذه الوظيفة من النفوذ ، وما كان عليه النظام القضائي في عهد الامويين من الدقة والانتظام والمعنى الى احقاق الحق ، ما كان الى ذلك حيل ، خصوصاً وهذا النظام ليس يختلف كثيراً في غايته وطرفه عن النظام الحاضر .

حرية القضاة

والخلاصة ان الاحكام القضائية في هذا العصر لم تكن على منوال واحد وشريعة واحدة ، لان المجتهدين لم يكونوا على رأي واحد ، ولم تظن الدولة الى ضرورة جمع كلمة المجتهدين على قضاء واحد واحكام واحدة ، فكان القاضي في مصر يحكم في امر واحد بما يختلف مع قاضي العراق في الامر نفسه ، والخلع والامراء وقفوا موقف المنفرج من هذا الامر وتركوا لكل قاض تمام حريته في الحكم بما يراه . وكان بعض القضاة امرع من غيرهم في المحافظة على حقوق الناس والضعفاء من الشعب ، فقد تولى القضاة مراقبة اموال البتامي ، واول قاض نظر فيها عبد الرحمن بن معاوية بن حديج قاضي مصر ، من قبل عبد العزيز بن مروان ، فانه ضمن عريف كل قوم اموال بتامي تلك القبيلة .

وقد رأينا ان قاضي مصر فعل ذلك دون امر الخليفة والامير ، وانما اداه اجتهاده الى ذلك ، وكذلك فعلوا في مسألة الاحباس ، فن توبة بن عمر في زمن هشام بن عبد الملك اول من وضع يده عليها ، وكانت الاحباس هذه في ايدي اهلها او اوصيائهم ، فلما كان توبة قال : ما ارى مرجع هذه الصدقات الا الى الفقراء والمساكين فارى انت اضع يدي عليها حفظاً لها من الصياع والتوارث ، فلم يت توبة حتى صار

الاحباس ديواناً عظيماً وكان ذلك سنة ١١٩٨ للهجرة ، فذلك اول انشاء ديوان الاوقاف بمصر .

وكان اختيار القضاة يرجع غالباً الى امراء الامصار ، فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس ، واحياناً كان الخلفاء يولون القضاء ، واما قاضي القضاة فيختارونه الخليفة وليس له امتياز على غيره . من القضاة ، ولا رأي له في اختيار احد منهم ، ومعنى ذلك انه لم يكن في عهد الامويين قضى للقضاة مثلاً كما هو الحال اليوم ، بل كان كل قاض مستقل عن القاضي الآخر في الولاية الاخرى .

وكانت مرتبات القضاة دهقة ، بحيث تكفيهم ونفيس عنهم ، ونفهمهم عن الرشوة ، فقد كان عبد الرحمن بن بجة يسوق القضاء بمصر ، ومعه القصص ويبت المال ، وكان وزفه في السنة من القضاء مئتي دينار ، ومن القصص مثلاً ، ومن بيت المال مثلاً ، وكان عطائوه مئتي دينار ، وجائزته مائتي دينار ، اي انه كان يأخذ الف دينار في السنة ، وهذا مبلغ لا يتناوله فاضل في كل البلاد الاسلامية ، خصوصاً اذا نظرنا الى مقدرة هذا المبلغ على الشراء في ذلك العصر بحيث يوازي اليوم اكثر من خمسة آلاف دينار . . .

وفران في الكندي امراً يعرف مرتب قاض في عهد مروان الثاني يستدل به على ان رواتب القضاة كانت تصرف مقدماً .

النساء والقضاة

وهناك ظاهرة في الاسلام يجب ان نعرض لها ، مخطورتها وجليل امرها . . . وهي ما ذهب اليه ابو حنيفة وغيره من علماء الصدر الاول في الاسلام من جواز انتخاب النساء للقضاء بين الناس . شرط ان

تكون السيدة منكفة بالقضاء مقبولة الشهادة .

اما ابو جبريل الطبري فيقول : انه يمكن تعيين المرأة للقضاء في كل الاحوال ، وبشرط في القاضي ان يكون بلغ سن الرشد ، سواء اكان رجلاً ام امرأة ، وان يكون عاقلًا ، وان يكون حرًا ، اما العبد فمحروم من القضاء لانه ليس مستقلاً ، واذا تحرر العبد فلا مانع من ان يكون قاضياً .

وفي الوقت نفسه يسمح للعبد بعتطاء الفتاوى اذا كان يستطيع ذلك ، ومعنى الاستطاعة ان يكون عاقلًا في الفقه والتشريع طبعاً .
وكان من الممكن ان يصار الى تعيين القاضي بامر شفهي او خطي ، على انه كان يجب ان يذكر اسم البلد الذي عين للقضاء فيه ، واذا عزل وجب اعلام اهل البلد بخبر عزله ، حتى لا يقضي بين الناس بعد عزله .

الاسلام وحرية الرأي

ولقد وقف المصلحون المسلمون منذ نشوء الاسلام موقفاً متديناً من الذين كانوا يدعون الى الاخذ بالقديم على طول الخط ، لان مثل هذه السياسة تضر بالاسلام وتضع تقدمه وتبسطه وانتشاره خصوصاً بعد تكاثر الفتوح وتبدل الايام . . .

وكانت السنة اضيق من ان تستطيع تسوية كل امر جديد يعرض للمسلمين ، وعندئذ لمصح على المشولين في الاحلام ان يراجعوا هـنـه الحالات الجديدة بشيء من رحابة الصدر ، لان الاسلام دين اليسر لا العسر ، فقام فريق من المصلحين المسلمين يقولون : بان العسل بالجديد مسموح به ، على ان يكون ذلك بواسطة الاجماع . . .
فتقرر مثلاً اعتبار بعض التقاليد التي جرى عليها الناس - ولو

كانت مخالفة للسنة ، او مبهوتة من السنة ، بمعنى ان السنة لم تعرض لها
وتبعضها - امراً مقبولاً مقررأ ..

والاجماع في الواقع اصبح مع الايام قوة ، واصبح سلطان سلطان
اي امر صدر عن السنة .

خذ مثلاً المولد النبوي فان كثيرين من المسلمين كانوا ينكرونه في
الماضي ثم اصبح مع الايام عادة مقبولة معبولا بها ، لا يعترض عليها
احد ، ولا ينكرها انسان . وكذلك الامر في غيره من الاعياد والعادات .

وهناك بدع دخلت في الاسلام ، منها زيارة قبور الصالحين من
المسلمين ، رغبة من الزائرين في استمداد وخام وعطفهم ودعائهم ،
وهذه بدعة مخرقة ، فلانها نوع من الشرك بالله ، وهو امر لا يقره الاسلام
وينكره كل الاسكار .

ورأى العلماء مع الايام انه اذا دعت المصلحة العامة ، الى الاخذ
بالجديد فليس في ذلك خروج على السنة .

ونادى بهذا الرأي مالك بن انس نفسه صاحب المذهب المالكي
فقال : « انه اذا دعت مصلحة المسلمين العامة ، فان وضع الاحكام
وفادأ هذه المصلحة امر مفيد وضروري ولو حائثت هذه الاحكام السنة .
وايد الزرقاني هذا الرأي في تعديله وشروحه على كتاب الموطأ ، فقال
في تعديل الاحكام اذا دعت المصلحة العامة الى هذا التعديل ... (١)
وهذا يدل على رحابة صدر الاسلام واستعداده للسير مع الحضارة ..

(١) الزرقاني في شرح الموطأ ..

مائة سنة من الحضارة الاموية

المراكز الحضارة

فاذا اتعرفت سنة (٧٣٢ م) فتمن امام مائة سنة تقطعت على نشوء الحضارة العربية ، استطاع العرب في اثباتها ان يثبوا دولة قامت في سبيلها وحضرها ، الامبراطورية الرومانية ، وامتدت حدودها من الهند واليمن الى جبال البيروني التي تقطع بين فرنسا واسبانيا ، لا يفصل هذه الامبراطورية بعضها عن بعض بحر ولا نهر ، الا ما كان من هذه الشقة الصغيرة من الماء التي كانت تفصل اسبانيا عن افريقيا والتي يقوم على شفتها الشمالية جبل طارق نسبة لطارق بن زياد القائد العربي الذي اقتحم اسبانيا وضمها الى الامبراطورية العربية

والواقع انه باخلال العرب لسورية وفلسطين والعراق ومصر وفارس ، سيطروا على مراكز جغرافية من الفراز الاول ، كانت مراكز الثقافة العالية في ذلك العهد ، هورت العربي كل هذه الحضارات القديمة التي كانت مزيجاً عجيباً من كل المعارف والعلوم السابقة واخذ يعمل مع اعلم لتكوين حضارة جديدة تكون ابداناً ، واكثر انسانية من الحضارات السابقة

وكان العربي الى هذا عملياً ما كاد ينزل الارض الجديدة حتى اظهر من حسن الاستعداد لمضم الحضارات المختلفة ما لم يكن احد يتوقعه او يظن له

وإذا كان العربي لم يقدم في أول الأمر وفي عهد الخلفاء الراشدين للدين المفتوحة غير دينه ولفقه ، فسيب ذلك أن الزخرف كانت تستغرق كل وقته ، وأن عهد الاستقرار والاعمار لم يكن قد استقر على الوجه الذي يسمع للمفاتيح بالعمل المتبع ...

ولكن ما قدمه لم يكن قليلاً ، وكان إلى هذا شيئاً ضرورياً يجب أن يسبق كل حضارة وعمران ، فهنا الدين المتواضع الذي قرر العلاقات الروحية بين المرء وربه كان ضرورة ملحة ، وهذه اللغة التي كانت وصية جديدة لنشر الثقافات والحضارات القديمة كانت أمراً لا مفر منه ، بين أمر اختلاف لغاتها وتقاليدهم وأديانها اختلافاً كان من العسير توحيدها ، إلا بلغة جديدة تربط علاقاتها بعضهم مع بعض ، وتوحد صفوفها وجهودها للقيام بالأعمال الفخمة الجديدة ...

فإذا كان العهد الأموي ونحن أمام شيء جديد يقدمه العربي للعالم المنحصر وللعشوب المختلفة .

التقسيمات الإدارية في العهد الأموي

وكانت التقسيمات الإدارية للأمويين مماثلة تقريباً للتقسيمات الإدارية في عهد البيزنطيين . فصار تقسيم المملكة كما يلي : ١ - سورية وفلسطين ٢ - الكوفة مع كل العراق ، ٣ - البصرة ومما فارس وسجستان ، وخراسان والبحرين وعمان ، ولا يبعد أن تكون نجد واليهامة قد ضمتا إليها أيضاً ، ٤ - ارمينيا ، ٥ - الحجاز مكة والمدينة وكانتوا يرسلون حاكماً إلى كل بلدة من البلدين ، ٦ - كرمان والبلاد الواقعة على حدود الهند - الهند ، كابول وغيرها ، ٧ - مصر ، ٨ - إفريقية ، ٩ - اليمن وجنوبي بلاد العرب .

ولما صار قطع الاندلس ضمت الى افريقيا .

وكثيراً ما كان يحدث ان تضم منطقة الى اخرى ، كما فعل معاوية لما ضم البصرة والكوفة في ايام زياد حاكم العراق ، وذلك بعد موت المنصور حاكم الكوفة ، وبذلك أصبح العراق كله ادارة واحدة ، وكان يضم اكثر بلاد الفرس ، وشرقي الجزيرة العربية ، وكانت الكوفة العاصمة ، وكان الخان مثل ذلك في ايام الحجاج ...

ثم تولى مع الایام امير العراق يرسل مندوباً عنه الى خراسان وما وراء النهر ، ومركنة في (مرو) وآخر الى الهند والبنجاب . وهذا يعني ضم هذه المناطق الواسعة الى سلطانه . وكذلك صار ضم الحيرة واليمن ووسط بلاد العرب الى ادارة واحدة .

وتمت الجزيرة وهي القسم الشمالي من البلاد الواقعة بين دجلة والفرات الى ارمينيا ، ومعها اذربيجان ، وبعض اقسام من شرقي آسيا الصغرى .

كما ضمت مصر السفلى الى العليا .

وتألفت ولاية افريقية من افريقيا واسبانيا والجزر الواقعة بالقرب منها ، وكان مركزها القيروان . بحيث أصبحت المملكة العربية في فترة من الوقت مؤلفة من خمس ولايات فقط .

الخامسة

وفي وسط دمشق العاصمة ، وعلى مقربة من الجامع الاموي الذي اسبغ عليه الوليد بن عبد الملك كل مظهر الفن المعروف في عهده ، كان يقوم قصر الخليفة ، قصر الحضراء الذي انشأ معاوية ، وكان غاية في

الجمال والجلال ، ازدانت جدرانها بالخيشاء واحمدته بالرخام والذهب ،
وحقوقه بالذهب المرصع بالجواهر ، كما نظف جوده النافورات الجميلة
والنباء الطرية والحدائق الفناء التي امتدت حوله باشجارها الظليلة
الوارفة .

وفي هذا القصر كان يجلس الخليفة للناس ، في وسط القاعة الكبرى
وحوله سادات قريش وأمة ، كل على مراتبهم ، ويقف امامه الشراء
واصحاب الحاجات ، وحول الجميع الحرس وغير الحرس من بطانة
الخليفة ، وفي مثل هذا الجو السابق جلس سليمان بن عبد الملك يستمع
الى موسى بن نصير وطارق بن زياد يقعان عليه فتوح الاندلس
وبعرضان عليه كما عرض على الوليد قبل وفاته ، مثلت الاسرى من ابناء
الاشراف وذوي الشكامة من القوط مكان الاندلس .

وكانت دمشق قبل الفتح المرمر مقر حكام الروم ، فاصبحت عاصمة
الدولة العربية في عهد مروية ، وغدت اكبر مدن الاسلام في ذلك
العصر ، وافضلها في الابه والعمارة ، كما امتازت على غيرها من المدن
بكنوز انهارها وعيونها ولطافة جوها ...

ورد ذكر ياقوت (١) ان دمشق كانت حصينة منبعة ، اقيمت حولها
اسوار قوية بلغ ارتفاعها ثمانية امتار ، وعرضها خمسة عشر قدماً ، وكان
لدمشق خمسة ابواب ، وكان القدام يرى ابوابها العالية من مسافة
بعيدة ، ولما توفي الوليد بن عبد الملك الخلافة حلق دمشق وضواحيها
بالمباني العامة العديدة ، واغرق الوليد في العمارة اغراقاً عظيماً لم يسبقه
خليفة قبله ولا بعده ، حتى ضربت بذلك الامثال ، وكان للناس في عهده
لا يشكلمون بغير العمارة ...

ومن آثار الامويين الخالدة في دمشق بحاري الماء ، وقد بلغ نظام بحاري الماء من الدقة بحيث صار لكل دار في دمشق نافورة خاصة ، وذلك بفضل الاقضية السبع الرئيسية التي سقها الامويون لابعال الماء الى المدينة ، وبواسطة القناطر الكثيرة المنقاة على الاعمدة ، التي شيدوها لماء الشرب الى الدور الخاصة المختلفة .

العملة

وكانت عملة الفرس والرومن ومملكة حمير العربية منتشرة في الحجاز قبل الاسلام ، وقد استعمل الخلفاء الاولون هذه العملة ، وفي بعض الاحيان نقشوا عليها بعض الآيات ، وصار ضرب القديس - بل من العملة الذهبية والفضية قبل عهد عبد الملك بن مروان ، الذي كانت اول من ضرب في دمشق اول دينار اسلامي ، واول درهم فضي ، وذلك سنة ٦٩٥ بـم وقام مثل الخراج في الكوفة .

وكان لكل ولاية - بل عهد عبد الملك - دار ضرب خاصة ، ولك ما تحتاج اليه من العملة ، ولكنهم لم تكن انفي الغرض المطلوب منها بعد اتسع رفعة المملكة ، خصوصاً وان العملة التي كانت تضرب في الامصار المختلفة كانت بعيدة عن الصبط ، كثيرة التزييف .

وما رأى عبد الملك هذا الاضطراب الفظيع في عملة الدولة ، بنى داراً رئيسية لترك العملة في دمشق ، وامر بسحب العملة المنتشرة ، في جميع انحاء الدولة ، وضرب بدلا عملة فضية وذهبية ، وكان يعاقب من تزيف العملة عقاباً صارماً .



البريد

وعرف العرب نظام البريد في الدولة العربية أيام معاوية بن أبي سفيان ، وصار تنظيمه في عهد عبد الملك بن مروان ، وكانت الغاية من استعمال البريد في الدولة العرسية الأسراع في إيصال الأخبار أو الرسائل من الخليفة إلى عماله وبالعكس .

والبريد كان عبارة عن وضع خيل مضطرات في عدة أماكن من الطرق الرئيسية بين العاصمة والولايات المختلفة ، فإذا وصل حامل بريد الخليفة ورسائله إلى عماله في مكان منها ، وعد نائب فرسه ، استبدل به سواه ، وكذلك يفعل في المحطة الأخرى ، والتي بعدها ، حتى يصل إلى المكان الذي يقصده بسرعة . . .

ويرجع هذا النظام إلى أيام أكادمية الفرس وقيام أسرة الروم ، واخذوا معاوية عن الروم ما غرروا في الدولة العربية الناشئة . وكان البريد يستعمل أيضاً لنقل الجنود فكان ينقل من حمص إلى مائة جندي ، وفي عهد يوسف بن عمر حاكم العراق كلف البريد أربعة ملايين درهم ، وكان يصار إلى نقل بعض الأشخاص بالبريد ، كما كان يصار إلى نقل الرسائل الخاصة مقابل مبلغ صغير .

الدواوين

وقد انحصرت الأعمال الإدارية في عهد بني أمية في أربعة دواوين وهي : (ديوان الخراج) ، و (ديوان الرسائل) وكان لصاحبه الإشراف على الولايات والرسائل التي ترد من الولاة) ، و (ديوان الإيرادات المنوعة) ، و (ديوان الخاتم) .

وكان يحسب هذه الدراوين الاربعة مبالغ اخرى ادلى اهمية من
هذه ، منها ما هو خاص بصرف نفقات الشرطة ، او ما هو خاص
بنفقات الجند .

واما ديوان الخاتم فقد انشاء معاوية وهو اكبر دراوين الدولة ،
وكان فيه كتاب يعملون على نسخ اوامر الخليفة وايداعها في الديوان
بعد ان تحزم بخط وتخت - الشمع ، وتختم بخاتم صاحب الديوان نفسه ،
كما هو الحال اليوم في ديوان السجلات في الحكومة امه صرفة .

ويروى السبب في انشاء الديوان ان معاوية اخطأ ورجلاً
على زياد عمه ع في العراق بمائة الف درهم ، فغضب الرجل وقراء
الكتاب ، وكان مفتوحاً لم يفتح ، فبعث اربعة مائتين ، فلما رجع زياد
حدايه الى معاوية اكر الخليفة هذه المبلغ وقال : يا اخي انك لا تعلم
الف ، ثم استعاد المائة الف الواقعة من الرجل ، ويروى ديوان الخاتم ،
فصار ديوان الخاتم مصدر محكومة لا يور احد من اهلها عليه .

على ان حكم الصكوك كان موجوداً حين ذلك ، فقد روي ان رسول
الله لما كتب الى عوف بن امية بن المطلب اخذ خاتماً من اصد وبقط عليه
ابن محمد رسول الله ، وختم به ابو بكر وعمر وعثمان وان سقط من
يد عثمان في بئر اريس . فباع خاتماً آخر على مثله .

وما زال ديوان الخاتم معدوداً من الدراوين الكبرى حتى اواسط
الدولة العباسية ، ثم لم يبق لاجل انه الامراء والوزراء وغيرهم ،
وما اراد الرشيد ان يسنووز جعفر بن يحيى البرمكي مكان اخيه تفصل
قال لا يبيها : يا ابيت اني اردت ان احوط الخاتم من يدي الى سواي ،
فكنى له بالخاتم عن الولاية ، ويبلغ من محبة الخاتم ان كان الوزير اذا
تناوله ليختم به كتاباً ، وفاء تعطيها بالخلافة واجلاً لا لاسم الخليفة .

الكتاب

وفي عهد الامويين تعدد الكتاب بتعدد مصالح الدولة ، فاصبحوا خمسة ، كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضي ، واهم هؤلاء الكتاب في المرتبة كاتب الرسائل ، وكان الخلفاء لا يولون هذا المنصب الا اقرباهم وخاصتهم لخطورته واهميته .

الملاح

واول من اتخذ الخلفاء من الخلفاء معاوية وذلك بعدما حاوله الخوارج الفتك به ، وذلك خوفاً على نفسه من الغدر ، وتلافياً للازدحام على الابواب ، ورغبة من الخليفة في الاحتجاب عن الناس حين يشاء .

والخليفة موظف كبير يشبه كبير الامناء في مصر ، او رئيس التشرفات عند رؤساء الحكومات ، ومهنته احوال الناس على الخليفة وفاقاً لاقدارهم ، ومن رغب الخليفة في الاجتماع به من افراد وعيته ، ولكن الخلفاء كانوا يبيعون الدخول لثلاثة في اي وقت شاؤا ودون ما اذن سابق منهم ، صاحب البريد لخطورة ما يحمل من الرسائل ، وصاحب الطعام مخافة فساد ، والداعي للحلا فانه داعي الله ، وكان هذا امراً مقررأ عند بعضهم دون سواهم . . .

الولاة

واذا كان بنو امية اول عهدهم خصوصاً ايام معاوية وعبد الملك بن

مروان قد احسنوا في اختيار الولاة ، فانت من جاء بعدهم لم يحسنوا في
وجه من الوجوه ، وكانوا كثيراً ما يطلقون يد عمالهم في اعمال المصعب
وابتزاز الاموال ، ثم يحاولون حجبهم على ما تلووا من اموال الامة ،
وقد يعرفون في محاسبة عمالهم حتى الخوف ، بحيث يطلقون منهم اكثر
ما عندهم ، او اكثر مما استلزمه اثناء ولايتهم ، مما كان سيئاً في كثير
من الاضطرابات الداخلية التي وقعت في اخر الدولة الاموية ، لانه قبلة
العامل كانت تغضب لتكبيته وتمديه وقد نشور في بعض الاحيان على
اطليقة انتقاماً للعامل ، واخذاً بثأره ، وقد حدث هذا في اخر
عهد امية .

ويقول السيد امير علي : (١) وان هناك نقصاً قد تطرق الى النظام
الاداري في عهد بني امية وجرت الى اسوأ العواقب فيها بعد ، وذلك انه
كان من المفروض على ولاة الاقاليم الاقامة في حواضر ولاياتهم ، واما
في اخر عهد الامويين فقد اصححت الولايات تسدات في بعض افراد
البيت المالك والى كبار رجال البلاط ، فكانوا يبقون في دمشق
ويعينون من قبلهم رجالا يقومون بحكم الولاية نيابة عنهم .

وكان من اهم افراض هؤلاء الاتراء على حسب بيت المال وارضاء
هؤلاء الولاة بما كانوا يدرون عليهم من الاموال .

وقد تطورت صلاحيات الامراء والحكام بعض التطور ، فكان الامير
في عهد عمر بن الخطاب الذي يفتح القطر ويستولى عليه ، فكان عمرو
بن العاص فاتح مصر حاكمهم ، ويزيد بن ابي سفيان احد القواد في حروب
الشام حاكماً على دمشق ، ثم صار تعيين اخيه معاوية مكانه بعد وفاته ،
وكان الامير طبعاً في اول الامر يقوم بكل وظائف الحكم فهو القائد

(١) تاريخ العرب : السيد امير علي الهندي ..

المعسكري والاداري ، والامام في المسجد والقاضي ، ومدير الشرطة
وغيره ، ثم تبدلت الاحوال في بعض المناطق فاحمل حمزة بن الخطاب
فأخيراً الى دمشق للقاء بين السفين والعلامة بهم ، وعين قضاء المحض
وقسرين والاردن ..

واما في المدينة العاصمة والخليفة نفسه كانه يقضي بالناس وببني
بلس ، اي انه لم يكلف بهذه الواجبات شخصاً آخر ،
فإذا كان عهد عثمان بن عفان وقع الاختلاف بينه وبين عمرو بن العاص
حاكم مصر بسبب ما حاوله الخليفة من تقييده وتضييق صلاحياته ثم عزله
وعين غيره مكانه .

ويظهر ان عمر بن الخطاب عين تمراق امير بن ، الاول للسائل
المعسكري وللنظر في امور الجماعات المحكومة ، والآخر للجماعات العربية
وسار معاوية على سياسة عثمان في التفريق بين الادارة والمسائل
المالية ، وفي التعاضد لقوة الامير او العامل ، فعين جبهة خصوصيين
لوارادات الدولة ، يقومون بدفع المخرجات المقررة للمصر الذي يقبضون
فيه ، ويقبضون الباقي الى بيت المال في دمشق ، الذي كان ينصرف فيه
الخليفة كجائش ، ويريد .

واما في العراق فيقال ان معاوية كان يأخذ من اميره او عامله عليه
مائة مليون درهم في السنة بعد المندوبات ... ومن المؤسف ان
حساب الواردات والتفقات قد ضاعت في عهد امية فلا نعرف عليها
الا القليل ، ولكن الطريقة التي اتبعها معاوية اذا صنعت لبست غريبة
ولا بعيدة الاحتمال ، لان زياداً كان على العراق ، وكان معاوية يشق به
ويحتومه ، فلا يبعد ان يكون قد اتفق معه على هذه النسبة ، وترك ما
فوق ائمة مليون درهم من الواردات ، يقوم زياد بصرفها على الموظفين

الخراج للشؤون المالية ، وكان أحياناً بمثابة الرقيب على أعمال الأمير ، وقد أرسل كثير من هؤلاء الموظفين المخلصين التقارير السياسية إلى دار الخلافة في دمشق يشكون فيها الأمير وينقدون سياسته ، وكانت السلطات في دمشق تسمعهم ، وتأخذ برأيهم ، وهذا ما أدى إلى تنازع السلطة والمنافسة بين الأمير وعامل الخراج ، وهو ما بطل فصر عهد الولاة وعمل الخراج في عهد بني أمية .

وكان ديوان الخراج (المالية) يكتب بالفارسية والرومية إلى عهد عبد الملك بن مروان ، فنقل عنه الملك ديواني فارس والشام إلى العربية ، ثم نقل الوليد ابنه ديوان مصر ، وحار الاستعناء عن السبعين واليهود في الوظائف المالية وغيره إلا إذا دعت الضرورة إلى استخدامهم ، وكان عليهم استعمال اللغة العربية في دواوينهم لا اليونانية أو الفارسية كما كان الحال قبلاً .

وينبغي السيد أمير علي (أ) أن النظام الإداري والسياسي للولايات الإسلامية في عهد الدولة الأموية لم يكن من عمل معاوية - وهذا صحيح - وأن عبد الملك هو المؤسس الحقيقي لهذا النظام ، فهو الذي صبغ الإدارة والمالية بالصبغة العربية ، وبمحو اللغة الدواوين إلى لغة العرب نقض نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب ، بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين العرب ، ونفذ هذه السياسة بشدة وقوة الحاج بن يوسف حاكم العراق .

واما الأمراء الذين كانت إليهم النيابة عامة ، فكانوا يعملون بما يسمى اليوم بالاستقلال الإداري ، فكانوا يتصرفون في كل شيء ، ويعلمون الخليفة فقط بما يقع من الأمور العظيمة ، وأظهر ما كان هذا الاستقلال في العراق في عهد زياد وابنه عبيد الله والحجاج ، وعمر بن

هيرة وخالد بن عبد الله الفسري ، إلا أن الحجاج كان أكثرهم استقلالاً
لثقة التي حازها عند عبد الملك وابنه الوليد .

وكانت المشاكل تحمل والمنازعات تقضى في حواضر الامارات ، إلا
أنه لا مانع يمنع ذا ظلامة من أن يرفع امره إلى الخليفة إذا شاء ...
وقد ضيق عمر بن عبد العزيز على الامراء لأن ثقته بهم كانت قليلة ،
وحتم عليهم أن لا ينفذوا حداً من الحدود من قتل أو قطع إلا إذا عرض
عليه وافره ، أما في عهد غيره فكان الامراء يفعلون ما فوق ذلك من
غير أن يعلم الخليفة بما يفعلون ، فكان احدهم يأمر بقتل الرجل على
إسار الذنوب ، ويضربه الضرب المبرح ، لا يجه شكاه إلى الخليفة أو
عقب عليه الناس .

والذي دعى إلى قمع الامراء بهذا الاستقلال صغرة المواصلات بين
حاضرة الخلافة دمشق ، وبين حواضر الولايات ، فلو الزم الامير
الاستشارة في كل ما يقع في دائرته ولايته ، اطال عليه الزمن ، وبقيت
المشاكل من غير حل ، زمناً طويلاً ، وهذا ما يدعو إلى اضطراب
الادارة .

ومن اعظم ما يؤخذ على بني أمية في النصف الثاني من أيام خلافتهم
اذلائهم الامراء ، وصادرتهم في امراءهم ، واحياناً قتلهم ، بعد عزلهم ،
وقد ابتدأ هذه السنة سليمان بن عبد الملك ، فأذل آل الحجاج ومن
كانوا يلوذون به ، وفعل مثل ذلك بكثير من قواد عصره وعظما
زمانه ، ككوس بن نصير فاتح الاندلس ، وقتيبة بن مسلم فاتح الصين ،
ومحمد بن القاسم فاتح الهند ، واستمر الامر على هذا الحال بعد عهد عمر
بن عبد العزيز ، فكان هذا من الاحباب التي دعت إلى انهيار أمية
وسقوطها ...

ومن الحرب ، احدث ان يوسف بن عمر الثقفي الذي ولي العراق
بعد خالد بن عبد الله القسري استنوى من الوليد بن يزيد خالداً وعماله
بمئتين الف الف ، فدفع الوليد خالداً اليه ، فتزع عنه ثيابه واليه
عبادة وحمه على حمل بغير وجه ، وعدبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه كلمة ،
ثم حمل الى الكوفة فعذب وقتل ودفعه بصاعته ، وكان خالد حاكم العراق
قبله خمس عشرة سنة ، وهو بعد جريح من سادات اليمن ، ففضبت اليمن
لموته ، وثاروا على امره بعده لأجله .

الشرطة عند العرب

والشرطة جماعة من الجند كان يعاهد عليهم الخليفة او الامير لحفظ
الامن والنظام ، والقبض على الخلفاء والمفسدين وما الى ذلك من الاموال
الادارية ، التي تكن الامن العام في الولاية والمدن المختلفة .

والاول من هم باقوا في البلاط لمحافظة على الامن ، وتبسط اهل
الربيع عند امه بن مسمود ، وهو اول من عس الليل في الاسلام ، امره
بذلك ابو بكر الخليفة الاول ليصوب بالليل في المدينة لمحافظة منه على
الامن ، واعتقماً بمصالح الرعية .

ويظهر ان نظام هذه الوظيفة كان كنظام البوليس والحفر ، وليس
كالبوليس السري والتجري ، فقد روي ابو داود عن الامام عن زيد
قال : اتي عبد الله بن مسمود فقبل له : هذا فلان تقطر لحته خمرآ ...
فقال ابو مسمود : انه قد نهيت عن الخبث ، ولكن ان يظهر لنا شيء
رأخذ به .

وذكر الثعلبي هذه الرواية بشكل آخر فقد روي انه قيل لابن
مسمود : هل لك في الوليد بن عقبة تقطر لحته خمرآ ؟

فقال : انما قد نهيت عن التخصس فان ظهر لنا شيء ، نأخذ به .
 وكان الخليفة عمر يشكك في خلافة العيص بن عبد الله ، ومعه مولاة
 (اسم) ، وكانت ربة السحاب مع عبد الرحمن بن عوف ، وفي عهد علي
 نظمت الشرطة واحداً على رتبة صاحب الشرطة ، وكان يشار الى
 اختياره من عليّة القوم ومن اصحاب الشدة والبأس .

وفي عهد معاوية استحدثت وظيفة (صاحب الشرطة) وهو المكلف
 بالمحافظة على راحة اهل المدن والسياسة على الامن العام ، وكان نصير
 (والد موسى بن نصير) فاضح الاندلس صاحب الشرطة في عهد معاوية .
 وكان زياد بن ابيه حاكم العراق اول من اتحد العيس وسيره بين
 يديه بالاصحاح والخراب ، فمشت بين يديه حامية المدن بالامانة وغيرها ،
 وهو اول من اتحد على اهل السوق اجراً لشارقات العيس ، وهذا
 قرب الى نظام الحراسة اليوم .

وكان من آداب الشرطة في ايامه ان لا يتكلموا او يرددوا اصواتهم
 اذا ساروا بين يديه .

قال الجاحظ : كان على شرطة زياد ، عبد الله بن الحبيب والجعد بن
 عيس النخعي ، وكانا يذهبان مجلس صاحب الشرطة ، فاذا كان يوم
 حمل الخربة سارا بين يديه معاً ، فيجري بينهما كلام ، وهما يسيران بين
 يديه ، فكان صوت الجعد ارفع ، وصوت عبد الله اخفض ، فقال زياد
 لصاحب حريته :

— قال اول الخربة من يد الجعد ، ومرة بالانصراف الى منزله .

ذلك لانه سمع صوت الجعد دون صوت عبد الله ، والا لكان الخفة
 به ... وقد توسعوا في وظيفة الشرطة ، فاضيف اليها تنفيذ احكام القضاة
 وفرض العقوبات الزاجرة ، واقامة التأديب في حق من لم ينته عن

الجرية ، فكانت الشرطة خاضعة للقضاء ، تساعد القاضي في اثبات
الذنب على مرتكبه ، وتساعد الحكومة على تنفيذ الاحكام ، ويتولى
صاحبها ايضاً اقامة الحدود على الزنا ، وشرب المسكرات ، وعلى كثير
من الامور الشرعية .

وكانت الشرطة تابعة للقضاء اول الامر ، يقوم موظفوها على تنفيذ
الاحكام القضائية ، ويتولى صاحبها اقامة الحدود ، ولكنها لم تلبث ان
انفصلت عن القضاء ، واصبح صاحب الشرطة مستقلاً لتنظر في
الجرائم ...

واما في عهد عبد الملك بن مروان فقد كان مدير شرطته في اول
الامر روح بن زبابع ، فلما كان عبد الملك في طريقه الى العراق لمحاربة
مصعب بن الزبير اوجس شراً ، واه من الخلال عسكره ، وان الناس لا
يرحلون برحيله ولا يتزلون بنزوله مشكاً ذلك الى روح فقال له :

- ان في شرطتي رجلاً لو قلده امير المؤمنين امر عسكره لأوحل
الناس برحيله ، واتزمم بنزوله يقال له الطحاج بن يوسف .
فقال عبد الملك : فانا اقلده ذلك .

واذاً فقد كان الطحاج في اول امره موظفاً في شرطة روح بن
زبابع ثم اصبح مديراً للشرطة العسكرية ثم حاكماً للعراق .

وقد ادخل هشام بن عبد الملك نظام (الاحداث) وكان يقوم
صاحبه بالاعمال العسكرية التي تعتبر مسطراً بين اعمال صاحب الشرطة
وغاثة الجيش .

الطراز

وما ادخله الامويون في الدولة الاسلامية (الطراز) وهو قديم كان

يجري استعماله عند الاكسرة والقاهرة ، والطراز انت يوسم الملوك
والخلفاء اسماءهم او اشارات تختص بهم في طراز اتواهم الممعة لباسهم من
الحرير والديباغ وغيرهما وهي عبارة عن كتابة خطت في نسج الثوب يخط
من الذهب ، او بخلاف لون الثوب من الحرير المنون ، فلما استقرت
الدولة الاموية اخذوا الطراز عن الروم والفرس ، ولم يستعملوا اتخاذ
العمود على اتواهم كما كان يفعل الفرس والروم ، فاستعاضوا عنها
بكتابة اسمائهم وكمات اخرى تجري مجرى الفل والديباغ .

واول من نقل الطراز الى العربية عبد الملك بن مروان ، وكان
من قبله من الامويين يستعملون الطراز وعليه الكتابات الرومية ، وكان
الامويون يستعملون الطراز بالعربية على اتواهم وسنور منازلهم ،
وقراطينهم ، والقراطين برد مصرية كانوا يحملون بها الآبسة
والثياب ، ثم جعلوا الطراز على ملابس اجنادهم ، ورحلات دولتهم ،
يكتبون عليه شارة الخلافة ، وهي اسم الخليفة او لقبه او نحو ذلك .
وبقاء هذا الطراز على شارات الدولة ، وبنودها وكماتها يدل على
بقاء سلطانها ، فاذا اراد احد الولاة الخروج من طاعة الخليفة قطع
اعطية له ، واسمعه من الطراز .

وانشا الخلفاء للطراز دوراً في قصورهم ، لفسح اتواهم وعليها تلك
الشارة ، وكان القدر على النظر فيها يسمى (صاحب الطراز) ينظر في
امور الصباغ والحاكة ، ويجري عليهم اوراقهم ويشرف على اعمالهم ،
وبلغت هذه الدور اوج عظمتها في ايام الدولتين الاموية والعباسية .

التدوين في الاسلام

ومن المؤكد اليوم ان التدوين بدأ في ايام الراشدين منذ كتب

القرآن في المصاحف في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، ولو لم يكن هناك كتب مدونة وجمعت في القرن الأول ، ما كان خالد بن يزيد بن معاوية حكيم الأمويين يحرص على نقل بعض المعلوم من السريانية واليونانية إلى العربية على ما أثبت ذلك التقارب المحققون ، وذلك حوالي منتصف القرن الأول الهجري .

وزيد بالتدوين تدوين الآثار الأدبية أو العلمية ، لا تأليف الكتب وروايتها ، لأن أول من صنف عبد الثالث بن جريج البحرى المتوفى سنة ١٥٥ ، أو أبو النصر سعيد بن أبي عمرو سنة ١٥٦ ، أو ربيع بن صبيح سنة ١٦٠ ، وهم جميعاً من أهل القرن الثاني ، ولكن التدوين كان في القرون الأولى وأما التأليف فلا .

وبدأ التدوين فعلاً في عهد معاوية كما يظهر ، فقد كان معاوية يحب القصص التاريخية ورواية الشعر ، وكانوا يحملون إليه رواة الأخبار والاستمار ، ليقصوا عليه أخبار الفاتحات من الأيام .

واقعد ثبت على ما روى صاحب الفهرست أن سعيد بن ثرية الجرهمي وفد على معاوية ابن أبي سفيان في الشام ، فأنشد عن أخبار الأقدمين وملوك العرب والعجم وجده إلى ما أمر ، فأمر معاوية أن يردون وينسب إلى سعيد ، ولعبيد عدة كتب ذكرت في الفهرست كتاريخ ملوك اليمن ، وبقي عند جبا إلى أيام عبد الملك بن مروان فثبت بذلك أن التدوين حدث في أوائل القرن الأول أي في عصر الأمويين ، فقد ذكر بعض الحفاظ أن زيد بن ثابت ألف كتاباً في علم الفرائض وذكر البخاري أن عبيد الله بن عمر كان يكتب الحديث ، وذكر مسلم في صحيحه كتاباً ألف في عهد ابن عباس في قضاء علي ، وقد ذكر المؤرخون أنه وجد في خزنة الأمير عدة كتب بخطوط بعض الصحابة

والتابعين بل ووجد كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة
كتب قبل الاسلام ..

واذا فليس هناك مانع كان يمنع الكتاب في هذا العصر من تدوين
الشعر الجاهلي واخبار العرب قبل الاسلام ، خصوصاً وان مدائن مصر
والشام والمراق وفارس التي فتحت في القرن الاول كانت حافلة
بالكتب والمكان الخاصة والعامة ، وصناعة الكتب كانت معروفة
عندهم ويطلب على ظننا ان كتب في المائة الثانية من الهجرة اما هو
مقول عن ما دونت في المائة الاولى من الاخبار والاشعار والتاريخ
وغيرها .

ولقد نشره كرايسكو ، من علماء المشرقيات في انكثوا اخبار عبيد
بن شربة الطرمي في اخبار اليمن والاشعار واساطير وطبع في حيدر اباد
الدكن في الهند ، وما جاء فيها يؤيد رواية ابن السديم في الفهرست
ونحن نقل عنها ما يلي :

« ان معاوية امر كتابه ان يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شربة في
كل مجلس يتر فيه مع معاوية ، وقد ذكر عبيد في حضرة الخليفة
معاوية اخبار عاد وثمود وجرم وخرمهم من اليمن الى الحرم ، وغير
ذلك وكابها مشغوعة بشعارهم ، وكان معاوية يطلب الى راويته المرة بعد
المرة ان يسعه ما قبل في كل حادثة من الاشعار وما قاله :

« وقد علمت ان الشعر ديوان العرب ، والدليل على احاديثها وافعالها
والطائر بينهم في الجاهلية ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول « ان من الشعر لحكما » .

وكان معاوية معجباً جداً بما سمع من عبيد بن شربة ، وقال له مرة :
— خليك يا عبيد ان يكون هكذا ، فزادك الله علماً وفيها ، وزادنا

بك رغبة وعليك حرصاً ، فانا لا نحصى اباديك فزادك الله فضلاً الى فضل
وهدى الى هدى ... »

والواقع ان كتاب اخبار عبيد بن شربة الجرمي في اخبار
اليمن من اوائل ما دون في الاسلام وبه ثبت ان المسلمين درنوا في زمن
اسبق بكثير مما دون المصنفون والمؤلفون ، ولذلك حفظت السنة
والاخبار والاشعار وغيرها .

وكان واثقه بن الاسقع يثني على الناس الاحاديث وهم يكتبونها بين
يديه ويتخذ مسلياً محصلاً متيقظاً يبلغ عنه اكثر الجمع على عادة
الحفاظ ، خصوصاً اذا كان الجمع عظيم ولا يصل صوت التكلم او
المتحدث اليهم ، وروي مثل ذلك عن ابن عباس .

وكان واثقه من الصحابة وقد مات رسولاً انه خرج الى الشام ومات
حوالي سنة ٨٣ من الهجرة .

وفي المصادر الموثوقة ان رسول الله قال في عام الفتح : « اكتبوا
لابي شاه ، وابوشاه ، وكان من الصحابة ، وهو يريد الاحتفاظ بخطب
الرسول وهذا دليل على كثرة العلم في عهد الرسول نفسه .

« صح عن عبيد الله بن عمر بن الخطاب انه كان يكتب حديث
رسول الله ، وكان مما كتبه صحيفة تسمى : الصادقة ، وهي التي رواها
حفيدة عمرو بن شعيب عن ابيه عنه ، وهي من اصح الاحاديث .

وعن هشام بن عروة عن ابيه ، انه احترق كتبه يوم الحرة في
عهد يزيد وكان يقول : لو ان عندي كتي بهلي ومالي .

ليال الحيفة في دمشق

وكما استمع معاوية الى احاديث التاريخ والادب والشعر في ليالي

دمشق استمع الى ذلك بقية الخلفاء من امية ، وفي اواخر عهد الامويين اخذ الخلفاء لا يرون كبير امر في الاستماع الى الثغنين والمطربين والموسيقين ولما كان من عادة الخليفة خطبة الناس يوم الجمعة ، فان بعض خلفاء امية في اواخر ايامهم لم يأخذوا بهذه العادة ، واخذوا يكلفون غيرهم القيام بها .

وبما لا شك فيه ان استماع الخلفاء الى الغناء والموسيقى ساعد على تقدم هذين الفنون في عهد امية بحيث اصبحت دمشق في ذلك العهد مستودعاً ليعت العلوم والفنون وتنشيطها في مختلف الامصار العربية . وكانت دمشق سنة ٧١٠ ميلادية تعد مائة وعشرين ألفاً من السكان ، وكانت الامبراطورية البيزنطية تقدم اليها الكماليات من الحاجات ، ومكة المغنين والموسيقين ، والبصرة والكوفة آثار العقل .

ولما انهارت امية سقطت دمشق عن مكانتها التاريخية ، حتى قبور خلفائها انبثت ودمرت ، ولا يعرف مكان قبر من قبور خلفائهم الا كبارها على وجه التحقيق ، الا قبر عائشة بنت معاوية .

وفكر امتوكل في عهد العباسيين في سكنى دمشق ، ولكن اقليمها لم يوافق صحته فعاد الى العراق ، واهبطت دمشق بعد ذلك مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية العباسية يرسل اليها الخليفة والياً من قبله من وقت الى آخر ...

ولما استولى الفاطميون على مصر ، دخلت دمشق تحت حكم الفاطميين ثم تحت حكم السلاجقة ، ثم تداول حكمها غيرهم من الامراء والدول الصغيرة ثم عادت الى بلاط مصر ، ثم نزلت تحت حكم بني عثمان ، وهي اليوم تعود الى استقلالها ، وتعمل لاعادة مجدها الماضية ، وتاريخها الضخم السالف ...

طبقة الاجتماعية

وكان السكان في العهد الأموي ينقسمون إلى أربعة أقسام: العرب، والموالي، وأهل الذمة، والأرقاء، والعبيد...

وكان العرب قبل الإسلام وفي عهد الخلفاء الراشدين طبقة واحدة، وسبب ذلك أن العرب يتعصب وحفظ لانتماء ظلت مستقلة بالنسبة وعادات وآداب، وكانت الأموات في الجيرة من الضعف بحيث أن أحداً من العرب لم يفكر بها، أو يختلط معها.

فلما كان عهد الخلفاء الراشدين خلقت طبقة جديدة هي طبقة الموالي ثم أهل الذمة، ثم لما تكاثرت الفتن ظهرت طبقة رابعة هي طبقة الأرقاء والعبيد.

وفي عهد أمية والخلفاء الراشدين كان العرب لا يزالون على أعصم لانتماءهم وكرههم للاختلاط بسواهم، وكانت الهيئة الاجتماعية إلى ذلك في بدء انتقالها من حاضن الفتنة في عصر الروم والفرس إلى العصر الإسلامي...

وكان القسم الأول وهو العرب ينأى من الخليفة وأهله، وأشرف العرب القاطنين والعرب الباقين على وجه الأعمال، وليس من المعروف عدد العرب في هذه الفترة من الزمن، ولكننا نعلم مثلاً أن الذين كانوا يأخذون العطاء في دمشق عهد الوليد كانوا لا يقلون عن خمسة وأربعين ألفاً، وفي عهد مروان كان عدد الذين يأخذون العطاء في حمص وما حولها ٣٠ ألفاً، وفي العراق كان عدد العرب لا يقل عن نصف مليون، وكان سكانه في عهد الأمويين لا يقلون عن مليونين على قول فرن كرم، وأما في مصر فليس يعرف عدد العرب، وكذلك الحال في فلسطين

وخراسان وغيرها من الامصار عدا الجزيرة العربية ، ولكن الشيء
الثابت ان العرب في هذه الفترة من الزمن لم يكتسبوا يقنون عن غلبة
ملايين من الانفس ، وهذا الرافد طبعاً يتناول العرب الاصليين في اواخر
عهد امية .

مسألة الموالي

وكان العرب ينظرون الى الموالي الذين اعتنقوا الاسلام وهم من
غير العرب ، ثم تعربوا مع الابهام ، نظرة خاصة ويعتبرونهم اقل منهم
مركزاً ومقاماً ، ولكن المؤكد ان العلماء من الموالي كان لهم مقام
عظيم ، خصوصاً والاسلام قد سوى بين الناس وهذا : لا فضل لعربي
على عجمي الا بالتقوى .

واما ما ذهب اليه بعض المؤرخين من ان الموالي كانوا يعاملون
معاملة العبيد في عصر بني امية ، فنقول مردود لا يستند الى تاريخ ولا
الى سند صحيح .

والواقع ان البلاد التي كانت عواصر الاقاليم وفواعدها في عصر
بني امية ، هي مكة والمدينة والبصرة والكوفة واليمن ومصر والشام
والجزيرة وخراسان ، وكان لكل صقع من هذه الاصقاع امام يقودهم
ويسود عليهم وهذه استنوزهم :

كان امام مكة عطاء بن ابي رباح اسناد ابي حنيفة .

وكان د اليمن طارس

و د الشام مكحول

و د مصر يزيد بن ابي حبيب

و د الجزيرة ميمون بن مهران

و « خرمسان ضحاك بن مزاحم

و « البصرة الامام الحسن البحري

و « الكوفة ابراهيم النحوي

وكل هؤلاء إلا ابراهيم النخعي من الموالي ، وبعضهم من أبناء
الأمم ، ومع ذلك فقد كانوا قادة الناس وقادتهم ، اذ عينهم الجميع
واخذوا بهم ، واخذوا عنهم

فاما (عطاء بن ابي رباح) فكان شيخ الحرم والبصرة المرجع في
الفنوى ، وعليه المعول في المسائل ، قال ابن خلكان في ترجمته :

« قال ابراهيم بن عمرو بن كيسان : اذكروهم في زمان بني امية
بأمروهم في الحج صائحاً بصحيح ، لا يقضى الناس إلا بعطاء بن ابي رباح ،
وهل يمكن ان ينادى بشئ ذلك وفي الحج ينفضيل احد الموالى على
غيره من جميع الناس ، وولاية الامر في مكة كانوا هم ؟ »

واما (طاوس) فلما قضى نحبه شكة ازدهم الناس في جنازته حتى
تعدت الصلاة عليه ، وكان ابراهيم بن هشام اذ ذاك والياً على مكة
فاستعان بالشرطة ، ومشى في جنازته عبد الله بن الحسن حفيد رسول الله
فهل بعد هذا من عز ومجد ؟

وكذلك كان شأن بقية الموالي من العلماء والفقهاء ، وهذا سميد بن
جبير وهو من الموالي اسود الوجه ، بوليه الخوارج العربي امامة الصلاة
في الكوفة ، والكوفة عربية باكثرية ، فهل يقال بعد ذلك ان الموالي
كانوا يعاملون معاملة سيئة ؟

وكان القسم الثالث مؤلفاً من اهل المذمة ، وهم من المسيحيين واليهود
وغيرهم من اهل الكذب الذين كانوا يدفعون الجزية ، وكانوا احراداً
في دينهم وتشريعهم الديني ، وكان هم قضة منهم ، ويتقدم القنوج

الإسلامية قال هذا الحق الوثنيون أيضاً من الذين كانوا يسكنون حول الحدود الهندية والصينية من عباد بودا وكونفوشيوس ، ويعتق الفرس من اتباع زورسترا .

العبيد

وكان العبيد في الدرجة الرابعة من الغيبة الاجتماعية عهد الامويين . وإذا كان الاسلام لم يقرر إلغاء الرقيق إلغاء تاماً فإنه أضعفه كلى الضعف ، وجعل تحرير الرقيق من أعظم ما يتقرب به العبيد إلى ربه ، كما فرض على المسلم معاملة الرقيق بالحنس والرحمة . .

والواقع أن العامة من أهل البلاد التي فتحتها العرب كانوا يشنون نحت نير الاستعباد قبل الفتح وبعضهم كانوا أرقاء عملاء ولاسيما خدمة المزارع أو (الأقنان) الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك إلى مالك ، هؤلاء جاءهم الاسلام رحمة لأنهم تحولوا من الرق إلى الحرية . أو إلى العهد ، فمن أسلم صار حراً ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن ظل على دينه دخل في دمة المسلمين يدافعون عنه ما أدى الجزية إلا من حاربهم وأسروهم ، فهو ملك لهم يتصرفون به كيف شاؤوا ، ومن المعلوم أن الذين حاربوا المسلمين في صدر الاسلام كانوا من حامية البلاد ، وهم الجنود من الروم أو الفرس ، أي من غير العامة أهل البلاد المنظومين ، بحيث أن الاسلام قلب الحياة الاجتماعية التي كانت قبل عهد راساً على عقب ، فحرر العبيد ، واستعبد من كان يستعبدهم .

نكاثرة الآلة ، والأمري

ونكاثرة الأمري في عهد الفتوح حتى أصبحوا يعدون بالآلاف .

وبلغت غنائم موسى بن نصير حنة ٩١ هجرية في أفريقية ٣٠٠٠٠٠
 رأس من السبي ، فبعث نحوها إلى الوليد بن عبد الملك ، ولم يسمع بسبي
 اعظم من هذا ، وذكروا أنه موسى لما عاد من الأندلس كان معه
 ٣٠٠٠٠٠ بكر من بنات اشراف القوط واعيانهم ، وقس على هذا غنائم
 قتيبة في بلاد الترك ، وغنائم محمد بن القاسم في بلاد الهند .

فهؤلاء الامرى كانوا يوزعون على الخاربين ويرسل الخس منهم إلى
 الخليفة في دمشق ، وإذا كان عدد الاسرى عظيماً كانت حصص الخارب
 اسلم عظيمة حتى لقد كان يضطر بعض الخاربين إلى بيع اسراهم
 بدراهم معدودات للاسير الواحد ، خصوصاً إذا لم يكن عند الخارب
 مزرعة يرسل اليها الاسير ليعمل فيها ، وإذا لم يكن عنده عمل واسع
 يستغله فيه ، اذ يصبح الاسير والحالة هذه عالة عظيمة ، ومضروفاً
 كبيراً ...

ولم يكن التصرف بالاسرى على الوجه الذي اشرنا اليه خاصاً
 بالمسلمين بل كان عادة درجت عليها الامم التي سبقت الاسلام ، وكان
 من يقع اسيراً من المسلمين في ايدي الاعداء يصبح رفيقاً حتى يقتنيه
 المملوك ، وكان للوافد عناية في فكك الاسرى يذلون في حيل ذلك
 المال او يبادلون به اسراهم اخرى عندهم ، وقد وقع كثير من هذا في
 عصر الامويين ولكن العدد كان قليلاً لا عظيماً ...

اما الروم فلما كانوا يقتنمون اسراهم يذل ، وسبب ذلك ان
 اسرى الروم يكونون في الغالب لقبساً من رعاياهم او من الجنود
 المستأجرة ، وليس من الروم انفسهم ، اما المسلمون فهم غالباً المهاجرون
 فاذا ظفروا كانت غنائمهم من هذا النوع من الاسرى ، وإذا غلبوا
 فمن وقع في الاسر منهم كان من الخاربين الذين يستحقون الفداء ،

والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ كانت أشد وثوقاً منها بين الروم
ووعداهم واجزاءهم .

وما زاد عدد الأسرى وكثرت الفتوحات زاد الرقيق بين المسلمين
كما قدمنا ، فكان يوجد عند الواحد العشرة ، أو المئة أو الألف ، حتى
الفقراء من عامة الناس كان أحدهم لا ينجو من عيد أو أكثر يخدمونه ،
لرخص الرقيق كما قدمنا ، وانظر إلى الخاربين إلى بيع ما عندهم بعدة
دراهم ، وكان الأمير في الدولة الأموية إذا سار مشى في ركابه مائة
عبد أو بضع مئات أو ألف عبد ، وبلغ عدد عتق رافع بن هرثة وإلى
خراسان سنة ٣٧٩ هـ أي في عهد العباسيين أربعة آلاف عبد ولم يهلك
أحد من وفاة خراسان قبله مثله ، وكان بعض المسلمين في معركة حنين
يملك عشرة من العبيد يقومون على خدمته .

وكان الأرقاء يختلفون في أشكالهم وألوانهم ، فبعضهم كانت أسود
اللون وهو من سكان أفريقيا ، وأما عبيد فرغانة والصين وتركستان
وكانوا أصفر الألوان ، وكان من يرقى بهم من الشرق الأدنى أو شرقي
وجنوبي أوروبا ، بيضاً .

وكانوا يسمون العبيد الأسيان الصقلية ، وكان ثمن الواحد منهم
القب دينار ، وأما العبيد الترك فكانوا يكلفون سنهته دينار الواحد ،
وارتفعت أسعار العبيد بعد وقف الفتوحات ، واستمر هذه الموجة الجارفة
من العبيد والأسرى ...

وكان الشرع الإسلامي يعتبر الولد المولود من عبد وعبدية عبداً
أيضاً ، مثل أبويه ، وأما الولد من عبد أسود وأم حرة فهو ...
وكانوا إذا تكاثروا الأرقاء عند أحدهم ، وأراد استخدامهم في منزله
جعل عليهم نقيباً يتولى النظر في شؤونهم يسونه الأسوة ، أو يستخدمهم

للحرب والمداخلة عنه ، وكان يفعل ذلك الأمراء وأهل البلاد ، وكانت
تجارة العبيد تجارة رابحة في هذا العهد ، وكانت في أوروبا أكثر منها في
البلاد العربية ، ولم يكن كل العبيد من الأسرى ، وإنما كان بينهم من
صار شراؤه للتجارة وغيرها .

الحصان في عهد أمية

والحصان ليس عادة عربية وإنما هي شرقية على ما يظهر لأنها كانت
شائعة فصيلاً بين الآشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها
عندهم اليونانيون ثم انتقلت إلى الرومان فالأفريق .
وللحصان أغراض أشهر : استخدام الحصان في دور النساء وغيره
عليهن ، وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية فاتخذ منهم حاجباً لديوانه
اسمه قنق ، وأقصدى به غيره ، وشاعت عادة استخدام الحصان في
أواخر عهد بني أمية مع أن الإسلام يحرم الحصان تحريماً تاماً .

الحلبة والصلاة

وكانت لاختلاط العرب بالروم وغيرهم من الأمم الأخرى الآثار
الأكبر في تغيير عاداتهم ، وحينئذ الاجتماع خصوصاً في عهد الأمويين .
فاتخذ معاوية الحشم والحجاب حوله ، ووضع المقصورة في الجامع بصلي
هيا منفردة بعد الاعتداء الخارجي عليه .

وكان من عادة الخلفاء الراشدين أن يؤموا الناس في الصلاة دائماً
وأبداً ، وسار على سيرتهم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، وأما
غيرهم فقد اقتصرُوا على الصلاة بالناس يوم الجمعة ، فكان الخليفة في
العهد الأموي يحضر إلى المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء ، وعمامة بيضاء ،

مرصعة بالجواهر ، فيخطب الناس يوم الجمعة ويبدء الخاتم والعصا ، وهذا
شأن الخلافة .

وكانت خطبة الجمعة في هذا العهد الاول بمثابة استعراض سياسي
واجتماعي لاهمال الملكية واحداث السياسة ، بتوسل الخليفة فيها
ليسط سياسته وتبرير عمله ، او حمل الناس على الاخذ بأي من
الآراء وسياسة من السياسات ، كما توسل الخطيب فيها التحذير
الناس ، والاذارهم وحثهم على العمل الصالح ، والسير على حنة القرآن ،
وقام القائد العسكري يوم الجمعة بدعوة حماس جنده ، ودعوتهم للتأهب
للمركبة المقبلة ، وما كانت وسائل الدعاية غير معروفة في ذلك
العهد ، فقد قامت الخطابة في المسجد مقام الصحف والراديو في العصر
الحاضر .

مجالس الخلفاء

وكانت مجالس الخلفاء الراشدين في المسجد او في المنزل سادجة
جداً على نحو الحياة التي كان يجيها اي عربي في عهدهم ، كانوا يقعدون
على حصير او جلد ويلفون بعباءة او ثوبها ، يدخل عليهم الناس في
حوادثهم ويحاطبونهم باسمائهم ، لا يستكفون من ذلك ، ولا يروون
فيه كبير امر ، ولا ضعة ، واذا خرج احد قوادهم للقتع مشى الخليفة
لوداعه بلا حرس ، ولا بنود ، ولا حبل ، وارصاد بالنودة والصبر مع
الرفق والعدل ، وكان عندهم في الامصار على نحو ذلك ، على ان العمال
نظراً لافئتهم في المدن الكبرى التي عمرها الفرس او الروم استعملوا
في عملهم بعض مظاهر الآلة للتأثير على الرأي العام .
ولكن طبيعة العصور ، واستقرار الناس في المدن ، غلب على

هذه المناجاة فتدريج الخلفاء والامراء الى مظاهر الالوية واتخاذ الحجاب ،
وبدا بذلك معاوية بن ابي سفيان ، واعانه عليه امرأته في العراق
ومصر ، فعملوا مثله وساروا على اثاره ، واستأز عليه من كان على علم
بأحوال الملوك السابقين بضروب من القمامة تعزيزاً للملك ، وحكيداً
للعبد ، وادماً لأمره ، ونحويفاً لرسله ، فدخل على الدولة الكثير مما
كان عليه الأكامرة وابطرة الروم في مجالسهم وسائر احوالهم ، وأصبح
الخليفة لا يعمل اليه اصحاب المصالح والناس الا بعد شيء من العناء ،
وبعد ان يمر على حجاب وحرس ، لم يكن موجوداً مثله في عهد
الراشدين .

ولقد اختلف الخلفاء ومجالسهم باختلاف شخصياتهم ومكانتهم ،
فمعاوية بن ابي سفيان مؤسس الدولة الاموية ، وعبد الملك بن مروان
ومصر بن عبد العزيز لم يكونوا يجلسون للمنادمة والاستماع الى الغناء
والموسيقى ، وانما كانوا يعمنون ويجلسون للنظر في امر الملك وتعزيز
مرافق الدولة ، بخلاف غيورهم ومن اتى بعدهم في اواخر عهد بني امية ،
من كانوا يجلسون للمنادمة والاستماع الى الزان الطرب والغناء .

شكر المجلس ومرته

وفي عهد الامويين جلس الخلفاء في القصور ، بعد ان كان عمر بن
الخطاب يجلس للناس في المسجد ، وقد اتخذوا قصور الدولة التي سبقتهم
وسموا قصوراً لانفسهم خاصة ، كما فعل معاوية فالتأ قصر الحفرة في
دمشق ، ونصبوا في هذه القصور الاميرة والكراشي ، واقترشوا
الطنافس والمنصيات والوسائد وعلقوا التور واقاموا الحجاب
والحراس .

وأول من اتخذ الامرة معاوية فلقد بها بطارقة الروم في الشام وكذلك السور والطنافس . اما الكراسي فيظهر انه فلقد بها مرازية الفرس ، لان اول من استخدمها من امراء المسلمين زياد بن ابيه عاملة على العراق ، وقد يكون الروم اخذوها عن الفرس ، وفس على ذلك سائر ما ادخلوه من مظاهر الآية من الطراز ونقش الاشعار في صدور المجالس ، وفرش الديباج والحز واصطفاغ الامرة من الابنوج والعنديل والعاج والذهب وغيرها .

وليس لدينا مصدر تاريخي ثابت عن شكل المجلس في عهد الامويين ، ولكن الذي نصوره من المجالس التي انت بعدهم ، ان مجلس الخليفة كان ينقد في قاعة او هو كبير على جدرانها الستر الحريرية ، يعمدو ارضه بساط او اكثر من الديباج او مخوص ، وفي اطراف البهو مناوور من الذهب او الفضة توضع عليها الشموع ، وبسبل على ابواب المجلس ونوافله ستائر من الحرير او غيره معطرز بشارة الدولة او الخليفة القائم او اشعار وآيات واحديث ، وفي وسط القاعة سدة او مرور مجلس عليه الخليفة مصنوع من العاج او الابنوس ومنزل بالذهب .

ولما كان الخلفاء يحتمون عن الناس كانوا يعاقبون في وسط القاعة سترآ يقبل بينهم وبين الجلوس ، وطبعاً كانت تختلف هيئة المجلس في الشتاء عما كانت عليه في الصيف ، فيزداد عليه موافد النار يسجر فيها الند والمود .

الاستئذان في دخول

وكان الاستئذان على الخليفة في عصر الراشدين ان يقف الرجل بالباب ويقول : السلام عليكم ادخل ؟ . يكرر ذلك ثلاثاً ، فان لم

يؤذن له لم بعدها ، وربما اقام الراشدون الحجاب لمنع الازدحام او
 للاستئذان في بعض الاحوال ، فلما كان عصر امية اقيم الآذنون
 والحجاب بنسبهم للناس ينسحبون على الخليفة حسب طبقاتهم ، وفي
 اوقات معينة ، لكل طبقة من الجلوس او الاديان او الشعراء او غيرهم ،
 اما في المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم .

واول من رتب المراتب في الدخول على الخليفة زياد في العراق
 اشار عليه بذلك حاجبه ، ولعله اقتبسها من الفرس ، فجعل الآذن للناس
 على البيوت ثم على الاسنان ثم على الآداب ، وصار ذلك سنة في
 الاستئذان على الخلفاء في عصر الامويين ، فاذا استأذن جماعة في الدخول
 على الخليفة او الامير يؤذن اولاً لاشرفهم نسباً ، واذا تساروا في النسب
 قدموا اكبرهم سناً ، فاذا تساروا في السن قدموا اكثرهم اديباً .

وكانوا في ايام امية اذا وفد الناس على الخليفة او الامير وقفوا
 بابه ينسبون الآذن ، فلما ان يأذن لهم او يصرفهم ، فاذا صرفهم
 عادوا ثانية وثالثة حتى يؤذن لهم او يلوا .

والداخول على الخليفة كانوا يجلسون في المواضع الثلاثة هم ،
 وبنرائهم ويتولى اجلاسهم الحجاب او الآذن ، وكانت الرتبة الاولى
 بعد الخليفة في الدولة الاموية لبني امية ، يجلسون على الاسرة وينو
 هائم على الكراسي ومن يليهم بعدهم . . .

الآداب في المجالس

وكانت السذاجة لا تزال غالبة على المجالس في عصر الامويين ، وكان
 الخليفة اقرب الى ان يكون شيخ قبيلة منه الى ملك متوج ، ولذلك
 كان الناس يخاطبون الخليفة في هذا العهد باسمه او كنيته ، فلما ضخم

الملك عمل الامويون على التشبه بالدول التي سبقتهم ، واخذ بعض عمالهم
بمظنون امر الخليفة ، ويفضون مركزه ، ويتزهون بحضه عن مجلس
سائر الناس ، واول من فعل ذلك زياد الذي اقتبس الكثير من امثال
هذه التقاليد عن الفوس منذ كان اميراً على بلاد فارس عهد علي وهدوا
من ولابة معاوية . فوضع القاعدة : ان لا يسلم على قادم بين يدي
الخليفة ، ثم منعوا الكلام في حضرة الخلف . على الاطلاق ، واول من
منعه عبد الملك بن مروان ثم عهد الخلفاء بعده ذلك فمنعوا ان يخاطبهم
الناس كما كانوا يخاطبون اسلافهم ، او ان يعظروهم وهم على المنابر ،
او ان يعطوهم بما كانوا يعطون به غيرهم من الناس ، كان يقول
اسان للخليفة : اتق الله ، او : افعل هذا ، و : امنع عن هذا ،
والولد اول من سن ذلك واحد الناس به .

ثم سارت القاعدة المزعومة في مجلس الخلفاء ان لا يدعى لاحد في
حضرتهم ، ولا ينهض لداخل الا اذا نهضت الخليفة ، ومن آدابهم في
المجلس ان لا يامر فيه احد غير الخليفة ، واذا نهض شخص سائر الحضور ،
وان يصفي الجلوس الى كلامه بكتبه ولا يشغل عنه بشي .

واذا اراد الخليفة صرف جلساته ابدي الشرة يعرفونها فيصرون
فكان معاوية اذا اراد صرف الناس قال : اذا شئتم . او العزة منه .

وكان يزيد ابنه يصرفهم بقوله : على بركة الله .

وعبد الملك كان يحمل بيده خيولاً فاذا الفها من يده عرف جلاله
انه يريد انصرفهم فيصرفون .

ومن انصرف من حاضرة الخليفة مشى القهقري ووجهه نحو مجلسه
حتى ينواري .

مواكب الخلفاء

وكانت المواكب معروفة عند معترك العرب في الجاهلية ، فلما جاء
 الاسلام لم يتكلف الخلفاء الراشدون شيئاً من هذا ، فكان الخلفاء
 الراشدون يركبون ويمشون بين الناس كسائر الناس لا حرس امامهم ،
 ولا حاجب خلفهم ، واول من اتخذ المواكب العمال في الامصار تقليداً
 للمعكم والعمال من الروم والفرس فيهم ، وحتى لا يتغير على اهل
 البلد شيء مما تعودوه والقوه من ايدي الملك وسطوة السلطان ، وسبق
 الجميع معاوية فاقام حراساً يرفعون الخراب بين يديه او يقفون بالسيوف
 عند المنصورة التي يصلي فيها خوفاً من الاغتيال . واقتدى به عماله ،
 فانخذ زياد في العراق رجلاً يمشون بين يديه بالعمدة او بالحرية ، ثم
 اصبح السمر بالحرية خاصاً بولي العهد ، او بكبار المال يحملها رجل
 راكب على جواد يتقدم الخليفة او الامير .

نهر الخساء

وكان الصيد معروفاً في الجاهلية ولكنه كان قاصراً على صيد غزال
 او خنزير بلبل او الفخ ، فلما قسست العرب بعد الاسلام وخالطوا
 الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والقنص ، فانخذوا الجوارح
 من الخنزير وهي الباز والشاهين والعقاب والمقر بعدونها صيد الطيور ،
 وغالوا في اقتناء الكلاب والفيود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير
 والغزلان وحر الوحش ، واول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن
 معاوية وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود وله كلب بالصيد ،
 فانخذ لهو ، وكان يلبس كلابه الاساور من الذهب ، ويحب اكل كلب

عبدًا يخدمه ، واشتغل بالصيد غيره من خلفاء امية على تفاوت في ذلك .

وكان السباق كذلك عادة شائعة عند الأمم التي سبقت العرب ، وكان العرب في الجاهلية يتسابقون بحموفهم ويتعاضدون بذلك ، وكثيراً ما نشبت الخلافات والحروب بسبب السباق ، وكانوا يحلون خيلهم الى الحلبة - وهي ميدان السباق - عشرة عشرة . وعندما لكل منها امر باعتبار تقدمها في السبق بعضها على بعض .

ولما تحضروا بعد الاسلام بالغوا في اتخاذ الميادين واستكثروا من الخيول ونفستوا في تضييعها ، وكان لمعاوية حلبة يخرجون اليها في ايام معينة لتسباق ، فمن حاز فصب السبق اجازوه ، وقصب السبق فصبة بفرسها في آخر الحلبة فمن سبق اليها وافضل هو الفائز .

وكان هشام بن عبد الملك ولع بالسباق ، يستعيد الخيل للسباق ، ويبدل في اعتناها الاموال ، وجميع عهده (٤٠٠) فرس ولم يسبقه احد من العرب في ذلك ، وكانت له فرس سابق اسمه (الزائد) اشهر في ذلك العصر ، وكان يحضر حافات السباق هو واهل بيته والامراء ، وكانت اميرات البيت الاموي اذا لسن يتدربن على ركوب الخيل . ويشترك في السباق ، وكان الوليد بن يزيد مفرماً بالسبق ايضاً ، وكان لديه من الخيل الفأ ، اسبقها فرس اسمه (السدي) كان يسابق به في ايام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام ، وكان ميدان السباق يومئذ في الرصافة من ارض الشام ، وهم فيها ميادين مشهورة وحوادث كثيرة ، ولمحمد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة باسمائها وحقاتها هي احسن ما نظم في هذا الموضوع .

محاسن الأدب والشعر

واستمع الخلفاء من بني أمية في أوقات فراغهم إلى أخبار الحروب
وسير القربان العرب في الجاهلية ، وكانوا يعقدون المجالس يحضرها
الأدباء من أهل الأخبار والزوادر والأدب والشعر ، يحدثون الخليفة
بما يظن له سماعه من أخبار العرب وزادهم وأشعارهم كما كانوا يستمعون
لشعراء ويحيزونهم ، ولكن أخبارهم قليلة مع الشعراء والأدباء ، ولم
يعظم مقام الشاعر في بلاط الخلفاء إلا عهد العباسيين ، ولم يتقرب من
بني أمية كل التقرب إلا الاختل الشاعر ، وكان تقربه لأسباب سياسية
ودواع عصبية ، وأما بقية الشعراء والأدباء فكان تقربهم من البلاط على
قدر وفي أوقات معينة لا دائماً ولا أبداً . . .

وكان أشهر من استمع من بني أمية إلى الشعراء يزيد وعبد الملك
والوليد بن يزيد ، وأما عمر بن عبد العزيز عدو خصه شعر الشعراء ، ولا
يحق على تقربهم ولا دفع اليهم جوائزهم ، فعل عمر ذلك نودعاً ولكن
بعض بني أمية فعلوا ذلك بخلاف كثيرهم وأما الوليد بن عبد الملك فقد
شغلته العبادة عن كل شيء .

وكلم بعض خلفاء بني أمية بالفناء والفنين ، وقربوهم وأجازوهم ،
ودعوهم إلى دمشق وحملهم اليهم من أطراف الأميرة الطورية وأشهر من
فعل ذلك يزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد ابنه ، وارتفع شعر
المعانيات في أيام هذين الخلفين ارتفاعاً فاحشاً حتى كانت المعنية الواحدة
تباع بمئة آلاف من الدراهم .

ازدهار الثروة والترف

وتوسع الفتح ، واستقرار الأمور ، زادت الثروة وعمّ الترف بين

الناس ، فانتقل العرب في البلاد المفتوحة من حال الى حال واخذوا
يتأقنون في طعامهم وشرابهم ولباسهم ، وقلدوا الفرس في اكثر اسباب
الترف والحضارة .

وكان طعام العرب قبل الاسلام قاصراً على الالبان ، وما يستخرج
منها كالسمن والزبدة والحبن ، ومن الثمر والحبوب واللحوم يأكلونها
على ابسط ما يكون من احرافها كما يفعل اهل البادية اليوم ، واكثر
البانم ولحومهم من الابل . وقد يصنعون منها اطعمة تتوكل على نسب
معينة (كالثريد) فانه يصنع من اللحم والخبز ، ومنها ما يصنع
من اللبن والدقيق فقط كالزبدية او يصنع من السمن والدقيق كالبسكالة ،
او من الدقيق والسمن والعدس كالزبدية ، وكان هذا طعام اهل
البادية .

واما طعام الفقراء من العرب فكان لحم الابل ، لا يأكلون الخان
بالغالب جداً ، واكثر ما يأكلون من اللحوم لحم الغنم والجراد
والحنافس ، وما تناسب مع هذا من المأكول البدوية الساذجة .

فلما كانت الفتوحات دحش العرب ما شاهدوه في البلاد المفتوحة من
الاساليب الجديدة في الاكل ، وكانوا في صدر الاسلام يكتفون بالليل
من الطعام ، ولم يكن طعامهم يتجاوز اللون او اللونين ، وكان خبز
القمح اللحم ، ولكنهم لم يكونوا يكثرون منه ، فبز موصى الاشعري
كان يتجدي عن اكل الدجاج ، وكانوا يتجنبون الاكثر من اللحوم ،
ويعتقدون فيها الضرر على نحو ما يعتقد فيها النصارى اليوم مثلاً بما قاله
مرو بن الخطاب :

— مدمن اللحم كمدمن الخمر .

ولما حكم الامويون اخذوا ينعم الحياة ومباهجها من مأكول ومشرب

على نحو ما كان الحال عند الفرس ، وننعم معاوية يأكله ومشربه ،
واقتردى به خلفاؤه من بعده خصوصاً سليمان بن عبد الملك ، ونفقتوا في
معالجة اللحوم واصطناع التواني المشبهة الشهوة الطعام النحاساً للمزيد من
اللذة ...

أكلوا السكباج وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم
واحل ويضعون فيه اللحوم المخبوخة كالدرج ونحوه ... والذالوج
وهو نوع من الحلوى ، كما استعملوا اللوز والسكر والجزر والحشاف
والجلاب ...

وكان أهل المدن من العرب في عهد أمية أكثر عذابة ونفقتاً من
سكان البداري في طعامهم وشرابهم ...

وكانوا يراعون قواعد الصحة ، فلا يدخلون الطعام على الطعام ،
ولا يسرفون في الأكل ، وقد ورد في الحديث : نحن قوم لا نأكل حتى
نمجوع ، وإذا أكلت لا تشبع ، كما كانوا يضلون أيديهم قبل الطعام
وبمده ، وإذا كانوا بأيديهم أمد وجود التلحق والشوك في عهدهم ، وكما
كانت الحالة في أوروبا في عهد قريب ، ومع ذلك فقد كان رسول الله
يستعمل السكين في قطع اللحم ولم يكن يقطعه بيده .

وكانوا إذا أكلوا جماعة يسطروا سبطاً على الأرض ، ثم جلسوا
صقين حوله كما يجلس نحن اليوم حول المائدة ، وكرم العرب مشهور
لا مجال لتفصيله ووصفه .

وكان من أفضل أطعمتهم التريد - وهو الخبز يفت ويبل بالمرق
ويوضع فوقه اللحم - ومنه الترة وهو الخبز يكسر على السن ، والكوتان
وهو الأرز والسك والاطربة ، وهو طعام كالخبط من الدقيق ،
والشعيرية وهو طعام كالخبط صار غليظاً في حجم الشعير ، والحشيش

وهو حنطة تطحن وتجعل في قدر ، ويلقى فيها لحم أو ثمر فيطبخ ،
والعجة وهو طعام متخذ من دقيق بعجين بسمن ثم يشوى .
ويظهر ان الحضرة لم تكن مستعملة كثيراً عندهم . . . وفي عهد
الامويين زادت اشكال الطعام : عرفوه من طعم الفرس والبيزنطيين ،
وفي عهدهم ايضاً استعمل العرب الفوط والملاعق ، وكانت الملاعق
تصنع من الخشب ، كما جنيبوا ملاعق المنذر من بلاد الصين ، وكانوا
يجلسون على الكراسي والامامية ،ائدة الطعام ، يكسوها بفرش من
القماش .

الديار الاسلامية

وكان المسلمون في صدر الاسلام يوحون الخضرة في العيش
والنعيم والطعام والملابس ، وكان الخلفاء في عهد الراشدين يمشي في
الاسواق وعليه الفم من الخاق ثم يرفع الى صدره ، في انبوب غلاظ ،
وفي رجليه غلطان من الجود وحمل سيفه من الخشب وفي يده ذرة يساوي
الدينار ، هذا ، كان عليه عمر بن الخطاب وعكبا كانت اذان عماله في
عهده فقد كانوا اذا رعدوا عليه يسوا جرة صوف وامموا اهتماماً كبيراً ،
وليسوا مثل ذلك بسطة وخشونة في ارجاءهم .
وبدأ كان العهد الاموي وتغير الناس ، وحملوا اهل الشرف من
الاعاجم اضمحلوا بطيعة الخلق الى التبسط في العيش والنعيم والملابس ،
واحبب الامويون الوثني ، وكان اثنوهم رغبة في تشبه عثم بن عبد
الملك فجمع عنده (١٢٠٠٠٠ : مئتين و ١٠٠٠٠٠) سكة حديد ،
وكانت كسوت اذا جمع الخمس على ٧٠٠ جن ، وفي ايام بني امية تسابق
الصناع الى ابداء الوثني فبدأ كث العربيون زادوهم وسبقوهم .

وكانت تعرف بنوع امية لبسوا الحرير على انواعه ، وثمنوا بتنوع
الانسجة واحبوا الوشي كما قدمنا ، واكثرنا من لبسه ، فقدم الناس
في ذلك ، فراجت المنسوجات المشقة في ايامهم .

وانخذوا كثيراً من البسة الروم ، ولكسهم لرغبتهم في المحافظة على
البداوة ظفوا بلبسهم العمام وبعلقون السبوق على العواتق .

وكان لباس البدو مؤلفاً من قباء طويل مشقوق من الوسط ،
ومتدل الى العقب ، ومربوط من الوسط بحزام من الجلد ، ولا يزال
البدو من الرجال والنساء يستعملون هذا الرداء الى اليوم . وكانوا
يرتدون العباء فوق القباء ، ويضعونها من وراء الجمل ، وكانوا يرتدون
في الحرب او عند ركوب الخيل ، اذية خاصة ، ويلبسون السروال
عادة ، ورداء قصيراً بدلاً من الثوب الفخمة المتدلية .

اما لباس الرأس فهو العمامة ، وكان يختلف حجمها تبعاً لاسن
والمركز العلمي وغيره ، وكانوا يعلقون العمامة فوق العباء ، وهو
عبارة عن منديل كبير متدل على الكتفين يقي الزخبة حرارة الشمس .
وكانت الاذية تختلف وفقاً لتوبة الناس ومركزهم الاجتماعي .
ونوع عملهم ، وكانت تختلف كسوة الفقيه او الكاتب او ثياب الجند
وهكذا ، وكان رؤساء القبائل وغيرهم من علية القوم يرتدون قباء
يصل الى الركبتين يعلوه سروال ، ثم جلباب فضفاض يتدفق الى العقبين ،
ويشده من الوسط بحزام من الحرير ، وفوق كل هذا الجبة او القباء ،
وفقد اخذوا العرب عن الفرس والبيزنطيين .

وكان القباء على نوعين : احدهما له اكمام واسعة ، والثاني اكمام ضيقة
وله ازرار متقاربة ، وهذا النوع الاخير هو الذي يرتديه كبار رجال
الدولة في اوقات اليوم ، كما كانوا يلبسون السروال او الاحذية .

أما ثياب المرأة فكانت تتكون من سروال مضطرب وقبض مشقوق
عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق بليس عادة في البرد ، وكانت المرأة
العربية إذا خرجت من بيتها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها وتقي
ملابسها من الغراب والطين ، وكانت تلف رأسها بمديس يربط فوق
الجبهة ، وكانت النساء في الجاهلية يلبسن قميصاً مشقوقاً الى الصدر .

الآلات والرياش والمجوهرات

وجلس الخلفاء الراشدون على الأرض مثل سائر الناس ، وكذلك
عماهم في أول الأمر ، وكان عمرو بن العاص يصر بحبس في قصر على
الأرض مع العرب ، ويأبى القوفس ومعه سرير من الذهب محمول على
الأيدي لموسى شأن الملك يومئذ فيجلس عليه .

ولما حضر المسلمون اتخذوا الأسرة من الذهب والعاج ، وفاقوا
الأكامرة والقباهرة فلهم ، وأول من اتخذ السرير في الإسلام معاوية ،
ويريدون بالسرير المقعد أو الكرسي الكبير ، ولم يقدم معاوية على ذلك
إلا بعد استئذان النبي والأغنياء هم بثقل جسمه .

ولما خرج المسلمون ففتوح علوا على كثير من الآلات الثمين
والرياش الفاخرة والجواهر المضية في دارس وبلاد الروم ، ولكنهم لم
يفطنوا ثمينتها وخطرها في أول الأمر ، حتى اتخذت العرب المقاتل
يفضل الحيوانات الداجنة على الجواهر ويستبدلها ، فلما كان عهد أمية
ظهر في قصور الخلفاء وقصور الأمراء والأغنياء الآلات الثمين ، والرياش
الفاخرة ، كما اتخذ الخلفاء يكتنون من استعمال الجواهر ، وكان لذي
الوليد بن يزيد عدداً عظيماً من المقود الجلية الموهرة بغيرها في كل يوم
كما تبدل الثياب ، وكان يجمع هذه الجواهر من كل وجه ويغالي بها ،

ومع ذلك فإن الآثاث والرياش في عهد الأمويين خلت ساذجة بسيطة
بالقبة لما صارت إليه الحال في عهد العباسيين وغيرهم .

التسري

والتسري اقتناء الجواري للتمتع بهن أو احتيلا دهن ، وهو من
مسيبات الحضرة ومنهائم ، وقد نكثوا عدد الجوارى بسبب الفتوح
العظيمة ، وكانت العرب تحقر أبناء الجوارى ، ثم ضعف هذه الكراهية
لما كثرت التسري بالجوارى ، وليس المسجون أول من افترس السراري ،
فهذه العادة كانت شائعة عند الرومانيين قبلهم ، والسرية أحط منزلة من
الزوجة ، ولكن علاقتها مع الزوج كانت شرعية .

وكثرت رعية المسلمين في التسري في أمة الحضرة ، حتى أصبح
أكثر أبناء الخلفاء من أولاد الجوارى ، وذكر الجوارى الخلف النسل
العربي ما في ذلك شك ولا ريب ، والامتناع من الجوارى في أوائل
الاسلام لم يكن يحتاج الى عفة كبيرة لكونة السيداء بها استقرت
الفتوح ، وعظم الثمن ، حادوا يشعرون ويغالون في دفع الثمن ،
وكانت أسعارهن تنضاف اذا جعن بين الجمال ورجعة الصوت وصحة
الفناء .

وكان يختلف ثمن الجارية من يضع مثل الى بضعة الوف أو مئة
الف دينار ، وقد اشترى سعيد بن عبد الملك الزنداء الجارية الشهيرة
بمليون درهم (٧٠٠٠٠٠ دينار) .

واشترى يزيد بن عبد الملك سلامة المظبية بعشرين ألف دينار ،
وبيعت الجارية خير بحسين ألف دينار ، وبلغت قيمة الجوارى في عهد
العباسيين أكثر وأكثر .

سعة العرب

والواقع ان العرب حملوا معهم من جواهرهم وصعراتهم حزامهم
الرائع وكرمهم الجليل ، وكان الكرم حقة عاتقة بهم ، يمدحهم الشاعر
فيعطونه ما لديهم ، ويأتيهم السنجير ويضجون انفسهم في سبيله ، فلما
تدرجوا في الحضرة والخدمة زادت جوارتهم وعطاياهم بزيادة الثروة
واتساع الاذواق ، فكان لا موبون يملكون بألاف الدراهم بالمحقوقها
ببعض الماشية او الكسوة او الخبز ، واذا اوسعوا بالعطاء اطلعت
سياسة او لان المديح مرهم واثر حميتهم كانت عطيتهم بمشرات
الالوف ومئات الالوف .

وافندي بختقاء امية امراء ذلك العهد من العرب واشهر منهم آل
المهلب الذين جمعوا بين السيف والكرم ، ومنهم جلد القديري والطجاج
بن يوسف ، وقد اعطى الخراج لابي اوسط بوزواجه بنت اسماء
ثلاثين غلاماً مع كل غلام عشرة آلاف درهم ، وثلاثين جارية مع كل
جارية ثمان مائة دينار .

وكان سعيد بن القاسم لا يرسل الى احد هدية مع عدد ولا كانت
العهد من جملتها .

واقصص عبد الله بن جعفر وغيره في الكرم كثيرة

الاعترة

وكانت الخمر شائعة قبل الاسلام بين كل الامة فلما جاء الاسلام حرمها
ثامها من المضرة ولم ينسها من التناول ، واتفق الحدود في منعها بالجلد
والحبس وحلق الرأس او العضة او قطع العضة ، وعاقبوا

بنوع الحمرة وكسروا آيينه ولا سيما في عصر الراشدين ...
 فلما كان عصر بني أمية أخذ بعض الخلفاء يتناولون النبيذ بحجة أنه
 غير محرم ، اتبعوا في هذا عقباء العرق الذين كانوا يذهبون الى عدم
 تحرمة ، بخلاف أهل الخبز الذين كانوا يحرمونه ...
 والنبيذ يصنع من أكثر أنواع الفاكهة ، ولا سيما العنب والبشر ،
 والزبيب والتفاح والشمش ومن الذرة ، ويختلف باختلاف البلاد
 وبخلاف طرق استحضاره ، وهو عصير بعض الأثمار أو منقوعها - كما
 ينقع الزبيب اليوم - الخشوف - وقد يخيفون اليه الخل أو الدبس
 أو يصنعونه من أحدهم ثم يضمونه على النار ، وكانوا إذا اقبلوا على
 شربه صفوه ، وتناولوه بألفداح الكبيرة ، ورجح صنعوا الخمر منه ، وإذا
 صفوا في القاني صعب فميزه من الخمر أو منقوع الزبيب ، أو مذبذب
 الخل ، ومن أحب الشرب استعمل تناوله على أنه نبيذ ، فذا أكثر من
 شربه فعل معنى الخمر ، وبعضهم كان يخلط قليل الخمر ، ويحرم كثيرها ،
 وآخرون يخلطون شرب الخمر إلا إذا أدت الى السكر ...
 والحمد والعقلاء الذين ذكروا الذريع أهم شربوا في مجالسهم وكانوا
 يستحلون شرب النبيذ وهو حلو منعش فيكثرون منه ، ويؤيد ذلك أنهم
 كانوا يشربونه بالأوطال ، وليس أحد في العالم يشرب الحمرة بالأوطال ،
 وبطلان حفظه ، ضابطاً لأعضائه . وهذا يدل على أن النبيذ
 المذكور لم يكن من الأثربة المذكورة كعصرة اليوم ...

المذاهب الإسلامية الجديدة

الشبهة

كان من اثر الاختلاف السياسي بين المسلمين حول الخلافة ظهور بعض المذاهب الجديدة التي كانت لها اثرها وشبها في سياسة الدولة الإسلامية والإسلام ...

وكان اول هذه المذاهب ظهوراً المذهب الشيعي الذي نشأ في الحجاز اولاً ، ثم انتقل منه الى العراق فدرس فغيرها من الامصار الامبراطورية .

وكان مدار هذا المذهب اولاً الامر بحول التعصب لعلي بن ابي طالب واولاده من بعده ، ثم ذهبوا بوجوب الامة فيه وفي اولاده ويقولون - خصوصاً الامم منهم - ان خلافة علي متضمن عليها من الرسول ، ولا تكون في غير آله البيت ، وانه معصوم وآله عن الكناثر والصغار ، ويزيدون ان الامة في علي لا تخرج عنه وعن اولاده شرعاً ، وان خرجت فبظلم من الناس ، او بتقية من اولاده كما يحملون الاعتقاد بالامامة جزءاً من الايمان ...

والشبهة عدة فرق ، منهم المعتزلي ومنهم المعتزلي ، وقد تجاوز رأي الشبهة في الامة القول الى العمل ، - بخلاف المعتزلة - فكان من اثر ذلك تيارات عديدة قام بها بعض الائمة في ايام اموية ، وياهم العباسيين فلم يوفقوا ...

الخوارج

واما الخوارج فيجوزون ان تكون الامة في غير ابناء علي ، بل في غير فراس ، ويرى بعضهم جواز حذر العنه من امام ، بخلاف الشيعة ، ويوجبون بحرية الامام الخائر ، وينفون العصاة عن سائر البشر ، وقد بشا مسهم في عهد علي بن ابي طالب بعد معركة صفين ، واخلاف الحكمين ، وهم السكرونة ، من المدينة ، وكل من رضي بحكم الحكمين في رفعه اخص ، وقد اترفوا حرفة عديدة ، وحاربوا خدمهم وحاربهم خصومهم ، ومرفاه الخروب الشديدة ، وبقي منهم اليوم اذافهم . . .

المرجئة

واكرامك نوى ان الخلاف في الاسلام اول . - متجر حول الخلافة وحول نظم الحكم في الاسلام ، بحرب الشيعة في سبيل العقيدة الملكية الوراثية ، وحرب الخوارج في سبيل مبدأ المذهب الديمقراطي الجمهوري في الاسلام ، ويوقف المرجئة موقفاً متريفاً من كل هذه الاختلافات ، وكادوا من الجند الذين غادروا الامم والاسلامية للفتوح والناس صفاً واحداً لا يوجد بينهم اختلاف ولا شقاق ، فلما عدوا من فتوحاتهم الى المدينة بعد حن عثمان بن عفان وجدوا بين الناس من يقول : قتل عثمان مظلوماً ، ومن يقول : انه ان علياً اولى بالحق واصحابه ، فوقفوا موقفاً معتدلاً من الجانبين وقالوا : نحن لا نتهرباً منها ولا نكرها ، ولا نشهد عليها ، ونرجي امرهم الى الله هو الذي يحكم بينهما .

فيظهر من هذا ان هذا الحزب الجديد كان يرفض ان ينقسم بدء في الدين او ان يشد اذر فريق على فريق ، بل ولا ان يحكم بتخطة فريق ،

ونحوه وب آخر ، والسلب المباشر في تكوينه الخلاف الاحزاب في
الرأي والسلب البعيد مسألة الخلافة ، فنولا الخلافة ما كانت الحوارج ،
ولا ظهر الشيعة ، ولا نشأ المرجئة .

ومن مذهب المرجئة ان مذهب تساهل ، وسواء بين الاسم من الارجاء
والتاجيل ، لانه يرجئون الذكرك على العترة من المسلمين الى يوم البعث ،
كما ينخرجون من امانة اي مسر مهيا كانت الذنوب التي اقترفوها ، لانهم
يرجعون المغفرة والارباب من انه لان المعاصي ، ولا يحكمون على احد
بكفر او فسق كما فعل سواهم ، ويقولون : ان الايمان انه هو التصديق
بالقلب والامانة محسب ، والله لا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع
مع الكفر طاعة .

ويقال ان اول من قال : لا رجا ، الحسن بن الحنفية ، ولكنه لم يؤخر
العمل عن الايمان ، بل قال : وان اداء الطاعات وترك المعاصي ليسا من
الايمان فلا يزال يؤاخذ ، وظهر من هذا انه لا يعيب مذهب المرجئة
في كل شيء ، وفي اول من وضع الارجاء بالمدرسة حسن بن رلال
المروفي وقيل غيره .

وبذهب : وان يقول احد المستشرقين ان نسبة المرجئة ، ترجع
الى بعض آي القرآن ، وعلى هذا تكون نسبة المرجئة مشتقة من كلمة
ارجاء بمعنى بعث الارجاء والامس .

وكانت العقيدة الاساسية عند المرجئة ، عدم تكفير اي انسان ابدا
كان ، ما دام قد اعتنق الاسلام ونطق بالشهادتين ، بها ارتضيت من
الامام علي تاركين الفحل في امره له وحده .

وذعن جهم بن صفوان احد رؤوس المرجئة : الى انه متى آمن
الانسان بقلبه بالاسلام ، وليس بضره اذا اعلن الكفر بلسانه ...

والاخبار عن المرجئة قليلة جداً ، وقد ضاعت جميع المصادر التاريخية عنهم ، وما ذهبنا اليه عن مذهبهم قد اتفق عليه الاجماع ، وكانوا الى ذلك يفتنون من الامويين موقف التأييد السلي لا الانحياز ، ويرون ان حكومتهم حكومة شرعية ، ومن هذا كذا تأييد بني امية لهم واعتبار بعض المؤرخين المرجئة حزباً سياسياً اموياً . . .

وبعد ان كان مذهب الارجاء مذهباً سياسياً اصبح مع الالام يبحث الامور الدينية ، واهم ما بحثوا فيه تحديد الايمان ووه الكفر ، و المؤمن والكافر ، وقد دنا الى هذا البحث انهم رأوا الخوارج يكفرون من عداهم ، والشعبة تنكر من خالفهم ، وغلا الخوارج فعدوا كل كبيرة كفراً ، وغلّت الشيعة فعدت الاعتراف بالامام ركناً اساسياً من اركان الدين والايمان ، فكانت النتيجة الطبيعية ان يمرض على بساط البحث ما الكفر وما الايمان ، فرأى كثيرون من المرجئة ان الايمان هو المعرفة بالله ورسوله ، فمن آمن بالله ورسوله فهو مؤمن عند المرجئة ، ولكن الخوارج لا ترضى بذلك بل تفرغ على التمسك فوق الايمان الايمان بالفرائض والكف عن الكبائر ومن لم يفعل ذلك واكفى بالايمان فقط فهو كافر عندهم ، مؤمن عند المرجئة .

نشأة المذلة

وما يلفت النظر في دراسة الفرق الاسلامية ان اكثرها ظهر في العراق واقلها في دمشق ، ولم يظهر في دمشق عنها الا المرجئة ، او الممثلة فقد نشأت في البصرة ، وصاحبها واحد - بل بن عطاء - فليد الحسن البصري الذي اشرنا الى ان كثيراً من انذاهب الاسلامية يؤيد اليه ، وكان الحسن من مؤيدي نظرية حرية الرأي التي كان يقول بها القدرية ،

والقدريّة اول مدرسة فلسفية في الاسلام .

ويصف لنا البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ظهور المعتزلة فيقول : حدثت في ايام الحسن البصري خلاف بينه وبين واصل بن عطاء في القدر ، وفي المنزلة بين المنزليين ، وانضم الي واصل عمرو بن عبيد ، فطردهما الحسن عن مجلسه ، فاعتزلا الى سارية من سواري مسجد البصرة فقبل فيما ولّاهم بها معتزلة ، لا اعتزاهم قول الامة في دعواهما :
 و ان الفاسق من امة الاسلام لا مؤمن ولا كافر .

ويقول الاستاذ راون عن نشأة المعتزلة : (١) وكل ما انفصل بنا برجه عام عن نشأة المعتزلة ونسبتهم بهذا الامة هو ان واصل بن عطاء الذي كان من تلاميذ الحسن البصري الفقيه المشهور قد اختلف مع الجماعة في مسألة المؤمن العاصي الذي ارتكب ذنباً كبيراً ، هل لا يزال يسمى مؤمناً ام لا ؟ ويقول واصل ان مثل هذا الشخص لا يمكن ان يسمى مؤمناً او كافراً ، بل يجب ان يوضع في منزلة وسط بين المنزليين ، وقد اتفق واصل نحية بعيدة من المسجد ، واحذ يشرح رأيه لتلاميذه الذين اتبعوه ، فكان الحسن البصري يقول الذين اتفوا حوله : بان واصل قد (اعتزل عند) ، ومن ثم اطلق خصوم واصل عليه وعلى اتباعه اسم (المعتزلة) .

ويرى فون كريبير المفسر المشهور : ان الاعتزال قد بدأ وانتشر في دمشق تحت تأثير رجاء الدين من البزطيين ، وبخاصة

(١) القدريّة - هم المتكلمون في اثبات القدرة للإنسان ، وأنه لا يحتاج الى مدونة الخيرة لي اعماله ، وهذا مذهب قريب من مذهب المنزلة ، وزعيم هذا المذهب (الظاهر) من شيوع المنزلة ، واول من قال بالقدر بهذا المعنى (عبد الحميد) وابن عجلان الحسن البصري ، وتبعه اهل البصرة مذهب الجبيع واصله سنة ١٠٠ هـ ، بامر عبد الملك بن مروان .

بحسب الدمشقي أو يوحنا ، وثالثه نبودور أبو قره ، وأما ذلك الاسم
الآخر الأكثر وضوحاً وهو ، القدرية - الذي عرف به أهل هذه
الطائفة فإنه يرجع إلى متعبدية القائل بحرية إرادة الإنسان .

ويرى فون كروب أيضاً : أن متعبد الجبني هو من كان يدين بتعبد
حرية الإرادة في دمشق أو آخر القرن السابع الميلادي وأنه تلقاه من
فارسي يسمى سنبر . ، وقد صدر عنه في عهد عبد الملك بن مروان .

والواقع أن أول ما يبعثه القائل بالتعبد هو مسألة الجبر والاختيار ،
هل إرادتنا حرة عمل ما نشاء ونترك ما نشاء أم أنها مجبرتنا على عمل
ما نعمل فلا نستطيع أن نعمل غيره ، ولا نستطيع أن نعدمه عنا ؟

وقد نشأت الأبحاث الدينية في هذا الموضوع لما نظر الإنسان فرأى
أنه من ناحية - يشعر به حر الإرادة بمعنى ما يشاء ، وأنه مسئول
عن عمله ، وهذه المسئولية تقضي الحرية ، ولا معنى لأن يمدب ويضاب
إذا كان كالأشياء في مهب الريح لتحرك غير كنهه ولما كان يسكنه .

ورأى من ناحية أخرى : أن الله عم بكل شيء ، أحاط علمه بما
كان وما سيكون ، وعبره من صمد عن كل فرد من خيرة أو شر ،
وفطن أن هذا يستلزم حتم أن الإنسان لا يستطيع أن يعمل إلا على
سبيل ما عزم الله ، فعز في ذلك بين الجبر والاختيار ، وأخذ يفكر هل
هو مجبور أم حر الاختيار ؟

ولما انتهى المسلمون من التمعن وهذه الأحوال واستقرت الأمور
أخذوا يفكرون بهذه المسألة التي شغلت الأمم التي سبقتهم وظهر في
الإسلام قوم يقولون بحرية الإرادة ، معارضين الفكرة الثامنة بأن
الإنسان ميسر لا مجبور .

ويقول المؤرخون أن أول من تكلم بقدر متعبد الجبني وغيلان

الدمشقي ، وقد قتل الحجاج مبيداً كما قدمنا ، واما غيلان فكان يكنى
دمشق ، وكان رجلاً مفوهاً ، اكثر الناس من الوفية فيه فانهم هشام
بن عبد الملك يقتله .

وقد روي ان غيلان وقف يوماً على ربيعة الرازي قتل له :

- انت الذي تزعم ان الله يحب ان يؤمنى ؟

فقال له ربيعة : وانت الذي تزعم ان الله يعصى قداً .

وهذا يدل على ان فكرة الخط ، والقدر التي انتهت في المصرة هذه
انتقلت الى الشام ومن الناس اخلاوا بهنوت فيها .

حجيرة

وعلى عكس القسرة ظهرت الجبرية ، وكان من اولهم جهم بن
صفوان ، وكان يقول : ان الانسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة ،
وانه لا يستطيع ان يعمل غير ما عين ، وان الله قادر عليه ان لا يبد
ان يصير عنه ، والله قادر ان يبدل ما كان ، وقدر له ان يثبت ، وقدر
على الآخر المصيبة وقدر ان يعاقب .

وقتل جهم هذا في ثورة الخوارج بن سريج في خراسان في اواخر
عهد امية ، واما امانة بن سيار .

وتعرض الجهم لسألة الخطر واهم أيضاً ، وهي القول بنفي صفات
الله ، ذلك انه وردت في القرآن آيات كثيرة تدل على ان له سموات من
سميع وبصر وكلام ، فنفى الجهم ان يكون له صفات غير ذلك ، وقال :
انه ما ورد في القرآن من سميع وبصر ليس على ظاهره بل هو مؤول
لان ظاهره يدل على التشبيه ، فحقق ، وهو مستحيل على الله فيجب
تأويل ذلك ، وقال : لا يصح وصف الله بصفة يوصف بها خلقه لان

ذلك يقتضي التشبيه ، وفذل : ان القرآن مخلوق خلقه الله ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لتفهم الصدق ، فاذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن كلام الله القديم إلا على الترتيل ، وانما خلقه الله ، وغير ذلك من الآراء التي لا مجال للتبسط فيها الآن . . .

مذهب الاعتزال

واقعة ذات القدسية والجبرية في فهمها من المذاهب الجديدة التي نشأت بعدها ، وظهر على أثرها مذهب الاعتزال ، وكثيراً ما يسمى المعترلة بالقدسية ، لأنهم وافقوا القدسية في فهمهم ، ان الإنسان قدرة توجد الفعل ، ففعلها واستقلاله دون الله تعالى ، ونفروا ان تصحكون الاشياء بقدر الله تعالى وفعله . . .

واخذت المعترلة عن الجبرية او عن جهم بن صفوان احد زعمائهم مسألة القول في نفي الصدق عن الله وفي خلق القرآن ، وفولهم ان الله لا يري .

واما اسم المعترلة ، فقد اختلف في اسباب المؤرخون وليس فيما اوردوه من حيث اسم هذا الاسم . . . يفتتح ، ونعتقد انه صار اطلاق هذا الاسم على جماعة اعتزل جماعة او جماعات اخرى لاختلافها معها دينياً وسياسياً ، لا لاعتزال فلان خلقه فلان في المسجد او غير المسجد . والمعترلة في الواقع جماعة مهندسة ، اعتزلت الخوارج ، واعتزلت المرجئة ، ووقفت منهما موقفاً وسطاً . . .

وقد اشرنا الى موقف الخوارج الشديد وكيف اعتبروا من خالفهم في رأيهم بعيداً عن الدين والاسلام ، وكيف نهى المرجئة تساهلاً كبيراً ، فم يحكموا بالكفر على الامويين والشيعة والخوارج ولا على

أحد من نطق بالشهادتين ، ولم يجزموا أيضاً بتكفير أهل الكتاب لأن
الآيمان في القلب ، وليس بطلع عليه إلا الله ، وهذا المذهب يدعى إلى
مسيرة الناس ومسالكهم جميعاً ، وهذه النظرية الكثيرة النماهل ذهب
يقول فيها بعض العلماء : إن أخطئت الفسق في غفلة الله ...

وأما المعتزلة فقد وقفوا وسطاً بين الخوارج والمرجئة ، فقالوا وعلى
الأخص : - وأصل بن عطاء والبايعه - بالمعتزلة بين المزلتين ، وبمسيرة
أخرى قالوا : إن مركب الكبيرة ليس مؤمناً ، لأن الآيمان عبادة عن
خصال من الخير ، إذا اجتمعت سمى الله مؤمناً ، وهو اسم مدح ،
والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى
مؤمناً ، وأبليس هو بكافر مطلق أيضاً لأن الشهادتين وسائر أعمال الخير
موجودة فيه لا وجه لانكارها ...

وقد اختلف المعتزلة في تطبيق نظريتهم هذه على الأعمال التي عملت
منه شب الخلاف بين المسلمين ، أي الفريقين كان محسناً ، عثمان أم
فائز ؟ وهل كان علي محققاً في وفاة أهل أم عائشة ؟ وكيف نحكم على
كل من كان يمدح إدارة الحرب في صفين . من هو مركب العصيان
منهم ؟ ومن الذي يعد بحق فاسقاً ؟

وكان المعتزلة أجراً الفرق على تحليل أعمال الصحابة وتقديم واحد
الحكم عليهم بصورة عامة ، بينما تعاشت المرجئة إصدار حكم من هذا
النوع ، وكانت أحكام الخوارج ضيقة لا تعدو مسائل محدودة كالتحكيم
وعلي ومعاوية والخلافة ، أما المعتزلة فأصدروا الأحكام بكل صراحة ،
فواصل بن عطاء لم يجوز قبول شهادة بعض الصحابة ، وجوز أن
يكون عثمان وعلي على خطأ ، وأنكر عمرو بن عبيد أبو هريرة وطعن في
روايته ...

ويظهر لنا ان الدولة الاموية وقعت موقف المتفرج من المعتزلة فلم
تعرض لهم بشراً ولا خيراً ، لان فقد المعتزلة لبعض الصفات خصوصاً لملي
كان موافقاً لسياسة ، واغراضها .

كما ان هناك من بني امية ومن الخلفاء من ايسد المعتزلة واعتنق
فكرهم كيزيد بن الوليد ومروان بن محمد ، وهذا مع فقد المعتزلة
للعادية ومروان العاص ، ومع انه لم يرض كثيرهم لمعوية باستنار
اموال الدولة لمصلحة الحنة .

ولا يجب اننا نغرب عن الاهدان ان الذي ايد المعتزلة هم آل مروان
لا آل سفيان ، وآل مروان كانوا الحكام عندنا ، واما آل سفيان فقد
انهار حكمهم بعد مدة وبذلك في .

وكان المعتزلة الى هذا يسمون انفسهم اهل العدل والورع ، واما
العدل فانهم يقولوا صدق الله ، وعدوا القول به بعد ذلك .

واما العدل فانهم يزعمون انه لم يقوله خصوصاً من انه قدر على
الناس المعصية ثم عذبهم عليها ، وقالوا ان الانسان حر فيما يعمل ، ومن
اجل هذا ، عذب على ما يفعل ، وهذا عدل .

والواقع انه ليس في القرآن اي شيء يحرم . لا يمكن ان يكون العدل
على ان الانسان مسير لا محير ، لان الانسان بحسب غنى عمله ، واذا
فأعماله اساس كل شيء .

ومن المفروض طبعاً ان الله خلق الانسان ، وخلق له عقلاً ، ومن
حكم عقله في عمله ، وقد يح ، ومن حكمه ما خلقه قد خلق ، وسبحانه
ولعلي قد عزم من الاذن طبعاً ان فلان الذي خلقه سيفعل كذا ، كذا ،
ومعرفة الله ما سيفعل فلان ليس بعد الله قد خلقه وفرو عليه العمل
المذكور ، لان معرفة الله ما سيفعل فلان شيء مفروض واجب لضرورة

كونه الله ..

وكذلك الامر في انه لا يصدر عقل من ابدان الا بذن الله ،
بفسر ايضاً على هذا النحو ، ولكن العقل الانساني هو انفراد الانساني
لاعمال الانسان .

ولولا ذلك لما رفع الله الحجاب عن المجهول وضميت العقل ، واذا
فالعقل وكله اساس الحساب ، ولولا ذلك لوجبت محسبة المجهول ايضاً
لانه مسير ، كما ان غيره من العقلاء مسير .

اما الآيات الواردة في القرآن من امداد وحده الله على فروعهم وعلى
سمهم وعلى ابدانهم غشوة فهم لا يعقلون ، فيجب ان نعتبر على
النحو الآتي :

انه يتعلق بحكمة الامة لوجه بعمده وعنده الى الاشخاص الذين
يريدهم في الوقت الذي يشاء ، وان يميز الانسان في الاشخاص الذين
عندهم استعداد عقلي وقوة ارادة ليكونوا امثلة حسنة لسواهم ، ويترك
الاشخاص الذين ليس عندهم هذا الاستعداد وشأنهم ، وهذا الشر المتأصل
بهم ينقلهم من سبي الى اسراء .

ويؤيد ذلك ان القرآن يعرض في محفل غير المسؤول غلطية
المسؤول ، فلا يمكن والحالة هذه قبول فكرة ان الانسان مسير ، وأنه
والحالة هذه بحاسب على الخطية وهو ليس مسؤولاً عنها ...

ولم ينشر مذهب الاعتزال ، لا في العهد العباسي ، وان كان قد
نشأ في العهد الاموي ...



المدينة حامية الأول لمدينة لاسلامية العرب



مكة حيث ولد محمد بن عبدالله

التربية والتعليم في الدولة الاموية

التربية والتعليم عند العرب قبل الاسلام

ليس في العنوم العربية التي وجدت اليه عن العرب في العربية قبل الاسلام ما يستحق الذكر فقد كان العرب يعرفون في بلادهم وصحرائهم مثل ما هو مفروض ان يعرفه غيرهم من الامم من كانوا في مثل حانهم ومواطنهم مثل مواطنهم .

كانوا يعرفون شيئاً عن النجوم ومواقعهم لان طبيعة الصحراء كانت تحتم عليهم الانتقال بحجراتهم وانعدامهم من نفع الى نفع ، ومن صنع الى صقع ، فكان من المفروض ان يعرفوا في الاهل في الصحراء على النجوم ومواقعهم لان العرب كانت لهم كمال كمالهم في الصحراء ، واكثر ما كانت في الصحراء لان الجو يكون ارجح والهواء ابرد .

واحتاجوا في مطاردة اعدائهم وحجراتهم الى استنباط الادلة للكشف عن مخائهم ، فاستنبطوا فائدة الاثر ، والحكمة ذلك انحاء الى ترفى حوادث الجو من المطر والافاء حير وكبره . فعنوا في التنبؤ عن حدوث الامطار وهبوب الرياح قبل حدوثها . وهو ما يعرفون عنه بالانواء وهباب الرياح .

ودعاهم الغزو الى العصبية يتألفون بواسطتها الحروب فعدوا الى الاسباب يترابطون بها ، ويرعوا في دواجنهم والارواح والغزو وكبره مما افترقه حياة البادية يقتضي العناية بطيل والسلاح ولو كانوا اهل

حاضرة لا تقنوا صنع السلاح ، واما الخيل فبرعوا في تربيتها وانتقالها
ومعالجة امراضها ، وكانت عنايتهم بالرجال مثل عنايتهم بالخيل .

والعلوم التي كانت شائعة عندهم قبل الاسلام كانت ضرورية لهم
باعتبار الاقليم الذي تولوا فيه ، واقاموا به ، والعرب الى ذات لم ينعموا
هذه العلوم في المدارس ، ولا القوا فيها الكتب ، لانهم كانوا اميين
لا يقرأون ولا يكتبون ، وانما هي معلومات تجتمعت في محفوظهم بدواني
الاجيال بالاقباس والامتنياط ، وتوفقت في الاعقاب .

واذا امعنا النظر في مصادر العلوم العربية القديمة رأينا بعضا
بالعرب ، ثم عندهم ، والبعض الآخر دخل من مصادر اقرب من الامم
الاعرى ، فالعلوم العربية هي الادب والشعر والحطابة .

والدخلة : النجوم والاسب والافراء والخيل ومهاتب الريح والميتولوجيا
والكهانة والفرافة وغيرها .

والذي يفتت بحته في هذا الفصل هو ان العرب في الجاهلية لم يكونوا
ينعمون بشي مما يسمى تربية في رعات ، ولا علميا في عهدهم ، ولم
كانوا قوميا اميين لا يعرف القراءة والكتابة الا بعض افرادهم
كانو يسكنون المدن ويقسمون فيها . .

التربية والتربية في الاسلام

والمدارس بمعنى المعروف اليوم لم تكن موجودة لا قبل الاسلام
ولا بعده بقليل ، وفي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رسول الله طلب من
الاسرى المكيين الذين وقعوا في يد المسلمين بعد معركة بدر ان يعلم
من يعرف القراءة والكتابة منهم المسلمين القراءة والكتابة .

واذا فتحنا امام اول مدرسة في الاسلام ، وهذه المدرسة كانت

في المدينة لما اخذ الاسرى انكسبون من قرش يقومون بوظيفة المعلم
 لجهة المسلمين ، من الذين لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة .
 وانظر ان القوم في هذا الزمن -- هذه الفترة التي سبقت ظهور
 النشيط العمي والادبي في عهد امية -- كانوا يعتمدون التعليم الكامل ،
 الشخص الذي يقرأ ويكتب ويبيع ويستعمل السلاح . وقد نقلنا هذه
 الكلمة عن الاعني ، وافهم الساحة في هذه الجهة بل على تأثير اليونانيين
 الذين كانت لهم مراكز بحرية ، او العرب من جنوبي الجزيرة الذين برعوا
 في ركوب البحر .

المدارس حرة المذهب

ولكن الشيء الذي يلفت النظر في دراسة تاريخ التربية والتعليم
 عند العرب ان الذين اغوا بشؤون التربية لم يكونوا من رجال الحكم
 وانما كانوا من افراد الشعب الذين تطوعوا للتعليم والدرس ونشر
 المعارف .

وفي المصادر الدرونية القديمة ان رسول الله ارسل معاذ بن جبل الى
 اليمن معلماً ومرشداً . . .
 وارسل عمر بن الخطاب صداقة بن مسعود معلماً ومرشداً الى
 الكوفة . . .

وعندك ظاهرة اخرى هي علافة النظام التربوي الذي اجراه
 المسلمون الافراء أنفسهم لا الحكومة ، بالدين وتأييد الدين عليه ، فقد
 دعا القرآن الى طلب العلم ، وحصى محمد المسلمين على العلم ولو كان في
 الاماكن البعيدة النائية . ودوره اسبق والمتاعب ، ولتنفيذ هذه
 الرعاية التي ابدع القرآن ودعا اليها محمد ، شات مئات المدارس في

مختلف الاقطار الاسلامية القريبة والبعيدة .

ويقول الأستاذ « هل » في كتابه « الحضارة العربية » :
 « اما ان المسلمين قد اسسوا مدارس للتعليم العام في بلاد العرب ،
 وفي البلاد المفتوحة فهذا شيء ثابت ، لا يستطيع الحضارات القديمة الاولى
 ان تنافي بشيء من مثله » .
 وكانت المدارس الابتدائية مقدمة للتعليم العالي الذي كان من
 « فائده حرية الرأي والتفكير ، ونشر العلم والبحث عن الحقيقة » .

المدسة الاولى

وكذلك نرى ان الاسلام منذ نشأته ، وفي سبيل العلم ، قدم المسجد
 ليكون المدرسة الاولى ، وليكون السكك الاول للجماعة الاسلامية ..
 ولما كان المسجد للصلاة ، وكان مطلب العلم من جملة الواجبات
 المفروضة على المسلم كالحلاة مثلاً ، فقد فتحت المساجد ابوابها للدرس
 والتعليم ..

وفي ذلك العهد الاسلامي الاول كان الداخلون الى المسجد يشاهد
 منظرًا عجيباً ، فذلك في طرف المسجد جماعة يصليون ، وآخرون يقرؤون
 القرآن ، وفي ركن آخر ، جماعة من العلماء والادباء يفسرون قصيدة
 من قصائد الشعراء المعاصرين او الشعر الجاهلي ، كما نجد في ركن ثالث
 عالماً جالس حوله تلاميذه ، وهو يشرح لهم بعض اصول الطبعة ، او
 يفسر لهم بعض آي القرآن ..

المسجد اذاً لم يكن للدين والصلاة فقط ، وانما كان مركزاً بارزاً
 لطلاب العلم والمعرفة ايضاً ، واخرى في مسجد البصرة الفى محاضرات
 عن الشعر كانت بعبدة كل البعد عن الدين والحلاة ، وفعل مثله غيره

من العلماء في مختلف مساجد الأندلس .

طريقة التدريس

وكان المدة المتبعة عند العرب ، ان يحضر الى بحث الموضوع الذي يحضر اليه التدريس ونقده في وقت الدرس نفسه ، وكان من اثر ذلك ان كان العالم ، يبرهن عذبة نوعية بعلومهم ومحاضراتهم ، وقد حصل غير مرة ان يتوقف الحاضر في المسجد عن اتمام محاضراته ، اذا رأى من هو اعلم منه قد اقبل عليه ويجلس في حلقته ، ويتولاها مكانه ويجلس بسيفه بديهة كاحد التلاميذ الطلاب .

وكان يحضر الى التدريس في حلقات تجلس فيها الناس على الارض في ركن من اركان المسجد ، ويتولى الأستاذ مكانه في اول الحلقة ، ويجلس التلاميذ في حلقته ، والتلاميذ حولهم .

وبما كانت العربية هي اللغة السائدة في التدريس ، فقد كثرت كل فادى من الفدى ، بلاد العربية الى المسجد يستطبع لغتهم هذه المحاضرات ، وكان هؤلاء التلاميذ يسمون معهم عند عودتهم الى بلادهم البعيدة ، خلاصة المحاضرات التي سمعوها ، والدروس التي حضروها ، فكانوا والحالة هذه كالمجلات والمجلات والكتب الحائرة اليوم لنقل المعرفة من مكان الى آخر .

ويقرر المستشرقون الاثنان وغيرهم : ان احداً في العلم - من الامم ، الجاهل حتماً - لم يظهر مثل هذه الرغبة التي اظهرها العرب في طلب العلم ، والذي لا يحد من المعرفة من الاقطار البعيدة والبلاد السحيقة ، وان حديث طلاب العلم العرب حديث لطيف جذاب لا مثيل له في تاريخ امة اخرى .

ويقول فون كرمير النمساوي : « انه لا يعرف صورة قتل هذه الرغبة الملهمة التي ظهرت عند المسلمين في طلب العلم ، مثل قصة « ياقوت الحموي » الذي كان رغباً عن الخطر الذي يهدد بغداد من المغول ، ويهدد في الوقت نفسه الدولة الإسلامية في ذلك العهد ، لم يمتنع عن المضي في عمله العلمي في مكاتب مرو البعيدة عن وطنه ومولده . (١) »

« وما اضطر الى المغرب ، استطاع انقاذ اكثر اوراقه معه ، ومع الاضطراب السياسي الذي كان يغمر الامبراطورية الإسلامية العربية ، فقد راح يعمل على انهاء كتيبه على الوجه الذي قرره ، قبل الاندفاع على رحلة ثانية قد تكون الأخيرة . . . »

وفي التاريخ العربي مئات من أسماء الأشخاص الذين كانوا يطوفون الارض في طلب المعرفة والعلم ، وكان اول ما يطلبه الحصول على احاديث رسول الله من الصحابة الذين افرقوا في البلاد المفتوحة بعد المعزوات العربية الاولى ، ثم نقول الشعراء الاقدمين واخبارهم ، ثم العلوم الاخرى المختلفة .

وكانت العادة الشائعة ، ان يكون المرء عالماً بالفرع الذي يريد التخصص فيه ان يستمع الى محاضرات العام الثقة في الفرع المذكور ، ومنى احسن الاستماع ، ونجح في الامتحان اكرم اساقفة اجازة هذا او سمح له بتعليم الفرع الذي درسه وانقته . . .

وكان طلاب العرب عظاماً جداً ، وكثير هم الأشخاص الذين كانوا ينوكون بلادهم وعيالتهم في طلبه ، او الاستماع الى عالم كبير طارت شهرته وفشا امره ، وليس انه ولا اجسمل من قصة هؤلاء العلماء الذين كانوا يركبون الارض الأشهر العديدة في طلب حديث واحد ، من

(١) ياقوت : صاحب معجم البلدان ، ومعجم الانباء

أحدث رسول الله .

وكما صار درس القرآن وأحدثت والأدب والنحو والصرف في المسجد
صار درس الفلسفة اليونانية فيه أيضاً .

ولكن الشعراء والأدباء الذين كانوا يرغبون في الحصول على أكبر
قطر ممكن من الفصاحة العربية ، كانوا ينهضون إلى الشاذة طلباً للبيان
والفصاحة وعراة اللغة . . .

وكذلك كانت المدرسة مخرجة أدوية عالية الطلاب البيان والفصاحة
من الشعراء والأدباء والكتاب .

عهد حمير محمر

وهذا العناء الذي كان يجره العلماء في المساجد في الدرس والتمهيد ،
وهذه الجهود التي كانوا يصرفونها في نشر المعرفة ، كانت مجتهدية حرة لا
يطلبون من تلامذتهم عنها جزاء ولا شكوراً .

وكان الأمر كذلك في الياضية فإن التمام فيها أو طلب الفصاحة
والدلالة فيها لم يكن يكلف صاحبها مثلاً ، وإن كثرت بكفه شيئاً من
العناء وإنشاق ضيقاً .

والياضية كما كانت مدرسة لطلاب الفصاحة من الشعراء والأدباء ،
كانت مدرسة أمراء أمية أيضاً ، فإن كثيراً من الأمراء الأمويين
كانوا يرسون أولادهم إلى الياضية تقويماً لآلتهم ، ومعاً هم من الوقوع
في اللحن ، الذي كان شياً مكروهاً في تلك الأيام .

ظهور المدارس الخاصة

وفي عهد الأمويين ظهر المؤدب الخاص في البيوت ، وكانت العائلات

العنية طبعاً تستطيع ذلك أكثر من سواها ، فكانت تكاف أحد الاساندة القيام بتأديب اولادها في غرفة من غرف البيت لقاء اجر معين في الشهر ، وكان على هذا الاسناد ان يعلم الاطفال القراءة والكتابة والقرآن والشعر والادب .

وكانت المدارس الابتدائية موجودة في القرن الهجري الاول في كل قرية او بالقرب من كل جامع .

وهذه المدارس كانت عبارة عن كتاب او حجرة واحدة يحضر فيها الطلاب الصغار حول اساذ يعلمهم اصول القراءة والكتابة وقراءة القرآن ، وبأخذ على ذلك اجراً معيناً من كل تلميذ ، يؤيد ذلك ان ابا مسلم الخراجي تعلم مدرسة ابتدائية بخراسان .

واول المعلمين في الاسلام كانوا القراء حفظ القرآن ، وفي عهد عمر بن الخطاب نواه ارسى القراء الى الاطراف ، وامر الناس بملازمهم يوم الجمعة للاستماع الى قراءة القرآن .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز ارسى الخليفة عمر الى مصر قاضياً هو يزيد بن ابي حبيب ، كان اول معلم في مصر (١) .

وفي الكوفة نسمع عن شخص اسمه الصادك بن مزاحم كانت عنده مدرسة ابتدائية صغيرة وكان يعلم الطلاب فيها مجاناً ومات سنة ٧٢٣ م وقد نقل هذا الخبر ابن سعد نفسه في طبقاته .

وبجيرة يافوت انه في القرن الثاني الهجري جاء اعراقي الى البصرة وفتح مدرسة مجانية ايضاً (٢) .

وكان الاساندة في هذا العهد لا يرون صغير امر في استئصال

(١) البوسني .

(٢) يافوت .

التأديب البدوي ، فإن الآخر عن هذا كثيرة ، وعمر بن عبد العزيز
الخليفة استعمل الضرب مع أولاده ، واحتوا في أصول الحرف والنحو .
وفي القرن الثاني كانت توجد مدارس ابتدائية للأطفال في (نستر)
من أعمال فارس ، وكان الأطفال يحضرون هذه المدارس دون أي ضغط
من الحكومة . . .

والظاهر أن الأطفال من سن السادسة من العمر كانوا ينهبون إلى
المدرسة ، وكان حضور المدرسة مباحاً للجميع حتى للعبدة .

درجات التعليم

وإذا فقد كان هناك في عهد الأمويين وأوائل القرن الثاني الهجري
مدارس ابتدائية للأطفال . وهذه كانت تقوم إما بجوار المساجد أو في
غرف خاصة في مختلف البلدان العربية .

وكان هناك أيضاً مدارس لتعليم العاني ، وهذا التعليم العاني كان
مقره المسجد ، ويقوم به علماء الحرام ، لا يأخذون على دروسهم أجراً .
وكانت حجرة التعليم مغلقة ، ولا ادخل على ذلك من الخلفاء الفرق
الدينية في الإسلام أول القرن الأول . وكان امرأء دياراً ان ثم في
المسجد الواحد عدداً من العلماء يدرسون مذاهب مختلفة ، يروج كل واحد
منهم لمذهبه ورأيه ، مع وجود الاختلاف بينهم على أمور كثيرة .

وهناك شيء آخر ، وهو انه وإن لم يكن هناك نظام حكومي
يجبر الناس على طلب العلم ، فقد كان الناس يفتشون العلم ، كما لو كان
هناك حكومة تأخذهم بالقوة إلى العلم اخذاً .

وكان صفار البخت يحضرن المدارس الابتدائية بجانب الأطفال ،
ولكن التعليم كان محدوداً ، كان الأستاذ يدرس تلاميذه وتلميذاته

القرآن ، واحول الدين ، وهذا طبعاً بعد تعليمهم القراءة والكتابة ،
وفي بعض المدارس صار تعليم الصرف والنحو .

وكان من جهة ما يتصح به الاسماء تلاميذه ان يقول نعم ، لا نفهموا
الى ملذات الحياة فانها من الشيطان ، واعملوا كل ما يرضي الله .

وكانوا يدرسون مع العلوم العالية في الدين والحديث والآداب
والشعر علم القانون المستخرج من القرآن والحديث والسنة . وكانوا
يقولون ان تعليم فن الطب ضروري جداً لحفظ الاجسام ...

ثم اصبحت العلوم العلمية تقدم في بعض المدارس مع علوم الدين .
وفي سنة متأخرة جداً عن العصر الاموي سنة ١٣٨ هجرية تقرأ
احد العلماء يقول : ففضيت الى الكتاب وتعلمت القرآن ...

ومن لطيف عاداتهم ان الخلفاء كانوا يحضرون تدريس اولادهم
ويشبهون على اساتذتهم بتدبيرهم حتى ولو افترض الامر الى الضرب .
وكان الشعر الجاهلي المنحجب يؤتم فصيلاً كبيراً من برنامج المدرس
لما حواه من المعارف الجغرافية والحوادث التاريخية ولان كان مدونة
لشعره والود ، وكانت الخطبة وتعليم ايام العرب ... اي اهم حوادثهم
الحربية ... مختلفان مراراً لا يستهان به .

وما يجب ان يشار الى ذكره في ختام هذا البحث هو ان اتصال
العرب بهم يختلف عنهم ثقافة و لغة و ديناً و علماء ونعد بسبب ذلك غريبة
عنهم يدل على ان التأثير الغربي لا يعمق الاسلام في كثير ولا قليل ،
فالاسلام يثق كالجبار امام كل المواقف ، وقد يرى بعضهم في هذا
الكلام شيئاً من الاغراق ، ولكن هذا هو الواقع ، والتأثير الغربي ،
والاستعداد الغربي ، والاختلاف الغربي ، لا يضعف من عزية العرب ،
واما يحكمهم بعضهم الى بعض ، ويجعلهم اقرب الى الاسلام من قبل .

نشر المعارف والمعلوم

الاختلاف

ليس من شأننا بحث الخلافة الدينية التي عرفت بالامبراطورية البيزنطية قبل الاسلام ، ولا التبسط في حديث النزاع الذي قام بين مدرستي الاسكندرية ورومية يوم حاول كل منها ان يفضي على المسيحية ثوباً خاصاً ، فان هذا الحديث مكاناً غير هذا ، بجوده القوي في كثير من المؤلفات التي عرضت لهذه الابحاث ، خصوصاً في اللغات الأوروبية . . (١)

اما الذي سمع في هذا البحث فهو ان المصدر التاريخي تؤكد العلاقات الوثيقة بين الحضارة العربية في العهد الاموي وبعده ، وبين الثقافة الاغريقية ، التي احتفظ بها ونشرها جماعة من المسيحيين لم يتكبروا بسبب اختلافهم في الرأي مع كنيسته القسطنطينية ، وبعد ان اغتربهم مجمع افسس هراطقة سنة ٤٣١ م ، من البند ، في اعمار الامبراطورية فغادروها الى نصيبين من اعمال العراق ، وكاتب لهم مدرسة فيها قبل هذا التاريخ افتتوها ، اخذها الفرس من البيزنطيين بعد حرب من هذه الحروب الكثيرة التي كانت تسهر بينها وذهبوا منها الى

(١) Arabic Thought : O' Leary.

وتاريخ جيوت عن الامبراطورية الرومانية والمفالات التي ترجمها عند الرحمن بدوي عن الاثر اليوناني في الثقافة الاسلامية . .

(الرها) فكانت مركزاً للكنيسة التي ينطقون بها باللسان السرياني حتى أغلقها الامبراطور زينو سنة ٤٣٩م فلم يجد السريانيون ملاذاً الا الهجرة الى البلاد الفارسية حيث تقبلهم الفرس قبولاً حساناً بسبب الخدمة التي كانت تقدمونهم وبين الكنيسة البيزنطية ، وفي نصيبين انشأوا مدارسهم للمرة الثانية ، ومنها انتقلوا الى بلاد فارس بمشرون وجهاً للمسيحية مصطبغاً بالصبغة الشرقية ... مستعينين على بث تعاليمهم في الدين والفنون والمطالعة الخشوع من الفلسفة اليونانية ، فصبح كل نسطوري - نسبة الى نسطور - معلماً للفلسفة اليونانية . وفي هؤلاء النسطوريين يقولون (١) : وكان اتباع نسطور اوسع عقلاً ، واعظم ادراكاً واذكى قلباً من جماعة اللاهوتيين في البلاط البيزنطي ، وكانوا اعظم علماً من امتاعهم من علماء الغرب ، وكانوا في الارتفاع العامود الفكري بثقافة العلية في اللغة الفارسية ، واحتفظوا بكثير من العلوم الطبيعية اليونانية وزادوا عليها ، وفي العهد الاموي كان اكثر اطباء الخلفاء منهم ، ومن المؤكد ان كثيراً من النسطوريين اعتنق الاسلام ، ومضى في دراسته وبحوثه الفلسفية والطبية ، كما انهم احتفظوا بكثير من آراء ارسطو مع توجههم السريانية بعد ان نقلوها عن اليونانية الى الفارسية ، والى هؤلاء الاساتذة النسطوريين انقل العقل العربي الجديد من الصحراء فصار منهم كثيراً ، وراد عليهم كثيراً . ومن هذا التمازج بين الثقافة الاندلسية التي احتفظت بها مدرسة الاسكندرية في مصر ، ونصيبين في العراق وجنديبور في فارس ، وبين العقل العربي نشأت الحضارة العربية ، سواء من هذه الحضارة التي نشأت في دمشق ، او التي ابتثقت عمقاً في بغداد وقرطبة ...

(١) Outline of History, p. 625.

بحيث استبق العرب أوروبا في كل المعارف والعلوم المعروفة في ذلك
العهد ، وإلى مذاقهم - المدارس العربية - كمن الطلاب الأوروبيون
يجرعون من كل حلق ومصر ، وكانت جامعة قرطبة أم الجامعات العلمية ،
وأم العلماء الأوروبيين الذين تعلموا معارف العرب في باريس واكسفورد ،
ومن الحق أن نقول ، أنه بواسطة العرب لا بواسطة غيرهم من الأمم
بمنهم العالم أخذت بنعمة العلم والمعرفة ، ١١

وكانت استمداد العرب نقول الفلاسفة اليونانية عن طريق النساطرة
وغيرهم مبرعاً غريباً ، فقد تمكن العرب في مدة وجيزة بعد وفاة الرسول
من نقل خير ما وجدت به فرائع الرومان واليونان إلى العربية ، واثرت
التعاليم الجديدة في فهم العرب معنى القضاء والقدر ، كما تعلموا مبادئ
المسلمات والنتائج ، ١٢

ولم يأت عهد المؤمن حتى ألقت العرب كروية الأوغس ، وشرعوا
في مسح عطره بأروغهم من تكفير أحد الفقهاء لمخيلة من أجل ذلك .
وكذلك وفي أنه ما كاد القرن الثالث من الهجرة ينتهي في البلاد
الإسلامية حتى كان الظلال شديدة بين معاني الثقافة الإسلامية ، وانت
المسيحيين في آسيا ، والعلميين في مصر ، والأوروبيين في إسبانيا ، كانوا
يتنافسون في نشر العلم وتشجيعه ، وبما تجب ملاحظته أن نقل المسلمين
للعلم لم يكن عن طريق اليونان أوروبا ، وإنما كانت عن طريق الإسكندرية
والبحر الأحمر حيث نشأت الأفكار الهندية على التجارب والملاحظة لا على
الوهم والغيب والمثسفة

الاسلام والتخلف

وقد جاء الاسلام كان من اهمه دعا اليه القرآن جانب العلم والعمل على تحصيله ، وحدث الخديجة على طلب العلم ولو كان في الصبي ... كما اصابان رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب على تعليم المسلمين اذا ما شقوا اقتداء انفسهم ، كما حرص رسول الله على ان يكون حظ المرأة مثل حظ الرجل في العلم فحث الرجل على تعليم اهله وذويهم (١) كما حث على تعليم العبيد من النساء ثم اعادهن والتزوج بهن ، واذا كان هذا حظ الامة من رعاية الرسول فماذا حظ المرأة المفروضة في وظيفاتها بعلومها وبمؤدتها على الوجه الاكمل والاعلى ...

وبعتبر الفقهاء ان من اول حقوق الامة على الخليفة نشر العلوم والشرعة وتعظيم العلم واهله ، ورفع مدرسه ، ومحاولة العلم والاعلام النعماء للدين الاسلام ، ومن واجبهم في موارد الاحكام ومصادر المنفعة والايام ، (٢)

وقد استفاد كثيرون من الصحابة من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ علي بن ابي طالب في الفقه ، وبلغ محمد بن جابر في العلم بالطلاق والحرام ، وزيد بن ثابت في تفسير اموارث والاصبة في الغنم وما اليها ، وابي بن كعب في قراءة القرآن .

ولما بدأت الفروع تفرق هؤلاء العلماء من الصحابة في الامصار الاسلامية الجديدة ، فنزل بعضهم البصرة ، وبعضهم الكوفة ، وبعضهم (٣) من حديث عن ابي هريرة ...

(١) بدر الدين بن جماعة : تحرير الاحكام في تدبير اهل الاسلام ، المنشور في ايجل الرابع لسنة ١٩٣٥ من مجلة الاسلام ، الادبية من ٣٦١ .

ظل في المدينة ، وآخرون ذهبوا الى الشام ، فاجتهدوا في كل هذه البلاد
حركة علمية قوية ، والتف حولهم التلاميذ يأخذون عنه العلم ، وينشرونه
بين الناس ...

ولم يكن جميع هؤلاء من العرب بل كان بعضهم من الفارسيين - اي
من الذين اسلموا من غير العرب - ولذلك كانوا بحاجة الى تعلم العربية
لغة القرآن والحديث ، ومن هنا نشأت بعض الدراسات المفوية كالشعر
والعرب ...

وكانت العناية بجميع في اول الامر مقتصرة على العلوم الدينية ، وما
يتعلق بالقرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، واستنبط الاحكام الفقهية
والفقه الشرعية فيما بعد من مث كل خلقه ان يدل الايام وتقدم العلوم ،
ولذلك كان اول ما انتشر من العلوم في عهد الامويين هو لغة
الدين ودراسة الدين ، مع بعض العناية بالترجمة والعلوم الفلاسفة
الاخرى

عهد معاوية وبعده

وكانت سياسة معاوية الرخوة سبباً من اسباب انصراف المسيحيين
المؤمنين في عهد الدولة الاموية الى العناية بمختلف العلوم التي تفوقها عن
اليونان وغير اليونان ، فارتب معاوية الطبيب المسيحي ابن ابي العبد ،
واخذ يستمع الى القصص التاريخية القديمة ، التي كان يقصها عليه عبيد بن
سرية الجرمي (١) اما خالد بن يزيد بن معاوية فهو اول من انصرف عن
امراء امية الى البحث العلمي ، وهو الذي طالب من (سفيان)
(٢) انظر كتب العرب لابن النديم ، واسعد ذكر في تاريخ دمشق ، ومجمع
الادباء لياقوت ...

و « ماريانوس » ترجمة بعض الكتب الى العربية .
 وكان خالد مؤلفاً ايضاً ، وبذكرنا ابن النديم في فهرست اسما
 بعض مؤلفاته ، وبذكره ابن ابي اصيبعة مثل ذلك (١) ويقول الاستاذ
 شيلي : ان الترجمة من السريانية الى العربية بدأت في عهد عبد الملك بن
 مروان ، واما الاستاذ لكفرك فيقول : ان ذلك وقع في أيام عمر بن
 عبد العزيز ...

ويقال ان عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي اهتم باللغة الاغريقية
 لما كان أميراً لمصر عهد سليمان بن عبد الملك ، حيث تعرف على « ابن
 الايجر » استاذ الفلسفة اليونانية في مدرسة الاسكندرية ، ولما تولى عمر
 الخلافة عين ابن الايجر مديراً لدائرة الطب ...

وبجدة ابن ابي اصيبعة (٢) : بان في عهد عمر بن عبد العزيز صدر
 نقل العلوم اليونانية من مصر الى انطاكية وحران (٣) ومنها انتشرت
 هذه العلوم في البلاد الاسلامية الاخرى .

ويعتقد الاستاذ شيلي ان سبب ذلك السحاب ابن الايجر من مدرسة
 الاسكندرية .

ومن جهة الاسباب التي ساعدت على الترجمة ظهور فئة من الناس
 كانت تفهم العربية وبعض اللغات الاجنبية الاخرى . وهذه الفئة
 كانت من العرب المسيحيين الذين اسموا اول الفتح او بعده بقبيل ، او
 من العرب الذين تعلموا إحدى اللغات المعروفة في عهدهم كصالح بن
 عبد الرحمن ، وعبد الله بن عبد الملك .

(١) احوار الحكماء .

(٢) اخبار الحكماء .

(٣) كانت مدينة « حران » اشهر مركز لغوية والثقافة اليونانية .

ونسبع بعد عمر بن عبد العزيز ان سائما كاتب الخليفة هشام بن عبد
الملك ترجم بعض كتب ارسطو الى العربية .
كما نقرأ ان جيله ابن سائما ورث عن ابيه كثيرا من معارفه وعلومه
فترجم بعض الآثار التاليفية التي تسمى الى العربية ، وقد ذكر ان السليم
اسماء كتب المترجمة .

ويظهر ان هشام بن عبد الملك كان كثير الشوق للاطلاع على الآثار
الادبية الخاصة بعلوم الأخرى من غير العرب ، وقد ذكر المؤرخون ان
من بين الآثار الفارسية التي وقعت في ايدي العرب كتاب كامل عن
تاريخ فارس يحتوي على مورد الإكاديمية الذي صدر ذكرهم في الكتاب .
وان هشام الخليفة امر بترجمه هذا الكتاب الى العربية سنة ١١٣ هجرية
وبجهد السموذي انه رأى هذا الكتاب سنة ٣٠٣ في اصفهان .

وبوت هشام ، وفاء الاضطرابات الداخلية هذه ، نوعت حركة
الترجمة كما يظهر ، فلا يعود يسع علم شيئا .

ولما تولى العباسيون الخلافة ، فاقوا على اسس ثبات من الادارة
والسياسة ، والمعارف والموروث والفنون التي وضعها الامويون
وسكنوها في الأرض .

مراكز الخلافة

اما البلدان اللذان سيطرا على الحركة الثقافية في عصر اموية فيها
البصرة والكوفة ، هذا اذا استقبل دمشق التي كانت عاصمة الدولة .
وقد صار انشاء البصرة والكوفة في عهد عمر بن الخطاب ليكونا
معسكرين للحاويين العرب ، فنشأت الكوفة غير بعيد عن مواطن
الحضارة البابلية القديمة ، وكانت تحت مقام الحيوة وحيمة الخليفة من

ملوك العراق قبل الاسلام ، ونظراً لتركزها التجاري العجيب ، أصبحت تعد بعد سنوات قليلة أكثر من مائة وجميع الف نسمة .

أما البصرة التي كانت تحكم خراسان ، فقد أصبحت في سنة ٥٠ للهجرة لا تقل عن ربع مليون نسمة ، وكان فيها ما يزيد عن (١٢٠) ألف فتاة . وهنا على مقربة من فارس والحضارة الناصية القديمة بدأت تظهر الدراسات العلمية في اللغة العربية ، وقدم بذلك بعض المسلمين من غير العرب الذين كانوا حاجتهم الملحة إلى درس القرآن بخطرهم إلى درس أصول الصرف والنحو ، أو إلى وضع أصول للصرف والنحو ، تعصمهم عن الوقوع في الخطأ واللحن .

وكان أبو الأسود الدؤلي الذي مات سنة (٦٨٨ م) أول من بحث أصول النحو والصرف ، وما لا شك فيه أن في هذين العلمين بعض آثار المنطق اليوناني ، ثم جاء الخليل بن أحمد وهو من النصارى أيضاً ومات (٧٩٦) فوضع معهما عربياً أسماء كتاب اللغز هو الأول من نوعه في العربية . ثم ظهر تلميذه سيدييه (مات سنة ٧٩٣) فوضع أول كتاب عن النحو والصرف في العربية ، وجعل للصرف والنحو أساساً ثابتاً مقررأ ...

ظهور الحديث وهو أساس الفقه الاسلامي

ولما كان القانون في الاسلام اعلى بالدين أكثر منه بأصول التشريع على نحو ما يفهمه الأوروبيون ، فقد أخذ المسلمون يدرسون الحديث ، ويدرسون في الوقت نفسه تاريخ الرواة من المحدثين لاهتمامهم بمر الحديث وحرصهم على الوثوق من صحة رواية وإمانة روايته ، ولذلك كانوا في حاجة إلى تعرف حال هؤلاء الرواة ودراسة تاريخهم وأخبارهم ، ومعرفة

أقسامه وقبائلهم ، فكان ذلك كله نواة صالحة وثروة غزيرة لعلم التاريخ والاحبار .

وقد اشتهر من رجال الحديث عهد الامويين الحسن البصري ، وابن شهاب الزهري (الذي مات ٧٤٢ م او ١٢٤ هجرية) وسعيد بن المسيب في المدينة ، وديلمة الراي وهو شيخ الامام مالك ، ومالك بن انس الذي نشأ في اواخر عهد الدولة الاموية ومات سنة ١٧٩ هجرية ، وهو صاحب كتب « الموطن » الذي جمع فيه ما يقرب من ١٧٠٠ حديث . ومن العرب ان اكثر الحركات الاسلامية الدينية ظهرت في البصرة او غم بها رجل من البصرة ، كالحسن البصري مثلاً ، فان الحوفية تدعيه ، والمعتزلة تقول إنه منهم ، وكان تأثيره من القوة بحيث انه لما مات خرجت البصرة كلها نواحيه التراب نشرين الاول ٧٢٨ م وهو حادث غريب في الاسلام على رأي ابن خلكان .

واما الكوفة فكانت بسبب تشعبها اقل تأثيراً من البصرة ، وبسبب ذلك ايضاً حدث التماس بين البلدين في كثير من المسائل العلمية والدينية والفقهية ، وكان من أشهر رجال الحديث في الكوفة عبد الله بن مسعود وهو مسؤول عن ٨٤٨ حديثاً ، ومن رجال الكوفة عامر بن سراحيل الشعبي ، مات سنة ٧٢٨ ، وهو موضع ثقة المؤرخين في احاديثه ومن تلامذته الامام ابو حنيفة ، وقد ارسله عبد الملك بن مروان سفيراً عن الامير اخنوخة العربية الى بلاط القسطنطينية .

تاريخ والنسب

وفي الوقت الذي كان يصاد فيه اى جمع الحديث ، كان يصاد فيه ايضاً اى وضع التاريخ ، وكان عبيد بن شريك صاحب معاربة اول من

ليس هذا النوع الذي كان يسمى قبله قصصاً توب التاريخ ، وقد ألف
معاوية كما نقل كتاب ، الملوك واخبار المذنبين ، ويقول السعدي انه
رأى هذا الكتاب سنة ٩٥٦ م .

وقد روى ان عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ هو اقدم من ألف
في السيرة النبوية ، وكذلك ابن بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ هـ ،
وقد جمع نفسه عبد الرحمن بن المغيرة كتيبه في سيرة الرسول .

وكذلك وروا ان ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ جمع
كتاباً في المغازي ، ومثله موسى بن عتيق المتوفى سنة ١٤١ هـ ، وقد
عثرنا على قدر من كتيبه طبع سنة ١٩٠٤ م .

ومن المشهورين في علم التاريخ وعب بن ميه وهو من صماء ونوفى
سنة ٧٢٨ م ، وهو يهودي يني من اصل فارسي ثم اسلم واخباره غير
موثوقة ، وله كتاب في ملوك حمير مطبوع في جند اباد من اعمال
الحمد .

وهذه كتب الاحبار وقد مرت في حمص ٦٥٢ او ٦٥٤ ، واخباره
التاريخية ايضاً غير موثوقة ، وهو يهودي يني اسلم ، وكان من مستشاري
معاوية على قول بعض المؤرخين ، وبواسطة هذين الرجلين وغيرهما من
اليهود دخلت الى التاريخ الاسلامي اخبار يهودية عن الحوادث السالفة
للإسلام يعطب عليها الاغراق والضعف .

وله ولي عبد الملك بن مروان ادخل كثيراً من خبر يهود الاصلاح على
العربية ، منها تحسين الحروف العربية وكانت حلاً من الحروف
المنقرطة - ليستطيع الناس قراءة القرآن والتفسير والحديث دون ما
خفاً ولا لحن .

علم التدوين عند العرب

وإذا اردنا الرجوع الى علم التدوين عند العرب في الجاهلية وجدنا ان معارف العرب قبل الاسلام في التدوين كانت ساذجة جداً ، ولكنهم كانوا اهل العناية الامة عليهم بذلك كرون ايامهم واحداثهم من طريق الرواية الشفهية على هيئة اشعار مفعلة او اخبار متفرقة ، ولقد عن تلك الحال من اطرح منهم البداهة ونزل حواضر الجريفة وخاصة اهل اليمن والطيبة ، وقد نقش الاولون بخط امستد على مياثهم فمما حسن اخبار ملوكهم وشؤونهم العامة ، وروى الآخرون بخطهم اخبار ملوكهم وارادوها اديار الخبرة وكذا سواها .

فلم جاء الاسلام ، وفازت الدولة العربية ومست الحاجة الى معرفة خبر الرسول العربي واحواله استقصاء فمما توفر رجاء على جمع اخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب في الاسلام بالتدوين ، وان كان التدوين لم يخرج يومئذ عن كونه نوعاً من انواع الطبوت . وفي اثناء ذلك كانت قد نمت الفنون العربية الكبرى ووفعت الفنون العظيمة ، ونبت عرق العصبية القبلية ، وشاعت بين المسلمين اخبار الامم القديمة والديانات غير الاسلامية على ايدي رجال مشاي كعب الاحبار ، وسواء فتوافرت اسباب شتى اقتضت جمع الاخبار المتصلة بكل ذلك وتدوينها ، فتدوين اخبار القدماء مثلاً دعت اليه رغبة العلماء في فهم اشارات الى الامم الغابرة وردت في الكتاب والسنة ، وميل بعض الخلفاء كعدوية والمنصور الى الاطلاع على سياست الملوك ومكابدهم ، هذا فضلاً عن حرص المرواني على التنويه بتجدد بلادهم القديم . ثم ان تدوين الانساب وامايم العرب كان مطاوعة

حاجة الشعراء إليها عامة في مقام التمجيد والتهنئة ، وحاجة الدولة للانساب خاصة الاستعانة بها في تقدير العطاء والتبجيد ، وكان الباعث الأقوى على تدوين أخبار الفتنوح رغبة ولادة الأمور في معرفة ما فتح من البلدان صباحاً ، وما فتح غنوة ، وما فتح بعدد ، لأن لكل حكماً خاصاً مسن حيث الجربة والحراج ، فلما دون ذلك كله وجد إلى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية ، موضوعه أخبار الماشيق ، وأحوال الجاهلية ، وحوادث الإسلام . وقد اختلفوا على ذلك كله لفظ « الأخبار » وعلى التخصيص في روايته « الأخباري » كما عرف التخصيص في رواية الحديث « الحديث » ، ومخطئ القصة من الحديث إلى الأخبار في رجال خواص منهم ابن اسحق والوافدي الذي أخذ عنه ابن سعد كتابه الكبير في طبقات الصحابة ، والمحدث الذي المتوفى في عام ٢٢٥ هـ . فكان من هؤلاء كان محدثاً وأخبارياً معاً ، كما تلخصه مقدمة التخصيص في الأخبار في مثل محمد بن السائب الكلبي المتوفى في عام ١٤٦ هـ ، وكان مقدماً في علم الانساب ، وعرفه ابن الحزم المتوفى ١٤٧ هـ وقد جمع أخبار بني أمية . وإلى مختلف المتوفى عام ١٥٧ هـ وله كتب في الردة ووقفه الجمل . ووقفه صفيح ، وأخبار الخوارج . وسيف بن عمر المتوفى عام ١٧٠ هـ وله كتاب كبير في الفتنوح . وهشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى ٢٠٤ هـ وله في أخبار الأتراك وإيهم العرب وأنسابهم وأخبار الإسلام كتب كثيرة أحصاها ابن النديم في كتاب المهرست . وطبع منها كتاب الأحكام .

وقد ظهر في هذه المرحلة نوع من التخصيص المهني في رواية الأخبار فكان لبعض الأفطار الإسلامية الرئيسية أخباريون اختصوا بجمع أحاديثه وتدوينها قال ابن النديم :

« قلت العلماء : أبو مخنف بصرى العراق وأخبارها وفنوعها يزيد على

غيره ، والمدائني بامر خراسان واعند وفارس ، والواقدي بامر الحجاز
والسيرة ، وقد اشتركوا في فنوح الشام ،

وكان المحدث عند ظهور هذا الزمان اشرف موضوعاً واسمى منزلة
من الاخبار ، وذلك يرجع الى شرف موضوع الحديث والى ان
الاخبار وخدوها قديم ، كانت مظنة الاغراب والتلفيق والاختلاق ،
ولقد بلغ من شأنهم انهم كانوا يضعفون المحدث اذا مال الى الاخبار ،
فقد ضعفوا محمد بن اسحق وكان اصلاً واوية للمحدث ، ثم دار ينقل عن
اهل الكتاب ويسميه اهل العلم الاول .

وجملة القول في علم التاريخ عهدي امية ، ان ابتدأ عندهم فرعاً
من علم الحديث ، فكان حرباً ان ينأوا بطريقة المحدثين في جمع الرواية
التاريخية ونقد ، وكان اهل السيرة والمغازي والاخبار يحسبون مآثور
الروايات ويدونونها مع اسنادها الى مصادرها الاصلية ، بمعنى انهم لم
يسكروا يحاولون نقد الخبر نفسه ، وانما كانوا يتقنون نقل الخبر ، الذي
كان وقت الحادث في المكان الذي وقع فيه الحادث ، او ينقل عن
الشخص الذي شاهد الحادث ، وهذه الطريقة خمنت للعرب صحة الاخبار
المنقولة بالقسم التاريخي من السيرة وحوادث الدولة الاسلامية ، ولكنها
عجزت عن ان تضمن هم ذلك في اخبار القدماء ، والعرب قبل الاسلام ،
والقسم الاول من السيرة ، والحق ان هذه الموضوعات الاخيرة هي
الضعف والتمعض نواحي كتب التاريخ عند العرب .

بين مراجع التاريخ

ويضرب الامثال على ذلك فنقول : وان اهم ما يشترط في المصادر
التاريخية ان يكون قاطبها ممن شاهدتها او اشترك فيها على الاقل ، وهذه

الحالة غير متوفرة في الكتب التاريخية العربية التي لم تدون أخبار
الفنوحات التي وقعت فيها إلا في أواخر عهده أمية وعهد العباسيين أي
بعد أن انتهت هذه الفنوحات وهلك الذين شاهدوها واشتركوا فيها ،
وكان من نتائج ذلك ، أن تعرضت هذه الأخبار التي نقلت بمسند
وقوعها بمسوات عديدة إلى كثير من الغموض ، ثم أنها في الوقت نفسه
عرضت للاشغص ولم تظلم إلى الأمة وحالتها الاجتماعية في كثير
ولا قليل .

والميزة الوحيدة هذه الكتب أن أصحابها كانوا يأخذون أخبارهم عن
طريق الرواة المتوفرة - في نظرهم على كل حال - فلذلك كانوا
يجربون الأمدار في خطبها ، وأشهر من بينهم من كان يجنب الرواية ويعبر
بين الصحيح منها والموضوع .

وعلى كل حال سبب هذا الاضطراب الذي وقع في الروايات التاريخية
الاولى يجب أن يرد إلى أن التاريخ كان في أول نشأته عند العرب ،
وبعد الرومن - بين المؤلف والواقعة التي يحقها مثلاً - وعدم معرفة
أصحاب المصادر المتوفرة عن الأخبار بجزئياتها ، وتعرضهم في الوقت
نفسه للسرايا والأغراق في رواية الأخبار ، ثم دخول السبابة
والطريقات الدينية ، ثم يأتي دور الناسخين الذين شوهوا كثيراً في
الكتب الأولى .

وما يستلزم النظر أيضاً أن هناك في المكتب الأولى من مصادر
التاريخ الإسلامي بعض أخبار دونت في بعضها ، ولم يذكرها البعض
الأخر ، ككتاب العهد بين النبي وآل المدينة ، وهو أول كتاب خطه
رسول الله ووصل إليه ، فقد ذكره ابن هشام منقولاً عن ابن اسحاق
وذكره ابن الأثير أيضاً لم يذكره الطبري ولا ابن سعد ، مع أن

الطبري أقدم من ابن الأثير .

التفكير اليوناني

ومن الأشخاص الذين أدخلوا التفكير اليوناني والمسيحي إلى الإسلام
 يوحنا الدمشقي . ومع أنه كتب في اليونانية ، فإنه لم يكن يونانياً ،
 وإذا كان سورياً بحسب الأرامية والعربية ، وكان جده منصور بن
 سرجون مدير المالية في دمشق عند الفتح ، وقد اشترك مع البطريق في
 تسليم المدينة إلى المسلمين ، واحتفظ بوظيفته في الدولة الإسلامية العربية
 الجديدة ، وخلفه ابنه في وظيفته هذه بعد وفاته .

وكان يوحنا في صفراء متصلاً وملازماً ليزيد بن معاوية ، وخلفه أباه
 في مديرية المالية في دمشق ، ولم يترك الوظيفة إلا عهد هشام بن عبد الله
 الملك حيث انصرف إلى مزرعة أو دير قضى بقية حياته فيه ، وبالنسبة
 والعبادة . ومات سنة ٧٤٨ م .

ومن آثار يوحنا ، حوار مع أحد المسلمين حول الوحدة المسيح وهو
 كتاب صغير انتشر في عدة الميادين على الجدل مع المسلمين ، وخصوصاً
 مثل هذا الكتاب في عهد أمية بدل على الذم مع الأسلامي العظيم .
 ويقال إن القديس تأثر من بعض أماليه .

ومن آثار يوحنا المذكور بعض الأشيد الدينية التي لا تزال تستعمل
 في الكنائس حتى اليوم .

العلوم

وكانت العلوم عند العرب تقسم إلى قسمين : ما يتعلق
 بالدين ، وما يتعلق بالجسم . وما يتعلق بالدين فقد عرضنا له في مكان

آخر ، وأما ما يتعلق بالجسم فهو الطب ، والطب كان في طفولته عند العرب في هذا العهد . وكان عبارة عن بعض الشعومات ، مع بعض النصائح باستعمال العقاقير والنباتات وغيرها .

وكانوا يذهبون باستعمال المل في بعض الأمراض ، وقصد الإنسان ، وسحب الدم العائد منه .

والطب العالمي عند العرب مأخوذ بالكثرة عن اليونان وأهل عس
الفرس .

والواقع الذي يجب أن يشار إلى ذكره هنا ، هو أن كثيرة من المذاهب والمعارف القديمة العربية لا تزال ضائعة متفرقة في المكتاب الأوروبية الكبرى ، ولم ينشر منها إلا القليل .

ويقول الدكتور جورج سارتون في كتابه : مقدمة لتاريخ العلم :
« إن درس اللغة العربية والآثار العربية ضروري لفهم نزعة الفكر وتطوراته في القرون الوسطى ، ويجب ذلك أنه عند منتصف القرن الثامن إلى آخر القرن الحادي عشر ، كانت اللغة العربية لغة العلم والأدب والمعارف في العالم كله ، بحيث أن من يريد المعرفة وطلب العلم في ذلك العهد السحيق كان مفروضاً عليه درس العربية ، كما هو حال الشرقي اليوم إذا ما أراد طلب المعرفة فإن عليه درس إحدى اللغات الأوروبية المعاصرة كالإنكليزية والألمانية والفرنسية .

« وأما في القرن الثاني عشر ، والثالث عشر ، فقد خسرت اللغة العربية بعض قوتها ونفوذها ، ولكنها كانت ما تزال ضرورية لفنلاب المعرفة . »

ولما افترسهم العرب امصار الامبراطورية البيزنطية كان العلم اليوناني اسماً على مسمى ، ذلك انه كان قد انتقل الى ايدي العلماء الذين اخذوا

بعلقون او يشرحون مؤلفات ارسطو وهيبوقراط ، وغالبي ،
 وبطلومى ، وارشييد وغيرهم ، واما الطب اليوناني فقد وجد في
 (اثيوس) من اميدا ، ٥٥٤ ، وبولس الاجيني (٦٢٥) الذي كان
 عائشاً في الاسكندرية ، وفي اسكندر ٥٢٥-٦٠٥ الذي كان يسكن
 رومية ، وفي ثيوكل الذي كان يسكن القسطنطينية (٦٤٠) اعظم
 شراحه وابعدهم شأناً .

وقبل الفتح العربي شهدت الاسكندرية نهضة ضعيفة في اكاديميتها
 القديمة ، ووضح فيها اساس جديد لعم الطب استندوا فيه الى مؤلفات
 (غالبي) ، وكان الاسكندري (جوهان) يقف وحده تقريباً كفسير
 وحمية مؤلفات ارسطو ، واما مؤلفات هيبوقراط فقد صار احكامها
 بواسطة الساندة الاسكندرية وعلمائها قبل هذا العهد ، ولكن مصر لم
 تكن تصنع لتقدم المعرفة والعلوم لأنها كانت مصبوعة بصبغة دينية
 منطرفة ، وممزوجة بكثير من الصوفية والاطلاس ، وهذا السبب منات
 مصر ، ولم توفق لتكوين واسطة بين اليونان والطب والعلوم العربية ،
 واخذ مكانها في هذه الناحية الجماعات التي كانت تتكلم السريانية وهم
 الساطرة .

واما المركز العلمي النسطوري الذي كان يحتوي على مدرسة طيبة ،
 فقد صار نقله من (الرها) الى (حلب) في العراق ، ثم في اول القرن
 السادس الى (جنديابور) في جنوبي غربي بلاد الفرس ، وهناك عدا
 المستشفى الكبير ، صار انشاء جامعة كبيرة ايضاً بقيادة الملوك
 الساسانيين .

واما الملك الكبير كسرى انوشيروان (٥٢٩-٥٧٩) فقد جعل
 هذه البلدة اعظم مركز ثقافي في ذلك العصر ، فأبها اخذ علماء اليونان

الذين تركوا أثينا بعد اقبال الامبراطور جوستينيان المدرسة الفلسفية
(٥٢٩) يقدون ويحتمون بزملائهم علماء السريان والفرس والهنود .
وفي هذه البلدة المشقة ظهر جو علي حديد اخذ يعمل للتوفيق بين
امتناعات الفلسفة ، وهذا الجو كان له اثره بعد ذلك في نشوء الفكر
الاسلامي الاول .

وفي خسرو عرش الفرس ، ارسل طليبه الخاص الى بلاد الهند
للبحث عن الكتب الطبية فيها ، وقد صار نقل بعض ما صار الحصول
عليه من الملة السكرية الى الهند ، كما صار ترجمة كثير من الكتب
العلمية الهندية الى الفارسية والسريانية .

واول شخصية علمية سريانية هي مرجيوس ٥٣٦ ، ولم يكن
مرجيوس سغوريا ، وانما كان كهنأ بمقوريا ، وكان يتزعم الأطباء
العراق في عهده ، حيث ولد وشأ ، واليه يرجع الفضل على قول كثير
من المؤرخين في ترجمة الكتب الطبية الهندية الى السريانية ، وقد كرونا
منها الكثير من مؤلفات دغان ، ومع انما كانت تقدم بكثير من
الاضطراب وعدم الترتيب ، فقد كانت كافية لأحياء الطب اليوناني مدة
مائتي سنة في غربي آسيا .

وفي هذه الأثناء اخذ بعض العلماء يقدمون الكتب الطبية مستندين
الى الكتب اليونانية التي صار ترجمتها .

واسم هذا الكتاب ما صدر عن هرون ، وهو كاهن ، يبيح
وحبيب عاش في الاسكندرية قبل ظهور الاسلام .

وهذا الكتاب ، الذي صدر عن هرون ، صار تأليفه باليونانية على
الارجح اولاً ، ثم صار نقله الى السريانية ومنها الى العربية ، وهذه
عرف العرب الطب اليوناني اعلم .

ومؤلفات هرون ، هذه قد اندثرت ، ولكنها كما يظهر عرشت
لمرض الجدري الذي لم يكن معروفاً في الطب اليوناني القديم .

ثم ظهرت بعض مؤلفات ارسطو متوجهة الى السريانية ، كما ظهر في
هذه اللغة ايضاً بعض مؤلفات يونانية عن تربية الحيوانات الداجنة ،
والزراعة ، والطب البيطري ، والافن في علم الكيمياء .

وقد وصل اليه بعض آثار سريانية عرشت للظواهر الجوية ،
والاربع انما انه العهد الساساني كان مركز البحوث الكتابية
والظواهر الجوية تقع في البلاد الكبرى الواقعة في شرقي شمال الولايات
الفارسية ، حيث كان التأثير الصيني والهندي يتربعان سوية ويتقدمان
فجر الحضارة الجديدة .

ولما احتل العرب على شمالي افريقيا وعربي آفري فركزوا النظام
البيزنطي والادارة الفارسية والمراكز العنصرية في البلاد التي استولوا
عليها وشأنها . فظلت جامعة ، جند مشهور ، مركزاً علمياً للامبراطورية
العربية الجديدة ، ومن هذه الجامعة كان يزور دمشق عهد بني امية
٦٦١ - ٧٤٩ ، الكثير من العلماء والاطباء ، وكان الكثير من
المسحيين ، الذين يحملون الاسماء العربية .

ومن اطباء العرب في القرن الاول الهجري الخوارزمي كادة وفد
مات سنة ٦٣٩ م ، وهو من الطائف ودرس في فارس ، وكان يسمى
طبيب العرب ، وحلفه ابنه النضر .

ولما فتح العرب غربي آسيا كان الطب اليوناني يقرأ في الكتب
الكثيرة كان يستعمل عملياً ، وكان المسيحي ابن النبل طبيب معافاة ،
وكان للمعجزة بن يوسف في العراق طبيب خاص .

وهناك طبيب يهودي من اصل فارس عاش في البحرة أيام

مروان بن الحكم ، وترجم في سنة ٢٨٣ كتاب ارون او هرون الذي
اذا على ذكره الى العربية ، وكان اول من ترجم الكتب العلمية الى
العربية .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز صار نقل مدرسة الطلبي التي كانت في
الاسكندرية ومديرها ابن الانبجر الى انطاكية وحران .

التجارة والسياحة

وبانتعاش وقمة الامبراطورية العربية العربية ازدهرت المواصلات
واتسعت اماكن الثقافة العلمية . . .

وكان استولى المسلمون على القدس وموطن المسيحية الاول لم تنقطع
زيارة المسيحيين الى هذا البلد المقدس ، ففي سنة ٦٨٠ مبعية نرى
شخصاً اسمه اركولف الفريسي يجمع الى القدس ، كما نسمع في سنة ٧٢٥
عن شخص آخر اسمه ديميتري السكوتي دار القدس ايضاً وعاد الى
بلاده مغطى رافياً ، وهذا دليل على ان علاقات المسيحيين في
الامبراطورية البيزنطية لم تنقطع مع زملائهم المسيحيين في مصر
وسورية والعراق .

واما مكة موطن الرسول ومقر المسجد الحرام والكعبة فقد كانت
في القرن الاول بلداً له خطوطه العالمية ، من حيث قدوته ، على جمع
مختلف الشعوب الاسلامية في مكان واحد في ايام معدودات من كل سنة
وفي موسم الحج . .

ومن منافع الحج هذه التآليف التي ظهرت في العربية بعد العهد
الاموي ، تصف بلاد الاسلام وحرقها ، ومختلف مسجدها وعماراتها ؛
ولكن هذه المؤلفات تدلنا في الوقت نفسه على ان المسلمين لم يكونوا

بعنون ببلاد غيرهم ، ولا كانوا ينسبون بشمال القارة حوهم .

النجرة وملاحة عند العرب القدماء

وكان العرب يسمون ان امد بحراً ، وكانت النجدة في ايدي المسلمين برأ وبحراً ، فاحترفت معنى العرب المسلمين البحر الابيض الى شواطئه ، والبحر الاحمر الى آخره ، والبحر المحيط الى سومطرا فربحجار وما بعدهما ، ومعرفة كالكثرة وجرائر الهند ، والصين ، وجنوباً الى مداغسكار وسائر شواطئ افریقا الشرقية ، واجزاء البحر قزوين الى بلاد الخزر والروس . . . امروا وحتفوا بلاد الهند وكستان والبيت حتى تزلوا بلاد الصين ، واوغوا في افریقا الى خط الاستواء فقبوا الابعاد بين ملك الاصقاع ، وربطوا المشرق بالحرب .

وكان النجار المسلمون حوالي القرن الرابع للمهجرة يجهلون الاقطار برأ وبحراً يتقانون النجدة من بلد الى بلد بن شوان ، فارس وسواحل افریقا والحشة واليمن وسواحل الهند والصين ، وسائر المشرق ، ويقطعون صحاري خراسان و تركستان ، وازمدية واقاقان ، واهند والشم ومصر والسودان و افریقا والاندلس في نقل امداف التجارة ، بحيث كانوا في الواقع وكثرت وخدم تجار الارض في تلك العصور الحالية .

وكان مركز تجارة المشرق ، المصرية والبحر ، و بعلبك) برأ ، وذلك ايام العباسيين منعاً وكان البرنعلانيون وعبرهم من امة اوروما يومئذ في ظلمات الاجيال الوسطى يتدافعون على الاورهم ، ويتجادلون حول الانفاظ .

والمواقع ان العرب كانوا اهل ملاحة وتجارة قبل الاسلام ، واشهر

الفن والحياة الاجتماعية

رسول الفن

أقنيس الفن الإسلامي كثيراً من عهده من المديت التي حقيقته
والامم التي انشأت قبله، ولكن هذه العاه حير ضاعت شعبيتها وانديجت
فيه فاصبحت عربية اسلامية في شكلها وروحها وايضاً في المختلفة .

والفن العربي الاسلامي يعبر عن شعور خاص بحسبه المؤرخ المعاصر
ويشعر بوجوده ، ومن السهل ان يلاحظ ان المظفرة الاسلامية في
الفن كانت قديمة ، فافسرة اني لجزيرة الموسوعة التاريخية والتي تهديها
وناسيهم ، واليهدي عن اصوله الطبيعية ، وقد نجحت في الجمع بين
موضوعات وخرافية لم تكن من مساهمتها يوماً ، كان قد روت مساهم
باحتلاف الطرز الفنية والمدولة الح كره وديف من التروية .

ومن المؤكد ان ظهور الاسلام كان ايضاً ان يكون من جديد يعني
ان ان يطلق عليه اسم الفن العربي الاسلامي ولا ، خيرة من طواهر المدنية
الاسلامية ، وجره من الانسب الصاعدة والظهور الحكومية والمقائد
المدنية التي اشترك فيها المسلمون في كماله .

وفد فتح العرب مصر واستقروا فيها ، كما فتحوا سورية وبلاد فارس ،
ولكنهم لم يغيروا في عداية الامر شيئاً من نظم هذه البلاد الحكومية ،
وأحسن الحجة الاجتماعية فيها ، وقد هموا ذلك مع الأيام ، ومع ذلك
فانهم لم يتركوا في تعديلاتهم من الشط والافراق ، فقد كانوا من
الحكمة وبعد النظر بحيث تركوا جليل النظم الحكومية والاساليب

البيزنطية الفارسية على حد أولاء ، ولم يفكروا في ابتكار نظم وأساليب جديدة تقطع صلافة البلاد بحكام السابقين .

ومن المؤكد ان الفنانين العرب كانوا يستمدون الوحي ويقتبسون شئ فنون المدينت القديمة التي ازدهرت في العلم القديم قبلهم ، فليجأ الامويون والعباسيون الى بيزانطة وامبراطورية الاسطنة بها والافراس منها فكان الفن العربي الاسلامي امتداداً للفن البيزنطي والفارسي مع بعض التعديل ..

واذا ذكرنا ان الاسلام سبى الخزعات والميول الفنية والزخرفية في اتجاه معين لم يكن باستطاعه عنها ان تسلك غيره ، فقد اضطر فنانو العرب الى توجيه الفن العربي في سبيل لا يختلف انماهم الاسلامية دون ان يؤثر هذا في عناصر الزخرفة ذاتها فيجعلها فنقة مضطربة ممة .. وكان ادخال الحروف العربية في الفن عنصراً جديداً من عناصر الزخرفة ، فكان من اثر هذا هذه الرشاقة في الفن العربي التي جمعت بين الاناقة والرشاقة والجلدة ..

وقد كان الاسلام يحرم الصور والتمثيل فقد كان هذا اثره في الفن العربي الاسلامي اذ جعل الفنان حبيب نفسه ، وفرض عليه احراج التحفة الفنية دون ان يتنفى الوحي والاهم من الكائنات حصوله .. فخرجت اثره والسائلة هذه الصور المصورة التي ترجع اليها دون ان تصور لنا انسية الفنان وروحته ..

من الصور عند العرب

وفن الزخرفة (الاراباسك) عند العرب خاص بهم ، ويقوم اساسه على فن عرف العرب كيف يبرعون في تعديده اوخامته الهندسية براءة

أثارت الإعجاب .

والطراز العربي وإن لم يكن مبتكرة ، إلا أن ما أخذه العرب من
البيزنطيين والفرس أحسنوا استناده في فهم المعماري ، وجعلوه عربياً
ظاهر الوثيقة والحسن والبساطة .

والذي يحد بحته الآن هو هل يقول العرب فن التصوير أم لم يزالوه ؟
لأن هناك من ذهب إلى أن التصوير محرم في الإسلام ، حرمة رسول
الله بعد ما رأى الحوادث الوثنية شائعة عند غير المسلمين بسبب هذه الصور
والرسوم التي تنكر في معاندهم .

والغريب أن ليس أول من خلق التصوير ، وإنشأه ، وما يقولونه في
تأيد حصصهم هذه من أن من بعدهم المصريين . كانت يتجاوز مجرد
التخطيط ، على حين هم الذين اعتدوا إلى فكرة الظلال بأنواعها مما
جعلهم يخرجون الصور بأطراف مدهمة المأخوذة عنها ، دعوى لتوقف
الأنظر لأن الفرس لم يذهبوا كما يظهر ومع هذه الظلال ، ومما وصف
المصريون اليونان كسرى في قصيدة تدل على ذلك ، وفي كذب كاذبة
وخدمة جملة تؤكد ذلك كما تصور المهر ، الذي يصور على الطيطان
صوراً أنهم حُرَجَة وليس بخُرَجَة ، وأخرى كذب داخله وأبست بداخله
وإن المنفع مخرجه هذا الكتاب في أول القرن الثاني الهجري ،
ومعنى هذا أن تفضل ببتكار الظلال يعود إلى الشرق وليس إلى الغرب .
وأغلب الظن أن لأحداث التي أشرنا إليها حقيقاً بمنع التصوير
وتحريره لم تقصد إلا التأميل .

التصوير

وبما لا شك فيه أن تحريم التصوير خوفاً من الأثر الكافي في الدين وعمارة

الأصنام ، وكون الدين لا يزال طويلاً عند العرب ، قد منع العرب من
الناس عبقرتهم في هذا الفن ، وليس هناك اليوم صورة لإنسان ، أو
نصب لشخص في المسجد والمراكب الإسلامية الأخرى ، وكل ما قام به
المسلمون هو تصوير بعض الحيوانات الغريبة ، واستعمال بعض الخطوط
الهندسية الغريبة أيضاً ، وقد نجح العرب في هذه الناحية نجاحاً عظيماً أطلق
على فهم هذا فيما بعد كلمة « الفن العربي » ، إذ كان خاصاً بهم دون
غيرهم ، ومن الآثار العربية المصورة ما هو موجود الآن في (قصر عمرا)
فهناك صور على الجدران تمثل الحيلة الواجد وروده بك ملك القوط في
إسبانيا عند غزو العرب ، وهناك رسوم أخرى تمثل (الانتصار)
(الفسقة) (التاريخ) (الشهر) ..

وهناك صورة لسانة حيد تمل أسد آج جيم حاراً وحشياً .
وصور أخرى تمثل بعض الرافعات ، والمغنيين ، والموسيقين ،
وأهل المغرب واليهود .

عصر الفجر والدين الإسلامي

وما دمتا بعدد البحث عن الفن العربي في عهد بني أمية من الحق
أن يبحث قصر الحير الذي كان حكمة وحديثاً ، والذي يدهد منين
كثيراً متراً قريباً من غربي ندم ، بحيث يقع منعزلاً في الصحراء السورية ،
ومظهره كان لمسات حلت مثلاً ، لأن في الصحراء كثيراً من الآثار
التي صار اكتف فيها حديثاً ، والتي ذات الخطبات الأخيرة على أنها
كانت حصوناً عسكرية ويرجعاً جميرة فاقه على الحدود المحصنة الفاصلة
بين الامبراطورية الرومانية والصحراء العربية ، وقد ظن الباحثون عند
رؤيته أول الأمر أنه كالمثل من هذه الحصون التي ليس فيها كبير أمر .

ولكن هذا القصر كان فيه ما يستند النظر خلافاً لبقية القصور ،
 قد بعض من منزلها مثلها ، وانما في من حواله عدة آثار أخرى ،
 آثار حديثة كثيرة بخطيب مور ، يساعد على ربطها من الألفية لا
 تزال واضحة الآثار ، وهو عدة أحواض وآثار خندق لا يزال بابها -
 المركب من مصراع ومن عتبة حجرية ذات قطعة واحدة - منصبة ،
 كما أنه كان لا يزال في الجبل نحو حاجر قوي في عرض نهر ، وخلف
 هذا الحاجر دورات البهيرة الأصيلة تحفظ ، وهذه البهيرة
 تشكل محراً للماء طولها ما يقرب من كبير مغرب .

ولم يكن هذا المكان دوماً سائياً بكل ما في الكلمة من معنى ، وإن
 كان القصر نفسه بيزانطياً لا ذلك في ذلك ، وهو يحمل دموماً مسجبة
 بين عدة سلالات يونانية ، ولكنه كما يظهر على ما هو عليه القصر
 البيزنطي ، وما يده الحفر في هذا القصر سنة ١٩٣٨ وجد القناتون على
 الحفر أموراً عجيبة ، عظميات عم في ذلك الحفريات الرومانية ذات الصلة
 منقصة كالعملة الأميرة ، وفي وسط الساحة وجدوا حوضاً فيه فواره
 ، ، وكان كل ذلك مهدماً بقي منه إلا فوائده ، وكانت تنتشر في
 كل مكان بقايا زينة رائعة ، وعلى بعد حزين متراً وجدوا بقايا مغزل
 رافع ، مع آثار مناور على الحدودات ، ومعها طين مزودة
 بنقوش .

وعندما ثبت أن قصر الحير هذا لا يثبت بصفة إلى الحدود البيزنطية ،
 وليس حصناً رومانياً ولا بيزانطياً ، وليس له مقدر عسكري ، رغم أن
 أبراجه وأسواره ، وإن هو دار ملكية ، هو قصر إسلامي ، وكل ما
 فيه حارب ، وقد بعد القصر الروماني والبيزنطي في سورية ، هو من بناء
 القرن الثالث من ، في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي ، الذي كانت

الدولة العربية في عهده قد بلغت أوج اتساعها وامتدادها وحضارتها .
وقد اشتهر الامويون بحبهم للحياة في الصحراء ، حيث بنوا وحيث
نشأوا ، واشتهروا بحبهم بناء القصور خارج دمشق ثغراء الصيف فيها ،
وعربياً من الامراض الوافدة التي كانت تكثر في ذلك الحين .
والطبر كلمة بمعنى البستان او الحديقة ، فمن الممكن والحالة تسببه
هذا القصر بقصر البستان .

ومن دراسة ما في القصر يستطيع المرء ان يتصور حياة الامراء
الامويين في ذلك العهد البعيد ...

وكاوا يقسمون اوقاتهم بين القصر والوان من العيش في قصر الطير ،
تؤكد ذلك التصوير وهي الآن في معرض دمشق ، وفي إحدى هذه
اللوحات نرى اميراً يتخطى سهوة جواراً اسود بعدو عدواً عربياً ، بصطاد
الفرلان بالشباب ، وفي لوحة اخرى موسيقيين يلعبون نغم زاه ، واقفين
تحت فئامر محضرة مصفرة ، احدهم ينطق في المزمار ، والاخر يعزف
الكمان ..

واكتشف هذا القصر بدل على الحفارة التي وحمل اليها سوامية ،
وهي حفارة حاوت التاريخ نشويها في العصور التي تلت امية في بغداد
والقاهرة ، ولكن الاكتشافات الحديثة اخذت تظهرها للناس ، واضحة
جليلة رائعة ...

وهناك صورة اخرى ، هي صورة : قصير عمراً ، وهو اليوم عبارة
عن بقايا صغيرة مهدمة حار اكتشافها منذ اربعين سنة في شرقي الاردن
وسط صحراء مجبولة كصحراء قصر الطير بعداً ، يرى على احد جدران
هذا الانر رسوماً تكاد تكون ممحاة ، تمثل عدة شخصيات كتبت اسماؤهم
فوق رؤوسهم باليونانية والعربية ، ومن قراءة هذه النقوش نعرف ان

هذا القصر كان حصناً لأحد الخلفاء الأمويين وقد رست على جدرانها
صور الملوك الذين انصهر عليهم .

وفي شرقي الأردن جدار اكتشف عدد من هذه الحُرَابِ الأموية التي
تصور العصور العربية المختلفة احسن تصوير .
ولكن قصر الحير يحل مكاناً مشرفاً على البحر الأحمر التي جدار
اكتشفها ، ولها جدرانها من بقايا هندسية حموية رائعة بدهانها .

تعلق ندوة

ولقد سميت دمشق منذ زمن بعيد مركزاً جغرافياً جوهراً وسطاً بين
الشرق والغرب ، ووسطاً موقفاً في التجارة والتجارة والمركب
العسكري

وهي في نقطة التقاء بين الطريق الذي يخترق سورية الداخلية من
الشمال إلى الجنوب ، وبين الذي يجرى من الشرق إلى الغرب ، مما
يجعل منظم الشوارع فيها سهلاً هائلاً ، وتوجد أطرافها من كل ناحية إلا
من جهة المدينة فهي راسخة هذه تقع في مركز تجاري يوصلها رابطاً عقد
التجارة بين الشرق والغرب في مختلف العصور . . .

ومن موانئ ميسقة كانت تزد إلى دمشق بحطب الصناعات
والمنتجات القديمة ، ثم ذهب من إلى العراق ، والطريق نفسه كانت
تأتي من العراق ومنوجات بابل واسور وفارس إلى موانئ البحر
المتوسط ، كما كانت هناك مدن تجارية في شتى سورية من حلب إلى حمص
إلى حمص ، إلى جنوبي سورية ومنها إلى فلسطين أو إلى شتى الجزيرة
العربية .

وأما فقد كانت دمشق منذ القدم مركزاً تجارياً حقيقياً اقتصادياً .

القبائل البدوية حاملة ما عندها من مختلف الحيوانات والجلود
والاصواف ، ينادون به ما في دمشق من حالات ومناجات
ومنتوجات ليس عندهم مثله .

ومن المؤكد ان كثيرة من المدن التي لا اهمية لها اليوم - في سورية
طعماً - كانت تتمتع بحمة تجارية عظيمة في ماضيات الازمان .
وحص ، وبصرى وغيرهما - من المدن التي كانت تعتمد على دمشق في
كثير من حاجاتها ونجرتها .

ميل العرب

ولما وصل العرب الى اسوار دمشق لم تكن وسبعة كبيرة كما هي
اليوم ، ويمكن تقدير ما صار من النظر الى الاسوار التي لا تزال آثارها
قائمة حتى الآن ، فقد كانت تضم هذه الاسوار مربعاً مستطيلاً الى
الشرق الى الغرب ، وراوية هذا المربع العربية الشمالية بحوزة نوعاً ،
او يرجع فاهم حصن كبير في الماضي مكان النقعة التي انشأها الفاطمية
اليوم ، وكان على الاسوار عشرين ابراً وسكناً حمة عشر ، وفي
بعض اطرافها من الحديقة العظيمة ، يدعى الى العجب والاكابر .

وقد بنيت هذه الاسوار بالحجارة المربعة وهي مبنية في بعض
الاحياء على اساس اقدم من الكثير ، يرجع الى ما قبل العصر البرونزي ،
وكانت دمشق في ان الفاتوح العربية قد استعادت شيئاً من راحة الجاني
التي حسرتهم في الحروب الفارسية الرومانية ، وكانت الامبراطور
ديوكليتيان قد اصبح الحصون القليلة حوله ، ليحفظ من حصناً رومانياً
حدود الامبراطورية الشرقية ، وكان يحيط بالأسوار خندق مائي يساه
بودي بتواضع عرجه بين العشرة اقدم والحقه عشر ، كان يعمل

هجوم العدو على المدينة حصصاً شاملاً ، وكان يوجد فوق أبواب المدينة
 - التي كانت تصل بين سكان المدينة والخارج - وفي بقعة أخرى من
 السور بعض البنية صغيرة وببوابات لم تكن يادي اليهم من كان يقرب
 عليه حراسة المدينة واستدارها .
 والواقع ان المدينة كانت محصنة تحديداً حصناً فليس الاصلح العربي
 وكان فيها قوة روم تية كافية .

أواب دمشق وشوارعها

وفي المأدر الإسلامية انه افتح العرب دمشق كان يوجد فيها
 سبعة أبواب المدينة - حيث من است - القديرات السبع - كما كانت
 اسماء ايام الاسبوع ، وكان على الابواب المذكورة حور تشير الى
 السيارات المذكورة .

والذي همه ان عدداً من المداخل كانت لتعمل لمواصفات مدخل
 المدينة وهـ : دولاب ، وان كان قد كان في باب باب ثقبه ، ومعهم
 بالحديد مردوجة الاطواء لكي تدار غرابت الاعداء من الخارج ، وكانت
 تسمى البوابة الكبرى في الجهة الشرقية من دمشق باب الشرقي .

وكان هذا هو كل روم في كبر امم باب الشرقي ، وبقي باب
 الضيكل فأنما حتى سنة ٦٠٣ للهجرة ، وقد سميت اثره اميكن كلهم -
 ولكن الباب الشرقي لا يزال قائماً مع فئس من الشد من التغيير ويحتوي
 الباب الشرقي على بوابة كبيرة - وهي ممدودة الآن في وسطه ، وهي
 من البناء الروماني الشين ، تحجيزه رملية مغطاة بآلة الى الأحرار ،
 وهي ذات قوس مزدوج ، ويحيط بهم البوابة الرئيسية المتوسطة بوابتان
 صغيرتان هما اقواس ، وقد كانت تستعمل البوابة الكبيرة الوسطى ليزيل

والغربان والدواب ، واما البوابان اللذان كانتا على الجوانب ، فان
واحدة كان يمر بها الداسعون وغيره ، والاخرى اخذوها من المدينة .

وكان هناك عدد كبير من هذه الابواب ايان الفتح العربي ، فقد
كانت البوابة التي في الجانب الشمالي من المدينة والتي تدعى الآن باب
الفرانجيس . امنية كلها بالحجارة ، ولبيت ذات فسطاطة واثنا مائة
بحجارة مستطيلة ، وهذا النوع من البناء يرجع الى ايام العصور القديمة ،
وبقول قولنا كثر في الشرق النيسوي الذي رآه عنه هذا الوصف : ان
الحوائط جعلت سوداء دقة ، واما كانت تدعى ايضا باب الكرايس
من كثرة الخيل التي كانت فوق بعض بالقرب منها .

وفي الشمال الشرقي من المدينة باب يقال له باب ثوما ، والاسم يشير
الى ثوما صهر الامبراطور هرقل الذي كان حاكم المدينة في عهد الفتح
العربي .

واما في القسم الغربي من السور ، فكانت توجد بوابة في الهل الذي
يدعى الآن باب الجارية ، وفي الجنوب مدخلان يدعى احدهما باب
تسبوت والاخر باب الصدير ، والآخر يستعمل الآن كمكان حارسه
سابقا وهو مبني بحجارة مقطوعة قطعاً غير منتظمة حجارة الباب الشرقي .
وله مدخل عريضة ، مغطاة بقشاً مدججاً .

فما قبل العرب على دمشق استقبلهم بها المنظر الذي وصفناه ،
وكان سكان المدينة قد اجتمعوا حول اسوارهم ، يشاهدون الجيش
العجيب الذي يشهدوه في اليوم . واما داخل المدينة فقد كانت
بلاط مظهرها الخارحي ، وكان العرب المستقيم اعم شريح في دمشق ،
وكان يوصل غربي دمشق بشارعهم لانه ينفذ من الباب الشرقي لمسافة ربع

(١) او الخدم والجنات .

مقابل إلى الباب الغربي أو باب الجنبية ، أما عرجه فخدمة عشر قدماً ، وهو الشارع الذي مر به بولس الرسول وقد ذكره الأنجيل .

كنيسة صرث الزمعة

وكان يوجد في دمشق وصواحب حنة عشرة كنيسة ، ما عدا كنيسة بوجد الممدان ، وهذه الكنيسة كانت أهم ، وكانت تقع في منتصف الطريق بين البين الغربي والشرقي ، وقامت مكان هبة تكل وتي قديم ، وبنيت جدرانها والحديد على السندية القوية ، وبها قبر يودريوس الأسقف بطريرك القسطنطينية وهو الذي أطلق عليه اسم كنيسة بوجد عام ٣٩٩ للميلاد ، وكانت أفولس الابواب الفخمة المراكزة على المحلة كودنسية ، والواجهات المبرخنة ، نقوش الحقة قرين مدسوس الكنيسة ، ولما من ثر هذه الابواب القديمة التي تذكر ، بهبات في وقتها ، واسمهم لمذبح محفوظ في الجنب الغربي من الجامع الأموي الحالي أمام باب الزبد .

وكان داخل الكنيسة اية في الجبال ، وحسن الكنيسة من محمل البيزنطيين وهو كمال بقية كبرى يسعوه العرب وبه الدبر ، والجدران مرممة من الداخل من كلا الجانبين بالفسيفساء الخيرة .

ومساحة هذا البناء كله من الداخل ٤٣١ قدماً في ١٢٥ ، وقد على الجانب الجنوبي من مربع مستطيل مساحة ١٦٣ يرد في ١٠٨ .

وكانت هذه الكنيسة مركز حارة قوية ، وكان كثيرون من وجهاء البيزنطيين يسكنون الكنائس الأخرى .

وقد تفرغت حول الكنيسة الزفة وشوارع مختلفة في جميع الجهات الصارة حيث كانت تحفظ الاروقة المعقدة الذرة من الحر في الصيف ، ومن

المطر في الشتاء ، ومن هذه الكنيسة كان الناظر يثمد شوارع وسبعة
فقد إلى أطراف المدينة وجنوب الأبرج .

وكان يصر إلى غنم ، ويرى إلى المدينة بواسطة أفنية عظيمة ،
وقسطنطين عظيم بني على أروقة كثيرة من البنيان المرموم .

وكان يوجد في دمشق عند الفتح ١٣ كنيسة ، يدل على نوبة أهل
المدينة وغزاهم ، ونقواهم إحصاء ، وأما التغيرات العظيمة التي كانت تروى
شوارع المدينة الوسيعة فلا توفى اليوم .

ويختلف المؤرخون حول استلام الدمار ، والأرجح أنه فساداً منها
وهو الضعف دار حنيفة السيف ، والضعف الآخر مائة ٥٠٠ والآنق ...
ولذلك حذر تقسيم الكنيسة الكبيرة . كنيسة دار بوحث الواقعة
في وسط دمشق أي فسمت فيم الحارة المسفون ، وقد طين في يد
المسيحيين كلها بسقف عظمى أي ديم ذات ...

المسجد الأموي الجديد

وفي هذا المسجد الجديد الذي سميت من ضعف الكنيسة القديمة
خطب مع وية أمير الشام يدعوا إلى دمشق إلى محاربة علي بن أبي طالب
والأخذ بآر عثمان ، وفي هذا المسجد كان يعطي السحب الطليقة وانصار
البيعة إليه .

وقد سكن العرب أول ما سكنوا في القسم الغربي من المدينة ،
ولا بعد أن يكون سكان هذه المنطقة من المسيحيين قد تركوها
للعرب ، أو يكونوا قد غادروا سورية كلها مع من غادروا من الرومان
والبيزنطيين ، وسكن المسيحيون واليهود الجهة الشرقية ، ولا يزالون
فيها حتى اليوم . الأولون في شمالها ، واليهود في جنوبها .

ولما فتح العرب دمشق خسرت طابعها القديم كبلدة سورية يونانية،
وأصبحت مع الأيام بلدة عربية، وأصبح العرب فيها يؤلفون الاكثوية
الساحقة بعد سنوات قليلة من الفتح، وفي عهد الوليد كان عدد الذين
يأخذون العطاء من سكان دمشق نحو ألفاً...

ولما كان العطاء يعطى الأشخاص الذين يجارون أو يعملون
للحرب، وتوظف الحكومة، فيجب ان عدد سكان دمشق من المسلمين
يقاربون اثني الف نسمة على ألف تقدير...

ولا بد ان تكون شوارع دمشق وبحارم في عهد امية تسوق
شوارع دمشق وبحارم في الأيام التي سبقت الحرب المظلمة، ١٩١٤ -
١٩١٨، من حيث عدد اصناف الدار والحكومة، والاختلاف هائلتهم،
ومن حيث اننا نعرض في دمشق من حجرات كان مريحاً ونوعاً
قد مررنا به من مختلف المذاهب والديانات...

البلدة العربية

وتطورت البلدة العربية بعد انحل العرب في البلاد افسيد، وبعد
ان احدثوا الاستفراغ والافاقة، وليس هناك حتى اليوم، في بعض
مثلاً للبلدة العربية، وبعض المدن صارت في عهد علي زكي المدن الرومانية،
وبعضها صارت في عهد هذا الزمان...

ولما ترك العرب المدن احافظوا به دلتهم القليلة، ونقلهم الجاهلية،
والملك كان الاتحاد والوقوف العرب واوائل بين اسم القبيلة الواحدة منه
بين سكان المدينة الواحدة...

والواقع اننا نلاحظ ان المدن العربية، انشأت كل قبيلة حتماً خاصاً
في كل بلدة، فنرى في دمشق مثلاً ان ضمن الاسوار الفاشة حول

المتينة ، كانت هناك أسوار داخل دمشق تفصل كل حي عن الآخر ، أو
كل قرية عن القرية الثانية ، وقد جعل العرب معهم هذا التقسيم العجيب
الى فارس ، بحيث مدينة امروء على عدة الجور من التقسيم الغربي .
وكان هذه الأسوار الداخلية التي تفصل القري بعضها عن بعض ،
ابواب تقف ليلاً وتفتح نهاراً ، ويظهر ان هذه الابواب لم تدمر إلا
من مدة قريبة كما يقول بعض السواح .

واما البنية فكانت من الطين ، والبيوت العامة من الحجر ، ولما
استولى العرب على سورية لم يكن عندهم منسج من الثوب لاقرار لون
جديد في ثيابهم والمهارة ، وحديثاً "لهم اثير ارضي الموجود وفقدوه .
وفي أيام الراشد بن عبد الله بن عبد الله في دمشق بأحد أشكال
جديدة ، خصوصاً وان الوليد كان من المولدين في من المهارة ، وكانت
الغرفة والغرفة تدهق على دمشق ، وكانت الناس قد اطمأنوا واستقروا ،
واخذوا يفكرون في توسيع مدرك ، وإقامة المقصور الجديدة .

بني المسجد

وصرف الوليد عناية الى اقامة المسجد في دمشق بناسب وعظمة
الخاصة وكثير من كبره ، وبخلاف المؤرخون في قصة عبادا المسجد
وكيف اخذ الوليد من الدار ، وقد اشتهر ان ذلك سابقاً .
وما اخذ الوليد المسجد والوليد من احدث الى الصانع فكتب الى
الاميراطور في القسطنطينية ان وجهه اني فاني صانع من صناع الروم
فاني اريد بناء مسجد في دمشق .

وكان شقيقه سليمان بن عبد الملك على الصانع

وحسب المؤرخون ما اتفق على مسجد دمشق مكان اربعمائة صندوق ،

في كل صندوق اربعة عشر الف دينار ، فيكون المجموع ٥٠٠٠٠٠٠٠
دينار واستغرق بناء المسجد ما يقرب من عشر سنوات .

ومسجده دمشق او المسجد الاموي آية من آيات الفن العربي
والبيزنطي ، ولا يزال حافضاً لرونقه وجماله حتى يومنا هذا ، وكانوا
يحبونه في ذلك العهد من عجب الدنيا .

وكان محراب المسجد مرسماً بجواهر التينة ، عليه مناديل الذهب
والفضة ، وعلى الفسيفساء والسلاسل الذهبية ، وقد انكر الناس على
الوالي ما صرفه في عمارة المسجد ، وفكر عمر بن عبد العزيز بنزع
الفسيفساء والسلاسل الذهبية لولا فسادهم بعض رسل الروم الى
دمشق وزيارتهم المسجد ، وظهور العجب والاضطراب على وجوههم ،
وشيوخ الدعر في نفوسهم ، لما رأوه من تأمل العرب في هذا البناء ،
وتقدمهم في الاحسان والاعمار ، فعدل عمر عن فكره ، وترك المسجد
وشأنه ، بعد ما شاهد من تأثيره على غير المسلمين من الروم .

الذي في دمشق

وبما نثار الى ذكره في هذه المسألة ان الوليد حتى دمشق
وضواحيها جلب في العناية المتعددة ، وكان الناس في هذه لا يتحدثون لا
بالعمارة وجمالها ، ولا بالحالة هذه اول خليفة وآخر خليفة اعنى بدمشق
هذه العناية العظيمة .

مدن اخرى

ولم يقيم العرب في سورية ببناء مدن جديدة إلا في عهد سليمان بن عبد

الملك ٧١٥ - ٧١٧ ، ثم صارت الرملة في فلسطين ، وقد بقيت الرملة على الطريق بين القدس والبحر ، ومع احترام المسلمين للقدس فإن الرملة كانت لمدة اجيال من كبر الحركة الاقتصادية في فلسطين ، ولكن تأثير الرملة ، كان محلياً ولم يؤثر بصورة من الحيوية على الثقافة العربية والعمارة العربية .

ولم يكن حب العمارة مقصوراً على الحكام فحسب بل تأثرهم الامراء وكبار رجال الدولة في فحول دمشق وغيرها من المدن والامصار . فقد شيد الخليفة يوسف بن طغرل بنواني في الحكم - وكان والياً على الموصل في عهد هشام - داراً رائعة من اروع المآثر والارمر ، عرفت بالبقوشة ، انشأت من القش " مع ما في بني العادق في الموصل ايضاً . ودار الخليفة ما بعد ما من موصل من دمشق في الموصل على ، الشرب ، شق في فحول في زمان بغية في اليوم ، ونحرس الاشجار على خديج على اصيحت وكثيراً ما تفرغ هذه الفناء المندسة ، وعلى سقفه ، امية متلي الخريف في - المقصور في خارج دمشق وساقرب من الدابة ، وكانوا يفعلون ذلك هرباً من الضميمة في الخريف .

وكان يوجد في سورية مراكز عسكرية لتجند العرب اقل اهمية من دمشق ، كجلبية ، ودمشق في شامي حلب ، وبعض هذه المدن او المراكز العسكرية اصبح مدناً كجربة ، ككافة هرة التي حلت محل القسطنطينية - المركز العسكري الاول - والقيردان في تونس ، والكوفة والبصرة في العراق ، وشيراز في فارس .

وقد ساعد العرب كثير من المدن في ايران وتوكنستان ، وكان يقوم مركز الحركة التجارية في كل هذه المدن خارج ابواب المدينة كما كان الحال عند الروم .

واستفاد العرب من الروم كثيرا من الحذات ، فطاعة السبي
التي كانت رائجة في مصر حذرت بها إلى سورية ومصر إلى فارس
وتوكمالان ، وكانت السوء العرب من الروم الواسع مختلفة من فنون
المهارة وكان ، الحذوة من التمرس في عام الرب قليلا جدا .

وسم دور الارب

ويقول السيد امير عي في وصف دور الارب : في دمشق ، يأتي :
ثم ينضم حواف البيوت وتبين في دمشق ، كان عليه في عهد الامويين
على الرغم من مرور مئات السنين ، مري الارب ، جاسا على مقعد
خشي امام الارب كما تراه الآن في دور الارب ، وفي عام
بيوت الفقراء قطعة من المعدن او الحديد المساجد ، مقبرة للارب .
وفي داخل الدار ، مسطوح على جدران الارب من الاعمدة ،
وارضه من الحجرة والرحمة ، وتحتى من فوق الحجرة او الحية ، على
الشكل هندسية منظمة ، وفي الدار مربعة بحجم حلبة صغيرة بها
الازهار الزكية ونظير الشجر البرقعة والعمود ، وعلى جدران الفناء
يقوم الايونان وهو عبارة عن حدة مربعة بالرحمة واللاط الملون ،
وتستعمل فائدة الاستقبال وفي الحرة ، وفي الارب كانت الحرة او نظام
عادة كوة مقفلة ، تحرف بالعمدة الزخرفية ، ويوضع فوقها الطست
والاويق للوضوء .

وكانت قصور الانبياء مكوكة من طابقين احدهما فوق على بطن وشمال
الصالات ايوان تكسو ستور كثيرة تؤدي إلى الحدائق والجدران
الآخري .

وفي الشام كانت تحكى ارجل الايونان الزخرفية ، وكذلك

الحجرات بالسجاد الثمين وندفأ الحجرات بالمواقد ، أما في الصيف فكانت
النافورات والمواقد كقبة تنضيف حرارة الجو .
وكانت سقوف الدار مزودة بنقوش على الطراز العربي ، ومطلية
بالذهب ، ولم تكن هناك مقاعد ، فإذا كان صاحب الدار من اصحاب
المراكز السامية وضعت السجاجيد بعضها فوق بعض لتكون بمثابة مقعد
مرتفع له . .

العرة في غير دمشق

وكانت المباني عند العرب اول الفتح وقبلها غاية في الساطعة
والذخابة ولم يكن في مكة إلا مباني قليلة أهمها الكعبة ، وكانت منازل
الانبياء تنسب بالحجارة او اللبن بناء كانت معظم مباني المدينة من اللبن ،
الذي كان يتهدم وينقض بسرعة .

وكانت المنازل في الدرب طبقة واحدة ولها فناء ، وفي وسطها
بئر ، فلما تمت الفتوح الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب وبادت
الثروة اقبل على المدينة عصبة الدولة قبل دمشق واصطب صناعة فن
العمارة من الاجانب فارتقي فن العمارة ، وشيد مشاهير العرب في مكة
والمدينة الدور الواسعة من الحجارة والرخام ، وبقي ان الدار التي
بناها عثمان كانت غاية في العظمة والبهاء ، وقد هدم مسجد الرسول
بالمدينة واعاد بنائه بالحجارة والرخام ، كما عمر عبد الملك بن مروان
المسجد اعظم .

وجلب السوارى من البحر الى جدة ، وسقفه بالساج ، وعمره عمارة
حسنة ، ثم وسع ابنه الوليد فيه ، وحمل اليه اعمدة الحجارة والرخام ،
وفعل الوليد مثل ذلك في المسجد النبوي في المدينة .

اعتبار العمارة العربية

ولما استولى العرب على الشام وفارس اتخذوا لأنفسهم طرازاً خاصاً للعمارة -- بعد أن استقروا كما قدمنا -- يتناسب مع طبيعتهم وذكورهم ، وقد عاق هذا الطراز حرارة اليمن البيراضي والقرسي من حيث الرقي وجمال التشييق والانتقن ، والعرب إلى ذلك مقلدون من الطراز الاول ، فهم يأخذون ما عند غيرهم ويضيفون من روحهم عليه .

والعمارة العربية تنوز بالعمدة والشعبيات والماذن والقباب ، وهي قائل النخيل الذي هو اعز شيء عند العرب ، وكذلك نوى روحيتهم ونفسيهم شاهرة حتى في تقطعت المدن التي كانوا يحيطونها بأسوار منيعة للدفاع عنهم . وما كانوا يكرهون المراكزية ، فقد خلقوا في المدينة ما القوه في البادية ، وراحوا يعيشون فيها كما كانوا يعيشون في البادية ، قبائل مستقلة ، لكل قبيلة حيها ومنازلها ومسجدها وسوقها ومقابرها ، وكان لكل حي ابواب منيعة تفصله عن الاجزاء الاخرى ، بحيث أصبحت المدينة مجموعة مدن صغيرة ، وهذا التفسير يلائم ما درجوا عليه من حب الحرية والانتقن من الخضوع لغير زعيم القبيلة . واذا ما قامت ثورة او اضطراب في المدينة كانت تغلق الابواب فتقطع المواصلات بين اجزاء المدينة المهيمنة .

لعمارة حارثية دمشق

ومن المدن التي انشأها العرب ولا تزال قائمة حتى اليوم البصرة والكوفة في العراق وقد عرضنا الحديثها وكيف صار انشاؤها لتكوينها مركزاً عسكرياً للعرب ومادة للجد . . .

وكذلك صار إنشاء القسطنطينية في مصر باسم عمر بن الخطاب ، في
المكان الذي يقوم فيه حصن دبابون ، وقد أصبح القسطنطينية اليوم قسماً
من مدينة القاهرة ، وكانت بيوت العرب فيها أول الأمر طبقة
واحدة ، ثم اختلفت الدور وتوالت في الاتساع والعلو شيئاً فشيئاً ، حتى
صار ارتفاع أغلب الدور خمس طبقات راساً وسجاً وأكثر ، وأصبح
يسكنها المائتان من الناس بعد أن كان لا يسكنها إلا امرأة قليلة العدد .
وقالت مدينة القسطنطينية عدة قصور ومقراً للأمارة حتى بنيت مدينة
المسكرة سنة ١٢٣ هجرية فثارت فيها امراء مصر وسكنوها .

قبة الصخرة

ومن المآثر التي حازها في عهد الامويين قبة الصخرة في
القدس سنة ٦٩١ هـ وذلك دمر عبد الملك بن مروان سكاية بابن
الزبير ما استقل رطبه ، ثم أعاد البناء وتجديده ٨١٣ - ٨٣٣ ووضع
اسمه ، وكان اسم عبد الملك واسمته هي التاريخ فضل على حله ، وعبد الملك
ابن أبي سعيد ، بالقرب من القبة ، ويظهر انه مع الأيام صار ضمه إلى
القبة فأصبح المسجد الأقصى .

القاء عبد المرحوم

والواقع انه اذا كانت هناك اثر عربية يصح ان تسمى عمارة فقد
وجدت طبعاً في القيس قبل كل شيء ، لان اول حضارة عربية نشأت
في هذه المنطقة من الجزيرة قبل غيرها ، والمعارف التي عندنا منها قليلة
لا تمكن التوخي من تقديره ، وهذا المين المعمر الذي نشأ في جنوب
الجزيرة لم يكن له في حال من الأحوال تأثير على تمدنها .

فقد كانت الحُيَّم لا تكثر استعمالاً في الشبان من البيوت القليلة من
الطين والحجارة ، وكانت امواء الصلح والزمن النقي الحرب الى نفوس
القبائل وشدة تأثير عليهم .

اما سكان المدن القليلة التي كانت موجودة في شمالي الجزيرة ، فكانت
تتارهم بسيرة جند ، يبنى من طين ، واسقف بختب البخل او الطين
ليس فيها شيء من التعريف ولا من الزخرفة .

حتى الكعبة ، وهي المكان مقدس عندهم ، لم يكن فيها شيء ،
وانما كانت عبارة عن بنا مربع قائم ليس له فناء ، واسقف .

واما القلعة التي وجدت في نواحيها من الحج والدمر ، والاثار التي
اعود الى الساسانيين والحزب الفارسي ، لم يبق منها عريضة كل العريضة ، وانما
هي مروج من آثار الساسانيين والمدرسين والاسوريين .

واول آثار العريضة الحقيقية يوجد في المدينة القديمة ، حيث نجحت
فيها رغبة الآلهة في التمازج ، فبني في الآلهة التي القديمة .
وقد عاق الساسانيون جدران من التران القوية أيضاً وجعلوا
اقتبسوا فكرهم ، فمن سقاهم ، ولكنهم جعلوا هذا الكثير من زوهم
وعبقريتهم .

وعند عني القريب من المدينة ، وكان المسجد مربعاً ،
وتم بقبو احواله جدران في ركة الامر ، وانما حفرها خندقاً . . . ولم يكن
في المسجد من جهته الا المدبر . وبعد سنوات صار اثار المقصورة في
الجامع ، وهي بقية حاضرة الخدم في جانب من جوانب المسجد ،
وجدرانها من الخشب ، وقد استعملت في حيطان في مسجد
دمشق للمحافظة على غصه بعد حوث الاغتيال .

واما المزارات التي تراه يوم تزين مسجد الاسلامية في تظهر الا

في اواخر القرن الفجري الاول، ثم ظهر المخراب بقليل بعداء، وكذلك نرى انه بعد ثمانين سنة من بناء اول مسجد في المدينة، تمكن المسلمون من الوصول الى الكمال في بناء المساجد وزخرفتها خصوصاً بعد بناء مسجد دمشق الاموي ثم زيد الابواب على المساجد وهو عبارة عن صحن كبير تقوم فيه الاعمدة الضخمة، ترد النظر وحرارة الشمس، كما تقام فيه في الوقت نفسه اقية الماء لوضوء المصلين.

والمسجد الذي ذكرناه لا تحتفظ اليوم باسمها القديمة، ولكن الفن الهندسي الذي استعمل فيها صر محروفاً، وهو الذي يحسن لدراسة فن العمارة عند العرب.

ومن بلغت النظر السرعة المعجبة التي انصرف فيها المسلمون بعد وفاة رسول الله الى بناء المساجد وتزيينها والاحسان فيها خصوصاً اذا علمنا شدة كلف المسلمين في هذا العهد الاول بالحياة البسيطة البعيدة عن الزهو والكبرياء والزينة.

والمسجد في ذلك شك هو شيء عربي، اخص به العرب دون غيرهم، ولا ريب انه اطلع كان من الاسباب التي وحده عمارة المساجد في مختلف انحاء العالم الاسلامي، بحيث جرى المسلمون في بناء مساجدهم على نحو واحد تقريباً.

بوامية بين الحضارة والبادية

والواقع انه لم يأت القرن الاول على تباينه حتى كانت العرب ينعمون بكثير من الوان الرفاهية، وبعضهم كان يجمع بها على قدر، فكانت يقدم رجالاً في المدينة، ويؤخر آخري في الصحراء، بحفاضة منهم على صحتهم وعاداتهم واخلاقهم.

وفي عهد امية نرى الخلفاء انفسهم يجمعون بين الامرين ، بين الرفاه والنعيم ، وبين الحشونة والجفاف ، كعزال معروبة وعبد الملك وهشام ، وكان الخلفاء يصرفون اكثر سني خلافهم في البوادي طلباً للصحة والهواء النقي وهرباً من الذوبنة والطاعون . - وكان يصكرو في المدن - فكان معاوية يقيم احياناً في غوطة دمشق ، ويُنصب الانبيسة والاروفة ، ويشق في الصنيرة على ثلاثة اميال من طبرية ، وكان لكثير من بني امية قصور في الغوطة ، وكان لعبد الملك في البصرة عدة قصور ، وابنى الانبيسة حول قصر (النوف) على ساعيتين من عمان قرب قصر المشنى على مقربة من مائة .

وسكن حصن النوف يزيد بن عبد الملك ، واستقر الوليد بن يزيد والعماس بن الوليد في القسطل بالبلقاء ، والوليد بن يزيد في الزيزاء ، وقصر الازرق وقصر عمرا ، وهذا الأخير كان آية من آيات الضاعة التصويرية اذ كانت حدراته ملائي بالقبوش الجميلة البديعة ، ولا يزال بعض فناناً حتى الآن . وكان قصر البخراء للنعمان بن بشير وهو قرب تدمر ، وقد كروا ان الوليد بن يزيد بن عبد الملك قدس فيه .

وكان هشام بن الوليد في الزيتونة في بادية الشام ، ولما عمر الرصافة انتقل اليها ، والرصافة غربي الرقة بينهما اربعة فراسخ على حريق البصرة . وكان يزيد بن معاوية يقيم في حوران وتدمر ، وابنه خالد سكن في البلقاء . وكانت حليان بن عبد الملك يشق بدابق ، وغيرها وينزل الوليد في حوران .



ونزل عمر بن عبد العزيز (دير سمعان) وبعثات ، وهو في النعمان ، كما كان ينزل خلاصة وهي تحدي قسرين .

مصادر الكتاب

ذهب بعض المؤرخين الى ذكر المصادر تحت كل فقرة او رأي من
ارائهم ، وذهب البعض الآخر الى الاكتفاء بذكر مصادرهم في آخر
الكتاب ، وقد ذهب نحن في هذا الكتاب مذهباً وسطاً فذيانا كتابنا
ببعض المصادر ، ورددنا فيها وهو كثير الى فصل خاص بسطنا فيه
كل المصادر التي اقتبسنا منها بعض مصادر كتابنا هذا ..

ومن المفروض ان تختلف المصادر باختلاف اصحابها ، وبعضها ضعيف ،
اعتمد فيه اصحابها على كتاب لم يحضر الثقة المضافة عند حاجة المؤرخين ،
والبعض الآخر اضعفه عصبية مؤلفه ورغبته في امرائه ، ذهب فيها اجري
فلمه فيه ، وقد احاذر نحن بعض هذه المصادر راوثقنا ، فكانت كتب
السلف من المؤرخين من اهم ، اعتمدنا عليه ، وان كانت كتب المستشرقين
معدلة ، كما اعتمدنا في الوقت نفسه على المصادر البيزنطية خصوصاً اذا
واعلمت مؤلفات السلف وايدت ، ذهبوا اليه ..

واما مؤلفات المستشرقين فقد اعتمدنا مصادرهم بها يتعلق
بالادارة والشؤون المالية والعسكرية والسياسية في الدولة العربية
والدول المجاورة ، كما اعتمدنا بحوثهم الخاصة وتقاريرهم الجارية ،
وارائهم الحديثة في بعض ما يتعلق بالتقسيم والتبويب وغيرها ، ولما
ان هذا من يسكرون عظيم وان كان بعضهم يمدى حدود التريخ الى
اصدار احكام ليست من التريخ واصول التقسيم والاصناف في كثير
ولا قليل ..

ومن الحق بعد هذا ان لا نذكر بعض المؤلفين العرب المعاصرين الذين

سبقوه في هذه الدراسات ، وتقدموا في بحث هذه الموضوعات ، أمثال
استاذنا وحققه الكبير الدكتور محمد حسن عيسى في كتبه الثلاثة :
« محمد » ، « أبو بكر » ، « عمر بن الخطاب » ، « دراسة الجوانب » ، « دراسة
دراساته » ، وحسن تجميعه في كتابه « دراسة في التاريخ العربي » ،
وجعله ثباتاً هيباً ...

ولم استأثر وحده في الأمانة محمد كرد علي فإن فضله في « حفظ
الشام » ، « الإسلام والحضارة العربية » ، « عظيم كبير عدل » ، كما أن كتاب
« الإسلام والأمة » محمد أمين « هو الجوهر الذي ارتكبه هذا البحث
الجديد » ، ومن « الحولة » في الوثائق الإسلامية حسن إبراهيم حسن وغيره
من الأساتذة والزملاء ...

وطعن بعد هذا الدكتور محمد كرد علي في هذا الباب مؤلفاتنا
التي امتلكت كتباً هذا والتي خسرنا المكتبة الأخيرة في بيروت ، ودار
الكتاب العربية في مصر ودار النشر في الكويت ، مصر ، مجلة النشر
العربية في بيروت ، « من هذه الكتب التي بحث بالآلاف والتي
أخذ منها حتى الآن » ، يزيد عن « الآلاف » نسخة كتاب خير وشجع له على
انضمي فيها اعترافاً من درس التاريخ العربي القديم على « وائل إدريس » ،
وتجميع جديد ، وأدريب لطيف ، « لقد بحث في القراءات المتعددة على ما
تقبلوا به كتبت السابقة من تقدير وتشجيع ...

تصنيف العربية

دائرة المعارف الإسلامية ، « القائمة العربية » ، « الكلام » ، « لأن
الأنبياء » ، « أصل الفارسية » ، « لأن الأنبياء » ، « الأمم والمفاوئ » ، « لطيفي » ،
« الأغاني » ، « لأن الفرج الأعظم » في « الطبقات الكبرى » ، « لأن سعد » ،

معجم البلدان ، لياقوت الحموي . معجم الادباء ، لياقوت الحموي .
 الاحياء في اخبار الصحابة ، فتوح البلدان ، البلاذري . مروج
 الذهب ، المسعودي . التبيين والاشراف ، المسعودي . تاريخ الطبري ،
 لابن جرير الطبري . اخبار الحكماء ، القفطي . القهرست ، لابن التديم .
 ختلط القرطبي . اخبار ولاية مصر وقضاها ، للكندي . تاريخ مكة ،
 للاذري . شرح حج البلاغة ، لابن ابي الحديد . كتاب البلدان ،
 للبيهقي . كتاب المسالك والممالك ، لابن حوقل . العقد الفريد ،
 لابن عبد ربه . تاريخ ابن خلدون ومقدمته . البخاري ومسلم ، كتاب
 الامم ، للشافعي . مسالك الابصار في ممالك الامصار ، لابن فضل الله
 العمري . الفصل في الملل والنحل ، لابن حزم . تاريخ التمدن
 الاسلامي ، جرجي زيدان . الاسلام والحضارة العربية ، محمد كرد علي .
 الملل والنحل ، المشير سناي . طبقات المعتزلة ، المرتضى . فتح
 العرب بمصر ، بطلان (الترجمة العربية) . شمسات الذهب في اخبار
 من ذهب ، ابي الفلاح الحنبلي . البداية والنهاية في التاريخ ، لابن
 كثير الدمشقي . ارشاد الماري في شرح صحيح البخاري ، القسطلاني .
 عيون الاخبار ، لابن فتيبة . دائرة معارف وجدي . الانبياء في
 معرفة الاحزاب ، لابن عبد البر (طبعة افتد) . امناح الاسماع ،
 المقرئ . المعارف ، لابن فتيبة . شرح المواقف ، للايجي . تاريخ
 الحضارة الاسلامية ، ليارتولد (الترجمة العربية) . تراث الاسلام ،
 « جماعة من المستشرقين » . مفكر الاسلام ، كارادي ذو (الاصل
 الافرنسي) . التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، ترجمة عبدالرحمن
 بدوي . الاخيار والطوال ، الدنيوري . الفجري في الاداب
 السلطانية والدولة الاسلامية ، ابن طباطبا . المختصر في اخبار البشر ،

أبو الفداء . بدم من كتاب الحراج وجنة الكنية ، فدامه . كتاب
 الولاء وكتاب القضاء ، الكندي . الأحكام السلطانية ، البارودي .
 أحسن النقايم في معركة الأقاليم ، المقدسي . تاريخ يعقوبي .
 يعقوبي . كتاب الوزراء والكتب ، للجيشبازي . العبادة العربية
 والشعبة والأميرانيات في عهد بني أمية ، فان هلق . الترجمة العربية
 لحسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم . تاريخ الإسلام السامي ،
 حسن إبراهيم حسن . النظم الإسلامية ، حسن إبراهيم حسن ، والد كنود
 علي إبراهيم حسن . كتاب المالك والمالك ، لؤي خرداذبة . وفیات
 الأعيان ، ابن خلکان .

المصنف الانكليزية والعربية

- History of the decline and fall of the Roman Empire : GIBBON
 History of the Arabs : HETTI — London 1943
 Arabic thought and its place in history , O'LEARY
 — London 1939
 A literary history of the Arabs : NICHOLSON — London 1941
 Encyclopedia Britannica 14th edition,
 * of Islam
 A short History of the Saracens : AMEER ALI — London 1921
 The Preaching of Islam : ARNOLD — London 1913
 Sketches from Eastern History : NOLDEKE — London 1892
 The Penetration of Arabia : HOGARTH — London 1906
 A Literary History of Persia : BROWN — London 1906
 Arabic Literature : GIBB — London 1926
 Mohammed in Medina : WELHOSEN
 Life of mohammed : MUIR
 Mohammed and the rise of Islam : MARGOLIOUTH
 Muhammed and Islam : Bevan

The origin of Islam in its christian environment : BELL

— London 1920

The Caliphate : ARNOLD — London 1924

Annals of the early Caliphate : MUIR

The Caliphate its rise decline and fall : MUIR

Contributions to the history of Islamic civilisation :

KHUDA BUKHSH

Painting in Islam : ARNOLD 1928

Moslem Architecture : RIVIERA — Oxford 1919

The Mystics of Islam : NICHOLSON — London 1916

The Religious Attitude and Life in Islam : MACDONOLD 1909

The History of Philosophy in Islam : BOER

Mohammedanism : SNOOK HERGOTRONGEO

Histoire des Arabes : HWART — Paris

Essai sur l'histoire de l'Islamisme : DOZY

La civilisation des Arabes : LE BON — Paris 1898

L'Islam : LAMMENS

The Renaissance of Islam : METZ

وغيره من الكتب والمؤلفات مؤلف في العربية أم لا تكثيراً
أم القرية ، وهذا عند المؤلفات التي نشرت في المجلات الأجنبية
والتي تعد بمئات بحيث يصعب من الصعب حصرها وتعدادها ،
والواقع أنه لم يترك مصدر من المصادر يستفاد منه إلا
اعدا فيه نظيره وأجريت فيه اختصاره حتى خرج كتاب هذا وقد أتى
على كل ما يتعلق بالحضارة الأموية ومع أفضل الآراء وأقربها وأصدقها ،

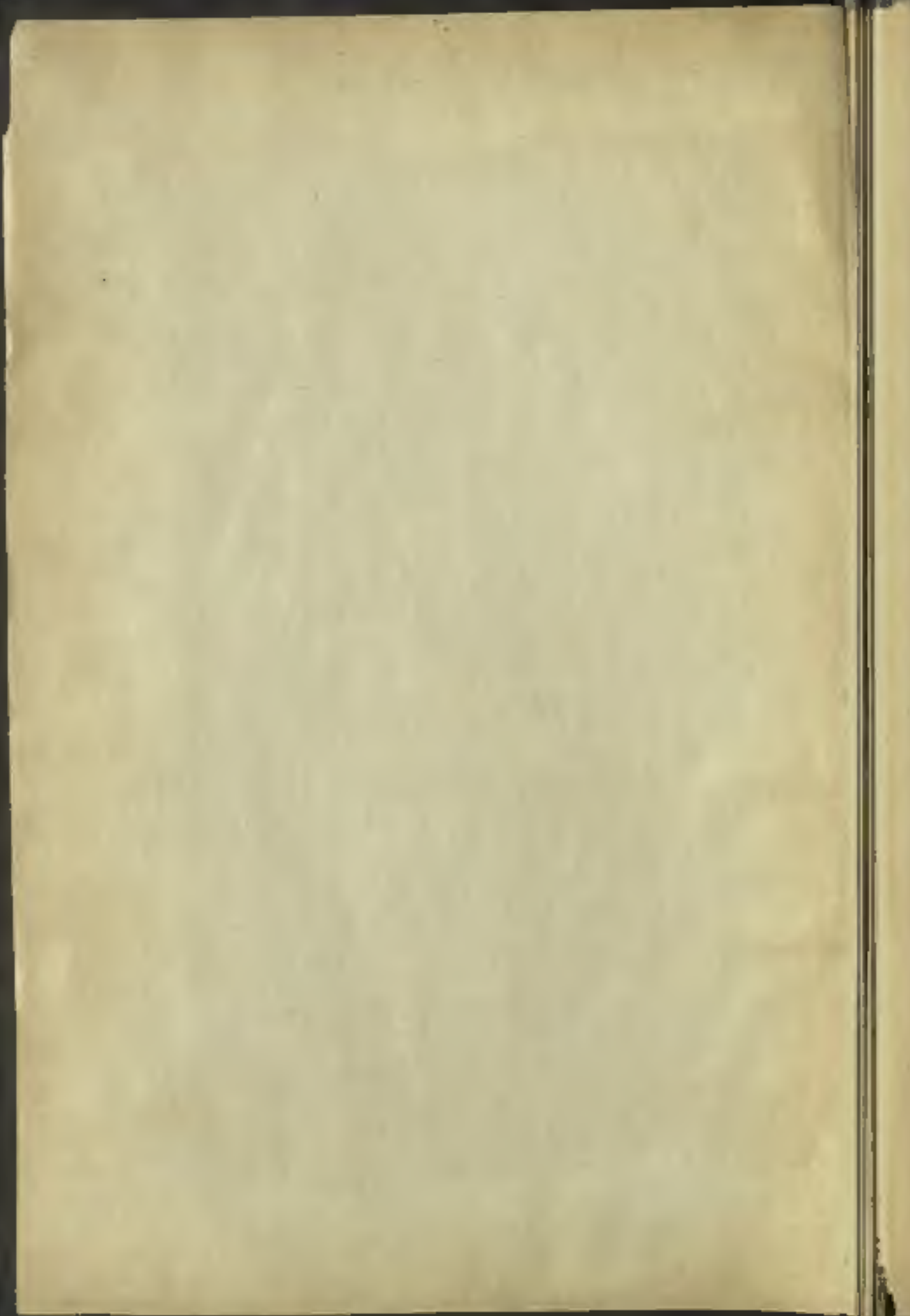
فهرس الكتاب

الصفحة	الفصل	
٥		الأهداء
٧		المقدمة الكتاب
٩	١	العرب وخصائص الامم
٣٣	٢	خصائص العربية الأولى
٥٧	٣	الجزيرة العربية من الاسلام
٧٣	٤	عائلة قريش من الاسلام
١٠١	٥	محمد بن عبد الله
١٢٩	٦	نبوه الخدم
١٤٥	٧	العباد بن عبد الله بن ابي ربيعة
١٦٣	٨	النبوة العربية
١٧٦	٩	الاسلام ونبوه الامم
١٨٣	١٠	خصائص العربية وخصائص الامم
١٩٩	١١	الحسين بن علي بن عبد الله بن عبد الله
٢١٧	١٢	الحسين بن علي بن عبد الله بن عبد الله
٢٤٥	١٣	الحسين بن علي بن عبد الله بن عبد الله
٢٦٤	١٤	الحسين بن علي بن عبد الله بن عبد الله
٢٨٣	١٥	عائلة من الخلفاء العرب
٣٢٧	١٦	الحسين بن علي بن عبد الله بن عبد الله
٣٣٩	١٧	الحسين بن علي بن عبد الله بن عبد الله
٣٤٩	١٨	الحسين بن علي بن عبد الله بن عبد الله
٣٧١	١٩	الحسين بن علي بن عبد الله بن عبد الله
٣٩٥		الحسين بن علي بن عبد الله بن عبد الله

معارف طبقات علماء الهندستان - در طبقات
و روایات و بیانات و طبقات
و آثار و آثار و آثار و آثار
مطبوع

شماره ۱۳۶۷

۱۹۱۸





المركز
الحضارة الاموية في دمشق
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

